منشورات جامعة دمشق
كلية الشريعة

فقه السيرة النبوية

تحليل لما في السيرة النبوية من دلائل وعبر وأحكام
لطلاب السنة الأولى والثانية في كلية الشريعة



الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي
أستاذ في كلية الشريعة

جامعة دمشق
١٤٤٣ - ١٤٤٤ هـ
٢٠٢١ - ٢٠٢٢ م

منشورات جامعة دمشق
كلية الشريعة



فقه السيرة النبوية

تحليل لما في السيرة النبوية من دلائل وعبر وأحكام

لطلاب السنة الثانية في كلية الشريعة

الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي
أستاذ في كلية الشريعة
جامعة دمشق

جامعة دمشق

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ..

وصلاة الله وسلامه على عبده ونبيه محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحابته أجمعين .

وبعد فهذا كتاب وضعته في تحليل أحداث السيرة النبوية ، واستخراج ما يتعلق بها من الدلائل والعبر والأحكام .

وقد رتبته على منهاج مقرر فقه السيرة ، الذي اعتمدته جامعة دمشق لطلاب السنة الثانية في كلية الشريعة من جامعة دمشق .

وهذا هو المنهاج المقرر الذي ادرت على اساسه بحوث الكتاب :

١ ـ مقدمات تتعلق بتعريف السيرة النبوية واهميتها وعلاقة دعوة رسول الله بدعوات الأنبياء السابقين ..

٢ ـ حياة رسول الله قبل البعثة .

٣ ـ حياة رسول الله من البعثة الى الهجرة :

آ ـ الدعوة سرا ، والحكمة منها .

ب ـ الدعوة جهرا بدون قتال .

جـ ـ أسلوب الدعوة في هذه المرحلة والمبادىء التي تؤخذ منه .

٤ ـ الهجرة الى المدينة .

٥ ـ أسس المجتمع الاسلامي الجديد :

آ ـ المسجد . ب ـ التآخي . جـ ـ الوثيقة .

٦ ـ مرحلة الحرب العسكرية :

آ ـ الغزوات التي كانت في هذه المرحلة .

ب ـ العبر والمبادىء التي تؤخذ منها .

٧ ـ مرحلة الجهـاد المطلق :

آ ـ صلح الحديبية . ب ـ بقية الغزوات. جـ ـ فتح مكة . د ـ الوفود.

٨ ـ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الخاتمة .

* * *

هذا والله أسأل أن يمتعني بنعمة الاخلاص لوجهه الكريم ، وأن يكرم بـذلك كل من يقبل على قراءة هذا الكتاب من الاخـوة الطلاب وغيرهم . وأن يختم الله حياتنا في هذه الدنيا ، بأحب الاعمال اليه . انه سميع مجيب .

محمد سعيد رمضان

Damascus University

القسم الأول

مقدمات :

١ ـ اهمية السيرة النبوية تاريخا ودراسة ، وكيف تطورت الى هذا العصر وكيف يجب فهمها اليوم .

٢ ـ محمد خاتم النبيين ، وعلاقة دعوته بالدعوات السماوية السابقة ، وعلاقة الجاهلية بما كان فيها من بقايا الحنيفية .

٣ ـ سر اختيار الجزيرة العربية مكانا لبعثة محمد عليه الصلاة والسلام .

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

اهمية السيرة النبوية تاريخا ودراسة
وكيف تطورت كتابتها ، وكيف يجب فهمها اليوم ؟

١ ـ اهمية السيرة النبوية تاريخا :

لا ريب أن سيرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، تشكل الركيزة الأساسية لحركة التاريخ الاسلامي العظيم الذي يعتز به المسلمون على اختلاف لغاتهم وأقطارهم .

وانطلاقا من هذه السيرة ، دون المسلمون التاريخ .. ذلك لأن أول ما دونه الكاتبون المسلمون من وقائع التاريخ وأحداثه ، هو أحداث السيرة النبوية ، ثم ترتب على ذلك تدوين الأحداث التي تسلسلت على أثرها الى يومنا هذا .

حتى التاريخ الجاهلي ، انما وعاه المسلمون من العرب وغيرهم واتجهوا الى رصده وتدوينه على هدي الاسلام الذي جاء فحدد معنى الجاهلية ، وعلى ضوء المعلمة التاريخية الكبرى التي تمثلت في مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

إذن ، فالسيرة النبوية تشكل المحور الذي تدور حوله حركة التدوين لتاريخ الاسلام في الجزيرة العربية .. بل هي العامل الذي أثر في أحداث الجزيرة العربية أولا ، ثم في أحداث سائر العالم الاسلامي ثانيا .

ولقد امتلك فن الرواية لأحداث التاريخ عند العرب والمسلمين منهجا علميا فريدا ودقيقا ، لرصد الوقائع وتمييز الصحيح منها عن غيره ، لم يملك مثله غيرهم . غير أنهم لم يكونوا ليكتشفوا هذا المنهج ، ولم يكونوا لينجحوا في

وضعه موضع التنفيذ في كتاباتهم التاريخية ، لولا السيرة النبوية التي وجدوا أنفسهم أمام ضرورة دينية تحملهم على تدوينها تدوينا صحيحا على نحو لا يشوبها وهم ، ولا يتسلل إليها خلط أو افتراء ..

ذلك لأنهم علموا أن سيرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وسنته ، هما المفتاح الأول لفهم كتاب الله تعالى ، ثم هما النموذج الأسمى لكيفية تطبيقه والعمل به . فكان أن نهض بهم دافع اليقين بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأن القرآن كلام الله ، وبأنهم يحملون مسؤولية العمل بمقتضاه ، وأن الله محاسبهم على ذلك حسابا دقيقا — : نهض بهم اليقين بكل ذلك الى تحمل أقسى الجهد في سبيل الوصول الى منهج علمي تحصن فيه حقائق السيرة والسنة النبوية المطهرة .

وانما أعني بالمنهج العلمي ، قواعد مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل . فمن المعلوم أن ذلك انما وجد أولا لخدمة السنة المطهرة ، التي لا بد أن تكون السيرة النبوية العامة قاعدة لها . ثم إنه أصبح بعد ذلك منهجا لخدمة التاريخ عموما ، وميزانا لتمييز حقائقه عن الأباطيل التي قد تعلق به .

يتبين لك من هذا ، أن كتابة السيرة النبوية ، كانت البوابة العريضة الهامة التي دخل منها المسلمون الى دراسة التاريخ وتدوينه عموما ، وأن القواعد العلمية التي استعانوا بها لضبط الروايات والأخبار ، هي ذاتها القواعد التي أبدعتها عقول المسلمين شعورا منهم بالحاجة الماسة الى حفظ مصادر الاسلام وينابيعه الأولى من أن يصيبها أي دخيل يعكرها .

٢ — اهمية السيرة النبوية دراسة :

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية وفقهها ، مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية ، وجمع معلومات والحصول على ثقافات نظرية متعلقة بها ، بل إن دراسة السيرة النبوية وفقهها ، لا تعد من الدراسات التاريخية الأخرى ، شأنها كشأن الاطلاع على سيرة أحد الخلفاء .

وانما الغرض منها أن يتصور المسلم الحقيقة الاسلامية في مجموعها

الاعتقادي والسلوكي ، متجسدة في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد ان فهمها مبادىء وقواعد وأحكاما مجردة في الذهن .

أي إن دراسة السيرة النبوية ، ليست في حقيقتها سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الاسلامية كاملة ، في مثلها الأعلى ، محمد عليه الصلاة والسلام .

وذا أردنا أن نجزىء مظاهر أهمية هذه الدراسة وتصنيفها ، فان من الممكن تصنيفها في المظاهر التالية :

١ ـ فهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم (النبوية) من خلال الاطلاع على حياته وظروفه التي عاش فيها ، وذلك للتأكد من أن محمدا صلى الله عليه وسلم هل كان حقا نبيا مرسلا من عند الله ، أم كان مجرد عبقري سمت به عبقريته بين قومه .

٢ ـ أن يجد الانسان بين يديه صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة ، كي يجعل منها دستورا يتمسك به ويسير عليه . ولاريب أن الانسان مهما بحث عن مثل أعلى في أي من نواحي الحياة ، فانه واجد كل ذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أعظم ما يكون وضوحا وكمالا . ولذا جعله الله قدوة للناس كلهم ، إذ قال « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » الأحزاب : ٣١ .

٣ ـ أن يجد الانسان في دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده . إذ إن كثيرا من آيات القرآن انما تفسرها وتجليها الاحداث التي مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفه منها .

٤ ـ أن تتجمع لدى المسلم من خلال سيرته عليه الصلاة والسلام ، أكبر قدر ممكن من الثقافة والمعارف الاسلامية الصحيحة ، سواء ما كان منها متعلقا بالعقيدة أو الأحكام أو الاخلاق . إذ لا ريب أن حياته صلى الله عليه وسلم ، انما هي صورة مجسدة نيرة لمجموع مبادىء الاسلام وأحكامه .

٥ ــ أن يتوفر لدى المعلم والداعي الى الاسلام نموذج حي عن طرائق التربيـة والتعليم • فلقد كان محمد عليه الصلاة والسلام معلما ناصحا ومربيا فاضلا ، لم يأل جهدا في تلمس أجدى الطرق الصالحة إلى كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل الدعوة •

وان من أهم ما يجعل سيرته صلى الله عليه وسلم وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها ، أن حياتهعليه الصلاة والسلام شاملة لكل النواحي الانسانية والاجتماعية التي توجـد في الانسان ، من حيث انه فرد مستقل بذاته أو من حيث إنه عضو فعال في المجتمع •

فحياتـه عليه الصلاة والسلام ــ كما سنرى ــ تقدم إلينا نماذج ساميـة للشاب المستقيم في سلوكه ، الأمين مع قومه وأصحابه ، كما تقدم النموذج الرائع للانسان الداعي الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته ، ولرئيس الدولة الذي يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة ، وللزوج المثالي في حسن معاملته ، والاب في حنو عاطفته ، مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكل من الزوجة والأولاد ، وللقائد الحربي الماهر والسياسي المحنك الصادق ، وللمسلم الجامع ــ في دقة وعدل ــ بين واجب التعبد والتبتل لربه ، والمعاشرة الفكهة اللطيفة مع أهله وأصحابه •

لا جرم إذا أن دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ليست إلا إبرازا لهذه الجوانب الانسانية كلها مجسدة في أرفع نموذج وأتم صورة •

كيف بـدأت ثم تطورت كتابـة السيرة النبويـة :

تأتي كتابة السيرة النبوية ــ من حيثالترتيب الزمني ــ في الدرجة الثانية بالنسبة الى كتابة السنة النبوية • فلا شك أن كتابة السنة ، أي الحديث النبوي ، كانت أسبق من كتابة السيرة إذ السنة بدأت كتابتها ، كمـا هو معلوم ، في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أمـا تدوين حيـاة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه بصورة عامة ، فقد جاء متأخرا عن البدأ بكتابة السنة ، وان كان الصحابة يهتمون بنقل سيرته ومغازيه شفاها •

ولعل أول من اهتم بكتابة السيرة النبوية عموما هو عروة بن الزبير (المتوفى : ٩٢) ثم أبان بن عثمان (المتوفى : ١٠٥) ثم وهب بن منبه (المتوفى : ١١٠) ثم شرحبيل بن سعد (المتوفى : ١٢٣) ثم ابن شهاب الزهري (المتوفى : ١٢٤) .

ان هؤلاء يعدون ولا ريب ، في مقدمة من اهتموا بكتابة السيرة النبوية ، كما تعد كتاباتهم طليعة هذا العمل العلمي العظيم .

غير أن جميع ما كتبه هؤلاء قد باد وتلف مع الزمن . فلم يصل الينا منه شيء ، ولم يبق منه الا بقايا متناثرة ، روى بعضها الطبري . ويقال إن بعضها الآخر ، وهو جزء مما كتبه وهب بن منبه محفوظ في مدينة هايدلبرج بألمانيا .

ولكن جاء في الطبقة التي تلي هؤلاء من تلقف كل ما كتبوه ، فأثبتوا جله في مدوناتهم التي وصل الينا معظمها بحمد الله وتوفيقه . ولقد كان في مقدمة هذه الطبقة محمد بن اسحاق (المتوفى عام ١٥٢) وقد اتفق الباحثون على أن ماكتبه محمد بن اسحاق يعد من أوثق ما كتب في السيرة النبوية في ذلك العهد[1] ولئن لم يصل إلينا كتابه (المغازي) بذاته ، الا أن أبا محمد عبد الملك المعروف بابن هشام ، قد جاء من بعده ، فروى لنا كتابه هذا مهذبا منقحا ، ولم يكن قد مضى على تأليف ابن اسحاق له أكثر من خمسين سنة .

يقول ابن خلكان : (وابن هشام هذا ، هو الذي جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغازي والسير لابن اسحاق ، وهذبها ولخصها ، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس والمعروفة بسير ابن هشام)[2] .

وعلى كل فان مصادر السيرة النبوية التي اعتمدها سائر الكتاب على اختلاف طبقاتهم محصورة في المصادر التالية :

---

(١) انظر ما كتبه ابن سيد الناس في مقدمة كتابه (عيون الاثر) عن ابن اسحاق وترجمته .

(٢) وفيات الاعيان : ١/٢٩٠ الطبعة الميمنية .

أولا ـ كتاب الله تعالى ، فهو المعتمد الأول في معرفة الملامح العامة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم وفي الاطلاع على المراحل الاجمالية لسيرته الشريفة ، بقطع النظر عن أسلوب القرآن في بيان ذلك .

ثانيا ـ كتب السيرة النبوية ، وهي تلك التي كتبها أئمة الحديث المعروفون بصدقهم وأمانتهم ، كالكتب الستة وموطأ الامام مالك ومسند الامام أحمد وغيرها . وان كانت عناية هذه الكتب الاولى انما تنصرف الى أقوال رسول الله وأفعاله من حيث إنها مصدر تشريع ، لامن حيث هي تاريخ بدون .

ثالثا ـ الرواة الذين اهتموا بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته عامة . وقد كان في الصحابة الكثير ممن اهتم بذلك . بل ما من صحابي كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشاهد سيرته إلا ورواها لسائر أصحابه ولمن بعده أكثر من مرة ، ولكن دون أن يهتم واحد منهم في بادىء الأمر بجمعها وتدوينها.

وأحب أن ألفت النظر هنا الى الفرق بين عموم ما يسمى كتابة وتقييداً ، وخصوص ما يسمى تأليفا أو تدوينا . أما الأول فقد كان موجودا بالنسبة للسنة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام كما ذكرنا آنفا . وأما الثاني (ويراد به الجمع والتنسيق بين دفتين) فقد ظهر فيما بعد ، عندما ظهرت الحاجة الى ذلك .

المنهج العلمي الذي كان معتمدا في كتابة السيرة النبوية :

قلنا ان كتابة السيرة النبوية تدخل في عموم ما يسمى تأريخا .

ولكن على أي منهج اعتمد كتاب السيرة في كتابتها وتدوينها ؟

لقد كان منهجهم المعتمد في ذلك ، اتباع ما يسمى اليوم **بالمذهب الموضوعي** في كتابة التاريخ ، طبق قواعد سنشير اليها .

ومعنى هذا أن كتاب السيرة النبوية ، لم تكن وظيفتهم بصدد أحداث السيرة ، إلا تثبيت ما هو ثابت منها ، بمقياس علمي يتمثل في قواعد مصطلح الحديث

المتعلقة بكل من السند والمتن • وفي قواعـد الجرح والتعديل المتعلقة بالرواة وترجمة أحوالهم •

فاذا انتهت بهم هذه القواعد العلمية إلى أخبار ووقائع ، وقفوا عندها ، ودونوها دون أن يقحموا تصوراتهم الفكرية أو انطباعاتهم النفسية أو مألوفاتهم البيئية الى شيء من تلك الوقائع بأي تلاعب أو تحوير •

لقد كانوا يرون أن الحادثة التاريخية التي يتم الوصول الى معرفتها ، ضمن نفق من هذه القواعد العلمية التي تتسم بمنتهى الدقة ،حقيقة مقدسة ، يجب أن تجلى أمام الابصار والبصائر كما هي • كما كانوا يرون أن مـن الخيانة التي لا تغتفر أن ينصب من التحليلات الشخصية والرغبات النفسية التي هي في الغالب من انعكاسات البيئة ومن ثمار العصبية ، حاكم مسلط يستبعد منها ما يشاء ويحور فيها كما يريد •

ضمن هذه الوقاية من القواعـد العلمية ، وعلى ذلك الاساس من النظرة الموضوعية الى التاريخ ، وصلت الينا سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بدءا من ولادته ونسبه ، الى طفولته ، فصبوته اليافعة ، الى الارهاصات الخارقة التي صاحبت مراحل طفولته وشبابه ، الى بعثته وظاهرة الوحي التي تجلت في حياته ، إلى أخلاقه وصدقه وأمانته ••• الى الخوارق والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يده ، الى مراحل الدعوة التي سار فيهـا لتلبية أمر ربه •• الى الأحكـام والمبادىء الشرعية التي أوحي بها اليه ، قرآنا معجزا يتلى وأحاديث نبوية تشرح وتبـين •

لقد كان العمل التاريخي إذا ، بالنسبة الى هذه السلسلة من سـيرته عليه الصلاة والسلام ، منحصرا في نقلها إلينا محفوظـة مكلوءة ضمن تلك الوقاية العلمية التي من شأنهـا ضبط الروايـة من حيث الاسناد واتصالـه ، ومن حيث الرجال وتراجمهم ، ومـن حيث المتن أو الحادثـة وما قـد يطوف بهـا مـن شـذوذ ونحـوه •

المذاهب الحديثة في كتابة التاريخ عامة والسيرة النبوية خاصة :

في القرن التاسع عشر ظهرت طرائق كثيرة متنوعة ، في كتابة التاريخ وتدوينه ، إلى جانب الطريقة الموضوعية أو ما يسمونه بالمذهب العلمي . وقد تلاقى معظم هذه المذاهب فيما أطلق عليه : **المذهب الذاتي** ويعد « فرويد » من أكبر الدعاة اليه والمتحمسين له .

ولا يرى أقطاب هذا المذاهب من ضير في أن يقحم المؤرخ نزعته الذاتية ، أو اتجاهه الفكري أو الديني أو السياسي ، في تفسير الاحداث وتعليلها والحكم على أبطالها .. بل إنهم يرون أن هذا هو واجب المؤرخ ، لا مجرد رصف الأخبار وتجميع الوقائع العارية .

وهذه الطريقة تجعل كتابة التاريخ وتدوينه عملا فنيا مجردا ، ولا تسمح بالنظر إليه على أنه عمل علمي دقيق .

ونحن وان كنا لسنا بصدد الحديث عن المذاهب التاريخية ونقدها ، فان علينا أن لا نخفي أسفنا من أن يجد هذا المذهب ، في عصر العلم والاعتزاز به وبمنهجيته ، دعاة اليه ومؤمنين به . ذلك لأن هذا المذهب كفيل بأن يمزق جميع الحقائق والأحداث التي يحتضنها الزمن في صومعته القدسية الماثلة أمام الأجيال ، بمجرد سبحات من أخيلة « التوهم » أو شهوة الذات وعصبية النفس والهوى . وكم من حقيقة مسخت وأحداث نكست ، وامجاد دثرت ، وبرءآء ظلموا ، تحت سلطان هذه المحكمة الوهمية الجائرة .

فهل كان لهذا المذهب الجديد من تأثير على كتابة السيرة النبوية وطريقة تحليلها ؟

والحقيقة أن هذا المذهب الجديد في كتابة التاريخ ، قد أصبح أساسا لمدرسة جديدة في دراسة السيرة النبوية وفهمها ، عند طائفة من الباحثين ، فكيف نشأت هذه المدرسة ؟ .. وما هي عوامل نشأتها ؟ .. وما مصيرها اليوم .

تعود نشأة هذه المدرسة الى أيام الاحتلال البريطاني لمصر ؛ لقد كانت مصر

آنذاك ،منبر العالم الاسلامي كله ، كما نعلم . يعنو اليه بتفكيره وعقله كلما أراد أن يعلم عن الاسلام علما ، كما يعنو الى كعبة الله بوجهه كلما أراد حجا أو صلاة .

وكان في استمرار هـذا الصوت العظيم من جانب ، وفي استمرار انصات العالم الاسلامي إليه من جانب آخر ، ما لا يدع للاحتلال البريطاني فرصة هدوء و استقرار . ومهما أخضعت بريطانيا لنفسها الوادي كله تحت سلطان من قوة الحديد والنار ، فانه خضوع موقوت لا يطمأن اليه ، ما بقيت للازهر هذه القيادة الحيـة .

لذا ، فقد كان لا بد للاحتلال البريطاني من الاقدام على أحد علاجين لا ثالث لهمـا .

أولهما : أن يقطع ما بين الأزهر والأمة ، بحيث لا يبقى له عليها من سلطان .

ثانيهما : أن يتم التسلل الى مركز العمليات القيادية في الأزهر ذاته ، لتوجه قيادتـه الوجهة التي تـرضي مصـالح الاحتلال وتهيء لـه أسباب الطمأنينة والاستقرار .

ولم تتردد بريطانيا في اختيار العلاج الثاني ، نظرا إلى أنـه أقرب منالا وأبعد عن الملاحظة والانتباه [1] .

وكان السبيل الوحيد إلى هذا التسلل نحو القيادة الفكرية والعملية داخل الأزهر ، الاعتماد على نقطة ضعف اليمة كانت تعاني منها مشاعر الأمة الاسلامية عامة ، بما فيها مصر وغيرها . وهي إحساس المسلمين بمـا انتابهم من الضيعة والتخلف والشتات ، الى جانب ملاحظتهم للنهضة العجيبة التي نهضها الغرب في شتى المجالات ، الفكرية والعلمية المختلفة . لقد كان المسلمون يتطلعون ولا ريب الى اليوم الذي يتحررون فيه من الأثقـال التي خلفتهم إلى الوراء ، ليشتركوا مع الآخرين في رحلة الحضارة والمدنية والعلم الحديث .

---

(١) انظر مذكرات اللورد كرومر ، والاتجاهات الوطنية في الادب الحديث للمرحوم الدكتور محمد محمد حسين .

من هذا السبيل تسلل الهمس .. بل الكيد الاستعماري إلى صدور بعض من قادة الفكر في مصر .. ولقد كان مؤدى هذا الهمس أن الغرب لم يتحرر من أغلاله ، إلا يوم أخضع الدين لمقاييس العلم .. فالدين شيء والعلم شيء آخر .. ولا يتم التوفيق بينهما الا باخضاع الأول للثاني . وإذا كان العالم الاسلامي حريصا حقا على مثل هذا التحرر الذي سبقه الغرب إليه ، فلا مناص له من أن يسلك الطريق ذاته ، وأن يفهم إسلامه هنا ، كما فهم الغرب نصرانيته هناك .. ولا يتحقق ذلك إلا بتخلص الفكر الاسلامي من سائر الغيبيات التي لا تفهم ولا تخضع لمقاييس العلم الحديث .

وسرعان ما خضع لهذا الهمس ، أولئك الذين انبهرت أبصارهم بمظاهر النهضة الأوربية الحديثة ، ممن لم ترسخ حقائق الايمان بالله في قلوبهم ، ولا تجلت حقائق العلم الحديث وضوابطه في عقولهم . فتنادوا فيما بينهم إلى التحرر من كل عقيدة غيبية ، لم تصل إليها اكتشافات العلم الحديث ولم تدخل تحت سلطان التجربة والمشاهدة الحسية .

فكان أن قاموا بما أسمي فيما بعد بالاصلاح الديني ، واقتضى منهم ذلك أمورا عديدة منها تطوير كتابة السيرة النبوية وفهمها ، واعتماد منهج جديد في تحليلها ، يتفق وما استهدفوه من الاعراض عن كل ما يدخل في نطاق الغيبيات والخوارق التي لا يقف العلم الحديث منها موقف فهم أو قبول .

ولقد كان لهم في الطريقة الذاتية في كتابة التاريخ ، خير ملجأ يعينهم على تحقيق ما قصدوا إليه .

وبدأت تظهر كتب وكتابات في السيرة النبوية ، تستبدل بميزان الرواية والسند وقواعد التحديث وشروطه ، طريقة الاستنتاج الشخصي ، وميزان الرضا النفسي ، ومنهج التوسم الذبي لا يضبطه شيء إلا دوافع الرغبة ، وكوامن الأغراض والمذاهب التي يضمرها المؤلف .

واعتمادا على هذه الطريقة أخذ هؤلاء الكاتبون يستبعدون كل ما قد يخالف المألوف ، مما يدخل في باب الخوارق والمعجزات ، من سيرته صلى الله عليه وسلم .

وراحوا يروجون له صفة العبقرية والعظمة والبطولة وما شاكلها ، شغلا للقارىء بها عن صفات قد تجره إلى غير المألوف ، كالنبوة والوحي والرسالة والمعجزات ونحوها مما يشكل المقومات الأولى لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم .

ويعد كتاب « حياة محمد » لحسين هيكل أبرز نموذج لهذا الاتجاه في كتابة السيرة النبوية . ويعبر مؤلفه عن اتجاهه هذا بصراحة وفخر عندما يقول :

« إنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة والحديث ، لأنني قصدت أن أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية » .

ومن نماذج هذه الطريقة الحديثة ، تلك المقالات التي نشرها متتابعة المرحوم محمد فريد وجدي في مجلة نور الاسلام ، تحت عنوان : « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » والتي يقول في بعض منها :

« وقد لاحظ قراؤنا اننا نحرص كل الحرص ، فيما نكتبه في هذه السيرة ، على أن لا نسرف في كل ناحية إلى ناحية الاعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية ، حتى ولو بشيء من التكلف » .

ومن نماذج هذه الطريقة أيضا ، تلك الكتابات الكثيرة التي ظهرت لطائفة من المستشرقين عن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، في نطاق أعمالهم وكتاباتهم التاريخية التي قامت على المنهج الذاتي الذي ألمحنا اليه .

إنك لتراهم يمجدون شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، وينوهون بعظمته وصفاته الحميدة ، ولكن بعيدا عن كل ما ينبه القارىء إلى شيء من معنى النبوة والوحي في حياته ، وبعيدا عن الاهتمام بالأسانيد والروايات التي قد يضطرهم الأخذ بها إلى اليقين بأحداث ووقائع ليس من صالحهم اعتمادها أو الاهتمام بها .

وهكذا ، وجد أبطال هذه المدرسة الجديدة ، في اتباع المذهب الذاتي في كتابة التاريخ الميدان الفسيح الذي يمكنهم من نبذ كل ما لا يعجبهم من حقائق السيرة النبوية ، مهما جاءت مدعومة بدلائل العلم واليقين ، متخذين من ميولهم النفسية ورغباتهم الشخصية وأهدافهم البعيدة حاكما مطلقا على حقائق التاريخ

وتحليل ما وراءه من العوامل ، وحكمنا مطلقا لقبول ما ينبغي قبوله ورفض ما يجب رفضه .

ولم يعد خافيا أن هذه الطريقة في دراسة السيرة النبوية خصوصا ، والتاريخ الاسلامي عموما ، إنما كانت مكيدة خطيرة عشيت عن رؤيتها أعين البسطاء من بعض المسلمين ، وصادفت هوى وقبولا حسنا عند طائفة أخرى من المنافقين وأصحاب الأهواء .

لقد غاب عن أعين أولئك البسطاء ، أن ذلك الهمس الاستعماري الذي دعا المسلمين ، على لسان بريطانيا أيام احتلالها لمصر ، إلى ما سمّي بثورة اصلاحية في شؤون العقيدة الاسلامية إنما استهدف في الحقيقة نسف هذه العقيدة من جذورها .

وهكذا فقد كان عماد هذه المدرسة الحديثة ، التي أشرنا إليها هنا بايجاز هياجا في النفس ، أكثر من أن تكون حقيقة علمية مدروسة استحوذت على العقل .

مصير هذه المدرسة اليوم :

والحقيقة أن الاهتمام بهذه المدرسة في كتابة السيرة وفهمها ، والحماسة التي ظهرت يوما ما ، لدى بعضهم في الأخذ بها ، إنما كان كل منهما منعطفا تاريخيا ومرّ .. وعذر أولئك الذين كتب عليهم أن يمروا بذلك المنعطف أو يمر هو بهم ، أنهم كانوا ـ كما قلنا ـ يفتحون أعينهم إذ ذاك ، على خبر النهضة العلمية في أوربا ، بعد طول غفلة وإغماض .

وإنه لأمر طبيعي أن تنبهر العين ، عند أول لقياها مع الضياء .. فلا تتبين حقائق الاشياء ، ولا تتميز الاشياء ، بعضها عن بعض . حتى اذا مر وقت .. واستراحت العين الى الضياء ، أخذت الاشياء تتمايز ، وبدت الحقائق واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض .

وهذا ما قد تم فعلا ، فقد انجابت الغاشية ، وصفت أسباب الرؤية السليمة ، أمام الأبصار .. أبصار الجيل الواعي المثقف اليوم ، فانطلق يتعامل مع حقيقة

العلم وجوهره ، بعد أولئك الـذين تمسكوا بألفاظه وانخدعوا بشعاراته . ثم عادوا وقـد أيقنوا ببصيرة الباحث العليم والمفكر الحر ، أن شيئا ممـا يسمى بالخوارق والمعجزات ، لا يمكن أن يتنافى في جوهره مع حقائق العلم وموازينه .

فلقد علم كل باحث ومثقف اليوم ، بأن أحدث ما انتهت إليه مدارك العلماء في هذا الصدد ، هو أن العلاقة التي نراها بين الاسباب ومسبباتها ، ليست إلا علاقة اقتران مطرد ، اكتسبت تحليلا ، ثم تعليلا . ثم استنبط منها القانون الذي هو تابع لظهور تلك العلاقة لا العكس .

وقد انقرض الزمن الذي كان يظن بعض العلماء فيه أن أثر الأسباب الطبيعية في مسبباتها أثر حتمي يستعصي على التخلف والتغيير . وانتصر الحق الذي طالما نبه إليه ودافع عنه علماء المسلمين عامة والامام الغزالي خاصة ، مـن أن علاقات الأسباب بمسبباتها ليست أكثر من رابطة اقتران مجردة . وما العلم في أحكامـه وقوانينه الا جدار ينهض فوق أساس هذا الاقتران وحده . أما سر هذا الاقتران فهو عند ذلك الإله المبدع الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

ولقد رأينا العالم التجريبي « دافيد هيوم » كيف يجلى هذه الحقيقة بأنصع بيان صـارم .

نعم .. لا بد أن يشترط كل إنسان عاقل يحترم العقل والحقيقة ، لقبوله أي خبر سواء تضمن أمرا مألوفا أو خارقا ، شرطا أساسيا واحدا ، ألا وهو ان يصل ذلك الخبر إليه عن طريق علمي سليم ، ينهض على قواعد الرواية والاسناد ، ومقتضيات الجرح والتعديل ، بحيث يورث الجزم واليقين . وتفصيل القول في هذه الموازين العلمية العظيمة يستلزم كـلاما طويل الذيل ، لسنا بصدد شيء منه الآن .

إن رجل العلم اليوم ، ليأخذ منه العجب كل مأخذ ، عندما يقف أمام هـذا الذي يقوله رجل مثل حسين هيكل في مقدمة كتابه« حيـاة محمـد » :

« وإنني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة والحديث ، لأنني فضلت أن أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية » ! ..

أي إنه يطمئنك بأنه لم يأخذ حتى بما قد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم ، حفظا لكرامة العلم ... إذن فان ما يرويه البخاري ضمن قيود رائعة من القواعد العلمية النادرة التي تحتاط في رواية الكلمة والخبر ، انحراف عن جادة العلم وخروج على موازينه ، على حين تكون طريقة الاستنتاج والحدس والتخمين ، وما يسمونه بمنهج التوسم ، حفظا لكرامة العلم والتزاما بميزاته !! ..

أليس هذا من أفجع الكوارث النازلة برأس العلم ؟ ..

كيف ندرس السيرة النبوية اليوم ؟

من المعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، عندما ظهر في الجزيرة العربية ، قدم نفسه الى الناس على أنه نبي مرسل من قبل الله عز وجل الى الناس كافة ، ليؤكد لهم الحقيقة التي بعث بها الأنبياء والرسل الذين خلوا من قبل ، وليحملهم المسؤولية ذاتها التي حملها الأنبياء السابقون أقوامهم ، موضحا أنه آخر نبي مرسل في سلسلة الرسل الذين تعاقبوا مع الزمن .

ثم زاد نفسه تعريفا لهم ، فأوضح أنه ليس إلا بشرا من الناس ، يسري عليه جميع سمات البشرية وأحكامها . ولكن الله ائتمنه - بوساطة الوحي - على تبليغ الناس رسالة تعرفهم بهوياتهم الحقيقية ، وتنبههم إلى موقع هذه الحياة الدنيا من خارطة المملكة الإلهية زمانا ومكانا ، وإلى مصيرهم الذي سيلقونه حتما بعد الموت ، كما تلفت نظرهم إلى أن عليهم أن ينسجموا في سلوكهم الاختياري مع واقعهم الاضطراري الذي لا مفر منه ، أي إن عليهم أن يكونوا عبيدا لله تعالى بيقينهم وسلوكهم الاختياري كما تحققت فيهم هذه العبودية بالواقع الاضطراري .. ثم أكد لهم بكل مناسبة أنه لا يملك أن يزيد أو ينقص أو يبدل شيئا من مضمون هذه الرسالة التي حمله الله مسؤولية ابلاغها إلى الناس جميعا ، بل أكد البيان الإلهي ذاته هذه الحقيقة وذلك في قوله عز وجل :

(ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين) الحاقة : ٤٣ : ٤٦ .

إذن ، فان محمـدا صلى الله عليه وسلم لم يقدم نفسه الى العالم زعيمـا سياسيا ، أو قائدا وطنيا ، أو رجل فكرة ومذهب ، أو مصلحا اجتماعيا ، بل إنه لم يتخذ لنفسه ، خلال حياته كلها ، أي سلوك قد يوحي بأنه سعى سعيا ذاتيا إلى شيء مـن ذلـك .

وإذا كان الأمر هكذا ، فان الذي يفرضه علينـا المنطق ، عندما نريد أن ندرس حياة رجل هذا شأنه ، وهكذا يقـدم نفسه إلينا والى الناس أجمع ، أن ندرس حياته العامة من خلال الهوية التي قـدم نفسه الى العالم على أساسها ، لنستجلي فيها دلائل الصدق أو عدمه على ما يقول .

وهذا يقتضيا ، بلا ريب ، أن ندرس جميع النواحي الشخصية والانسانية في حياته ، ولكن على أن نجعل من ذلك كله قبسا هاديا ، يكشف لنا ببرهان علمي وموضوعي ، عن حقيقة هذه الهوية التي قدم نفسه الى الناس على أساسها ، أكان صادقا في ذلك أم لا .

ولقد كان مقبولا ، في ميزان المنطق أن نزعم بأننا لسنا مضطرين أن نشغل أفكارنا بهذا الذي أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن يشغل الناس به ، من معاني النبوة والرسالة في شخصه ، لو أن الأمر لم يكن متعلقا بمصيرنا ، ولم تكن له أي علاقة بحريتنا وسلوكنا .

أما وإن القضية أخطر من ذلك ، إذ هي متعلقة بذواتنا ، وهي تكشف ــ ان صح الأمر وصدقت النبوة ــ عن واجبات محددة في المعرفة والسلوك ، إن لم نسع إلى تنفيذها ، وقعنا في مغبة شقاء عظيم وهلاك وبيل ، إذن فلا وجه للاعراض عن المسألة بحجة أنها لاتعنينا ، أو بوهم أننا أحرار في أن نعرض عنها عابثين غير مكترثين .

من العبث البيّن عندئذ أن نعرض عن دراسة هـذه الهوية التي عرّف محمـد صلى الله عليه وسلم العالم على نفسه من خلالها ، ثم نتشاغل بالتأمل في جوانب أخرى من شخصه لا صلة لها بنا ، وليس لهـا بتلك الهوية أي تعلق أو مـاس .

أجل . وأي عبث أعبث من أن يقف أمامنا هذا الرجل : محمد بن عبد الله ، ليكشف لنا عن ذاته ، ثم ليقول لنا محذرا بملء يقينه ومشاعره : والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ووالله إنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ، ثم لا يهمنا من شخصه وكلامه هذا إلا لتأمل في عبقريته ، وفصاحته وحكمته ! ..

أليس هذا كما لو أقبل إليك إنسان وأنت على مفترق طرق ، يعرّفك منها على السبيل الموصل الهادي ، ويحذرك من المتاهات المهلكة ، فلم تلتفت من كل ما يقوله لك إلا إلى مظهره ولون ثيابه وطريقة حديثه ، ثم رحت تجعل من ذلك موضع درس وتحليل تعكف عليه وتستغرق فيه ؟!..

إن المنطق يقضي بأن ندرس حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من شتى جوانبها : نشأته وأخلاقه وحياته الشخصية والبيتية ، وصبره وكفاحه ، وسلمه وحربه ، وتعامله مع أصدقائه وأعدائه ، دراسة موضوعية قائمة على منهج علمي سديد ؛ على أن تتخذ من هذه الدراسة سلما للوصول إلى نهاية تتأكد عندها من صدقه أو عدم صدقه في دعوى أنه مرسل إلى الناس من رب العالمين .. فاذا تبين لنا صدقه ، كان علينا إذن أن نتحمل مسؤولياتنا وننهض بواجباتنا التي كلفنا الله بها عن طريقه ، وإن تبين لنا عدم صدقه في دعواه ، أرحنا أنفسنا من القلق ، وأعرضنا عن كل ما يقول ، وعكفنا على أهوائنا ورغائبنا النفسية نتقلب فيها دون أن يعكر صفوها معكر .

* * *

إذن ،على هذا المنهج سندرس سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ونستعرض وقائع حياته . أي إننا سنجعل الهوية التي قدم نفسه إلى العالم على أساسها (وهي هوية النبوية من لدن رب العالمين) محورا لدراسة حياته العامة والخاصة ، لنتبين من خلالها دلائل الصدق أو عدمه . وإذا أردنا أن نكون منهجيين في الدراسة والبحث ، فان المنطق يقتضي أن نفرض الاحتمالات كلها ، وأن لانتطلق في دراستنا من أي أسبقية لا تنهض على سند من البرهان العلمي السليم .

محمد خاتم النبيين وعلاقة دعوته بالدعوات السماوية السابقة

وعلاقة الجاهلية بما كان فيها من بقايا الحنيفية

أولا ـ علاقة دعوته بالدعوات السماوية السابقة :

كثيرا ما يتساءل بعض الناس : أكان الدين الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس دينا جديدا مختلفا عما بعث به الرسل والأنبياء من قبله ، أم هو الدين ذاته الذي بعث به سائر الرسل والأنبياء من قبل ؟

والجواب : أن الدين الذي بعث به الأنبياء والرسل جميعا ، بدءا من أولهم ، وهو آدم عليه السلام ووصولا إلى آخرهم وخاتمهم ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، إنما هو دين واحد . وقد سماه الله الاسلام ، وسمى المتبعين له : المسلمين ، فقال تعالى في محكم بيانه « هو سماكم المسلمين في هذا ومن قبل » .

وبيان ذلك على وجه التفصيل أن دعوة كل رسول تقوم على أساسين اثنين : أولهما العقيدة ، والثاني التشريع والأخلاق .

فأما العقيدة فلم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه الصلاة والسلام ، إلى بعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، وهي : الايمان بوجود الله ووحدانيته ، وتنزهه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص ، والايمان باليوم الآخر والحساب والجنة والنار .. فكان كل نبي يدعو قومه إلى اليقين بهذه الأمور . وكان كل منهم يأتي مصدقا لدعوة من قبله ومبشرا ببعثة من سيأتي بعده ، حتى يظل الناس جيلا وراء جيل متذكرين واجبهم الذي كلفهم الله به ، يعرفون حقيقة الكون والانسان والحياة ، ويعرفون واقع عبوديتهم لله عز وجل .

وهكذا فقد تلاحقت بعثة الأنبياء والمرسلين إلى مختلف الأمم والأقوام ،

ليؤكد الجميع حقيقة واحدة أمروا بتبليغها إلى الناس ، وحملهم على الاذعان لها ، ألا وهي الدينونة لله عز وجل وحده .

وهذا ما أوضحه الله تعالى للناس بجلاء في قوله :

« شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا بـه إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى : ١٣ .

وهذا الدين الواحد الذي وصّى الله به الأنبياء والرسل جميعـا ، سماه الله الاسلام ، منذ أقدم العصور ، إلى هذا اليوم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فقال عز وجل : « إن الدين عند الله الاسلام » .

والذين يتبعون هذا الدين في كل عهد سماهم الله مسلمين ، فقال عز وجل ، حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « .. إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٠ و ١٣٢ .

وأخبر جل جلال عن سحرة فرعون قائلا : « قالوا إنا الى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جـاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » الاعراف : ١٢٦ .

وحدّث عن عيسى ابن مريم والحواريين فقال : « فلما أحسّ عيسى منهم الكفر ، قال من أنصـاري الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنـا بالله واشهد بأنا مسلمون » آل عمران : ٥٢ .

فان استشكلت قائلا : فلماذا يحتفظ من يدعون نسبتهم إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعقيدة خاصة بهم ، ويحتفظ من يدعون انتسابهم الى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بعقيدة أخرى خاصة بهم أيضا ، وهكذا .. ؟ فالجواب ما قاله الله عنهم في كتابه المبين : « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيـا بينهم » آل عمران : ١٩ . ولقد كرر هذا المعنى ذاته في آية أخرى فقال عـز وجل : « وما تفرقوا إلا من بعد

ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » الشورى : ١٤ .

ومعنى ذلك أن الأنبياء كلهم بعثوا بالاسلام وحده ، وهو الدين الحق عند الله عز وجل . وأهل الكتاب من يهود ونصارى يعلمون ذلك ، ويعلمون أن الله نهاهم أن يتفرقوا فيما بينهم الى عقائد متباينة ، ولكنهم على الرغم من ذلك اختلفوا وتفرقوا ، واختلقوا على أنبيائهم ورسلهم ما لم يقولوه ، بغيا بينهم وافتئاتا على الله عز وجل .

هذا ، إلى جانب أن المنطق العقلي يرفض تصور وجود عقائد سماوية مختلفة، مع فرض أنها جميعا صحيحة ، وأن الأنبياء الذين بعثوا بها صادقون . لأن أمور العقيدة هي من نوع الاخبار . والاخبار عن الشيء لا يمكن أن يختلف ما بين نبي وآخر ، إذا فرضنا الصدق في خبر كل منهما . فمن غير المعقول أن يبعث الله أحد الأنبياء ليبلغ الناس ويخبرهم بأن الله ثالث ثلاثة ، ثم يبعث من بعده نبيا آخر ليبلغ الناس بأن الله واحد لا شريك له ، ويكون مع ذلك كل واحد منهم صادقا فيما يبلغ عن الله عز وجل .

وأما التشريع وهو الجانب السلوكي من الدين ، فمن الثابت أن شريعة كل رسول ناسخة للشرائع السابقة ، إلا ما أيده التشريع المتأخر منها ؛ أو سكت عنه (وذلك على مذهب من يرى أن شريعة من قبلنا شريعة لنا إذا لم يرد ما يخالفها) . وينبغي أن تعلم أن كلمة الدين يصح أن تطلق ويراد بها اليقين الاعتقادي وحده مع الاذعان النظري للتشريعات السلوكية البارزة والتي لا يعذر في جهلها أحد . فيقال : فلان دينه الاسلام ، إذا كان مؤمنا بعقائده مذعنا بواجباته السلوكية ، ولو لم يكن يمارس شيئا من هذه الواجبات .

وقد نص البيان الالهي على هذا التفريق بين العقيدة والتشريع ، موضحا ثبات الأولى وأن الرسل والأنبياء لم يبعثوا إلا لتأكيدها وتذكير الناس بضرورة التمسك بها ، وموضحا خضوع الثانية للتبديل والتغيير حسب سير المصالح البشرية . وذلك في قوله عز وجل على لسان عيسى ابن مريم خطابا لمن بعث

إليهم : « ومصدقا لما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » آل عمران : ٤٩و٥٠ .

ويتضح إذن مما سبق أنه لا توجد **اديان سماوية** متعددة صحيحة . بل لا يعقل ذلك ، كما أوضحنا . وانما توجد شرائع سماوية متعددة ، نسخ اللاحق منها السابق . إلى إن استقرت الشريعة السماوية الأخيرة التي قضت حكمة الله أن يكون مبلغها هو خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، محمد عليه الصلاة والسلام .

أما الدين الحق ، فواحد ، بعث به الرسل والأنبياء جميعا ، للدعوة إليه ، وأمر الناس بالخضوع له واليقين بمعتقداته منذ آدم عليه الصلاة والسلام إلى بعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، ألا وهو الاسلام .

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح مساعي ودعوات الرسل والأنبياء جميعا ، ببناء واحد اشتركوا في إقامته وتجميله . وكان محمد صلى الله عليه وسلم آخر من وضع اللمسات الأخيرة فيه وانجزه بالتمام والكمال .

فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه كل من الامامين البخاري ومسلم : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بنيانا ، فأحسنه وأجمله ، الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

ثانيا ـ علاقة الجاهلية بما كان فيها من بقايا الحنيفية :

والحنيفية من أسماء الاسلام ،وأصل الكلمة من حنف بمعنى مال ، وبمعنى استقام أيضا[1] . فكل من أسلم صادقا لله تعالى فهو حنيف ، أي مائل عن الأديان والمعتقدات الأخرى . ومستقيم على نهج الاسلام وسننه .

---

(١) انظر لسان العرب : مادة حنف .

وكان العرب في الجاهلية يلقبون كل من يتمسك بدين إبراهيم وآدابه بالحنيف ، أي المائل عن عبادة الأوثان ، والمستقيم على توحيد الله والتمسك بشريعة إبراهيم عليه السلام .

والمطلوب هنا ، هو أن نعلم : ما هي البقايا التي كانت لا تزال مستقرة ومعروفة من مبادىء الاسلام الحنيف وآدابه ، في الجزيرة العربية عند بعثة محمد عليه الصلاة والسلام . وهل كانت هذه البقايا (بدءا من عقيدة التوحيد إلى الآداب السلوكية العامة) في تزايد ، كلما امتد العصر الجاهلي وتطاول ، أم في تناقص .

ولكي نجيب على هذا السؤال بدقة ، ينبغي أن نستعرض بايجاز حالة الجزيرة العربية ، قبل أن تنتشرفيها عبادة الأوثان ، وأن نوضح العوامل التي جعلت الأوثان تتسلل إليها ، والناس يقبلون إلى عبادتها من دون الله .

كيف انتشرت الاصنام وعبادتها في الجزيرة العربية :

إنك لتعلم أن العرب هم أولاد إسماعيل عليه الصلاة والسلام . فكان أن توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه الذي بعث به ، من توحيد الله والدينونة له بالعبودية والعبادة ، والوقوف عند حدوده ، وتقديس حرماته ، وفي مقدمة ذلك تعظيم البيت الحرام وتعظيم شعائره ، والذود عنه ، والقيام بخدمته .

ولما امتدت بهم القرون ، وطال عليهم الأمد ، أخذوا يخلطون الحق الذي توارثوه ، بكثير من الباطل الذي تسلل اليهم ، شأن سائر الأمم والشعوب ، عندما يطول عليها العهد ، ويغشاها الجهل ويندس في صفوفها المبطلون والمشعوذون . فدخل فيهم الشرك الذي كان منتشرا في الأمم والدول المحيطة بهم ، واعتادوا عبادة الأصنام ،و تسللت إليهم التقاليد الباطلة والأخلاق الفاحشة . فابتعدوا بذلك ، شيئا فشيئا ، عن ضياء التوحيد ومنهج الحنيفية ، وعمت بينهم الجهالة ، ثم أخذت ، بطبيعة الحال ، تزداد كثافة وتأثيرا ، إلى أن انقشع كل ذلك عنهم ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام .

عمرو بن لحي اول من ادخل صنما الى مكـة :

وكان أول من أدخل فيهم الشرك وحملهم على عبادة الاصنام ، عمرو بن لحي ابن قمعة جد قبيلة خزاعة . روى ابن اسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمّان ، حدثه أنه سمع أباهريرة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن جون الخزاعي : يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي ابن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار . فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ، ولا به منك . فقال أكثم : عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال لا ، إنك مؤمن ، وهو كافر ، إنـه كان أول من غيّر دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة وحمى الحامي[1] .

وروى ابن هشام رغيره ، كيفية إدخال عمرو بن لحي هذا عبادة الأصنام في العرب ، فقال : خرج عمرو بن لحي من مكة الى الشام في بعض أموره . فلما قدم « مآب » من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ــ وهم ولد عملاق ، ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ــ رآهم يعبدون الأصنام.فقال لهم : ماهذه الأصنام التي تعبدون ؟ قالوا له : هذه آلهة نعبدها ، نستمطر بها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرها . فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنمـا ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما ، يقال له « هبل » فقدم به مكة فنصبه ، وأمـر الناس بعبادته وتعظيمه [2] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٧٦/١ . والقصب الامعاء . والبحيرة المبحورة الاذن التي يمنع درها عن الناس للطواغيت . والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم . والوصيلة الناقة تترك للاصنام اذا بكرت بانثى ، ثم ثنت بانثى . والحامي الفحل من الابل ، لا يركب ولا يحمل عليه ، اذا لقح ولد ولده .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النـار .. الحديث ، بالفاظ متقاربة .

(٢) سيرة ابن هشام : ٧٧/١ وانظر كتاب الاصنام للكلبي : ٨و٩ .

وهكذا أخذ ينتشر عبادة الأوثان في الجزيرة العربية[1] ، وأخذت تشيع في أهلها عقيدة الشرك • فانسلخوا بذلك ، رويدا رويدا عما كانوا عليه من عقيدة التوحيد ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل ، وهو الاسلام ، غيره • وانتهوا إلى مثل ما انتهت إليه الأمم الأخرى من الضلالات والقبائح في المعتقدات والأفعال •

وكان من أهم ما يسر اندفاعهم إلى ذلك كله ، الجهل والأمية والتأثر بمن كان حولهم من أشتات الأمم والقبائل •

إلا أن هذه الضلالات كانت تنتشر فيما بينهم بالتدريج ، كما هو ثابت ومعروف من حال المجتمعات الانسانية في مختلف العصور والأحوال •

فلذلك ، ظلت بقية من الناس ، تقل شيئا فشيئا من الزمن ، متمسكة بعقيدة التوحيد ، سائرة على نهج الحنيفية السمحة : تصدق بالبعث والنشور وتؤمن بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي • وتنكر هذا الذي استحدثه العرب من عبادة الأوثان وضلالات الشرك • ولقد اشتهر من هذه البقية كثيرون ، كقس بن ساعدة الايادي ، ورئاب الشني وبحيرا الراهب •

كما أن كثيرا مما كان موروثا من عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، من قواعد السلوك والمعاملات ، بقي محفوظا مطبقا • غير أنها كانت تتضاءل ويضعف سلطانها ، كلما تقادم بهم العهد •

وهكذا ، فقد كانت الجاهلية العربية مصطبغة ، بقدر ما ، بآثار من شعائر الحنيفية ومبادئها وإن كان الكثير من هذه الشعائر لا يكاد يظهر في حياة العرب إلا مشوها فاسدا • وذلك كتعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة ، وكالوقوف بعرفة وهدي البدن ، والختان ، فأصل ذلك كله مشروع ومتوارث

---

(١) هي شبه جزيرة ، ولكن علماء العرب اصطلحوا على تسميتها جزيرة العرب . ويحدها من الشرق الخليج العربي، ومن الجنوب المحيط الهندي، ومن الغرب البحر الاحمر . اما من الشمال فلا يحدها اي ماء . ولذا فان اسم جزيرة العرب انما يطلق عليها تجوزا .

لديهم من عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام • ولكنهم كانوا يطبقون أكثره على غير وجهه ، ويقحمون فيه الكثير مما ليس منه • كاهلالهم بالحج والعمرة • فقد كانت كنانة وقريش يقولون إذا أهلوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك • فيوحدونه ــ كما قال ابن هشام ــ بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده •

والخلاصة ، أن نشأة التاريخ العربي إنما نمت في كنف الحنيفية السمحة التي بعث بها الأنبياء جميعا • فكانت تغمر حياتهم عقيدة التوحيد ، ونور الهداية والايمان • ثم أخذ العرب يبتعدون عن ذلك الحق رويدا رويدا ، بعامل امتداد الزمن وتطاول القرون وبعد العهد • وأخذت حياتهم تنغمر ، بدلا عن ذلك ، بظلمات الشرك وضلالات الفكر وعماهة الجهل ، مع استمرار بقايا من معالم الحق القديم ومبادئه ، تخبّ في سير بطيء ، مع تاريخهم ، تذوي وتضعف مع الدهر ، ويقل أنصارها من سنة الى أخرى •

فلما استنارت شعلة الدين الحنيف من جديد ، ببعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، أقبل الوحي الالهي إلى كل ما قد تكثف من ضلال وظلمات خلال تلك الحقبة الطويلة فمحاه وأنار مكانه بقبس الايمان والتوحيد ومبادىء العدالة والحق • وأقبل إلى تلك البقايا التي استطاعت أن تعيش الى مشرق النور الجديد ، مما كان قد بعث به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فأقرها وأكدها وجدد الدعوة اليها •

ولا ريب أن من نافلة القول وفضوله ، أن نؤكد بأن هذا الذي نقرره شيء معروف بالبداهة لكل من أتيح له ان يطلع على واقع التاريخ العربي القديم ، لا يختلف فيه اثنان ولا يجهله ذو حظ من الثقافة وإن قلت •

إلا أن هنالك من يقول ــ بالرغم من بداهة كل ما قد أوضحناه ــ إن العصر الجاهلي أخذ يستيقظ قبيل البعثة على السبيل الامثل الذي يجب اتباعه ، وأخذت الأفكار العربية تثور على مظاهر الشرك وعبادة الأصنام ، وتحن الى عقيدة

التوحيد . ثم تمثلت قمة هذه اليقظة والثورة في ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته التي انتشرت في الأرجـاء .

أي إنهم يقولون بأن تاريخ الجاهلية العربية ، كان يزداد مع الزمن بعـدا عن الشرك وعبادة الأوثان ، وقربا من التوحيد ونور الهداية الاسلامية ، على الرغم من القرون التي كانت تزيدهم بعدا عن عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتزيدهم استغراقا في حمأة الشرك والتقاليد ! ..

يقولون هذا ، ويؤكدونه ، وكأنهم يجهلون فعلا أن التاريخ يقرر عكس ذلك تماما ، في أبسط ما تنطق به ألف باؤه الواضحة المفهومة لكل ذي زاد من الثقافة والفكـر .

يقولون هذا ، وكأنهم لا يعلمون ، ما هو معلوم لكل مثقف عربي ، أن الصنم الذي جاء به عمرو بن لحي ووضعه عند الكعبة أخذ يتوالد ، ويوضع الى جانبه مثله ، حتى أصبح عدد الأصنام المنتشرة حول الكعبة في العام الذي بعث فيه رسول الله عليه وسلم ، ثلاثمائة وستين صنمـا . وإنك لترى في هذه الاعداد المتزايدة من الاصنام أدق مؤشر يوضح لك : أكان الاقبال الى الشرك وعبادة الأصنام عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام في تناقص وإدبار أم في تزايد وإقبال .

وربما احتجوا بأصوات كانت ترتفع هنا وهناك ، قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام ، تنكر الشرك وتدعو الى الايمان بالله وحده ، كالكلمـات التي كان يقولها قس بن ساعدة الايادي ، وكالبيت المشهور :

أرب يـول الثعلبـان برأسـه لقـد ذل من بالت عليه الثعالب

ويغيب عنهم أن تلك الأصوات كانت بالنسبة إلى أمثالها ، قبل عدة قرون ، أشبه ما تكون بالأطلال الباقية من بناء تهدم واستحال أنقاضا .

كل باحث متحرر من الأسبقيات الفكرية ، يعلم أن العهد الذي بعث فيه محمد عليه الصلاة والسلام ، إنما كان أبعد العهود الجاهلية عن حقائق التوحيد

ومبادىء الاسلام ، بالنسبة لسائر العهود التي سبقته . أمـا تلك البقايا التي لم تنطفىء بعد من معالم الحنين الى التوحيد والتسامي فوق تلك التقاليد الشائعة ، فلم تكن تبلغ معشار ما كان موجودا من ذلك قبل بضعة قرون .. وقد كان المفروض إذن حسب تصور هؤلاء الناس لمعنى النبوة والبعثة المحمدية ، أن تكون بعثته عليه الصلاة والسلام ، قبل الزمن الذي بعث فيه بعدة قرون وأجيال ، لان الأمة العربية كانت إذ ذاك أكثر إقبالا الى التوحيد ، وأقل استغراقا في الوثنية والشرك .

* * *

سر اختيار الجزيرة العربية مكانا لبعثة خاتم الانبياء

محمد عليه الصلاة والسلام

نقول بكلمة موجزة ، قبل الدخول في التفصيل :

إن الحكمة من بعثة خاتم الرسل والأنبياء الذي أرسل إلى الناس كافة ، في الجزيرة العربية ، دون سواها ، تتمثل في تيسير السبيل الى العقول الحرة ، أن تدرك الهوية الحقيقية لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأن تستيقن أنه نبي مرسل الى الناس من لدن رب العالمين وليس رجل زعامة أو مبدع اصلاح ، إذ لو بعث في أي بقعة أخرى لتسللت اسباب اللبس وموجبات الشك في فهم شخصيته والايمان بنبوته .

وللدخول في تفصيل هذا الموجز ، يجب أن نستعرض موجزا من حال الأمم والدول التي كانت تحيط بالجزيرة العربية ، ثم أن نقارن بين العرب الذين كانت بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام من بينهم ، وتلك الأمم الأخرى التي نتساءل : لماذا لم تكن بعثة خاتم الأنبياء من بين واحدة منها ؟

حالة العالم عند بعثة محمد عليه الصلاة والسلام :

كان يتصدر العالم إذ ذاك ، دولتان اثنتان ، تتقاسمان العالم المتمدين آنذاك ، هما فارس والروم ، ويأتي من ورائهما اليونان والهند .

أما فارس ، فقد كانت حقلا لوساوس دينية فلسفية متصارعة مختلفة . كان فيها الزرادشتية التي اعتنقها ذوو السلطة الحاكمون . وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته . حتى إن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بابنته . هذا الى جانب انحرافات خلقية مشينة مختلفة لا مجال لسردها في هذا المقام .

وكان فيها « المزدكية » التي قامت ، كما يقول الامام الشهرستاني على فلسفة أخرى هي حل النساء واباحة الأموال ، وجعل الناس شركة فيها ، كاشتراكهم في الماء والكلاء والنار . وقد حظيت هذه الدعوة باستجابة عظيمة لدى أصحاب الرعونات والأهواء وصادفت لديهم قبولا عظيما[1] .

أما الرومان ، فقد كانت تسيطر عليها الروح الاستعمارية ، وكانت منهمكة في خلاف ديني بينها من جهة وبين نصارى الشام ومصر من جهة أخرى . وكانت تعتمد على قوتها العسكرية وطموحها الاستعماري ، في مغامرة عجيبة من أجل تطوير المسيحية والتلاعب بها ، طبق ما توحي به ، مطامعها وأهواؤها المستشرية ولم تكن هذه الدولة في الوقت ذاته ، أقل انحلالا من دولة الفرس . فقد كانت تسودها حياة التبذل والانحطاط والظلم الاقتصادي من جراء كثرة الاتاوات ، ومضاعفة الضرائب [2] .

وأما اليونان فقد كانت غارقة في هوسات من آرائها الفلسفية الجانحة ، وأساطيرها التي عرفت بها والتي اتخذت منها دينا ومعبودا لها .

لقد تميزت حضارتها بالنزعة الفنية والاسطورية ، التي تجلت في مظاهر شتى ، لا مجال في هذا المقام لتفصيل الحديث عنها .

وأما الهند فقد كانت كما قال عنها الاستاذ أبو الحسن الندوي : إنه قد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا ، ذلك العهد الذي يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادي . فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الاخلاقي والاجتماعي [3] .

هذا ويجب أن نعلم أن القدر المشترك الذي أوقع هذه الأمم المختلفة فيما

---

(١) راجع الملل والنحل للشهرستاني ج٢/ص ٨٦و٨٧ .

(٢) انظر دائرة المعارف لفريد وجدي .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٥٥ والمسلمون في الهند ص ٢٦ فما بعد .

وقعت فيه من انحلال واضطراب وشقاء ، إنما هو الحضارة والمدنية اللتان تقومان على أساس من القيم المادية وحدها ، دون أن يكون ثمة مثل أعلى يقود هذه الحضارة والمدنية في السبيل السوي المستقيم . ذلك لأن الحضارة بمختلف مقوماتها ومظاهرها ليست سوى وسيلة وسبب .. فان عدم أهلها التفكير الصائب والمثل الأعلى الصحيح ، استحالت الحضارة في أيديهم الى وسيلة للنزول بها الى درك الشقاء والاضطراب .أما إن أوتي أهلها مقياسا من العقل الرشيد الذي قلما يأتي الا عن طريق الوحي الالهي ، فان القيم الحضارية والمدنية كلها ، تصبح وسائل جميلة سهلة الى السعادة التامة في مختلف أنواعها ومظاهرها .

* * *

فلننظر بعد هذا إلى الأرض التي بعث فيها محمد عليه الصلاة والسلام ، لقد كانت هادئة ، بعيدة ، بل منعزلة عن هذه الاضطرابات كلها . فلم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون في اختراع وسائل الانحلال ، وفلسفة مظاهر الاباحية والانحطاط الخلقي ووضعها في قوالب من الدين ، ولم يكن لديهم من الطغيان العسكري الروماني ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أي رقعة مما حولهم ، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليوناني ما يجعلهم فريسة للخرافات والأساطير والأوهام . ولم يكن لهم أي زاد ثقافي يخولهم الدخول في أي نهضة فكرية ، تشريعية كانت أو سياسية أو غيرها في نطاق الاصلاح الاجتماعي ، إذ كانوا أمة أمية تعيش مرحلة البداوة من حياتها الاجتماعية العامة .

وكانت تتمتع ، الى جانب ذلك ، بطبيعة أشبه ما تكون بالمادة « الخام » التي لم تنصهر بعد في أي بوتقة . فكانت تتراءى فيها الفطرة الانسانية السليمة، والنزعة القوية نحو خصائص الانسانية الحميدة ، كالوفاء والنجدة والكرم والعفة ، وان كانت تعوزهم المعرفة التي تكشف لهم الطريق الى كل ذلك ، اذ كانوا يعيشون في ظلمة من الجهالة البسيطة والحالة الفطرية الأولى . من أجل هذا كان يغلب عليهم أن يضلوا الطريق الى تلك القيم الانسانية ، فيقتلوا الأولاد بدافع

العفة والشرف ، ويتلفوا المال الضروري بدافع الكرم ، ويستثيروا فيما بينهم أسباب الحروب والمعارك بدافع الاباء والشهامة .

وهكذا ، يتلخص الفرق بين الامة العربية وغيرها من الامم الاخرى ، بأن الاخطاء والانحرافات التي كانت تنجرف اليها الامة العربية إنما كانت نتيجة جهل وضلال . بينما كانت الامم الاخرى تستهدي لانحرافاتها الخطيرة بمشاعل الحضارة والمدنية وأصول الثقافة . أي انهذه الامم كانت تتقلب في حمأة الفساد عن تبصر وتخطيط وفكر ، بينما كانالعرب ينجرفون الى بعض هذه المفاسد بعذر الجهالة وبدائية النظر والفكر .

لماذا كانت بعثة خاتم الانبياء من العرب الجهال لا من تلك الامم المتحضرة ؟

والآن ، وقد تبين لك الفرق جليا بين حال العرب والأمم الأخرى ، في عصر البعثة ، بوسعك أن تعلم : في أي أمة يجب أن يظهر هذا الرسول الذي سيبعث الى الناس عامة . بحيث تكون هويته (نبيا مرسلا) قريبة الفهم الى العقول والافكار ، لا مشوبة بدواعي الشكوك وممزوجة بالشبه والملابسات .

فلو أن هذا النبي بعث بين أي أمة لها شأن في الحضارة والمدنية والمعارف المختلفة ، إذن لثارت الشكوك في العقول ، بأن المسألة ربما كانت مظهرا لسلسلة التجارب الحضارية والأفكار الفلسفية والتشريعية ، أبدعت أخيرا هذه الحضارة الانسانية الفذة وهذا التشريع المتكامل ، ذلك لان المناخ واحد ، والأمة تتطور من تجربة الى أخرى ، فلماذا لا يكون هذا الذي يقال عنه : نبي ، مفكرا ممتازا امتص تجارب أمته في ميدان الفكر الحضاري والفلسفي ، فجاء من ذلك بهذا الابداع ولماذا لا تكون فتوحاته طورا مترقيا للهدف الاستعماري البعيد ، لا سيما وقد عرفت أمتهبنزعتها الاستعمارية خلال القرون ؟ .. ولماذا لا يكون التشريع الذي جاء به ، قانونا ممتازا متطورا عن موسوعة جوستنيان ، أو تشريعات زرادشت ، أو جمهورية أفلاطون ؟

كل هذه شكوك وملابسات ، يعذر العقل ، أي عقل كان ، في الوقوف

عندهـا ، وفي التأثر بهـا . ولا بد أن يعاني من صعوبات جلي في طريق تخلصه من سلطان هذه الشوائب والأوهام .

فمن اجل هذا ، شاء الله عز وجل ـ وهو الحكيم الرحيم بعباده ـ ان يجعل بعثة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ، في تلك الأمة الأميـة الجاهلة ، التي ليس لهـا ماض حضاري ولا ترف مدني ، ولا جنوح ثقافي ، ولا نزوع استعماري ، كما قال عز وجل « هوالذي بعث في الأميين رسولا منهم » الجمعة : ٢ إذ لا يمكن أن يطوف شيء من تلك الشكوك الآن بمعنى نبوته وحقيقة رسالته . فانك لن تجد أي نسب بين طبيعة الارض والامة التي بعث فيها ، وما جاء بـه من تشريع ومبادىء وتصورات علمية دقيقة عن حقيقة كل من الكون والانسان والحياة . وبذلك تكون معجزة النبوة والشريعة الاسلامية واضحة في الاذهان ، لا لبس بينها وبين الدعوات البشرية المختلفة . وهذا ينطوي ـ كما هو واضح ـ على رحمة عظيمة بالعباد .

وهذه الحكمة تذكرنا ، بالحكمة التي اقتضت أن يجعل الله رسوله هذا أميا ، لم يقرأ كتابا ولم يخط بيمينه حرفا . فالمعنى في كل منهما واحد ، ألا وهو أن تصفو دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أمام الافكار والعقول الحرة ، فلا يشوبها أي لبس أو وهم . اذ كما أن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفي احتمال أن يكون القرآن من تأليفه ، أو أن ما تضمنه من تشريعات وأحكام وقصص عن الامم البائدة ، من مخزوناته الثقافية ، فكذلك أمية القوم الذين بعث فيهم ، تنفي احتمال أن يكون متأثرا بهم منجرفا في تيارهم ، إذ ليس لهم أي تيار ثقافي ولا حضاري ، وليس لهم أي سلطان استعماري .

اسباب اخرى لهذا الاختيار :

علما أن هنالك حكما أخرى لاختيار الله رسوله في العرب دون غيرهم ، لا تخفى على الباحث نجملها فيما يلي :

أولا ـ من المعلوم ان الله عز وجل جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنـا وجعله أول بيت وضع للناس ، للعبادة واقامة الشعائر الدينية . كما حقق الله في

ذلك الوادي دعوة أبي الانبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام . ومن لوازم هذا كله ومقتضياته أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدا للدعوة الاسلامية التي هي ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأن تكون بعثة خاتم الأنبياء ، ومولده فيها . كيف لا وهو من نسل إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

ثانيا البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل هذه الدعوة المتوجهة الى الناس عامة في كل جهات الارض وأقطارها . ذلك أن هذه البقعة تقع في نقطة الوسط بين سائر الامم والبلاد التي تموج من حولها . ونظرة منك الى خارطة العالم توضح لك هذه الحقيقة الهامة .

وهـذا هو الـذي جعل الدعوة الاسلاميـة تنتشر بـين جميع الشعوب والدول المحيطة بها في سهولة ويسر . وإذا أعدت النظر الى سير الدعوة الاسلامية في صدر الاسلام وعصر الخلفاء الراشدين ، وجدت مصداق ذلك جليا واضحا .

ثالثا ـ اقتضت حكمة الله ان تكون اللغة العربية هي لغة الدعوة الاسلامية الاولى وأن تكون هي الاداة المفضلة لترجمة كلام الله عز وجل وابلاغه ايانا .

ولا ريب أن هذا الاختيار انما ترتب على موجبات ذلك . وهي تتمثل في مزايا هامة اختصت بها اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، لا مجال للدخول في تفصيل شيء منها في هذا المقام .

* * *

القسم الثاني

من مولده الى بعثته صلى الله عليه وسلم

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

نسبه صلى الله عليه وسلم
وولادته ورضاعته

اولا ـ نسبه الشريف :

أما نسبه الشريف فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ويدعى شيبة الحمد، ابن هاشم ، بن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، بن قصي ويسمى زيدا ، ابن كلاب ، ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزلر بن عدنان .

فهذا القدر هـو المتفق عليه من نسبه صلى الله عليه وسـلم تفصيلا ، أما ما وراء ذلك فمختلف فيه . لا يعتمد عليه في شيء . غير أن مما لا يخفى عليه أن عدنان من ولد اسماعيل نبي الله بن إبراهيم خليل الله عليهما الصلاة والسلام ، وأن الله قد اختاره من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الاصلاب . فما تسلل شيء من أدران الجاهلية الى شيء من نسبه صلى الله عليه وسلم .

روى مسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنـه قال : ان الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى هاشما من قريش ، واصطفاني من بني هاشم .

ثانيـا ـ ولادته :

كان لعبد المطلب ، وهو سيد في قومه ، عشرة أبناء . وكان عبد الله واسطة العقد فيهم[1] زوجه أبوه من « آمنة » بنت وهب ، سيد بني زهرة . وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١٠٨/١

(٢) المرجع المذكور : ١١٠/١ .

ولم يلبث عبد الله أن مات ، وآمنة زوجه حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد رأت من الآثار والدلائل ما دل أن لابنها هذا شأنا[1] .

ولـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم اثنين ، اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول ، عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية .

ولما وضعته أمه ، أرسلت الى جده عبد المطلب ، أنه قد ولـد لك غلام . فأتاه فنظر إليه ، وحمله ، ودخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ويحمده . وسماه « محمدا » وكان هذا الاسم غريبا آنذاك .

ثالثـا ـ رضاعته :

أرضعته صلى الله عليه وسلم ، في الايام الاولى « ثويبة » جارية لعمه أبي لهب . ثم التمس عبد المطلب لحفيده اليتيم مرضعا من البادية ـ على عادة العرب آنذاك ـ فقد كانوا يؤثرون البادية لرضاعة أطفالهم ونشأتهم الاولى ، لما في هواء البادية من النقاء ، وفي أخلاق أهلها من السلامة والاعتدال .

وعرض رسول الله الطفل على جميع الرضعاء فزهدن فيه ، ليتمه ، وقلة ذات اليد عند أمه وجده .

وكان في المرضعات امرأة من بني سعد بن بكر ، يقال لها : حليمة بنت أبي ذؤيب وكانت قد خرجت من بلدها تلتمس الرضعاء ، وكان العام عام جدب ، وكان أهلها في ضيق شديد . فانصرفت عنه هي الاخرى في أول الامر ، ولكنها عادت اليه عندما خشيت أن تعود بدون شيء . فأخذته ، وذهبت به الى رحلها . فما هو الا أن صار محمد صلى الله عليه وسلم في منزلها واستكان الى حجرها وثديها ، حتى عادت المنازل من حول خبائها ممرعة خضراء . فكانت أغنامها تروح منها عائدة الى الدار شباعا ممتلئة الضرع . وكان يقول لها من حولها : لقد جئت يا حليمة بنسمة مباركة ! ..

وظل رسول الله الطفل عندها سنتين ، وكان يشب شبابا لا يشب الغلمان

---

(١) المرجع المذكور : ١٥٨/١ .

مثله . فلما فصلته عادت به الى أمه ، ولكنها طلبت من أمه أن تتركه عندها مدة أخرى . فردته اليها[1] .

وقد حصلت أثناء وجوده في بادية بني سعد حادثة (شق الصدر) التي رواها مسلم في صحيحه[2] ثم أعيد بعدها الى أمه ، وقد تم له من العمر خمس سنوات .

ولما تم له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة . وما ان تحول المصطفى عليه الصلاة والسلام الى كفالة جده عبد المطلب ، حتى وافته هو الآخر منيته . فمات وقد تم للنبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنوات فكفله عمه أبو طالب .

* * *

العبر والمبادىء :

نأخذ من هذا المقطع من سيرته صلى الله عليه وسلم عبراً ومبادىء هامة نجملها فيما يلي :

افضلية العرب على غيرهم :

فيما أوضحناه من نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم دلالة بينة على أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب على سائر الناس ، وفضل قريشا على سائر القبائل الاخرى . تجد هذه الدلالة واضحة في الحديث الذي رويناه عن مسلم ، وقد وردت بمعناه أحاديث كثيرة أخرى . فمن ذلك ما رواه الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال : من أنا ؟ فقالوا أنت رسول الله عليك السلام . فقال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إن الله خلق الخلق ثم جعلهم فرقتين ، فجعلني في خيرهم فرقة . ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة .

---

(١) انظر قصة استرضاعه صلى الله عليه وسلم في سيرة ابن هشام ١/ص١٦٢-١٦٦

(٢) انظر صحيح مسلم في كتاب الايمان ، باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا وخيرهم نفسا[1] .

قد يقال أن هذا الحديث ، وما ورد في معناه ، يتعارض مع قوله عليه الصلاة والسلام « لا فضل لعربي على عجمي ولا لابيض على أسود الا بالتقوى والعمل الصالح » كما يتعارض مع قوله عز وجل « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٣ .

والجواب أن الناس من حيث القيمة الذاتية ، لا يتفاضلون الا بما يقربهم الى الله من التقوى والعمل الصالح ، ولا قيمة للانساب والاعراق والالوان في رفع المستوى الذاتي للانسان أو خفضه .

إلا أن الناس وأن تساووا في القيمة الذاتية فقد تعرض أسباب خارجية تستدعي أفضلية بعضهم على بعض من نواح عرضية لا تتصل بالذات والجوهر . فمع يقيننا بأن الناس كلهم متساوون من حيث تركيبهم الانساني ، الا أننا نجزم بأن آل بيت رسول الله يفضلون غيرهم ، لا من حيث القيمة الذاتية ولكن من حيث نسبتهم الى رسول الله عليه الصلاة والسلام . وكذلك العرب ، فاننا على الرغم من يقيننا بأنهم متساوون مع غيرهم في جوهر الانسانية وقيمتها ، نجزم بأنهم يفضلون غيرهم من حيث أن الله قد اختار رسوله منهم ، ومن حيث ان لغتهم هي لغة القرآن .

فبهذا المعنى تقرر أفضلية قريش على غيرها من القبائل العربية ، وأفضلية بني هاشم على غيرهم من بطون قريش . لا بمعنى أن الحقيقة الانسانية الكامنة في أشخاص هؤلاء الناس تفوق حقيقة الانسانية التي لدى سائر الناس .

ولذا لايتنافى مع هذه الافضلية العرضية ، أن تجدها قد زالت نهائيا ، بل انقلب الامر الى النقيض ، بالنسبة الى كل من قد انحرف من العرب أو القرشيين أو الهاشميين عن صراط الله عز وجل ، وانحط عن مستوى الالتزام بالاوامر والآداب الاسلامية . لان هذا الانحراف من شأنه أن يودي بقيمة تلك الاسباب العرضية التي ميزته على غيره .

---

(١) الترمذي : ٢٣٦/٩ كتاب المناقب .

لماذا نشأ رسول الله يتيما ؟

ليس من قبيل المصادفة أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيما ، ثم لا يلبث أن يفقد أمه وهو طفل ، ثم لا يلبث أن يفقد جده الذي كان ينزله من نفسه منزلة ابنه ، فينشأ النشأة الاولى من حياته بعيدا عن تربية الأب ورعايته ، محروما من عاطفة الام وحنوها .

لقد كان في اختيار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة حكم باهرة ، لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل الى إدخال الريبة في قلوب الناس أو إيهامهم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم انما وضع لبنات دعوته ورسالته التي برز بها الى الناس ، منذ صباه وطفولته الاولى ، بارشاد وتوجيه من أبيه وأمه وجده . ولم لا ، وان جده عبد المطلب كان صدرا في قومه ، فلقد كانت اليه رفادة البيت وسقايته[1] وكان أبوه عبد الله واسطة العقد بين أخوته ، ولعله كان مشبعا بمشاعر صدارته وسموه بين قومه . ومن الطبيعي أن يربي الأب ابنه أو الجد حفيده على ما يحفظ لديه مثل هذا الميراث .

نقول : لقد شاء الله أن لا يكون للمبطلين سبيل الى عقول الناس بمثل هذه الاوهام والريب . فهيأ لذلك عوامله وأسبابه : نشأ رسوله بعيدا عن تربية أبيه وأمه وجده ، وحتى عن أسرته كلها . ولما توفي جده وانتقل المصطفى الى كفالة عمه أبي طالب الذي امتدت حياته الى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريبا — كان من تتمة هذه الحكمة أن يبقى عمه مشركا وأن يرفض الاسلام كلما عرض الرسول عليه ذلك ، فان أحدا لا يستطيع أن يوهم أو يتوهم أن لعمه هذا مدخلا في دعوته ، وأن المسألة اذن لا تعدو أن تكون مسألة زعامة ووجاهة ومنصب .

وهكذا أراد الله عز وجل أن ينشأ رسوله يتيما ، تتولاه عناية الله وحدها ، بعيدا عن الذراع التي تمتن في تدليله ، والمال الذي يزيد في تنعيمه . كي لا تميل

---

(١) الرفادة شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية ، اي تتعاون به ، فيخرج كل انسان بقدر طاقته ويجمعون من ذلك مالا عظيما فيشترون به طعاما وزبيبا ونبيذا ويطعمون الناس ويسقونهم منه ايام موسم الحج .
اما السقاية فهي انهم كانوا يملؤون للحجاج حياضا من الماء يلقون فيها شيئا من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها .

به نفسه (بالاضافة الى ما قلناه) الى مجد المال والجاه ، وحتى لا يتأثر بما حوله من مظاهر الصدارة والزعامة ، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه المال ، وحتى لا يظنوه يصطنع الاول ابتغاء الوصول الى الثاني .

لماذا اخضرت الارض القاحلة فجأة ؟

يدل ما اتفق عليه المؤرخون ورواة السيرة النبوية ، من أن منازل حليمة السعدية عادت ممرعة خضراء ، بعد أن كانت مجدبة قاحلة ، وعاد الدر يملأ ضرع ناقتها الكبيرة المسنة ، بعد أن كان يابسا لا يتندى بقطرة لبن ـ يدل ذلك على علو شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة مرتبته عند ربه ، حتى منذ أن كان طفلا صغيرا كغيره من الاطفال . وهو في الوقت ذاته يعد أحد الارهاصات الدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام .

وليس في الامر ما يستدعي أي استغراب أو استبعاد ، اذا كنا قد تجاوزنا مرحلة اليقين العقلي التام بوجود الله عز وجل إلها واحدا اليه وحده الخلق والتدبير ،وتجاوزنا مرحلة اليقين بأن هذا الطفل انما هو خاتم الانبياء الذين أرسلهم الله تباعا الى الناس وأنه أفضلهم وأنه ارسل الى الناس عامة .

ان الغريب والعجيب حقا ـ بعد هذاالايمان واليقين ـ هو أن يتشرف ذلك المكان برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو طفل رضيع يستكين الى حجر حليمة ويلتقم ثديها ، ويرى في ذلك المكان أسباب عيشه ومظاهر الحنو عليه ، ثم يبقى المكان بعد ذلك كله مجدبا قاحلا ، وتبقى ضروع الانعام فارغة يابسة ! .. ذلك هو الغريب والعجيب حقا لو أنه وقع وتم .

لكن التحول الذي حصل في ذلك المكان متفق كل الاتفاق مع تطلعات العقل والمنطق . لقد أحنت عليه حليمة بثديها وأغدقت عليه من حنانها ، أفلا يحنو الكرم الالهي عليها مقابل ذلك فيملأ ضروع أنعامها لبنا ، ويقلب جدب أرضها اخضرارا؟!

ان من الجدير ، والحالة هذه ، أن يكون تسبب وجوده صلى الله عليه وسلم هناك لاخضرار الارض المجدبة من حوله ، أبلغ من تسبب قطر السماء وينابيع الارض .

وما دام الكل بيد الله وحده ، مسبب الاسباب جميعها ، فأجدر برسول الله

أن يكون في مقدمة أسباب البركة والاكرام الالهي ، كيف وقد أرسله الله رحمة للعالمين أجمع فقال له « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

ومن هنا علمتنا الشريعة الاسلامية أن نستسقي عند احتباس المطر ، ببركة الصالحين من الناس ، ومن آل بيت محمد عليه الصلاة والسلام ، رجاء استجابة الله لدعائنا (١) .

حادثة شق الصدر :

حادثة شق الصدر التي وقعت له عليه الصلاة والسلام ، أثناء وجوده في مضارب بني سعد ، رويت بطرق متعددة كلها صحيح ، وعن كثير من الصحابة ، منهم أنس بن مالك فيما يرويه مسلم في صحيحه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة ، فقال هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم أعاده الى مكانه . وجاء الغلمان يسعون الى أمه — مرضعته — ينادون : ان محمدا قد قتل ! .. فاستقبلوه وهو ممتقع اللون(٢) .

واذا تأملنا نص هذا الحديث ، رأيناه لا يدع مجالا لادخال أي تأويل عليه ، بل لا يمكن فهمه الا على أساس الحقيقة الواقعة . فلا داعي إذن الى أن نتكلف تأويل الحديث بعد ثبوته بطرق متعددة أو أن نقول إن ذلك ربما كان في عالم المثال .. ولان ينكر الانسان أصل الخبر أقل سماجة في ميزان العقل من أن يتظاهر بقبوله ثم يؤوله تأويلات غير سائغة ولا متفقة مع موازين اللغة . فاذا لم يكن من سبيل الى انكار أصل الخبر لصحته ولوروده بعدة طرق وعن كثير من الصحابة ، فلا مناص من قبوله على ظاهره كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم عن نفسه .

---

(١) يستحب الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة ، سواء في الاستسقاء وغيره . أجمع على ذلك جمهور الائمة والفقهاء . انظر فتح الباري : ٣٣٩/٢ ونيل الاوطار ٧٠٢/١ وسبل السلام : ١٣٤/٢ والمغني لابن قدامة الحنبلي : ٢٦٥/٢ .

(٢) صحيح مسلم : ١٠١/١و١٠٢ وثبت في الصحيح تكرار حادثة شق الصدر اكثر من مرة .

وليست الحكمة في هذه الحادثة ــ والله أعلم ــ استئصال غدة الشر في جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ لو كان الأمر كذلك لأمكن أن يصبح الشرير صالحا بعملية جراحية يجريها له أي طبيب مختص . ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلان أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتهييؤه للعصمة والوحي منذ صغره ، بوسائل مادية محسوسة ، ليكون ذلك أدعى الى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته عندما تأتيه الرسالة ويكلف بتبليغها إلى الناس . وهذا هو المعنى من تسمية أمثال هذه الخوارق التي ظهرت قبل نبوته عليه الصلاة والسلام بالارهاص .. إنها إذن عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ، ليكون بمثابة إعلان إلهي بين أسماع الناس وأبصارهم .

وأيا كانت الحكمة ، فلا ينبغي ــ وقد ثبت الخبر ثبوتا جازما ــ أن نحاول البحث عن مخارج إلى تأويله ، وقد رأيت أن صياغة هذا الخبر محصنة ضد أي تأويل ، اللهم الا أن يكون تأويلا لا يكترث بشيء من أصول العربية وقواعدها . فهؤلاء في الظاهر مؤولون ، وفي الباطن منكرون للحديث من أساسه والاعراض عن هؤلاء الناس أمثل وأقرب الى حفظ كرامة العلم وأصوله .

رحلته الى الشام ثم كدحه في سبيل الرزق

ولما تم لـه عليه الصلاة والسلام من العمر اثنتا عشرة سنة ، سـافر عمـه أبو طالب الى الشام في ركب للتجارة ، فأخذه معه . ولما نزل الركب « بصرى » مروا على راهب هناك يقال له « بحيرا » وكان عليما بالانجيل خبيرا بشؤون النصرانية ، وهناك أبصر بحيرا النبي عليه الصلاة والسلام فجعل يتأمله ويكلمه . ثم التفت الى أبي طالب وقال له :

ما هذاالغلام منك ؟ .. فقال له : ابني (وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه) فقال بحيرا : ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حيا . فقال : هو ابن أخي . قال فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به. قال بحيرا : صدقت ، فارجع به الى بلده واحـذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه

ليبلغنه شرا ، فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به أبو طالب عائدا الى مكـة [1] .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل فترة الشـباب الاولى من عمره ، فاتجه الى السعي للرزق ، وراح يشتغل برعي الاغنام . ولقد قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه فيما بعـد : (كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة) [2] وحفظه الله من كل ما قد ينحرف اليه الشباب من مظاهر اللهو والعبث . قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه :

[ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين . كل ذلك يحول الله بيني وبينه . ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة . قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر كما يسمر الشباب . فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ، سمعت عزفا ، فقلت ما هذا ؟ فقالوا عرس . فجلست أسمع ، فضرب الله على أذني ، فنمت فمـا ايقظني إلا حر الشمس . فعدت الى صاحبي فسألني فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة ، فأصابني مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء] [3] .

* * *

---

(١) باختصار عن سيرة ابن هشام : ١٨٠/١ ورواه الطبري في تاريخه : ٢٨٧/٢ ورواه البيهقي في سننه وابو نعيم في الحلية . ويوجد بين هذه الروايات بعض الاختلاف في التفصيل . وانفرد الترمذي بروايته مطولا على نحو آخر ، وهو معلول من حيث السند والمتن معا . اما سنده ففيه عبد الرحمن بن غزوان قال عنه في الميزان : له مناكير . ثم قال : انكر ماله حديثه عن يونس بن ابي اسحاق في سفر النبي صلى الله عليه وسلم وهـو مراهق مع ابي طالب الى الشام . واما متنه فقد قال ابن سيد الناس : في متنه نكاره (راجـع عيون الاثر : ٤٣/١) وقد ورد فيه ذكر بلال الحبشي ، وبلال لم يكن موجودا في ذلك الحين قط .. هذا واما القدر المشترك من هذه القصة فثابت بطرق كثيرة لا يلحقها وهن .

(٢) رواه البخاري . والقيراط : جزء معين من الدرهم او الدينار . ولعل هـذا اصح من تفسير « قراريط » بمكان معين قرب أجياد .

(٣) رواه ابن الاثير ورواه الحاكم عن علي بن ابي طالب ، وقال عنه : صحيح على شرط مسلم . ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر .

المبادىء والعبر :

اولا ـ قصة بحيرا :

يدل حديث بحيرا الذي مر ذكره ، على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، كان عندهم علم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكانوا يعرفون علاماته ، وذلك بواسطة ما جاء في التوراة والانجيل من خبر بعثته وبيان صفاته وأوصافه . والدلائل على ذلك كثيرة ومستفيضة .

فمنها ما رواه علماء السيرة من أن اليهود كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، ويقولون : ان نبيا سيبعث قريبا ، سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم !. ولما نكثوا عهدهم أنزل الله في ذلك قوله : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين) البقرة : ٨٩ وروى القرطبي وغيره أنه لما نزل قول الله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) البقرة : ٢٣٦ سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام ، وقد كان كتابيا فأسلم : أتعرف محمدا كما تعرف ابنك ؟ فقال : نعم وأكثر . بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته . أما ابني ، فلا أدري ما الذي قد كان من أمه ! .. ولقد كان سبب اسلام سلمان الفارسي تتبع خبر النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته من الانجيل والرهبان وعلماء الكتاب .

ولا ينافي هذا أن كثيرا من أهل الكتاب (كما ترى اليوم) ينكرون هذا العلم ، وأنك ترى الأناجيل المتداولة خالية عن الاشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فمن المعلوم بالبداهة ، ما تقلب على هذه الكتب من أيدي التبديل والتغيير المتلاحقة . وصدق الله إذ يقول في محكم كتابه :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وإن هم إلا يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » البقرة : ٧٨و٧٩ .

إلا أن العجيب حقا أن في المستشرقين من زج بـه التعصب الى نهاية هي أشبه بالجنون من أي اتجاه فكري مقبول . فقد وُجد من عمد الى هذه الدلالة التي تكمن في شهادة بحيرا ، فنكسها تنكيسـا وأطلقها بنقيض ما تنطق بـه ، واستخرج منها برهانا على أن بحيرا هو الذي ألف القرآن لمحمـد عليه الصلاة والسلام . فقد ألف مستشرق فرنسي كتابا أسماه : « مؤلف القرآن » قرر فيه أن ذلك اللقاء العابر بين الطفل محمد عليه الصلاة والسلام وبحيرا الراهب والذي لم يدم أكثر من ساعة من نهار ، دليل علمي على أن ذلك الطفل قد تلقى من بحيرا في ذلك اللقاء القرآن كله ، بكل ما تضمنه من أحكام وتعليق على أحداث متفرقة كلها وقع بعـد ذلك اللقاء بما لا يقل عن ثلاثين عامـا ، وبحيرا جثة هامدة في طوايا التراب .

فانظر الى ما تصنعه العصبية ضد الحق ، كيف تعمي العقل عـن رؤيـة البدهيات ، وتوقع صاحبها في أطرف انواع الهذيان ! .. إن محمدا الطفل استوعب القرآن كله من بحيرا في ساعة واحدة . فاستبطنه الطفل في ذاكرته ، ثم أخذ يديه في الوقت المناسب شيئا فشيئا ! .. وبحيرا الذي لقنه هذا القرآن لم يكن مجرد راهب ، بل كان يعلم غيوب المستقبل كلها . انبسطت أمامه الأحداث التي ستقع بعد أربعين وخمسين عاما على وجه الدقـة والتفصيل ، وأخذ يضع التعليقات المناسبة عليها واحدة فواحدة ، كما لـو كانت وقعت وانقضت . والمطلوب من الناس ، في نظر هذا المستشرق ، أن لا يصدقوا بأن محمدا نبي وأن القرآن كلام الله ، بل يصدقوا ما يقوله هو لهم من أن بحيرا (علام الغيوب) هـو لا غـيره مؤلف القرآن . فهذا هو الذي يؤيده العقل ويتفق مع العلم ووقائع التاريخ ! ..

فهل تجد عقلا سليما من لوثة المس يصدق هذا الكلام ؟ !

ثانيا ـ اقباله عليه الصلاة والسلام على رعي الاغنام :

فيه ثلاث دلالات :

الاولى : الذوق الرفيع والاحساس الدقيق اللذان جمل الله بهما نبيه محمدا

صلى الله عليه وسلم . فلقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له في الحنو والشفقة عليه كالأب الشفوق . ولكنه ما ان آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، أملا في ان يرفع بعض ما يمكنه رفعه من مؤونة الانفاق عن عمه . وربما كانت الفائدة التي يجنيها من وراء عمله هذا ، قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبي طالب . الا انه تعبير أخلاقي رفيع ، على كل حال ، عن الشكر ، ثم هو بذل للوسع ، وشهامة في الطبع ، وبر في المعاملة .

الثانية : وتتعلق بنوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا . لقد كان سهلا على القدرة الالهية أن تهيىء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر حياته ، من اسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعيا وراء القوت .. ولكن الحكمة الالهية اقتضت أن نعلم أن خير مال الانسان هو ما اكتسبه بكد يمينه ولقاء ما يقدمه من جهد وخدمة لمجتمعه وبني جنسه . وشر المال ما أصابه الانسان وهو مستلق على ظهره ، دون أن يرى أي تعب في سبيله ، ودون أن يبذل أي فائدة للمجتمع في مقابله .

الثالثة : إن صاحب أي دعوة ، لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس اذا كان كسبه ورزقه من وراء دعوته وعلى اساس من عطايا الناس وصدقاتهم . ولذا فقد كان صاحب الدعوة الاسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي أو أي مورد شريف لاستجداء فيه، حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة أو فضل في دنياه ، يعوقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه غير مبال بالموقع الذي قد تقع من نفسه .

وهذا المعنى وإن لم يكن (ربما) قد خطر على بال رسول الله في هذه الفترة ، غير أن هذا النهج الذي هيأه الله له ، ينطوي على هذه الحكمة ،ويوضح أن الله تعالى قد أراد أنلا يكون في شيء من حياته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي فيما بعد البعثة .

ثالثا ـ حفظ الله له من الآثام :

تتبين لنا من خلال ما قصه علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كيفية حفظ الله له من السوء والآثام حقيقتان اثنتان :

الاولى : أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتمتع بخصائص البشرية كلها ، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها ، فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة ، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك على نحو ما يفعل الآخرون .

الثانية : أن الله قد عصمه على الرغم من ذلك عن جميع أنواع الانحراف ، وعن كل مالا يتفق ومقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها ، فهو حتى عند غياب الوحي الذي عصمه الله بسببه من الاستجابة لكثير من رغائب النفس ، يجد عاصما آخر خفيا يحول بينه وبين ما قد تتطلع اليه نفسه ، مما لا يليق بمن هيأته الاقدار لتتميم مكارم الاخلاق وارساء شريعة الاسلام .

وفي اجتماع هاتين الحقيقتين لديه عليه الصلاة والسلام ، دليل واضح على أن ثمة عناية الهية خاصة ، تسيره وتأخذ بيده ، بدون وساطة الاسباب المعلومة كوسائل التربية والتوجيه ، ومن هم الذين يمكن أن يوجهوه في طريق هذه العصمة غير الله عز وجل ، وكل الذين حوله من أهله وقومه وجيرانه ، غرباء عن هذا الطريق ، ضالون عن هذه الوجهة.

لا جرم إذن أن هذه العناية الالهية الخاصة التي سيرت شباب النبي عليه الصلاة والسلام في طريق من النور يسخر عباب الظلام الجاهلي ـ من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التي خلقه الله لها وهيأه لحمل أعبائها ، وعلى أن معنى النبوة هو الاساس في تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية والفكرية والسلوكية في الحياة .

ولقد كان من اليسير أن يولد الحبيب الأعظم ، وقد انتزعت من نفسه كل

هذه الدوافع الغريزية الى التمتع بالشهوات والأهواء ، وعندئذ لا يجد في نفسه ما يدفعه ، أصلا الى ترك أغنامه عند زميله ليهبط فيسمر مع شباب مكة ، غير أن ذلك لا يدل حينئذ على أكثر من شذوذ في تركيبه النفساني ، وهي ظاهرة توجد لها نماذج في كل قوم وعصر • واذن فلن يكون في ذلك ما يدل على العناية الخفية التي تصرفه عما لا يليق على الرغم من وجود الدوافع الغريزية المتجهة إليه • وانما اقتضت حكمة الله عز وجل أن يتجلى للناس من هذه العناية الالهية برسوله الكريم ، ما يسهل عليهم أسباب الايمان بنبوته ، ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب في صدقه •

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خديجة بنت خويلد ــ كما يروي ابن الاثير وابن هشام ــ امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، تضاربهم أياه بشيء تجعله لهم منه • فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الامانة وكرم الاخلاق ، أرسلت إليه تعرض عليه أن يخرج في مالها الى الشام تاجرا ، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فقبل منها محمد صلى الله عليه وسلم هذا العرض ، ورحل الى الشام عاملا في مالها ومعه غلامها ميسرة • فحالفه التوفيق ، وعاد الى خديجة بأرباح مضاعفة ، لم تعهد نظيرا لها من قبل • فأدى مالها عليه في أمانة تامة ونبل عظيم • ووجد ميسرة من خصائص النبي وعظيم أخلاقه في تلك الرحلة ما ملأ قلبه إعجابا ودهشة له ، وروى ذلك لخديجة •

وأعجبت خديجة بعظم أمانته ، وعرضت نفسها عليه زوجة بواسطة صديقتها (نفيسة بنت منية) وكانت قد رفضت طلب كثير من أشراف قريش منهم حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام • فوافق النبي على ذلك ، وكلم أعمامه في الأمر ، فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد ، وتزوجها عليه الصلاة والسلام وقد تم له من العمر خمسة وعشرون عاما ، ولها من العمر أربعون •

وقد كانت تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله برجلين ، الاول منهما

عتيق بن عائذ التميمي ، ثم خلفه عليها أبو هالة التميمي واسمه هند بن زرارة [1] وقد كان له منها كل أولاده ، إلا ابراهيم .

* * *

المبادىء والعبر :

أما عمله في مال خديجة ، فهو استمرار لحياة الكدح الـذي بدأه برعي الاغنام . ولقد شرحنا طرفا مما يتعلق بذلك من الحكمة والعبرة . ويؤخذ من هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام الامور التالية :

اولا ـ فضل خديجة رضي الله عنها :

لقد ثبت في الصحيحين عن النبي عليه الصلاة والسلام أن خديجة خير نساء زمانها على الاطلاق . فقد روى البخاري ومسلم ان عليـا رضي الله عنه سمع رسول الله يقول : خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد . وروى البخاري ومسلم أيضا عـن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما غرت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم الا على خديجة ، وإني لم أدركها . قالت وكان رسول الله إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة ، قالت فأغضبته يوما فقلت : خديجة ! .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني رزقت حبها .

وروى أحمد والطبراني من طريق مسروق عن عائشة ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يومامن الايام ، فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت الا عجوزا قد أبدلك الله خيرا منها ؟ فغضب ثم قال : « لا والله ما أبدلني الله خيرا منها . آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

---

(١) رواه ابن سيد الناس في عيون الاثر ، وابن حجر في الاول منهما ، والذي رجحه ابن سيد النـاس ورواه قتادة وابن اسحاق أن الاول منهمـا عتيق بن عائذ والثاني هند بن زرارة .

ثانيا ـ كلمة عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم :

أما زواجه مـن خديجة فانه يدل على عـدم اهتمام النبي بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، كما هو الشأن في سائر من كان في سنه آنذاك . إذ لو كان مهتما بشيء من ذلك ، لطمع بمن هي أصغر منه سنا ، أو ممن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ولبحث عن فتاة بكر شأن سائر الشباب من أقرانه . ولكنـه أعرض عن ذلك كله ورغب في خديجة لشرفها ونبلها وسمو أخلاقها .

ولقد ظل هذا الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاما ، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من عمره ، دون أن يفكر خلال هذه المدة كلها بالزواج من أي امرأة أو فتاة أخرى . وما بين العشرين والخمسين من عمر الانسان ، هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء ويتكاثر الميل فيه إلى الشهوات الجنسية .

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم تجاوز هذه المدة من العمر ، دون أن يفكر كما قلنا ، بفتاة كالتي يفكر فيها أمثاله من الشباب ، ودون أن يضم الى خديجة مثلها من الاناث ، زوجة أو أمة حسبما كان شائعا آنذاك ، ولو شاء لوجد الزوجة المناسبة والكثير من الاماء ، دون أن يخرق بذلك عرفا أو يخرج على مألوف بين الناس . هذا على الرغم من أنه تزوج خديجة وهي ، كما قلنا ، أيم ، تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الاسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يتسكعون وراء أفكارهم ، دون أي يقظة عقلية ولا تحرر فكري .

فقـد ظنوا أنهم واجـدون في موضوع زواج النبي مقتلا يصـاب منه الاسلام ، ويمكن أن تشوه من خلالـه سمعة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وتخيلوا أنهم قادرون أن يصوروه في أذهان الناس بمظهر الرجل الشهوان الغارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

غير أن موضوع زواجه صلى الله عليه وسلم من أوضح البراهين التي يمكن أن يستدل بها العاقل المتحرر من الاسبقيات الفكرية ، على نقيض هذا الذي يروجه أولئك الحاقدون .

إن الرجل الشهوان ، لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر في بيئة مثل البيئة العربية أثناء جاهليتها عفيف النفس ، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج من حوله . والرجل الشهوان ، لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب ضعف عمره ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه الى شيء مما حوله ، وان من حوله الكثير ، وله اليهن أكثر من سبيل ، ويظل على هذه الحال الى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ثم يدخل في مدارج الشيخوخة .

أما النساء اللاتي تزوج بهن فيما بعد : فانما كان زواجه بهن خلال السنوات العشر الاخيرة من حياته . ولكل منهن قصة ، ولكل زواج حكمة وسبب ، يزيدان في ايمان المفكر الحر بعظمة محمد صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه وكمال أخلاقه . وأيا كانت الحكمة او السبب ، فانه لا يمكن أن يكون زواجه في تلك السنوات المعدودة الاخيرة من حياته ، تعبيرا عن الرغبة في قضاء الوطر الجنسي . لو كان الامر كذلك ، لكان أحرى به أن يستجيب لهذا الوطر في الوقت الطبيعي لمثل هذه الرغبة . لا سيما وقد كان اذ ذاك خالي الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجاته الفطرية الطبيعية .

ولسنا نرى الاطناب في الدفاع عن زواجه عليه الصلاة والسلام ،على نحو ما يفعل كثير من الباحثين اليوم ، اذ لا نعتقد ان في شيء من الحقائق التي أوضحناها ما يستعصي فهمه على أحد من العقلاء . ورب حق من حقائق الاسلام ، لا يطمع خصومه لابطاله أو التشويش عليه ، بأكثر من استجرار المسلمين الى مناقشة دفاعية في شأنه .

ثالثا ـ اهلية المرأة في الجاهلية :

على الرغم مما كان لخديجة من مكانة في قومها ، كما أوضحناه ، فقد كان العرف الجاهلي يمنعها من أن تمارس التعامل بمالها ، بيعا وشراء ، نظرا الى أن

المرأة في الجاهلية لم تكن تملك أي أهلية مدنية تخولها هذا الحق . ولذا كانت تضطر الى ان توكل في ذلك الرجال ، على جعل تؤديه إليهم لقاء ذلك .

وإنما ارتفع عنها هذا الحظر ، وامتلكت كامل حقوقها المدنية ، بفضل الشريعة الاسلامية التي أعادت الى المرأة اعتبارها وقررت مساواتها في الحقوق العامة مع الرجال .

ولهذاالبيان الموجز تفصيل طويل الذيل ، تقرأه في مكانه من كتب الفقه الاسلامي .

إلا أن من المفيد أن نعلم هنـا ، بأن ذلك التصور الجاهلي لمكانة المرأة وحقوقها إنما كان انعكاسا لما كانت عليه المرأة في معظم أطراف العالم . ومن المعروف أن مؤتمرا كان يجمع جمهرة المفكرين في فرانسا أيام بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، كان الموضوع المطروح فيه هو البحث في حقيقة المرأة هل ينطبق عليها اسم الانسان أم لا . ولقـد انتهوا بعد طول نقاش وجـدال الى ان المرأة ليست حيوانا مختلفـا عن الانسان بل هـي داخلة تحت هـذا النوع المتميـز من الحيوانـات ! ..

بنـاء الكعبـة

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لاعادة بنـاء الكعبة . إذ كانت قد تعرضت لعوادي أوهنت بنيانهـا وصدعت جدرانها . ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها من بقايا ما ظل محفوظا من شرعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بين العرب .

ولقد شارك رسول الله قريشا في بناء الكعبةوإعادة تشييدها مشاركة مباشرة فعالة .. فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه الا ازاره .

روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله أنه قال : لما بنيت الكعبة ، ذهب النبيوالعباس ينقلان الحجارة . فقال العباس للنبي صلى الله عليه

وسنم : اجعل ازارك على رقبتك • فخر الى الارض ، وطمحت عيناه الى السماء وقال : أرني ازاري ، فشده عليه •

وقد كان له صلى الله عليه وسلم أثر كبير في حل المشكلة التي تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الاسود في زاويته • فقد اشتد الخلاف بينهم حتى آل بهم الامر الى اللجوء الى الحرب ! •• واستعدوا للقتال ، وقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، وتعاقدوا ، هم وبنو عدي ، على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة •

ومكثت قريش على ذلك أياما ، ولكنهم اتفقوا أخيرا ، وهم مجتمعون عند الكعبة ، على أن يحكموا أول داخل اليهم • فكان رسول الله أول داخل اليهم • فلما رأواه ، قالوا جميعا : هذا الامين رضيناه •

ودعا رسول الله بثوب كبير ، وأخذ الحجر فوضعه فيه ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا • ففعلوا ذلك • حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده في مكانه [1] •

* * *

المبادىء والعبر :

نتناول في تعليقنا على هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام الامور التالية :

الامر الاول ـ بيان اهمية الكعبة وما جعل الله لها من شرف وقداسة في الارض، والكشف عن اسباب ذلك :

فأول هذه الاسباب أن الذي باشر تأسيسها وبناءها هو إبراهيم خليل الرحمن ، بأمر من الله عز وجل ، لتكون أول بيت لعبادة الله وحده ومثابة للناس وأمنا ••

---

(١) سيرة ابن هشام : ١٩٢/١ ـ ١٩٧ •

السبب الثاني حاجة المسلمين في سائر الازمنة والعصور الى محور مادي يجسد وحدتهم واجتماعهم على عقيدة التوحيد ، ونبذ جميع الصور والتصورات الخرافية للعبادة والدين . وليس أجدر من هذا البيت الذي هو أول بيت بني على وجه الارض لعبادة الله وحده ، رمزا لشعار هذا التوحيد ، وتعبيرا عن تلاقي المسلمين مهما تفرقت بهم الاماكن والعصور ، على عقيدة هذا التوحيد ، ونبذ سائر انواع الخرافات والاساطير التي أبدعتها أخيلة أصحاب الاغراض والاهواء .

فمن أجل ذلك اختارها الله قبلة يتجه اليهاالمسلمون حيثما كانوا من شرق العالم أو غربه أو سائر جهاته الاخرى ، وهو تذكير دائم لهم بأنهم أمة واحدة ، إذ ان عقيدتهم واحدة . ولا شيء يجمع شتات الناس على صراط واحد ، بل على قلب واحد ، مثل العقيدة الواحدة ، لا سيما اذا كانت صحيحة قائمة على دعائم اليقين العلمي ، اذ لا تستطيع الحضارات المتناسخة أن تجتثها أو تستبدل بها .

وهذا يعني ــ كما هو واضح ــ أن الكعبة ، ليس لها ، في عقيدة المسلم ، أي تأثير على الطائفين حولها أو العاكفين فيها أو المتجهين إليها . إذ هي (على ما لهـا من قداسة وحرمة) حجارة لا تضر ولا تنفع . ولكن الله جعلها شعيرة للتوحيد والمعاني التي اشرنا اليها . فتعظيمها من حيث ان الله جعلها شعيرة على ذلك ، وذلك بموجب قوله عز وجل : « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » وقوله عز وجل « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » البقرة : ١٢٥ .

الامر الثاني : بيان اهم ما تعاقب على الكعبة من الهدم والبناء :

بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات بيقين ، أخذت في كل مرة منها نوعا من التغيير في شكلها وحجمها . ووقـع الخلاف والشك فيما قبل هذه المرات الاربع . أما بعدها ، فلم يعد الامر أن يكون ترميما ومحافظة عليها على الشكل الذي هي عليه .

أما المرة الاولى ، فهي التي قام بأمر البناء فيها ابراهيم عليه الصلاة والسلام بمعونة ابنه اسماعيل عليه الصلاة والسلام . وذلك استجابة منه لامر ربه جل جلاله . ثبت ذلك بصريح الكتاب والسنة الصحيحة . أما الكتاب فقوله تعالى :

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » البقرة : ١٢٧ .

وأما السنة فأحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخاري بسنده عن ابن عباس ، وجاء فيه : « .. ثم قال ـ أي ابراهيم ـ يا اسماعيل ان الله أمرني بأمر ، قال فاصنع ما أمرك ربك .. قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فان الله أمرني أن أبني ههنا بيتا ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني » .

ونقل الزركشي عن الازرقي في تاريخ مكة أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، جعل طول بناء الكعبة في السماء سبعة أذرع وطولها في الارض ثلاثين ذراعا وعرضها في الارض اثنين وعشرين ذراعا ، وكانت بغير سقف [1] وحكى السهيلي أن طولها في السماء كان تسعة أذرع[2] أقول : ولعل هذه اقرب من رواية الازرقي .

وأما المرة الثانية ، فهي تلك التي بنتها قريش قبل الاسلام ، واشترك في بنائها النبي عليه الصلاة والسلام ، كما ذكرنا . فجعلوا طولها في السماء ثماني عشرة ذراعا ، ونقصوا من طولها في الارض ستة أذرع وجزءا من الذراع تركوها في الحجر [3] .

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روته عائشة : « يا عائشة،

---

(١) اعلام المساجد للزركشي : ٤٦ .

(٢) عيون الاثر لابن سيد الناس : ٥٢/١ .

(٣) روى ذلك البخاري في كتاب الحج باب فضل مكة ، وانظر اعلام المساجد للزركشي ص : ٤٦ .

لو لا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية ، لامرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالارض وجعلت لـه بابا شرقيا وبابا غربيا ، فبلغت بـه أساس إبراهيـم » [1] .

وأما المرة الثالثة ، فقد كانت عندما احترق البيت ، زمن يزيد بن معاوية ، حين غزتها جيوشه من أهل الشام ، وخلاصة ذلك أنهم حاصروا عبد الله بن الزبير بمكة بقيادة الحصين بن نمير السكوني ، في آخر سنة ست وثلاثين ، بأمر من يزيد ، ورموا البيت بالمنجنيق ، فتهدم واحترق . فانتظر ابن الزبير حتى قدوم الناس الموسم ، فاستشارهم قائلا : أيهـا الناس أشيروا علي في الكعبة ، أنقضها ثم أبني بناءها ، أم أصلح ما وهى منها ؟ فقال ابن عباس : أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه وأحجارا أسلم الناس عليها . فقال ابن الزبير : لو كان أحدكم احترق بيته مارضي حتى يجده فيكف بيت ربكم ؟! إني مستخير ربي ثلاثا ، ثم عازم على أمري . ثم باشر نقضه بعد ثلاثة أيام ، حتى بلغوا بـه الارض . فأقام ابن الزبير أعمدة من حوله وأرخى عليها الستور ، ثم باشروا في رفع بنائـه ، وزاد فيه الاذرع الستة التي قد أخرجت منه ، وزاد في طولـه الى السماء عشرة أذرع . وجعل له بابين ، أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه . وانما جرأه على ذلك حديث عائشة السابق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

وأما المرة الرابعة ، فقد كانت بعد مقتل ابن الزبير . روى مسلم بسنده عن عطاء أنه لما قتل ابن الزبير ، كتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير وضع البناء على أس نظر اليه العدول من أهل مكة . فكتب اليه عبد الملك بن مروان : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء . أما ما زاد في طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر ، فرده الى بنائه وسد الباب الذي فتحه . فنقضه واعاده الى بنائـه [3] .

قالوا ، وقد عزم الرشيد بعد ذلك على ان ينقضها ويعيدها كما بناها ابـن

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري .
(٢) انظر عيون الاثر لابن سيد الناس : ٥٣/١ .
(٣) مسـلم : ٩٩/٤ .

الزبير . فقال له مالك بن أنس رحمه الله : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك ، لايشاء أحد منهم أن يغيره الا غيره ، فتذهب هيبته من قلوب الناس . فصرفه عن رأيه فيه [1] .

فهذه هي المرات الاربع التي بنيت الكعبة فيها بيقين .

أما الخامسة التي وقع فيها الشك والخلاف . فهي تتعلق بما قبل بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام . هل كانت الكعبة مبنية قبل ذلك أم لا ؟ .

جاء في بعض الآثار والروايات ، أن أول من بناها انما هو آدم عليه الصلاة والسلام . ومن أبرز ما ورد في ذلك ما رواه البيهقي في دلائل النبوة من حديث عبد الله بن عمرو قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعث الله عزوجل جبريل إلى آدم وحواء ، فقال لهما : ابنيا لي بيتا ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل حتى أصابه الماء ، فنودي من تحته حسبك يا آدم ، فلما بناه أوحى الله اليه أن يطوف به ، وقيل له أنت اول الناس ، وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح عليه الصلاة والسلام . ثم تناسخت القرون حتى رفع ابراهيم القواعد منه .

ثم قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعا . ومعلوم ان ابن لهيعة ضعيف لا يحتج به . وهنالك روايات اخرى قريبة في المعنى من هذا الذي رواه البيهقي ، الا أن جميعها لا يخلو من ضعف أو نكارة .

أما ما بعد هذه المرات الاربع ، فلا يعدو ان يكون ترميما او اصلاحا ، وقد بقيت على كل حال ، على حجمها وهيكلها اللذين انشئت عليهما في المرة الرابعة ، الى يومنا هذا .

الامر الثالث : مدى حكمة النبي صلى الله عليه وسلم في تدبير الامور :

نلحظ ذلك في الفتنة التي اشتد أمرها وذر قرنها ، ثم لم تنطفىء آثارها الا بالحكمة التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(1) ذكر بعضهم أن الذي عزم على ذلك ، واستشار فيه العلماء انما هو ابو جعفر المنصور ، وممن قال ذلك ابن سيد الناس في كتابه عيون الاثر .

وأي فتنة ؟ إنها الفتنة التي وصلت بأصحابها الى شفير الحرب ! ... وبين من ؟ بين أقوام قلما قامت بينهم خصومة ثم نامت قبل أن يراق فيما بينهم بسببها الدماء . وقد رأيت كيف انهم تعاهدوا على الحرب ، وجمعوا أيديهم في جفنة من الدماء ، تعاهدا منهم على ذلك . ثم خمدت هذه الفتنة من أيسر سبيل على يد رسول الله ! ..

ونحن يجب أن تتذكر ان مصدر هذه المزية التي تحلّى بها النبي عليه الصلاة والسلام انما هو النبوة التي أكرمه الله بها ، ومن ثم متعه بكل مقتضياتها الخلقية والفكرية والنفسية .

وقد يحيل ذلك بعض الباحثين الى العبقرية التي كان يتمتع بها ثم يقفون عند ذلك . ولكن الحقيقة أن هذه العبقرية ذاتها ليست الا أثرا من آثار نبوته التي أكرمه الله بها .

الامر الرابع ـ مدى سمو منزلة محمد عليه الصلاة والسلام في نفوس قومه :

فقد كان ملقبا عندهم ، كما رأيت ، بالامين ، وكان محبوبا لديهم جميعا : وكانوا لا يرتابون في صدقه إذا حدث ، وفي كريم أخلاقه إذا عومل . ولعل ذلك كله يتجلى بأجلى مظاهره عندما اغتبط الفرقاء المتخاصمون في تحكيمه دون أذ يشذ في ذلك منهم أحد ، وتصايحوا جميعا : هذا هو الامين ،رضينا به .

ان هذه الحقيقة تكشف لك عن مدى الحقد والعناد اللذين امتلأت بهما أفئدة هؤلاء الناس أنفسهم ، بعد أن جاءته الرسالة من عند الله ، وأخذ يبلغها الى هؤلاء الذين كان بالامس مثال الامانة لديهم ، ثم أصبح بسبب الرسالة التي حملها من الله اليهم مثال الكذب والافتراء . في نظرهم .

اختلاؤه في غار حراء

ولما أخذت سنه تدنو به نحو الاربعين ، نشأ لديه حب للعزلة بين الحين والآخر . وحبب اليه الاختلاء في غار حراء (وهو غار صغير يقع في قمة جبل

النور الواقع في الشمال الغربي لمكة) فكان يخلو فيه . ويتعبد الله ويدعوه على الطريقة الابراهيمية ، يذكر الله بالفكر والتأمل كثيرا من وقته .

وكان ينقطع عن الناس في ذلك الغار الليالي ذوات العدد ، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك . ثم يعود الى بيته ، فلا يكاد يمكث قليلا حتى يتزود من جديد ، لخلوة أخرى ، ويعود الكرة الى غار حراء .

وهكذا .. الى أن جاءه الوحي وهو في احدى خلواته تلك .

* * *

العبر والمبادىء :

لاشك أن هذه الخلوة لو لم تكن ذات أثر كبير في تربية النفس وتهذيبها ، وتهيئة رجل الدعوة للقيام بمهمته على خير وجه ، لما ربى الله رسوله عليها ، ولما جعل منها تمهيدا بين يدي الرسالة التي سيحمله الله اياها ليبلغها الناس ، ويدعوهم الى الايمان به والسير على صراطه .

فما هي أسباب أهمية هذه الخلوة ، وما هي آثارها التربوية في حياة الانسان ؟

نلخص القول في ذلك ، من خلال بيان أثرين عظيمين للخلوة التي يتعهد الانسان بها نفسه بالنظام الذي سنذكره فيما بعد :

الاثر الاول : تزكية النفس وتحريرها من كثير من الآفات التي تتحكم بها ، كالكبر والعجب والحسد والرياء وحب الدنيا .. الخ . فهذه الصفات آفات خطيرة في حياة الانسان من شأنها أن تتحكم بالنفس وتتغلغل الى أعماق القلب ، وتعمل عملها التهديمي في باطن الانسان ، على الرغم مما قد يتجلى به ظاهره من الاعمال الصالحة والطاعات المبرورة .

من أهم الوسائل التربوية الى معالجة هذه الآفات ، أن يختلي صاحبها مع نفسه ، بين كل فترة وأخرى . يتأمل في حقيقة ذاته ونفسه ، وخالقها ، وفي مدى

حاجته الى عناية الله وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة ، ثم يتأمل في الناس ومدى ضعفهم أمام خالقهم عز وجل وفي عدم أبي فائدة تأتي من مدحهم أو ضرر يأتي من قدحهم ، ما داموا جميعا في قبضة الله عز وجل ، ثم يتفكر في مظاهر عظمة الله ، وفي الاحداث الجسيمة التي هو مقبل عليها ولا مفر له منها بدأ من الموت ، فاليوم الآخر ،فالحساب وطوله ، وفي عظيم رحمة الله وشديد عقابه .

فان التفكير الطويل المتكرر فيهذه الامور ، يوجب تساقط تلك الآفات اللاحقة بالنفس ويحيي القلب بنور العرفان والصفاء ، فلا يبقى لمكر الدنيا وأهوائها الى قلبه من سبيل .

الاثر الثاني : تربية محبة الله عزوجل في القلب . وهي الروح الخفاقة التي لا بد منها لسائر الطاعات والعبادات ، كما أنها مصدر التضحية والجهاد وتحمل المشاق في سبيل مرضاة الله جل جلاله ، كما أنها أساس لكل دعوة صحيحة متأججة نابعة من القلب .

ومن الثابت يقينا أن محبة الله تعالى (بل محبة غيره أيضا) لا تأتي من مجرد اليقين العقلي . فالامور العقلية وحدها ما كانت يوما ما لتؤثر في العواطف والقلوب . ولو كان كذلك لكان المستشرقون في مقدمة المؤمنين بالله ورسوله ، ولكانت أفئدتهم من أشد الافئدة حبا لله ورسوله . وهل سمعت بأحد من العلماء ضحى بروحه لمجرد ايمانه بقاعدة رياضية مثلا ؟

انما الوسيلة الى هذه المحبة لله تعالى ــ بعد الايمان العقلي بـه ــ كثرة التفكير في نعمه وآلائه التي يتقلب فيها الانسان في كل لحظة من لحظات حياته ، وكثرة التأمل في صفاته العلية ، ثم الاكثار من ذكـره سبحانه وتعالى بالقلب واللسـان .

واستثارة الذهن الى هذه الافكار ، لا ينم إلا بشيء من العزلة والخلوة ، والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها ، خلال فترات متكررة متقطعة من الزمن .

وأثر العزلة في تحقيق هذين الاثرين العظيمين في حيـاة الانسان ، أشبه ما يكون بأثر عزلـة التاجر ، اذ يسهر مع دفاتره وحساباته ، بعيـدا عن الناس

وضوضائهم ، في تحقيق أسباب الربح والاستقامة في تجارته . فلو لا هذه الساعات التي يخلو فيها التاجر مع حساباته ودفاتره ، لما قدّم له صخب السوق وضوضاء متجره إلا عواقب الندامة والخسران .

واذا تأملت ، رأيت أن أكثر الذين تحققت لهم الهداية بعد الغواية والضلال ، انما صحوا الى حوافز هذه الهداية في ساعات من العزلة ، عادوا فيها الى أنفسهم بالتأمل الصافي البعيد عن ضوضاء المؤثرات الخارجية ، وعكر الشهوات والأهواء .

غير أن لهذه الخلوة قيودا وآدابا لا بد من مراعاتها والتمسك بها .

فهي يجب أن تكون ، قبل كل شيء ، خلوة جزئية ، يأخذ بها الانسان نفسه بين الحين والآخر ، لا انقطاعا كليا عن الحياة الاجتماعية ووظائفها .

ثانيا ، يجب أن تكون للخلوة التي يأخذ بها الانسان نفسه مضمون ومادة تتعلق بالهدف الذي تسخر الخلوة أداة تربوية له ، كقراءة القرآن بتأمل وتدبر ، وكذكر الله عز وجل بالقلب واللسان ، ونحو ذلك . وإلا فان هذه الخلوة نفسها يمكن أن تصبح وعاء أو مسرحا للاحلام والاخيلة الدنيوية والشهوانية التي فرّ منها . ومن هنا كان من المستحسن أن لا تتم الخلوة الا بمعونة مرشد صالح ومسلك عالم أمين .

وتلك هي الحكمة الكبرى من أخذ الله حبيبه ومصطفاه بهذه الخلوات ، بين يدي المهام الشاقة الكبرى التي سيحمله الله تعالى إياها .

بدء الوحي

روى الامام البخاري عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحي والتمهيد له :

« أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه (أي يتعبد) الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في

غار حراء . فجاءه الملك فقال له : اقرأ ، فقال ما أنا بقارىء ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني التالية ثم أرسلني فقال : إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : زملوني زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة واخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ، لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبدالعزى . وكان ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخا كبيرا قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال لهورقة : يا ابن أخي ما ذا ترى ؟ فأخبره رسول الله بالخبر . فقال ورقة : هذا الناموس (أي جبريل أو الوحي) الذي أنزل على موسى . ياليتني فيها جذعا (شابا قويا) ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ! .. فقال رسول الله أو مخرجي هم ؟! .. قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي . وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي . وفتر الوحي .

واختلفوا في الزمن الذي فتر فيه الوحي ، فقيل ثلاث سنوات ، وقيل أقل من ذلك . والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر [1] .

ثم روى البخاري عن جابر بن عبد الله ، قال ، وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : بينما أنا أمشي اذ سمعت صوتا في السماء ، فرفعت بصري ، فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض . فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني فأنزل الله عز وجل : يا أيها المدثر قم فأنذر ـ الى قوله : والرجز فاهجر . فحمي الوحي وتواتر .

* * *

(١) انظر فتح الباري : ٢١/١ .

الدلائل والعبر :

حديث بدء الوحي هذا ، هو الاساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته • وفهمه واليقين به هما المدخل الذي لا بد منه الى اليقين بسائر ما جاء بـه النبي عليه الصلاة والسلام من أوامر تشريعية وإخبارات غيبية • ذلك لان حقيقة الرحي هي الفيصل الوحيد بين الانسان الذي يفكر من عنـده ويشرع برأيه وعقله ، والانسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيـد •

ولذلك يهتم محترفو التشكيك بالاسلام ، بمعالجة موضوع الوحـي في حياته عليه الصلاة والسلام • ويبذلون جهدا فكريا شاقا في تكلف وتمحل ، مـن أجل التلبيس في حقيقته والخلط بينه وبين الالهام وحديث النفس ، وحتى الصرع أيضـا • لانه اذا أتيح لهم التشكيك بحقيقة الوحي ، هان عليهم التهوين من شأن كل ما يتفرع عنه من العقائد والاحكام •

ما هي حقيقة الوحي ؟

وخير ملاذ في مثل هذه الحالة ،اللجوء الى منطق العلم وبراهينه الحيادية ، وهو ما نلجأ اليه دائما كلما وجدنا أنفسنا أمام فرضيات ونظريات او تحليلات يطرحها في طريقنا ذوو الغايات وأصحاب الاسبقيات المذهبية والفكرية•

وسبيل المنطق العلمي في هـذا ، أن نستعرض الآراء المختلفة التي انتهى اليها المستشرقون ومن لف لفهم في تحليل ظاهرة الوحي وتفسير حقيقتها ، ونضع الى جانبها وبنفس الترتيب التفسير الاسلامي لهذه الظاهرة • ثم نحيل كل رأي منها الى موازين النظر العلمي المجرد ، واحدا اثر آخر • ثم نلجأ الى طريقة الحصر والاسقاط ، في استبعادكل مالايتفق مع الموازين العلمية ، واعتماد ما يتفق منها مع هذه الموازين أيا كان الرأي ، وأيا كان أصحابه •

مجموع ما قيل في تفسير ظاهرة الوحي :

ان مجموع ما قيل في تحليل ظاهرةالوحي المنسوبة الى محمد عليه الصلاة والسلام ، ينحصر في الاتجاهات التالية :

الاتجاه الاول : أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يزل يفكر في خلواته .. الى أن تكونت في نفسه ، بطريقة الكشف التدريجي المستمر ، عقيدة كان يراها كفيلة بالقضاء على التخلف ومظاهره في المجتمع العربي.

الاتجاه الثاني : أن محمـدا صلى الله عليه وسلم ، كـان من أولئك الذين يتمتعون باشراق نفسي وروحي ، فكانت تنعكس على شفافية نفسه أفكار يستلهمها بواسطة هذا الاشراق الروحي .

الاتجاه الثالث : ويتبناه غولدزيهر : أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان رجلا عصبيا أومصابابداء الصرع . وهكذا فان الوحي الذي كان يأتيه لم يكن في الحقيقة الا نوبات من الصرع يعاني منها بين الحين والآخر [1] .

الاتجاه الرابع : أن الوحي استقبال منه عليه الصلاة والسلام لحقيقة خارجة عن كيانه ليس له سبيل الى جلبها ولاردها ، تتمثل في خبر أو حكم يأتيه من الله بواسطة جبريل .

فلنعرض كلا من هذه الاتجاهات على ميزان المنطق والنظر العلمي واحدا إثر آخر . فما كان منها مخالفا له أقصيناه وما كان منها متفقا معـه أخذنا بـه وقبلناه .

ونبدأ بالنظر في لاتجاه الاول القائل بأن الوحي كشف نفسي داخلي جاء نتيجة الخلوات المتوالية والتفكير المستمر . فنقول قبل كل شيء :

لماذا ينسب أصحاب هذا الاتجاه الى رسول الله هذا الذي يسمونه بظاهرة الوحي ، ثم يتعبون أنفسهم بالنظر في تفسيرها وتحليلها ؟ أما نحن فان مصـدر

---

(١) حاضر العالم الاسلامي : ج ١ ص ٢٨و٢٩ .

يقيننا بوجود هذه الظاهرة في حياته انما هو الخبر الـذي نقل الينا عن طريق القرآن وعن طريق السيرة وصحاح السنة من حيث انها وثائق تاريخية . فلولا أن كلمة « الوحي » وردت الينا من هذه المصادر ، لمـا كان لها من وجود في أفكارنا . بل لما كان لها أي وجود في أفكار اعـداء الاسلام ، ومن ثم لم يكن ليقوم حولها أي بحث ولم تكن لتفسر بأي معنى من المعاني لا عندنا نحن المسلمين ولا عند غيرنا ، لانها كلمة غير ذات مضمون .

ومعنى هذا الكلام أن نسبة (الوحي) الى محمد عليه الصلاة والسلام ، من حيث هو ظاهرة مفهومة أو غير مفهومة ، أمر متفق عليـه عند جميع الباحثين بما فيهم المستشرقون واعداء الاسلام . وسبب هـذا الاتفاق دليل التاريخ .. التاريخ الذي يتمثل في وثيقـة القرآن والسنة الصحيحة والسيرة النبوية ، وفي مقدمة ذلك كله قصة بدء الوحي المروية في صحيح البخاري وغيره من مصـادر السيرة النبوية والمصادر التاريخية المختلفة .

وإذا كان هذا الكلام واضحا لا شبهة فيه ، فينبغي إذن ، أن نرجع للوقوف على تفسير هذه الظاهرة الى هذه المصادر التاريخية ذاتها ، اذا رأيناها تتولى تفسيرها بجلاء ووضوح . وليس من المعقول أبدا أن نستدل لاثبات « ظـاهرة الوحي » في حياته عليه الصلاة والسلام بنصوص التاريخ ووثائقه الصحيحة، ثم نعرض عن هذه النصوص والوثائق ذاتها إذا رأيناها تتولى لنا تفسير هذه الظاهرة وكشف اللثام عنها .

فنحن إما ان نضرب صفحا عن حديث التاريخ كله وعن تلك الوثائق التي تتضمن نسبة « الوحي » إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وعندئذ فليس لنـا أن نتحدث عن شيء اسمه الوحي في حياته ، ولا داعي الى أن نرهق أنفسنا بتحليله وتفسيره ، واما أن نعتمدها ونأخذ بها ، فان علينا اذن أن نلقي السمع الى كل ما تثبته وتنطق به هذه الوثائق والنصوص .

وما دمنا اتفقنا في اعتمادها والاخذ بها ، فان علينا أن نلقي السمع بالقبول الى كل ما تثبته وتنطق به في تفسير هذه الظاهرة .

يقول أصحاب هذاالاتجاه : ان الوحي كشف داخلي نفسي جاء من كثرة الخلوات والتفكير . ووثيقة بدء الوحي تنص على أن محمدا رأى كائنا بعينه خاطبه ، وضمه اليه ثلاث مرات حتى بلغ منه الجهد . فكيف يتفق ذلك التفسير مع هذا النص . ونحن ندرك هنا الحكمة من هذا الضم والارسال المتكررين ثلاث مرات . انه تاكيد بأن محمدا مستيقظ وليس بنائم ، والذي يخاطبه كائن مستقل عن ذاته ، وهاهو ذا يهزه ، ويضمه ويرسله .

وتقول الوثيقة أنمحمدا عليه الصلاة والسلام ، قذف في قلبه الرعب ، وخشي على نفسه من بدوات الجان ، ونزل عائدا الى داره مصفر الوجه وقد أخذته البرداء ، وقال لخديجة فور وصوله : زملوني زملوني . فكيف يتفق هذا مع اتجاه أن الوحي كشف نفسي داخلي ؟ وما موجب الرعب والهلع واصفرار اللون وسير البرداء في الجسد ، إذا كانت المسألة لا تعدو شعورا وكشفا داخليا ؟ وما أكثر الناس الذين تفيض نفوسهم بالالهام والكشف فهل سمعتأن فيهم من استبد به الخوف من جراء الهاماته النفسية تلك ؟ .. وهنا ندرك أيضا الحكمة من أن يترك الله رسوله لهذا القلق والرعب ، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وعنايته به يقضي بأن تلقى السكينة في قلبه وأن يعلمه الله بأن هذا جبريل أحد ملائكة الله جاءه بتباشير الرسالة والنبوة .. انه مرة أخرى تاكيد بأن محمدا صلى الله عليه وسلم أمام حقيقة مستقلة عنه ماثلة أمامه . وكان قلقه وخوفه ، أكبر برهان ينفي احتمال كونه إلهاما نفسيا أو شعورا داخليا .

وتقول الوثيقة إن الوحيانقطع عنه مدة طويلة ،بلغت ستة أشهر أو تزيد . وأن محمدا عليه الصلاة والسلام جزع من ذلك جزعا شديدا ، حتى إنه كان يحدث نفسه ـ كما روى البخاري ـ أن يتردى في شواهق الجبال . فكيف يتفق هذا مع تصور انه لا يعدو كشفا داخليا وشعورا نفسيا ؟ ومتى كان الملهمون اذا انقطع عنهم الالهام وأجدبت قرائحهم ، يقلقون ويضيقون ذرعا بالحياة ويحدثون أنفسهم بالانتحار ؟ .

وتقول الوثيقة التاريخية ان خديجة ذهبت بالنبي عليه الصلاة والسلام الى ورقة بن نوفل ، شيخ هرم لديه علم بالكتب السماوية السابقة ، فقال له ، بعد أن

حدثه رسول الله بخبر ما رأى : ان هذا هو الناموس (أي جبريل) الـذي نزل على موسى وعيسى • وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا • فكيف نوفق بين ما يتصوره أصحاب هذا الاتجاه وما يقوله هذا الشخ الهرم الذي لا مصلحة له في كذب أو تحوير ؟ •

ونظرا الى أن أصحاب هذا الاتجاه ، من الموقنين بهذه الوثيقة التاريخية ، والا لما نسبوا الى محمد عليه الصلاة والسلام ظاهرة الوحي ، إذن فلا مناص من الخضوع لهذه التفسيرات التي تتولاها هذه الوثيقة ذاتهـا والتي تؤكد بأن الوحي كان استقبالا منه صلى الله عليه وسلم لحقيقة مستقلة عن كيانه وذاته •

ولا يخرج الاتجاه الثاني في مضمونه عن الاول ، اذ سواء قلنا إنه كشف تدريجي نفسي ، أو اشراق روحي ، فالقاسم المشترك الذي يلتقى عليه هـذان الاتجاهان هو أن الوحي لدى أصحابهما شعور داخلي ، منبثق من النفس • فيقال لاصحاب هذا الاتجاه الثاني ما يقال لزملائهم أصحاب الاتجاه الاول •

أما القول بأنه صلى الله عليه وسلم كان يعاني من صرع وتشنجات عصبية ، فهو لا يرقى ــ حتى في نظر عامة الباحثين والمستشرقين الغربيين ــ إلى أي لياقة للنظر والبحث • وأبسط مايمكن أن يقوله أي عاقل لصاحب هذه النظرة العجيبة : متى كانت حالات الصرع والتشنجات العصبية مصدر تشريعات واخبارات ومبادىء أقل ما فيها أن المصروع لا يمكن أن يهضمها أو يتمثلها ؟

فاذا سقطت هذه الاتجاهـات الثلاثة عن مستوى المنطق والقبول العقلي ، فلا بد (بمقتضى قانون الحصر والاسقاط) أن نعتمد التفسير الاخير للوحي ، وهو :

انه حقيقة خارجة عن كيان محمد عليه الصلاة والسلام لا يملك جلبها اليه ولا دفعها عنه ، تمثلت في اخبار عن الله بواسطة جبريل • وهذا التفسير هو الذي يتفق مع مضمون الوثيقة التاريخية التي هي محل قبول من أصحاب الاتجاهات كلها • بل ان الوحي ذاته يعرف على ذاته بهذا التفسير • انظر الى هذه الآية الموحى بها الى محمد عليه الصلاة والسلام : « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » •

ثم ان استمرار الوحي الذي توالى بعد ذلك ، يحمل الدلالة ذاتها على حقيقة الوحي ، ويؤكد أنه لا يمكن أن يكون ظاهرة نفسية تمثلت بالكشف أو الاشراق الروحي . اذ لو فرضناه كذلك ، لاستوجب ذلك أن يكون القرآن من تأليفه ومن ثمرات كشفه أو اشراقه النفسي ، ويرفض ذلك رفضا باتا كل من الدلائل التاليـة :

أولا ـ التمييز الواضح بين القرآن والحديث . ومعلوم أن القرآن موحى به الى الرسول لفظا ومعنى ، أما الحديث فمعنـاه فقط هو الموحى به الى النبي عليه الصلاة والسلام . وانك لتنظر فتجد بين أسلوبي القرآن والحديث فرقا كبيرا جدا . وقد بحث في مظاهر هذا الفرق علماء البلاغة والبيان والذين كتبوا في اعجاز القرآن [1] فكيف يصدق مع هذا أن يقال ان القرآن والحديث كلاهما من تأليف رسول الله ؟

ثانيا ـ كان النبي يُسأل عن بعض الامور فلا يجيب عليها ، وربما يمر على ذلك زمن طويل ، حتى إذا نزلت في شأن ذلك السؤال آية أو آيات تضمنت الجواب ، طلب السائل ، وتلا عليه مانزل من القرآن في شأن سؤاله . وهو يدلّ دلالـة واضحة على ان القرآن ليس من تأليفه .

ثالثا ـ ربما تصرف الرسول في بعض الامور ، باجتهاد منـه ، على نحو معين . فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الاتجاه ، وربما تضمن الكثير منها عتبا عليه ولوما له ،وربما اشتد أسلوب العتب في بعض الآيات . كتلك الآيات التي يعتب الله عليه فيها بسبب اعراضه عن ذلك الفقير الاعمى الذي أقبل يسأله ، ويكلمه ، وهو منصرف الى بعض زعمـاء المشركين يكلمهم عن الاسلام ، ويأمل منهم قبولا له . وهي قوله عز وجل :

(عبس وتولى أن جاءه الاعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟! ..)

---

(١) انظر مبحث خصائص الاسلوب القرآني في كتاب من روائع القرآن ، لمـؤلف هذا الكتاب .

فكيف يمكن للعقل أن يقتنع بأن هذا الكلام كشف داخلي فاضت به نفس محمد عليه الصلاة والسلام ، الـذي تتضمن هذه الآيات عتبا شـديدا عليه ، كمـا ترى ؟! ..

رابعا ـ كان رسول الله أميـا .. وليس من الممكن ان يعلم الانسان عن طريق الكشوف النفسية حقائق تاريخية قديمة ، كقصة يوسف ، وقصة أم موسى حينما ألقت وليدها في البحر ، وقصة فرعون ، ولعلك قد علمت ، في فصول مرت من هذا الكتاب ، أن هذا من جملة الحكم في كونه صلى الله عليه وسلم كان أميا : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلوب » العنكبوت : ٤٨ .

خامسا ـ لقد كان النبي يؤكد في كل مناسبة أن هذا القرآن كلام الله لفظا ومعنى ، وأنه ليس الا الرسول المؤتمن لنقله الى الناس كما أنزل . ولقد عرفه المشركون كلهم صادقا أمينا طوال أربعين سنة من عمره . وهذا يستدعي أن يكون ، بالاحرى ، صادقا مع نفسه . ولذا فلا بد أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي التي جاءته ، على أي شك يخايل لعينيه أو لفكره . لذا فان محمدا نفسه أولى بالسؤال عن حقيقة هذا الوحي الذي يشعر به ، من أي انسان آخر يأتي بعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرنا ، ليقرر ما يراه هو في شأنه .

وكان الآية التالية ، جاءت ردا لاي من الاوهام التي تصور الوحي ظاهرة نفسية داخلية ، وتنبه النبي صلى الله عليه وسلم ذاته إلى هذه الحقيقة التي هي مستقلة عن ذاته وكيانه ، وآتية اليه من لدن رب العالمين جل جلاله :

« فان كنت في شك مما أنزلنا اليك ، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك : لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » يونس ٩٤ .

ولذا روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد نزول هذه الآية : لا أشك ولا أسأل .

* * *

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الثالث

من البعثة الى الهجرة

Damascus University

مقدمة

هذه المرحلة من الدعوة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهي ما بين البعثة والهجرة ـ هي أهم مراحل الدعوة كلها في حياته عليه الصلاة والسلام • فهي الاساس المكين للمراحل التالية التي سندرسها من سيرته صلى الله عليه وسلم فيما بعد •

وقد يبدو للناظر أن مراحل ما بعد الهجرة ، هي الاهم ، وهي التي أثمرت النتائج الحاسمة ، لانها كانت مصطبغة بالجهاد والقتال ، متدفقة الى خارج حدود الجزيرة العربية •

غير أن الحقيقة ليست على هذا التصور الذي قد يبدو لاول وهله • فان أهمية الدعوة ، لا تكمن في التقارع بالسلاح ولا بتجهيز الجيوش • وانما تكمن في عرض الحجج وتقديم البراهين ، وتبديد الوساوس والشبهات ، وازالة أغشية الجهالة عن العقول • ولن يأتي الجهاد بالسلاح بأي ثمرة إلا بعد اجتياز هذه المرحلة الارشادية الشاقة ، التي تحتاج الى صبر طويل واخلاص عظيم • وقد كانت مدة ما بين البعثة والهجرة ، هي عمر هذه المرحلة التأسيسية الهامة ، في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام •

وهي بمجملها تمثل مرحلة الدعوة السلمية التي استمرت ثلاثة عشر عاما • غير أنها تنقسم الى فترتين : الفترة الاولى وكانت الدعوة فيها سرا ، والفترة الثانية ، وتحولت فيها الدعوة الى جهر •

وسندرس فيما يلي خصائص الدعوة الاسلامية ، وأبرز معالم السيرة النبوية في كل من هاتين الفترتين على حدة •

الدعوة سرا

شرع النبي عليه الصلاة والسلام يستجيب لامر الله . فأخذ يدعو الى عبادة الله وحده دون ند ولا شريك ، والى نبذ سائر الاوثان والاصنام . ولكنه كان يدعو الى ذلك سرا ، حذرا من وقع المفاجأة على قريش التي كانت شديدة التعصب لوثنيتها وشركها ، كما أنه كان لايتجاوز بالدعوة حدود الاقربين ومن في حكمهم ممن يطمئن النبي صلى الله عليه وسلم الى جانبهم .

وكان في أوائل من دخل الاسلام ، استجابة له عليه الصلاة والسلام : خديجة بنت خويلد وعلي بن ابي طالب ، وزيد بن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبناه ، وأبو بكر الصديق ابن أبي قحافة . وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وخباب بن الارت ، وعمار بن ياسر وآخرون .

وكان هؤلاء وأمثالهم يلتقون مع النبي صلى الله عليه وسلم سرا ، وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة ، كقراءة قرآن ، أو صلاة ، استخفى في أحد شعاب مكة كي لا يعلم بأمره أحد .

ثم لما زاد عددهم على الثلاثين ، ما بين رجل وامرأة ، اختار لهم رسول الله دار أحدهم ، وهو الارقم بن أبي الارقم ، ليلتقي معهم فيها لحاجات الارشاد والتعليم والتعارف . وكانت حصيلة الدعوة في هذه المدة ما يقارب أربعين رجلا وامرأة ، دخلوا في الاسلام .وكان جلهم من الفقراء والارقاء وممن لا شأن له بقريش[1] .

وكانت جملة المدة التي نهض النبي عليه الصلاة والسلام بالدعوة الى الله فيها سرا ، ثلاث سنوات .

* * *

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٢٤٩/١ و ٢٦١ .

الدلائل والعبر :

١ ــ وجه السرية في بـدء دعوة النبي عليه الصلاة والسلام :

لا ريب أن تكتم النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته الى الاسلام خلال هذه المدة ، لم يكن بسبب الخوف على نفسه . إذ هـو لم ينهض بأعباء هذه الدعوة إلا بعد أن أيقن انه نبي مرسل من الله الى الناس ، ويستحيل أن يتقين ذلك ثم لا يوقن بأن الاله الذي بعثه رسولا الى الناس سيحميه ويعصمه منهم ، أجل إن من مقتضى ايمانه بأنه نبي مرسل ، أن يطمئن الى حمايـة الله ويتأكد من أن حافظ له .

ولكنه ــ وقد علم أن الله جعله قدوة للناس من بعده ــ سار في طريق الدعوة متكتما على حذر ووجل ، تعليما للدعاة من بعده ، وارشادا لهم الى مشروعية الاخذ بالحيطة ، والتمسك بالاسباب الظاهرة ، على أن لا يتغلب ذلك كله على الاعتماد والاتكال على الله وحده. اذ لو جهر بها من أول يوم غير مبال بالمزالق ومخاطر الطريق وبما تقتضيه الحيطة في الامر ، لثبت ذلك حكما تشريعيا في حق سائر الناس من بعده . ولوجب عليهم أن يغامروا في طريق الارشاد والدعوة الى الله دون اقامة وزن للاسباب المادية الظاهرة .

ولكن الله عز وجل لا يرضى لعباده ، أن يندفعوا بهـذا الشـكل ، بـل أرشدهم الى التعامل مع الاسباب واتخاذ أوجـه الحيطة على أن يكون القلب موقنا بأنّ الله هو وحده الفعال لمـا يشاء . فالهم رسوله محمدا ــ وقد جعلـه قدوة للناس ــ أن يتكتم في المراحل الاولى من حياة الدعوة ، ويتخذ لنفسه أوجه الحيطة ويتعقل الامر ويدبر له . حتى يكون ذلك منهجا متبعا للمسلمين من بعده .

٢ ــ تحديد كيفية الدعوة داخل في باب السياسة الشرعية :

ومن هنا ندرك أن أسلوب الدعوة الى الله ، من حيث اختيار الجهـر أو الاسرار ، أو الشدة أو اللـين ، داخـل في أحكام السياسة الشرعية أو ما يسمى بأحكام الامامة .

أي هو من الامور التي فوضها الله تعالى الى بصيرة الحاكم والامام المسلم المخلص ، المتبصر بوجه الحكمة والاسلوب الملائم للظروف والحال الراهنة . وهناك طائفة كبيرة من الامور والمشكلات ، لم يبرم الله أحكامها التفصيلية ، ولم يعطها الحكم الملائم في كل ظرف وحسب كل حال طارئة . وتسمى هذه الاحكام بأحكام الامامة أو السياسة الشرعية .

وبناء على هذا ، فانه يجوز لائمة المسلمين وأصحاب الدعوة الاسلامية ، في كل عصر ، أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة ـ من حيث الجهر والاسرار ، ومن حيث اللين والشدة ـ حسبما يقتضيه الظرف والحال . وهي مرونة قدرتها الشريعة الاسلامية استدلالا بواقع سيرته صلى الله عليه وسلم ، على أن يكون النظر في كل ذلك الى محور مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الاسلامية .

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين اذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة ، بحيث يغلب على الظن أنهم سيهلكون من غير أن يتركوا أي نكاية في اعدائهم ، اذا ما أجمعوا قتالهم ، فمن الواجب في هذه الحالة مراعاة مصلحة حفظ النفس ، لا ن المصلحة المقابلة وهي حفظ الدين ، موهومة او منفية الوقوع .

ويقرر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد فيقول :

« .. فاذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وارغام أهل الاسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ، ليس في طيها مصلحة » (١) .

والخلاصة أن أمر الجهر والاسرار ، واللين والشدة ، ينظر في اختيار الاصلح منها امام المسلمين أو جماعتهم على أن يكون مدار الاختيار اتباع مصلحة الامة الاسلامية والدعوة الاسلامية ، لا حظوظ النفس وأهواؤها .

---

(١) قواعد الاحكام في مصالح الانام : ج١ ص ٩٥ وانظر ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية للمؤلف : ٢٦١ .

٢ ـ لماذا كان المستضعفون هم اوائل الذين دخلوا في الاسلام واسرع الناس اليه ؟

من المعروف أن معظم الذين سبقوا الى الاسلام في هذه الفترة ، كانوا خليطا من الفقراء والضعفاء والارقاء . فما الحكمة من ذلك ؟ وما السر في أن تتأسس الدولة الاسلامية على أركان من مثل هؤلاء الناس ؟ .

والجواب أن كلا من فئة الفقراء والمستضعفين والفئات الاخرى من أولي الزعامة والغنى ، يشتركون في يقينهم بأن محمدا صادق فيما أخبر به ، محق فيما دعا اليه . الا أن اولى الزعامة والوجاهة في مجتمعهم يرون في اتباعهم لهذا الحق وانصياعهم له ، ما يكسر شوكتهم ويتهدد زعامتهم ويقضي على كثير من مصالحهم . أما الفقراء والضعفاء فليس لهم من الزعامة ومصالح الرياسة ما يحول بينهم وبين الاستجابة لهذا الحق الذي آمنوا به . بل ان فيه من مبادىء العدالة والدعوة الى المساواة ما يشرح صدورهم لقبوله واعتناقه .

ومعلوم أن من أهم وظائف الدين الحق في الحياة الدنيا ، اقامته موازين العدالة بين الناس ، وانصافه للمظلومين من الظالمين . وحسب هذا حافزا للمستضعفين على الاقبال اليه بطواعية واخلاص ، وحافزا لاولي الزعامة والطغيان على الاعراض عنه والمحاربة له ، على الرغم من يقينهم القلبي به فهم كما قال الله عز وجل عنهم : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا .. » .

من أجل هذا كان جل أتباع الانبياء والرسل السابقين ، من هذه الفئة ذاتها ، بينما كان الذين يناصبونهم العداء أولو الزعامة والثروة والطغيان .

ثم ان حقيقة هذا الدين الذي بعث به الانبياء والمرسلون عامة ، انما تتمثل في الخروج عن سلطان الناس وحكمهم الى سلطان الله وحكمه . وهي حقيقة تخدش الوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتنفذين ، وتناسب أول ما تناسب حالة المستضعفين والمستعبدين .

وإياك أن تتوهم أن دخول هؤلاء المستضعفين في الدين انما كان رغبة في البحث عن مصالحهم الشخصية المتمثلة في التحرر من سلطان الطغاة والمستعبدين ،

لا بدافع يقينهم القلبي بعقائد الاسلام ومبادئه .. فان هذا خيال باطل يخالف الواقع الذي لا مجال لاي شك فيه . ان الايمان بالله وحده والتصديق بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ،كان قدرا مشتركا ، كما ذكرنا ، بين زعماء قريش ومستضعفيها . فما منهم واحد الا وهو موقن بصدق محمد فيما يخبربه عن ربه . غير أن الفريق الاول وجد امامه ما عاقه عن الخضوع للحق والاعتراف به ، على حين لم يجد الفرق الثاني هذا العائق في وجهه فخضع لما آمن به قلبه ، وسار على النهج الذي استيقنه عقله . فدافعهم الى الايمان هو يقينهم العقلي الذي لم يجد لحسن الحظ ، أي عقبة تصدهم عن الاعتراف به أو تحملهم على الاعراض عنه .

٤ ـ إذن ، فالدعوة الاسلامية لم تكن من وحي البيئة العربية :

وبهذا نعلم عظم الفرية التي يفتريها بعض محترفي الغزو الفكري ، في هذا العصر ، عندما يزعمون بأن الدعوة التي قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، إنما كانت من وحي بيئته العربية وأنها إنما كانت تمثل حركة الفكر العربي وتطلعه الى التحرر من الوثنية والاشراك .

فلو كان الامر كذلك ، اذن لما كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها اربعين رجلا وامرأة ، جلهم من الفقراء والمستضعفين ، وفي مقدمتهم أخلاط من الاعاجم : صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، ولو كان الامر كذلك لما سار النبي بدعوته ، خلال هذه السنوات الثلاث ، سرا ، متكتما بها متخوفا للجهر بها . بل كان يجد في هذا التطلع العربي المزعوم ، ما يدعوه الى الاعلان بها في أسواقهم ومحافلهم ، فان ذلك أدعى الى أن يستجيبوا له ويشدوا من أزره .

وسوف تجد في المشاهد القادمة للسيرة النبوية ، ما يزيدك يقينا بمناقضة هذا هذا الوهم العجيب لواقع العلاقة التي كانت بين قريش والدعوة التي قام بها محمد عليه الصلاة والسلام .

* * *

الجهر بالدعوة

قال ابن هشام : ثم دخل الناس في الاسلام أرسالا ، من النساء والرجال ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وأخذ الناس يتحدثون به . فأمر الله رسوله ان يصدع بما جاء من الحق وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو اليه جهرا . وكان بين ما اخفى رسول الله أمره الى أن أمره الله باظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه . وأنزل الله عز وجل عليه في ذلك قوله « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وقوله « وأنذر عشيرتك الاقربين » .

وحينئذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمر ربه ، فصعد على الصفا ، وجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي ، حتى اجتمعوا إليه ، وجعل الذي لم يستطع أن يخرج ، يرسل رسولا ، لينظر ما الخبر !.. فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا ، قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . والله الذي لا اله الا هو ، لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون . ووالله انها لجنة أبدا أو لنار ، أبدا . فقال له أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟!

فأنزل الله على رسوله قوله « تبت يدا أبي لهب وتب .. الى آخر السورة »

ثم نزل رسول الله فاتجه الى داره ، وجمع من حوله أهله وجميع ذوي قرابته وعشيرته ، ائتمارا بقوله عز وجل : « وأنذر عشيرتك الاقربين » . فقال : يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يابني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد شمس أنقذوا انفسكم من النار . يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار . يابني عبد المطلب أنقذوا انفسكم من النار . يا فاطمة أنقذي نفسك من النار . فاني لا أملك لكم من الله شيئا ، غير أن لكم رحما سأبلها ببلاها[1] .

(١) متفق عليه . واللفظ لمسلم . وقوله : سابلها ببلاها ، اي ساصلها بصلتها .

وكان رد الفعل من قريش أمام جهره صلى الله عليه وسلم بالدعوة ، أن ادبروا عنه ، وتنكروا لدعوته ، معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذي ورثوه عن آبائهم ، وأصبح واحدا من تقاليد حياتهم .

وحينئذ نبههم الرسول عليه الصلاة والسلام الى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الاتباع والتقليد ، ودعاهم الى استعمال العقل والمنطق ، موضحا لهم أن آلهتهم التي يعكفون على عبادتها لا تفيدهم ولا تضرهم شيئا ، وأن توارث آبائهم واجدادهم لعبادتها ليس عذرا في اتباعهم لهم بدون دافع الا التقليد . قال لهم ذلك كله بعد أن أنزل الله عليه قوله في حقهم :

« وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ؟ !

فلما أخذ يعيب آلهتهم ويسفه عقولهم بسبب حكمهم عليها بضرورة الاتباع والتقليد الاعمى ، ولما جر اعتذارهم بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ، الى وصفه لآبائهم بعدم العقل ـ : أعظموا الامر ، وأجمعوا خلافه ومعاداته .. إلا قلة عصمها الله منهم بالاسلام ، وإلا عمه أبا طالب الذي حدب عليه ، ومنعه ، وقام دونه .

* * *

الدلائل والعبر :

في هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة والسلام عدة دلالات نجملها فيما يلي :

اولا ـ مفاجاة قريش بالدعوة التي خرج عليهم بها رسول الله :

ويبدو ذلك من الموقف الشنيع الذي اتخذوه منه ومن كلامه لهم ، حينما جمعهم حوله عند الصفا ، وخبرهم بخلاصة ما قد كلف بابلاغه اياهم . وانك لتجده واضحا من الرد الجارح الساخر الذي جابهه به أبو لهب ، أحد زعمائهم ، ثم في اتفاق معظم المشركين على معاداته ومقاومته .

وانك لتجد في ذلك الدليل على أن الدعوة التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام ، لم تكن من ثمرات الفكر العربي ، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يمثل بدعوته التي قام بها آمال العرب ومطامحهم في ذلك الحين .

والذين يروجون لهذه الفكرة ، هم أول من يعلمون بطلانها ، اذ كيف تكون دعوته تجسيدا لآمال قومه وطموحاتهم ، وقومه هم الذين عادوه وحاربوه من أجلها ، وأجمعوا على منابذته وقتله استنكارا لتمسكه بها وإخلاصه لها ؟

وستجد في مشاهد قادمة من السيرة النبوية ما يزيد هذه الحقيقة وضوحا وجلاء .

ثانيا ـ دعوة الاهل والاقربين ، ودرجات المسؤوليات :

قد يخطر في البال ، أن دعوته لعموم الناس ، تتضمن بطبيعة الحال دعوته للاقربين منهم . وكان يغني إذن الامر العام الذي توجه الى الرسول من الله عز وجل « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فما الحاجة الى الامر الثاني الذي جاء وراءه ، وهو قوله عز وجل : « وأنذر عشيرتك الاقربين » ؟ وانما عشيرته جزء من عامة الناس الذين كلف بابلاغهم ؟ ..

والجواب أنا اذا تذكرنا أن الآيات الاولى التي نزلت على رسول الله في بدء البعثة ، كانت تتضمن دعوته الى أن يبدأ فيستيقن بنفسه أنه نبي مرسل ، وأن هذا الذي رآه في غار حراء ، ثم رآه مرة ثانية بشكله الحقيقي المخيف ، إنما هو جبريل ، من مثل قوله تعالى « .. وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين، على قلبك لتكون من المنذرين » الشعراء : ١٩٣ ـ : أقول إذا تذكرنا ذلك ، علمنا أن في مجموع هذه الآيات إلماحا ، بل تصريحا بدرجات المسؤولية التي يتعلق بكل مسلم عموما وأصحاب الدعوة خاصة .

فأولى هذه الدرجات ، هي مسؤولية الشخص عن نفسه . ومن أجل اعطاء هذه الدرجة حقها وأهميتها ، استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة التي ذكرناها ، أي ريثما يطمئن محمد صلى الله عليه وسلم إلى أنه نبي مرسل وأن

ما يتنزل عليه وحي من الله عز وجل ، فيؤمن هو بنفسه اولا ، ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادىء وأوامر وأحكام . وهي مسؤولية عامة يشترك فيها كل المكلفين .

أما الدرجة الثانية ، فهي تتمثل في مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذ به من ذوي قرابته . وتوجيها للقيام بحق هذه المسؤولية ، خصص الله الاهل والاقارب بأمر خاص بهم ، بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به وهذه الدرجة الثانية يشترك في ضرورة تحمل أعبائها كل مسلم صاحب أسرة أو قرابة . لا فرق في ذلك بين الرسول وغيره ، الا أن الرسول يدعو لشرع جديد أوحي اليه وسائر الناس يدعون أقاربهم بدعوة الرسول الذي بعث اليهم .

وأما الدرجة الثالثة فتتمثل في مسؤولية العالم عن أهل حيه أو بلدته ، ومسؤولية الحاكم عن دولته وقومه .وكل منهما ينوب في ذلك مناب رسول الله ، اذ هما الوارثان الشرعيان له . لقولـه عليه الصلاة والسلام « العلمـاء ورثة الانبياء » (١) الا أن الرسول يبلغ ـ كما قلنا ـ شرعا جديدا يوحى اليه من الله عز وجل ، أما هؤلاء فيمشون على قدمه ويهتدون بهديه ويلتزمون سنته وسيرته فيما يعملون ويبلغون .

وإذن ، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام ، يتحمل المسؤولية تجاه نفسه بوصف كونه مكلفا مثل سائر الناس . وكان يتحمـل المسؤولية تجاه أسرته وأهله ، بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة قربى . ثم كان يتحمل المسؤولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيا ورسولا من الله اليهم جميعا .

ويشترك مع النبي في المسؤولية الاولى كل مكلف ، وفي الثانية كل صاحب أسرة ، وفي الثالثة العلماء والحكام .

ثالثا ـ حقيقة التقاليد وموقف الاسلام منها :

لقد رأيت ان النبي عليه الصلاة والسلام ، عاب على قومه أن يأسروا أنفسهم

---

(١) رواه احمد والاربعة من اصحاب السنن .

للتقاليد الموروثة عن الآباء والاجداد ، دون تفكر منهم بمدى صلاحها أو فسادها ، ودعاهم الى تحرير عقولهم من أسر هذه التقاليد ، ونزل في ذلك من الله عز وجل تسفيه لآبائهم وأجدادهم الذين حبسوا أنفسهم في أغلال هذه التقاليد .

فما هو معنى التقاليد ؟

والجواب أن التقاليد تعني « مجموع العادات التي يرثها الآباء عن الاجداد أو التي تسري بمجرد عامل الاحتكاك في بيئة من البيئات أو بلدة من البلدان ، دون أي نظر الى فائدة هذه العادات أو أضرارها » فهذه العادات تسمى « تقاليد » سواء كانت هي بحد ذاتها مفيدة أم لا . ذلك لان الانصياع لها لم يكن لما فيها من خير ، على فرض أن فيها ذلك ، وانما لان المجتمع من حولهم منصاع لها ، أو لان الآباء والاجداد كانوا متمسكين بها .

ومن ثم فان عادة من العادات ، قد تأخذ اسم التقليد في احدى البلاد او المجتمعات ، بينما تأخذ تلك العادة نفسها طابع المبدأ الفكري الصادر من القناعة العقلية في بلدة أخرى .. وذلك تبعا للعامل الذي يدفع الى الانصياع لها والتمسك بها .

اذا عرفنا هذا ، فاعلم أن الاسلام جاء حربا على التقاليد وتحذيرا من الدخول في أسرها . يتبين لك ذلك من الموقف الذي أتخذه رسول الله من تلك التقاليد التي كان المشركون يعتزون بها لانها ميراث من الآباء والاجداد ، ومن الآيات القرآنية التي نزلت ردعا لهم عن السير الاعمى وراء ما كان عليه الآباء والاجداد .

وانما علمنا رسول الله أن مبنى هذا الدين ـ بما فيه من عقائد وأحكام ـ انما هو على العقل والمنطق، وأن الهدف من وراء الدعوة الى التمسك بذلك كله انما هو مصلحة الناس العاجلة والآجلة .. ولذا كان من أهم شرائط صحة الايمان بالله وما يتبعه من سائر الامور الاعتقادية ، أن يقوم على أساس من اليقين العقلي والفكر الحر ، دون أن يكون الدافع اليه عزما أو تقليدا . وقد اتفق جل علماء العقيدة على أن المسلم الذي يعتنق الاسلام تقليدا للبيئة أو الآباء والاجداد ، بحيث لو تحولت البيئة التي يقلدهاالى دين آخر لتحول معها ، لا يكون اسلامه

مقبولا عند الله عز وجل . وفي ذلك يقول صاحب جوهرة التوحيد :

فكل من قلد في التوحيد ايمانه لم يخل من ترديد

فان قلت : فماذا نسمي أحكام الاسلام المتعلقة بالاخلاق والعبادات والاجتماع ، كحكم الحجاب للمرأة وحرمة اختلاطها وخلوتها مع الرجل ، وكحرمة الربا والميسر ، ووجوب الحج والصوم والزكاة ؟

والجواب أن هذه الاحكام كلها تدخل تحت اسم المبادىء . ولا يجوز تسميتها تقاليد بحال من الاحوال . والمبدأ كل سلوك يلتزمه الانسان اقتناعا منه بما فيه من خير وفائدة له او للمجتمع .

وما شرع الله شيئا من الاحكام التي ألزم بها الا نظرا الى ما في كل منها من الخير والمصلحة العائدين إما الى الفرد أو المجتمع .. ولا يخدش هذه الحقيقة الثابتة أن يكون في الناس من لا يعلم بعض هذه الفوائد أو المصالح .

ولذلك فان الشريعة الاسلامية عندما أقرت بعض التقاليد الموروثة لدى العرب ، لما فيها من خير ومصلحة تعودان الى الامة أفرادا أو جماعة ، ألغي اسم التقاليد منها منذ ذلك الحين . وصنفت تحت اسم المبادىء والقيم .. ذلك لان الاسلام لم يثبتها ويدع اليها تقليدا لما كان عليه الآباء والاجداد ، وانما يقينا بما فيها من فائدة للناس .

ومن هنا يتبين لك مدى الخطأ الذي يقع فيه من يطلقون كلمة « التقاليد الاسلامية » على مختلف ما يتضمنه الاسلام من العبادات والاحكام التشريعية المختلفة .

والواقع أن اطلاق هذا الشعار على المبادىء والاحكام الاسلامية ، ليس في مصدره خطيئة عفوية غير مقصودة . وانما هو حلقة في سلسلة حرب الاسلام بالشعارات الباطلة والمدسوسة .

فالغرض الاول من ترويج كلمة « التقاليد الاسلامية » هو أن يسدل فوق معظم المبادىء والاحكام الاسلامية شعار « التقاليد » حتى اذا مر على ذلك

زمن ، وارتبط هذا الاسم في أذهان الناس بأحكام الاسلام ومبادئه ، ونسوا أنها لم تشرع إلا بناء على ما يقتضيه المنطق والعقل السليم ، أصبح من السهل على أعداء الاسلام أن يحاربوه من خلال هذه التسمية وهي النقطة التي تنفذ اليها سهامهم وحرابهم .

إذ لا ريب أن المسلمين اذا استفاقوا ، ليجدو معظم المبادىء والاحكام الاسلامية المختلفة ، قد صبغت باسم التقاليد ، فان من الطبيعي أن ينهض فيهم من يدعو الى نبذ التقاليد والخروج عن أسرها ، خصوصا في هذا العصر الذي اصبحت السيادة فيه ـ ولو من حيث الظاهر ـ لحرية الرأي والفكر . ولا شك أنها دعوة منطقية سليمة لا تجد عاقلا يستطيع أن يناهضها . وبذلك تصبح الاحكام والشرائع الاسلامية ضحية هذه التسمية الزائفة .

ولكن اذا رأيت من يحارب الشرائع الاسلامية اليوم ، فعلا ، بحجة أنها تقاليد بائدة ، لا تتماشى وعصر العلم وحرية النظر والفكر ، فاذكر له أن نبي الاسلام هو أول من أعلن الحرب على التقاليد ، وأهاب بالناس أن يعتقوا أنفسهم من قيودها . واذا كان ثمة أحكام تركها لنا هذا الرسول من بعده بلاغا عن الله عز وجل، فان هذه الاحكام أبعد ما تكون عن معنى « التقاليد » انها مبادىء اقامها الله عز وجل على محور المصالح الانسانية العاجلة في هذه الدنيا ، والآجلة في العقبى ، لاعلاقة لها بالسير وراء بيئة ولا بالتزام عادة دأب عليها الآباء والاجداد.

* * *

الايذاء

ثم ان قريشا اشتدت في معاداتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آمن به .

أما رسول الله ، فقد لاقى من إيذائهم أنواعا كثيرة ، من ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا .

فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي عليه الصلاة والسلام وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله [1] .

ومنه ما روى عبد الله بن عمر قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم ساجد ، وحوله ناس من قريش ، جاء عقبة بن أبي معيط بسلاجزور ، فقذفه على ظهر النبي عليه الصلاة والسلام ، فلم يرفع رأسه . فجاءت فاطمة رضي الله عنها فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك [2] ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزء والغمز واللمز ، كلما مشى بينهم أو مر بهم في أسواقهم ونواديهم .

ومنه ما روى الطبري وابن اسحاق أن بعضهم عمد الى قبضة تراب فنثرها على رأسه صلى الله عليه وسلم وهو يسير في بعض سكك مكة . وعاد الى بيته والتراب على رأسه . فقامت اليه إحدى بناته ، تغسل التراب عن رأسه وهي تبكي ، ورسول الله يقول لها : يابنية لا تبكي فان الله مانع أباك [3] .

وأما أصحابه رضوان الله عليهم فقد تجرع كل منهم ألوانامن العذاب ، حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي ، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئا . ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج عن الاذى والعذاب الذي لاقاه كل منهم . ولكنا ننقل هنا ما رواه الامام البخاري عن خباب بن الارت أنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة ، وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال : لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه . وليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله [4] .

* * *

(١) رواه البخاري في صحيحه .
(٢) رواه البخاري ايضا .
(٣) تاريخ الطبري : ٢/٣٤٤ وسير ابن هشام : ١/١٥٨ .
(٤) انظر ما لقيه رسول الله واصحابه ، من انواع الاذى والتعذيب في كتب السيرة وفي مقدمتها سيرة ابن هشام ، وعيون الاثر لابن سيد الناس .

الدلائل والعبر :

السؤال الذي يطرحه هذا المشهد من سيرته عليه الصلاة والسلام هو :

ـ لماذا لم يعصم الله رسوله واصحابه من شدائد هذا الايذاء ؟

والجواب على هـذا السؤال يتكامل مع ملاحظة جوانب متعـددة تتعلق بالموضوع :

١ ـ ان العصمة التي أخذ الله على نفسه أن يحوط رسوله بها ، انمـا هي العصمة من القتل ، أي من أن تغتال الرسالة التي كلف بابلاغهـا ، في شخصه ؛ وليست تعني حفظه من المكروه ومما قد يتعرض له الدعاة من الايذاء .

٢ ـ ان من أهم صفات الانسان في الدنيا أنه « مكلف » أي مطالب من قبل الله بتحمل ما فيه كلفة ومشقة . ويستوى في الاصطباغ بهذه الصفة الرسل والانبياء وعامة الناس ، في كل زمان ومكان .

ومصدر هذا التكليف الذي فرض الله على الناس ان يصطبغوا ويتصفوا به ، واقع كونهم عبيدا مملوكين لله عزوجل . فقد شاء الله عز وجل أن تنعكس هذه العبودية الواقعية الاضطرارية ، الى سلوك اختياري تتجلى فيه حقيقة هذه العبودية على وجهها الكامل الصحيح . وذلك تحقيقا للانسجام بين الواقـع الاضطراري والسلوك الاختياري في حياة الانسان .

ولا تتحقق الاعمال التي تبرز من خلالها عبودية الانسان لله عـز وجل ، الا بنوع من التكليف أي بما فيه كلفة ومشقة على كل مـن الجسم والنفس ، يتحمله الانسان في طواعية ورضا . فمن خلال ذلك فقط تتجلى عبودية الانسان السلوكية لله عز وجل .

فقد استلزمت ألوهية الله للانسان ، عبودية الانسان له ، واستلزم الاقرار السلوكي بهذه العبودية التكليف . ولا يتم التكليف الا بتحمل المشاق ومجاهدة النفس والاهواء . والاذى النبي لقيه رسول الله وصحبه ، جزء من هذه المشاق

التي لا بد من تحملها ، في طريق الاعلان الطوعي عن العبودية لله عز وجل . ولما لم يكن هذا الامر وقفا على غير الرسل والانبياء من عامة الناس ، فقد كان لا بد أن يكون الانبياء والرسل في مقدمة من يبرهنون على عبودتهم السلوكية لله تعالى بتحمل أمثال هذه المشاق . لاسيما وهم قدوة للناس جميعا في التحقق بهذا المعنى العظيم .

٣ ـ ان من سنة الله في عباده أنه لا يرقى بهم الى شيء من غايات النصر والعزة ، ومقومات السعادة الاجتماعية ، وحتى الفردية ، الا عن طريق تخطي عقبات من الشدائد والابتلاءات . فان صمدوا لها وصبروا محتسبين متجملين ، حقق الله لهم تلك الغايات على أحسن وجه ، والا بقيت حلما في أذهانهم يستعصي على التنفيذ والتحقيق .

ولهذه السنة الربانية التي لا شذوذ فيها ، حكم وأسباب ، لا مجال للدخول في شرحها وتحليلها في هذا المقام . ومن أبرز هذه الحكم أن يتميز الصادقون عن المنافقين .. ولا يتميزون الا بذلك .

ومن أبرز النصوص القرآنية التي تعبر عن هذا القانون الالهي ، الآيات التالية :

ـ « ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ١و٢ العنكبوت .

ـ « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » آل عمران : ١٤٣ .

ـ « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور » آل عمران ١٨٦ .

واذا كانت هذه هي سنة الله في عباده ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، حتى مع أنبيائه وأصفيائه . وبوسعك أن تعلم حينئذ أن ما يلقاه المسلمون في طريقهم الى

الاهداف التي امرهم الله بالسعي اليها ، من المصائب والمحن ، ليس في حقيقته عقبات أو سدودا تصد عن بلوغ الغاية أو تبعث اليأس في النفوس • بل هو في الواقع وحقيقة الامر ، سلوك في الطريق الطبيعي الذي خطه الله بين المسلم والغاية التي أمره بالسير اليها ، بمعنى أن المسلمين يدنون من بلوغ اهدافهم وغاياتهم التي كلفهم الله بالاتجاه اليها ، بمقدار ما يجدونه في طريقهم الى ذلك من المحن والآلام • ويبتعدون عنها في الحقيقة بمقدار ما يجدون أنفسهم يتقلبون في مظاهر الرخاء والنعيم • تلك هي سنة الله في عباده جميعا ، ولا تجد لسنة الله تبديلا •

وانك لتجد برهان هذه السنة الربانية جليا ، في قصة خباب بن الارت رضي الله عنه حينما جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غالبه العذاب الذي اكتوى به معظم جسده ، يشكو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ويسأله الدعاء بالفرج • فقد كان جوابه عليه الصلاة والسلام ، تعبيرا عن هـذه السنة الربانية ، اذ كان معنى جوابه له : ان كنت تتعجب من العذاب والاذى وتستغرب أن ترى ذلك في سبيل الله عز وجل ، فاعلم ان هذا هو السبيل الذي لا ثاني له •• وتلك هي سنة الله في جميع عباده الذين خلوا من قبل : مشطوا بأمشاط الحديد ، وتقلبوا في أصناف الشدائد ، حتى بلغوا الغاية التي أمرهم الله بالسعي اليها ! •• وان كنت ترى في العذاب دلائل اليأس والقنوط ، فأنت متوهم • بل الحق أن تجد في مظاهر العذاب والآلام سيرا في الطريق ودنوا من النصر ، وسينصرن الله هذا الدين حتى يسير الرجل من صنعاء الى حضرموت ، لا يخشى الا الله والذئب على غنمه •

٤ ــ بقطع النظر عن كل ما ذكرنا ، وبالاضافة اليه ، فقـد كان له عليه الصلاة والسلام من الذوق الرفيع ، والشعور الرفيق ، والرحمة الغامرة بأمته ، ما جعله يؤثر ان يضرب بنصيب من كل أصناف المصائب والمحن التي قد يتعرض لها الدعاة الى الله من بعده ، لا أن يتميز عنهم ويستأثر لنفسه من دونهم بالراحة وطمأنينة البال •

لقد كان عليه الصلاة والسلام يتصور أنه لو نشر الدعوة وأدى الرسالة التي أمره الله بتبليغها ، دون أن يمسه في طريق ذلك أي مشقة أو أذى ، لكان من حق

الدعاة الذين سيسيرون من بعده على سننه ، (ولا بد ان تنطبق عليهم سنة الله فيتقلبوا في أصناف من الشدائد) أن يشعروا بالمضاضة والالم ، من ان يكـون الطريق الآمن الذي سلكه رسول الله وقفا عليه وحده من دون سائر الناس الذين معه والذين جاؤوا من بعـده .

لذا فقد آثر ان يكون أسبقهم جميعا الى الفقر والقلة ، اذا كانوا سيجدون في طريقهم الفقر ، والى السخرية والايذاء ، اذا كانوا سيتعرضون لهما ، وللطرد والخروج من الوطن ، إذا كانوا سيضطرون الى شيء من ذلك ، اللهم الا القتل ، فهذا ما عصمه الله منه .

وبـذلك تتخفف آلام المصائب ويهون وقعهـا على المسلمين مـن بعده ، اذ يجدون أنهم يتجرعون من الكأس ذاتها التي تجرع منها قبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن مجموع هذه الجوانب الاربعة ، يتكامل الجواب على السؤال المطروح الذي قد يخطر في بال الانسان .

* * *

سلسلـة من المفاوضات

١ ــ لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله يزيدون ، استأذن عتبة بن ربيعة قريشا ، أن يأتي رسول الله فيكلمه ، ويعرض عليه امورا لعله يقبل بعضها فيعطونه أيها يشاء ويكف عنهم . وكان عتبة سيدا في قومه ذا بصيرة ورأي .

فقالوا له : بلى يا أبا الوليد قم اليه فكلمه . فجـاء عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا ابن أخي : انك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب . وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم .. فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله ، قل يا أبا الوليد ، أسمع .

قال:يابن اخي : ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم .. قال فاسمع مني . ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون . قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي أنما الهكم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه ، وويل للمشركين » ثم مضى رسول الله في القراءة وعتبة يستمع ، حتى وصل الى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن القراءة . وذلك خوفا مما تضمنته الآية من تهديد .

ثم عاد عتبة الى أصحابه ، فلما جلس اليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائي أني سمعت قولا ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .. يا معشر قريش : أطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم [1] .

٢ ــ وروى الطبري وابن كثير وغيرهما أن نفرا من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل ، جاؤوا فعرضوا على رسول الله أن يعطوه من المال حتى يكون أغناهم وأن يزوجوه أجمل أبكارهم ، على أن يترك شتم آلهتهم وتسفيه

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ــ ٢٩٤ .

عاداتهم . فلما رفض الا الدعوة الى الحق الذي يبعث به ، قالوا : فتعبد آلهتنا يوما ونعبد إلهك يوما . فرفض ذلك أيضا ونزل تعليقا على ذلك قوله تعالى :

« قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » (١) .

٣ ــ ثم ان اشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التي قام بها عتبة بن ربيعة ، فذهبوا اليه مجتمعين وعرضوا عليه الزعامة والمال ، وعرضوا عليه الطب ان كان هذا الذي يأتيه رئيا من الجان ! ..

فقال لهم رسول الله : ما بي ما تقولون .. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثني اليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون بشيرا ، ونذيرا . فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم . فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وان تردوه علي أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

فقالوا له : فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا . فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليفجر لنا أنهارا كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا . وليكن فيمن بعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، وليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بهما عما نراك تبتغي .. فان صنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال لهم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا (٢) .

ثم انهم قالوا له ــ بعد كلام وخصام ــ انا قد بلغنا أنه انما يعلمك هذا ،

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، وسيرة ابن هشام : ١/٢٩٦ .

رجل في اليمامة يقال له : الرحمن • وانا والله لن نؤمن بالرحمن أبدا • فقد أعذرنا اليك يا محمد • وانا والله لا نتركك ومـا بلغت منا ، حتى نهلك أو تهلكنا • ثم قاموا وانصرفوا عنه •

* * *

الدلائل والعبر :

هذه سلسلة من المفاوضات التي لا حق بها المشركون محمدا صلى الله عليه وسلم • وهي تبرز لنا ثلاث دلالات ، كل منها على جانب من الاهمية •

الدلالة الاولى : التعريف بحقيقة الدعوة التي قام بهامحمد عليه الصلاةوالسلام:

ترى هل يضمر النبي من وراء دعوته رغبة في الملك ؟ أم لـنه يضمر الوصول الى مستوى رفيع من الزعامة والريادة في قومه ؟ أم لعله يهدف الى الثراء وجمـع المـال ؟ أم لعل المسألة لاتعدو خيالات وطيوفا تتراءى له ؟

كل هذه الاحتمالات والفروض ، وسائل قد يتذرع بها محترفو الغزو الفكري وأعداء هذا الدين • ولعلك قد قرأت أو سمعت تحليلات من هذا القبيل للعوامل التي تكمن خلف نبوة رسول الله ، في نظر كثير مـن الكتّاب واصحاب النحل والاتجاهات المعينة ..!

ولكن يا لأسرار الحياة التي أقامها رب العالمين لرسولـه .. لقد ملأ الله جل جلاله حياة رسوله بالمواقف والمشاهد التي تقطع دابر كل هذه الاحتمالات ، وتدع أرباب الغزو الفكري حيارى في الطريقة التي ينبغي لهم أن يسلكوها في حربهم الفكرية ضد الاسلام •

كان من جليل الحكم الالهية أن يقـوم مشركو قريش بسلسلة هـذه المفاوضات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وضعوا في أذهانهم كل هذه الاحتمالات ، وواجهوه بها واحدة اثر اخرى ، ليرى رسول الله رأيه في هذه العروض كلها ، فيسجله التاريخ ، وينطق بتكذيب كل من سيأتي مـن محترفي الغزو الفكري ودعاة التشكيك مع الزمن •

لقد فكر أمثال كريمر وفان فلوتن طويلا ، في أقصر الطرق الـى تشكيك

الناس بنبوة رسول الله ، فلم يجدوا لذلك أفضل من أن يزعموا بأن محمـدا انما كان يضمر من وراء دعوته رغبة في السيادة والملك[1] .

ولكن ها إن الله سخر من قبلهم ، عتبة بن ربيعة وأمثاله مـن مشركي قريش ، لحمل هذه الآمال المفروضة ، ووضعها قرارات نافذة بين يدي محمد عليه الصلاة والسلام ، لينالها قريبة سائغة تديـن له قريش كلها بذلك عـن طواعية ورضى . فلماذالم يوافق رسول الله ، ولماذا لم يتحول الى اقتطاف هذه الغنيمة التي سيقت اليه مادام انها الدافع له من وراء رسالته ودعوته ؟

وهل يقول طالب الزعامة والملك ، لمن جـاء يعرضهما عليـه بمواثيـق وضمانات ، (ما جئت بما جئتكم بـه أطلب مالكم ولا الشـرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثني اليكم رسولا وأنزل عليّ كتابا وأمرني أن أكـون بشيرا ونذيرا .. فان تقبلوا مني ذلك فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم) ؟ .

ثم ان حياته الشخصية آنذاك وفيما بعد ، كانت مصداقا لكلامه وموقفه هذا ، فما أعرض عن الملك بالقول والدعوى ، ليتعلق به بالفعل والسلوك ، وسنقف على صور تفصيلية لحياته الشخصية هذه .

الدلالة الثانية : ضوابط الحكمة في ميزان الشريعة الاسلامية .

ونمهد لبيان هذه الدلالة بمقدمة فنقول : لعل كثيرا منا يتساءل : ولكن لمـاذا لم يقبل رسول الله الملك والزعامة في قريش ، حتى وان كانت نفسـه عازفة عنهما ؟ أليس التمكن من الملك أو الزعامة هو أقصر طريق الى فـرض النظام الذي يراه ؟.. وهل يتوصل اليوم دعاة المذاهب والافكار الى فـرض مذاهبهم على شعوبهم الا عن طريق الوصول الى الحكم أولا ؟ فلماذا لم يسخر رسول الله الملك والزعامة ، أداة لخدمـة رسالته ؟ .. وما أكثر مـن يصف هذا الدوران أو الالتفاف ، بالحكمة في السير الى الاهداف ..

والجواب هل الحكمـة (في ميزان الرؤيـة الاسلامية) أن تضـع أنت

---

(١) اقرأ كتاب : السيادة العربية لفان فلوتن .

السياسة التي تراها في سير الدعوة مهما كانت كيفيتها وأيا كان نوعها ؟ وهل أعطاك الشارع صلاحية أن تسلك أي سبيل أو وسيلة تراها ، مادام هدفك من وراء ذلك هو الحق ؟

لا .. ان الشريعة الاسلامية لم تعطنا هذه الصلاحية قط .. ان الشريعة الاسلامية خططت لنا الوسائل كما وضعت أمامنا الغايات . فليس للمسلم أن يسلك الى الغاية التي شرعها الله الا الطريق المعيّنة التي رسمها الله وسيلة اليها . وللحكمة والسياسة معان معتبرة ، ولكن في حدود هذه الطرق المشروعة وحدها ..

والدليل ، هذا الموقف الذي وقفه رسول الله .. فقد كان متصوّرا في باب الحكمة والسياسة أن يرضى رسول الله معهم بالزعامة أو الملك ، على أن يعزم في نفسه أن يتخذ منها وسيلة الى تحقيق دعوة الاسلام فيما بعد .. ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يسلك سبيل مثل هذه الحكمة أو السياسة . لان ذلك يتنافى مع مبادىء الدعوة نفسها .

وما السر في أن مثل هذه الحكمة مرفوض وممنوع ؟

السر هو أنه لو جاز أن يكون مثل هذا العمل نوعا من الحكمة المقبولة ، اذن لانمحى الفرق بين الصادق الصريح في صدقه والكاذب المخادع في كذبه . ولتلاقى الصادقون والمشعوذون على طريق واحدة عريضة اسمها : الحكمة والسياسة الشرعية .

ان فلسفة هذا الدّين تقوم على دعائم الشرف والصدق ، في كل من الوسيلة والغاية . فكما أن الغاية لايقومها الا الصدق والشرف وكلمة الحق ، فكذلك الوسيلة لاينبغي أن يخطها الا قانون الصدق والحق والشرف .

ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الاسلامية في معظم ظروفهم الى التضحية والجهاد ، لان السبيل التي يسلكونها ، لاتسمح لهم بالتعرج ذات اليمين ، وذات الشمال . ولا يملكون من المرونة في سلوكها الا القدر الذي سمحت به الشريعة ذاتها .

والخلاصة أنه ليس لاحد من الناس أن يغير شيئا من احكام الاسلام ومبادئه أو يتجاوز شيئا من حدوده باسم اتباع الحكمة في النصيحة والدعوة ، لأن الحكمة لاتكون حكمة حقيقية في ميزان الاسلام ، الا اذا كانت مقيدة بحدود الشريعة ومبادئها وأخلاقها .

الدلالة الثالثة : لماذا لم يستجب الرسول لما طلبوه من الخوارق :

لقد رأيت الموقف السلبي الذي وقفه الرسول عليه الصلاة والسلام من تلك المطالب العجيبة التي طلبتها منه قريش شرطا لايمانها به . وهو موقف أيده الله فيه . ففيه نزل قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتابا نقرأه . قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » الاسراء : ٩٠ .

فما السبب في عدم استجابة الله لهم شيئا من تلك المطالب ؟

ليس السبب ، ما قد يتصوره بعضهم من أنه عليه الصلاة والسلام ما أوتي من المعجزات الا معجزة القرآن . فقد أوتي كثيرا من الخوارق والمعجزات ، كما سنرى فيما بعد . وانما السبب أن الله علم أنهم يطالبون بذلك كبرا وعنادا وامعانا في الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام ، كما هو واضح من نوع المطالب وأسلوب الطلب .

ولو علم الله فيهم صدق الطلب وحسن النية ، وأنهم مقبلون في ذلك على محاولة التأكد من صدقه عليه الصلاة والسلام ، لحقق لهم ذلك كله . ولكن حال قريش مطابق لما قاله الله عنهم : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » .

* * *

الحصـــار الاقتصادي

ورد بأسانيد مختلفة عن موسى بن عقبة ، وعن ابن اسحاق ، وعن غيرهما ، أن كفار قريش أجمعوا أمرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلموا في ذلك بني هاشم وبني المطلب ، لما يئسوا من جدوى مفاوضاتهم معه ، ومن امكان تحويله عن الدعوة التي ينشرها بين الناس .. غير أنهم أبوا تسليمه اليهم ليقتلـوه .

فلما عجزت قريش عن قتله ، أجمعوا على منابذته وكل من معه من المسلمين، ومن منعهم من قتله ، من بني هاشم وبني المطلب . فكتبوا بذلك كتابا تعاقدوا فيه على أن لايناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يتركوا سببا من أسباب الرزق يصل اليهم ، ولا يقبلوا منهم صلحا ، ولا تأخذهم بهم رأفة ، حتى يسلم بنو المطلب محمدا اليهم للقتل . وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة .

والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات ، بدءا من المحرم ، سنة سبع من البعثة الى العاشر منها . وقيل بل استمر ذلك سنتين فقط .

ورواية موسى بن عقبة ، تـدل على ان ذلك كان قبل أن يأمر رسول الله أصحابه بالهجرة الى الحبشة . وانما أمرهم بها أثناء الحصار . أما رواية ابن اسحاق فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة اصحابه الى الحبشة وبعد اسـلام عمـر[1] .

وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين ، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في شعب بني المطلب ، وانما مكة شعاب متفرقة بين الجبال . واجتمع فيه من بني هاشم وبني المطلب المسلمون والكافرون . أمـا المسلمون فتدينا ، وأما الكافرون فحمية وانكارا منهم أن يصلوا بايذائـه صلى

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٣٥٠ ـ ٣٥١

الله عليه وسلم الى حد الاتفاق على قتله ، الا ما كان من عبد العزى بن عبد المطلب الملقب بأبي لهب ، فانه كان مع قريش وظاهر النبي واصحابه .

فجهد النبي والمسلمون جهدا شديدا في هذه الاعوام الثلاثة ، واشتد عليهم البلاء وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر ... وذكر السهيلي أنهم كانوا اذا قدمت العير مكة ، يأتي أحد أصحاب رسول الله الى السوق ليشتري شيئا من الطعام يقتاته لاهله . فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لايدركوا شيئا معكم . فيزيدون عليهم في السلعة وقيمتها أضعافا ، حتى يرجع الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يعلله بهم [1] ..

فلما كان على رأس ثلاث سنين من بدء هذا الحصار ، تلاوم قوم من بني قصي ، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه . وأرسل الله على صحيفتهم التي كتبوا فيها نص هذه المعاهدة ، الارَضه فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد ، ولم يسلم من ذلك الا الكلمات التي فيها ذكر الله .

وقد أخبر بذلك رسول الله عمه أبا طالب . فقال له : أربك أخبرك بذلك ؟ قال نعم . فمضى في عصابة من قومه الى قريش ، فطلب منهم أن يؤتوه بالصحيفة ، موهما اياهم أنه نازل عند شروطهم ، فجاؤوا بها وهي مطوية . فقال أبو طالب : ان ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط ، ان الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتم الارضة ، فأتت على كل ما فيها من جور وقطيعة رحم . فان كان الحديث كما يقول ،فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم . فوالله لانسلمه حتى نموت من عند آخرنا . وان كان الذي يقول باطلا دفعنا اليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون . فقالوا : قد رضينا بالذي تقول . ففتحوا الصحيفة فوجدوا الامر كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم . فقالوا هذا سحر ابن أخيك !.. وزادهم ذلك بغيا وعدوانا .

ثم ان خمسة من رؤساء المشركين من قريش ، مشوا في نقض الصحيفة ،

---

(١) المرجع المذكور .

وانهاء هذا الحصار وهم : هشام بن عمرو بن الحارث ، وزهير بن أمية ، والمطعم ابن عدي ، وأبو البخاري بن هشام وزمعة بن الاسود .

وكان أول من سعى الى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية ، أقبل عـ لى الناس عند الكعبة فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يُباعون ولا يبتاع منهم ؟.. والله لا أقعـد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

ثم قال بقية الخمسة نحوا من هذا الكلام . ثـم قام المطعم بن عدي الى الصحيفة فمزقها ثم انطلق هؤلاء الخمسة ، ومعهم جماعة ، الى بني هاشم وبني المطلب ، ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج الى مساكنهم[1] .

* * *

الدلائل والعبر

اولا ـ تحليل هذه القطيعة وسر انحياز بني هاشم وبني المطلب الى المسلمين فيهـا :

من الواضح أن هذه القطيعة ، تصور قمـة الشدة التي لقيها رسول الله وأصحابه طوال ثلاثة أعوام .

وقد رأيت ان المشركين من بني هاشم وبني المطلب ، شاركوا المسلمين في تحملها ، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وواضح أن الذي دفعهم الى هذا الموقف ، حمية القرابة والرحم ، واباء الذل الذي كان يتلبس بهم ، لو أنهم خلوا بـين محمد صلى الله عليـه وسلم ومشركي قريش من غير بني هاشم وبني المطلب ليقتلوه ويفتكوا بـه ، بقطع النظر عن العقيدة والدين .

فقد آثروا اذن أن يجمعوا بين رغبتين في صدورهم :

الاولى ـ الثبات على الشرك ، والاستكبار على الحق الذي جاءهم بـه محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ابن هشام : ١/٣٧١ و ٣٧٢ .

الثانية ــ الانصياع للحمية التي تدعو الى حماية القريب من بطشة الغريب وظلمه بحق كان ذلك أم بباطل .

أما المسلمون وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانما صبرهم على ذلك البلاء ، انصياعهم لامر الله وايثارهم الآخرة على الدنيا ، وهوان الدنيا عندهم في جنب مرضات الله عز وجل .

وقد تسمع بعض محترفي الغزو الفكري يقولون :

ان عصبية بني هاشم وبني المطلب ، كانت تكمن ، عاملا خفيا ، خلف دعوة محمد عليه الصلاة والسلام !.. والدليل على ذلك موقفهم السلبي من مشركي قريش في مقاطعتهم للمسلمين .

وانها لمغالطة عجيبة ، لايتماسك عليها حجاب أي منطق ..

ذلك لان من الطبيعي أن تقود الحمية الجاهلية بني المطلب وبني هاشم الى الذود عن حياة ابن عم لهم ، عندما تتهددها يد غريبة ، ويدنو اليها بالسوء شخص دخيل .

والحمية الجاهلية ، اذ تدفع ذوي القرابة الى مثل هذا التعصب ، لاتنظر الى مبدأ ، ولا تتأثر في ذلك بحق أو بباطل . وانما هي العصبية ، ولا شيء غير العصبية ..

ولذلك أمكن أن تجتمع في ذوي قرباه صفتان متناقضتان بحسب الظاهر : الاستكبار على دعوته والجحود بها ، والانتصار له ضد السعي الى قتله من سائر المشركين الآخرين .

ومع ذلك فأي فائدة حققوها للنبي عليه الصلاة والسلام من وراء اعتصامهم معه ؟.. لقد أوذوا كما أوذي هو وأصحابه .. ومضت قريش في قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم وبنو المطلب من غلوائهما شيئا .

والمهم أن تعلم بأن حماية أقارب رسول الله له ، لم تكن حماية للرسالة

التي بعث بها ، وانما كانت حماية لشخصه من سطوة الغريب عندما وصلت الى التهديد بالقتل .

واذا أمكن أن تستغل هذه الحماية ، من قبل المسلمين ، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين ، والرد على مكائدهم وعدوانهم ، فانعم بذلك من جهد مشكور وسبيل يوفقون اليها .

ثانيا ـ تحليل الفتح الاسلامي على انه ثورة يسار اقتصادي ، في ميزان هذه القطيعة :

تصوير الفتح الاسلامي والدعوة الاسلامية ، على أنهما ثورة نهض بها اليسار العربي ، طبق ما تصوره أطروحة التحليل الماركسي لحركة التاريخ ، وان الدافع اليها هو القضاء على الهيمنة الاقتصادية التي كان يتمتع بها أصحاب رؤوس الاموال في مكة ، محاولة طريفة وفريدة ، يسعى اليها أولئك الذين يصرون على أن يفسروا التاريخ الانساني كله تفسيرا اقتصاديا ، ويحللون العقائد والمذاهب الفكرية والاجتماعية كلها على أنها مجرد آثار لما خلفه الصراع على القيم الاقتصادية المتمثلة في وسائل الانتاج[1] .

والسؤال الذي يطرحه المنطق الموضوعي الحر ، هو : ترى ، ما الذي كان يمسك محمدا وأصحابه على هذا الضيق الخانق ، وأي غاية اقتصادية كانوا يتأملونها من وراء ثباتهم على شدة مغلقة ، نهايتها الموت الذي تطوح فيه كثير منهم صغارا وكبارا ؟

بماذا يجيب أولئك الذين يتأولون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وايمان أصحابه بها ، على أنها ثورة الفقراء المضطهدين ضد الاغنياء المترفين ، وان الغاية القصوى منها هو تحسين الوضع المعاشي ؟

---

(١) من اصحاب هذه المحاولات الغريبة المتكلفة صاحب كتاب : النزعات المادية في الفلسفة العربية والاسلامية .

تصور هذه السلسلة التي استعرضناها من حلقاء الايذاء والتعذيب ، ثم هذه القطيعة الخانقة التي دامت ثلاث سنوات ، ثم أجب على ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الاسلام هذه ثورة اقتصادية ألهبها الجوع وقاد اليها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الاقتصادية فيها ؟

ألم يعرض هؤلاء الرأسماليون على محمد ـ كما قد رأيت ـ المال والملك ، فلماذا لم يرض بذلك ، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ، كي يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بأكثر من الحكم يكون في أيديهم والمال في جيوبهم .

ولقد قوطع أصحابه عليه الصلاة والسلام ، عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بني قومه فلم تترك سلعة تتسلل الى أيديهم ، ولم يترك طعام يدخل الى بيوتهم ، حتى راحوا يأكلون ورق الشجر ، وهم على ذلك صابرون ، يعدقون برسولهم عليه الصلاة والسلام ، مترفعين فوق الدنيا كلها ، متأملين رضا الله عنهم ، وسعادة أبدية ينالونها في العقبى ، أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ ..

قد يكون أصحاب هذا التحليل الطريف ، يتمسكون بملاحظتين اثنتين ، ويرون في كل منهما الدليل على ما يتصورون :

الاولى : ان الجماعة الاولى من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام في مكة ، كانت في الاغلب من الفقراء والموالي والمضطهدين . وهو يدل اذن على انهم كانوا ينفسون في اتباعهم لمحمد عليه الصلاة والسلام عن شيء من كربهم المعيشي ، وانهم كانوا يتأملون مستقبلا اقتصاديا أفضل لانفسهم في ظل الدين الجديد .

الثانية : أن هؤلاء المستضعفين مالبثوا بعد حين ، أن فتحت عليهم آفاق الدنيا ، وأقبل اليهم الثراء وكثر في أيديهم المال . وهو دليل على أن خطة الرسول كانت ترمي الى تحقيق هذه الغاية .

ونقول في بيان حقيقة كل من هاتين الملاحظتين :

أما أن الجماعة الظمى مـن أصحابه في أول الامر ، كانوا من الفقـراء والضعفاء ، فنعم ، كما سبق أن ذكرنا . ولكن ليس بين هذا الواقع وذلك الوهم أي علاقة أو نسب .

ان شريعة تقضي بارساء ميزان العدالة بين الناس ، وبالضرب على يـد كل ظالم وطاغية ومستكبر ، لا بد أن يعرض عنها وأن يحاربها أولئك الذين استمرؤوا حياة البغي والطغيان ، لانها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم لهم المغانم . كما لا بـد أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم . بل كل انسان ليس له في تجارة البغي والظلم نصيب ، لانهم ـ على أقل تقدير ـ لا يعـانون من مشـكلات تجعلهم يستثقلون تبعات هذه الشريعة وتكاليفها .

ان معظم من كان حول رسول الله كانوا موقنين بأنه نبي مرسل وأنـه على حق فيمـا يقول . ولكن أرباب الزعامـة وعشاق السيطرة منهم وجدوا ان في طبيعتهم وما جبلت عليه نفوسهم ، ما يمنعهم عن الاستسلام لهذا الحق والتفاعل معه ، فأعرضوا عنه استكبارا . أما غيرهم من عامة الناس ، فلم يجـدوا ما يعوقهم عن الاستسلام لشيء آمنوا به واستيقنوه .

فمـا العلاقة بين هذه الحقيقة التي يفهمها ويحس بها كل باحث ومفكر ، وما يزعمه أصحاب هذه الخيالات المجنحة ؟

وأما الملاحظة الثانية ، وهي أن خطة الدعوة الاسلامية ، كانت تستهدف امتلاك المسلمين لمنابع الثروة والاستيلاء على عروش الملك ، واستلاب السيادة من الآخرين ، بدليل أن ذلك هو ما وصل اليه المسلمون فعلا ـ فانه لأشبه بمن منهم ، بدليل أن ذلك هو ما قد وصل اليه المسلمون فعلا ـ فانه لأشبه بمـن يحاول استجرار الشرق الى الغرب ! ..

اذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم وفارس في حقبة يسيرة من الزمن ، واذا كان الله قد أورثهم كنوزهم وأموالهم ، بعـد أن صدقوا الله في اسلامهم ، أفيكون ذلك دليلا على أنهم مـا أسلموا الا طمعـا بعرش الفرس والروم ؟ .. أين هي العلاقة بين هذا وذاك ؟

---

(١) انظر : السيادة العربية لفان فلوتن .

ان من الثابت يقينا انهم لو أرادوا من وراء اسلامهم الوصول الى شهوة من شهوات الدنيا ايا كانت ، لما تحقق لهم ، ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح .

لو كان عمر ، وهو يجهز جيش القادسية ويودع قائده سعد ن أبي وقاص ، يستهدف كنوز كسرى ، ويسيل لعابه رغبة في أن يتقلب في مثل نعيمه ويجلس على مثل عرشه ، لما عاد اليه سعد الا بأثقال الخيبة والخسران .. ولكنهم صدقوا الله في الجهاد من أجل نصرة دينه ، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم واغنائهم بما لم يكونوا يحلمون .

ولو كان الحلم الذي يراود المسلمين في معركة القادسية ، وصولا الى ثروة وتقلبا في نعيم ، وتحقيقا للذائذ العيش ، اذن لما دخل ربعي بن عامر سرادق رستم مزدريا مظاهر الترف التي غمس فيها السرادق غمسا ، يتوكأ بزج رمحه على البسط والنمارق النادرة حتى مزقها ، ولما قال لرستم : ان دخلتم الاسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم ! .. أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والارض والمال ؟

لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا لانهم لم يكونوا يفكرون فيها . وانما كان تفكيرهم منصرفا الى تحقيق مرضاة الله .

المسألة بما فيها ، ليست الا تحقيقا للقانون الالهي الذي يقول :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم وارثين » القصص : ٥ .

وان تفهّم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل ، أي عقل كان ، بشرط واحد ، هو أن يكون صاحبه متحررا عن آصار العبودية لاي رغبة أو غرض .

* * *

اول هجرة في الاسلام

اشتدّ الاذى على رسول الله وأصحابه ، لا سيما بعد خيبة آمال المشركين في المفاوضات التي قاموا بها ، وبعد أن مزق كتاب القطيعة على النحو الذي ذكرناه .

وعندئذ قال رسول الله لاصحابه : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد،وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

فخرجت عندئذ جماعة من المسلمين سرا ، الى أرض الحبشة . فكانت أول هجرة في الاسلام . وكانوا عشرة رجال ، أمّروا عليهم عثمان بن مظعون . ثم لحق بهم جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون ، حتى اجتمع كثير منهم هناك . فمنهم من اصطحب معه أهله ، ومنهم من خرج بنفسه . وكان جميع من هاجر الى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلا (١) .

ولما رأت قريش ان هؤلاء قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، بهدايا كثيرة الى النجاشي ، والى بطارقته ، مما يستطرف من متاع مكة .

فقد ما على النجاشي ، بعد أن استمالا بطارقته وحاشيته ببعض تلك الهدايا ، وذكرا لهم المهمة التي جاءا من أجلها . وتكلما في مجلس الملك فقالا :انه لجأ الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم . وقد بعثنا اليك اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم . فهم أبصر بهم وأقرب اليهم .. وقالت البطارقة من حوله : صدقا ايها الملك فأسلمهم اليهما .

فغضب النجاشي ، وأبى أن يقبل كلامهم ، ويسلم من لجأ اليه والى بلاده ،

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٢٣٠ وانظر فتح الباري : ٧/١٣٠

و رسـل الى المسلمين فدعاهم ، وقال لهم : ما هـذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني أو دين احد من الملل ؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ، فقال : أيهـا الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الارحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا فينا ، نعرفه بنسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فـدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء بـه من عند الله ، فعبدنا الله وحده ، وحرمنا مـا حرم علينا ، وأحللنا ما احل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الاوثان .. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنـا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنـا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟

قال جعفر : نعم . قال النجاشي فاقرأه عليّ .

فقرأ جعفر صدرا من سورة مريم ، فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته . وبكى أساقفته حتى اخضلت مصاحفهم .

ثم قال النجاشي : ان هذا والذي جاء به عيسى ، يخرج من مشكاة واحدة . ثم أقبل على رسولي قريش فقال : انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكم .

وأطلق عمرو بن العاص آخر سهم مسموم من جعبته ، فقال له من الغد : ايها الملك ؟ . انهم ليقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما . فأقبل الملك عـلى المسلمين فقال : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

قال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ، ألقاها الى مريم البتول . فضرب النجاشي بيده الى الارض فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت مقدار هذا العود ! ..

ورد المسلمين من عنده ردا كريما ، وأمنهم ، وخرجا من عنده مقبوحين ورد اليهما هداياهما التي بعثتها قريش اليه معهما[1] وعاش المسلمون عنده في خير دار وأفضل جوار .

وبعد حين من الزمن بلغهم اسلام أهل مكة ، فرجعوا ، لما بلغهم ذلك ، حتى اذا دنوا من مكة ، بلغهم ان ما قد سمعوه من اسلام أهل مكة باطل ، فلم يدخل أحد منهم الا بجوار أو مستخفيا . وكان جميعهم ثلاثة وثلاثين رجلا . وكان من بين من دخل بجوار عثمان بن مظعون، دخل بجوار الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة دخل بجوار أبي طالب .

* * *

الدلائل والعبر :

نأخذ من حديث هجرة المسلمين الى الحبشة ثلاث دلالات :

الاولى : معنى الهجرة الى الحبشة :

قد يتصور احدنا ان هذه الهجرة لم تكن الا هربا من الاذى ، ولجوءا الى الراحة ! .. ولكن الواقع أنها كانت تنويعا للمحنة ، ومناورة على طريق السعي الدائب لاتباع مرضاة الله والدعوة الى دين الله . بل كانت هذه الهجرة نفسها ضربا من أقسى ضروب العذاب والالم .

ذلك لان مفارقة الوطن الى بلد ناء لا علم بـه ولا معرفة بأهله ، والى أجل غير معلوم ، لا تقل عن المحن التي كانوا يعانونها بسبب ايذاء المشركين لهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٣٢/١ فما بعد .

في مكة . ثم ان وجودهم في الحبشة كان فرصة نادرة لدعوة أهلها الى الاسلام والتعريف به ، وقد أثمرت دعوتهم هناك ما لم تثمرها مدة ثلاث سنوات بمكة فقد اسلم منهم عدد كبير وقدم أول وفد منهم الى رسول الله بعد هذه الهجرة بقليل ، كما سنجد تفصيل ذلك فيما بعـد .

ثم ان مكة لم تكن آنذاك دار اسلام ، حتى يقال في استنكار : انهم تركوا دار الاسلام ولحقوا بدار الكفر! .. ذلك لان مكة والحبشة وغيرهما كانت سواء آنذاك . وأيها كانت أعون للمسلم على ممارسة دينه وتعريف الناس بـه فهي اولى وأجدر بالاقامة فيها .

الثانية : حقيقة العلاقة بين ما بعث به كل من عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسـلام :

لقد علمت ان النجاشي كان على دين عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وكان مخلصا وصادقـا في مسيحيته . ولقد كان من مقتضى اخلاصه لهـا أن لا يتحول عنها الى ما يخالفها وان لا ينتصر لمن تختلف عقيدتهم عما جاء به الانجيل وما جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام .

أي فلو صحت أقوال اولئك الذين يزعمون انتماءهم الى عيسى عليه الصلاة والسلام ، من أنه ابن الله تعالى ، وأنه عز وجل ثالث ثلاثة ، لتمسك النجاشي (الذي كان من أخلص الناس لدينه) بذلك ، ولرد علـى المسلمين كلامهم ، وانتصر لرسولي قريش فيما جاءا من أجله .

ولكنا رأينا النجاشي ، يعلق على ما سمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى عليه الصلاة والسلام بقوله : ان هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة . يقول ذلك على مسمع من بطارقته وعلماء الكتاب الذين مـن حولـه .

وهذا يؤكد ما هو بدهي الثبوت ـ وقـد سبق ان أفردنا القول عليه في احدى المقدمات ـ من ان الانبياء كلهم انما جاؤوا بعقيدة واحـدة عن الكون والانسان والحياة ، وأنهم لـم يختلفوا حولها عن بعضهم قيـد شعرة ، وأن

اختلاف من اختلف من أهل الكتاب في الدين الواحد الحق ، لم يكن الا عصبية وعنادا ، بعد أن جاءهم العلم الذي لا عذر لهم في الجهل به او الاعراض عنه .

الثالثة : : حكم دخول المسلم في حماية غير المسلمين :

يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين ، اذا دعت الحاجة الى ذلك ، سواء كان المجير كتابيا كالنجاشي ، مع العلم بأنه كان في مسيحيته مسلما ، كما قد رأينا . ولكنه لم يعلن ايمانه ببعثة محمد ونبوته الا بعد ان علم بذلك [1] ، او كان مشركا كأولئك الذين عاد المسلمون فدخلوا مكة في حمايتهم ، عندما رجعوا من الحبشة .

ولكن هذا مشروط ، بأن لا يستلزم مثل هذه الحماية اضرارا بالدعوة الاسلامية ، او تغييرا لبعض احكام الدين ، او سكوتا على اقتراف شيء من المحرمات . فان جرت الحماية الى شيء من ذلك لم يجز للمسلم الدخول فيها . ودليل ذلك ما كان من موقفه صلى الله عليه وسلم ، حينما طلب منه أبو طالب ان يبقي على نفسه،وأنلا يحمله ما لا يطيق ، فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء . فقد وطن نفسه اذ ذاك للخروج من حماية عمه . وأبى ان يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وايضاحه .

هذا واما المعاني المتعلقة بالهجرة الكبرى ، فنرجيء الحديث عنها الى الكلام عن هجرة النبي والمسلمين الى المدينة المنورة .

اول وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

في غمرة الشدة التي كان يلقاها رسول الله صلى اللهعليه وسلم وأصحابه ، من العذاب والايذاء ، وفد الى رسول الله أول وفد ، قادما من خارج مكة . وكانوا بضعة وثلاثين رجلا من نصارى الحبشة ، جاؤوا مع جعفر بن أبي طالب ، لدى

---

(١) كان النجاشي ممن آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . ولما مات ، نعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة ، ثم خرج بهم الى المصلى فصلى عليه . رواه مسلم .

عودته الى مكة . فلما جلسوا الى رسول الله وسمعوا كلامه واطلعوا على صفاته وأحواله وسمعوا ما تلي عليهم من القرآن ، آمنوا كلهم . فلما علم بذلك أبو جهل أقبل اليهم قائلا :

ما رأينا ركبا أحمق منكم ! .. ارسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ! .. فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم .. لنا ما نحن عليه ولكم ما انتم عليه ، لم نأل انفسنا خيرا .

فنزل في حقهم قول الله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم اعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » الفصص : ٥٢ ــ ٥٤ [1] .

* * *

الدلائل والعبر :

اهم ما يلفت النظر من خبر هذا الوفد ، امران اثنان :

الاول : ان الداعي او المجاهد ليس هو الذي يحقق لنفسه النصر :

لقد كان رسول الله ، ومعه أصحابه ، يبذلون كل ما يملكون من جهد ، للصبر على شدائد حياتهم الاسلامية وسط ذلك المجتمع الجاهلي ، وللثبات على واجب الدعوة الى الله تعالى وتبصير المشركين بالحق ، كلما سنحت الفرصة . والمتوقع ، لو أن النصر هو ثمرة هذه الجهود ان تظهر هذه الثمرة في المجتمع الذي يشتغلون بدعوته ، وبين رجالات قريش الذين يصبحون ويمسون معهم على ذكر القرآن والعظات التي تذكرهم بالحق وتحذرهم من الباطل .

---

(١) رواه ابن اسحاق ومقاتل والطبراني عن سعيد بن جبير . وانظر ابن كثير والنيسابوري عند تفسير هاتين الآيتين .

ولكن ها أنت ترى كيف جاءت الثمرة ، من مكان بعيد ، لا يتوقع ان يتأتي منه أي خير . ولم يتجه اليه النبي وأصحابه بمعشار الجهود التي اتجه بها الى أهل مكة ! ..

فعلى أي شيء تدل هذه المفارقة الغريبة ؟! .. انها تدل على ان كل ما هو مطلوب من العبد ، هو ان يصدقه في الصبر على ما آمن به ، وأن يدعو الآخرين بالحكمة والموعظة الحسنة لوجه الله وابتغاء مرضاته ، والله هو الذي يحقق له النصر ويمده بالثمار والنتائج من حيث يحتسب او لا يحتسب .

ولقد كان قدوم هذا الوفد ، أحد مظاهر التوفيق والنصر الرباني ، الذي جاء ثمرة لثبات القلة من المسلمين والتفافهم حول نبيهم عليه الصلاة والسلام . ومعاذ الله أن يكون الخالق عز وجل بحاجة الى معونة عباده ، والانتصار لدينه ، والمجاهدة لتثبيت حكمه . وانما الامر كله لا يعدو أن يكون تكليفا لهم بأن يبرهنوا على صدق ولائهم لله عز وجل ، وصدق عبوديتهم له . وتقديم البراهين على ذلك لا يكون ـ كما قلنا ـ الا بتحمل الوان من المشاق والصبر عليها .. فان هم برهنوا على ذلك ، أمدهم الله بالنصر والتوفيق ، وجاءهم الفتح من آفاق غير منظورة ولا منتظرة . وهذا معنى قول الله عز وجل :

« ان تنصروا الله ينصركم .. » تأمل في هذا الكلام الموجز جيدا ، تجده محشوا بهذه الحقيقة التي اوضحناها .

الثاني : معنى الايمان الذي آمنه افراد هذا الوفد :

هل معنى اسلام هذا الوفد انهم خرجوا من دين كان يخالف الاسلام ودخلوا في الاسلام ، كما قد يبدو لاول وهلة ؟

ان الواقع ان ايمانهم كان مجرد استمرار لايمانهم السابق ، بل كان التزاما دقيقا بمقتضى ما كانوا يتمسكون به من عقيدة ودين . فقد كانوا (كما ذكر علماء السيرة) أهل انجيل ، يؤمنون به ، ويسيرون على هديه . ولما كان الانجيل يأمر باتباع الرسول الذي يأتي من بعد عيسى عليه السلام ، ويتحدث

عن صفاته ومميزاته ، فقد كان من مستلزمات ايمانهم بالانجيل ان يؤمنوا بهذا النبي الذي دلهم الانجيل عليه وأمرهم باتباعه .

واذن فان ايمانهم به عليه الصلاة والسلام ، لم يكن عملية انتقال من دين الى دين بسبب تفضيل أحدهما على الآخر ، كما يتوهم الجاهلون ، وانما كان استمرارا لحقيقة الايمان بعيسى عليه الصلاة والسلام ، وما أنزل اليه . وهذا معنى قولهم في الآية الشريفة : (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا ، انا كنا من قبله مسلمين) .

أي انا كنا مسلمين لهذا الذي يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ومؤمنين به ، من قبل بعثته ، لان ذلك مما يدعو الانجيل اليه .

وهذا هو شأن كل من تمسك تمسكا حقيقيا بما جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام ، أو بما جاء به من قبله موسى عليه الصلاة والسلام . اذ الايمان بالانجيل والتوراة يستدعي الايمان بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام . ولذلك امر الله رسوله أن يكتفي من دعوة أهل الكتاب الى الاسلام بمجرد مطالبتهم بتطبيق ما في التوراة أو الانجيل الذي يدعون انهم مؤمنون به ، فقال جل جلاله : (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل) (١)

وهذا تأكيد لما كنا بيناه من أن الدين الحق واحد لم يتعدد ، منذ خلق الله آدم عليه السلام الى أن أرسل محمدا خاتم النبيين الى الناس كافة . لذا فان كلمة (الاديان السماوية) التي يستعملها بعض الناس كلمة باطلة لا معنى لها .

عام الحزن

وهو العام العاشر من بعثته عليه الصلاة والسلام .

وانما سماه رسول الله عام الحزن ، لان زوجته خديجة رضي الله عنها توفيت

---

(١) المائدة : ٦٨ .

فيه ، وتوفي فيه عمه أبو طالب ايضا ، ويقول ابن سعد في طبقاته : لم يكن بين وفاة خديجة وابي طالب اكثر من شهر وخمسة ايام .

وقد كانت خديجة ، كما قال ابن هشام ، وزير صدق على الاسلام ، يشكو اليها الرسول ويجد عندها أنسه وسلواه ، أما أبو طالب فقد كان ـ على الرغم من عدم ايمانه به ـ يمنعه من قومه كلما أرادوا أن يشتدوا بالاذية عليه ، او كلما حاولوا اغتياله والقضاء عليه .

فلما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله من الاذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه أحد سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا ، ودخل رسول الله بيته والتراب على رأسه ، فقامت احدى بناته ، فجعلت تغسل التراب عن رأسه وهي تبكي ، ورسول الله يقول لها : لا تبكي يا بنية فان الله مانع أباك[1] .

فمن أجل ما كابده رسول الله في طريق الدعوة ، حتى ان أبوابها اوصدت في وجهه ، سمى رسول الله هذا العام بعام الحزن .

* * *

الدلائل والعبر :

نقف من هذا المقطع من سيرته صلى الله عليه وسلم على الدلائل التالية :

اولا ـ الحكمة من تعجل قضاء الله تعالى بوفاة خديجة وابي طالب :

لقد كان من مقتضى محبة الله لرسوله ـ وقد كان يجد عند خديجة سلواه وأنسه ، كلما طاف به الكرب وألمت به شدة ـ أن يستبقيها الى جانبه ليزداد بها أنسا وعونا في طريق الدعوة . وكذلك كان مقتضى هذه المحبة ، ان يبقي له عمه أبا طالب سندا يحميه من كثير من اذى المشركين ، وما كانوا يسعون اليه ويخططون له من الشر والقتل .

ونقول في الجواب : لو ان أبا طالب بقي الى جانب ابن أخيه يكلؤه ويحميه ،

---

(١) رواه ابن اسحاق ، وانظر تاريخ الطبري : ٣٤٤/٢ .

الى ان تقوم الدولة الاسلامية في المدينة ، وريثما ينجو الرسول من أذى المشركين وقبضتهم ، اذن لكان في ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة وانه كان المخطط لها ، وأنه هو الذي كان يدفع بها الى الامام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه ، وان لم يشأ ان يظهر الايمان بها والطواعية لها . واذن لجاء من يطيل ويطنب في دعوى الخط الحسن الذي تهيأ للرسول أثناء قيامه بدعوة الاسلام ، وانه انما تلقاها فكرة من عمه وآل بيته ، ولم تنزل عليه وحيا من لدن رب العالمين .

وكذلك القول بالنسبة لزوجه خديجة رضي الله عنها ، فلو انها بقيت الى جانبه مصدر سلوى وموئل انس ينسيه وقع المصائب والاذى ، لجاء من ينسب الامر الى العون الذي كان يراه منها ، وكل ذلك ، مما يحجب صاحب هذا الوهم أو التصور عن ادراك حقيقة النبوة واليقين بها .

ثانيا ـ يتضح من نزول هاتين المصيبتين به عليه الصلاة والسلام ، وما اعقبهما من شدة الاذى به عليه صلى الله عليه وسلم ، وانغلاق السبل في وجهه ، أن العصمة التي وعد بها الله نبيه محمدا ، لا تعني أن لا يرى من المشركين أذى أو عذابا أو اضطهادا . وانما معناها ، العصمة من القتل او من أن يصاب بأي مصيبة من شأنها ايقاف الدعوة الاسلامية ، وحجبها عن ان تبلغ مداها الذي شاءه الله لها . فتلك هي حقيقة العصمة التي تعهد الله بها لرسوله في قوله له : « والله يعصمك من الناس »

ثالثا ـ يتوهم بعض الناس ان سبب تسمية الرسول لهذا العام عام الحزن ، انما هو مجرد فقده صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب ولزوجه خديجة ، فهو حزن على شخصيهما ، وربما استساغوا ، بناء على هذا الوهم ، اقامة علائم الاحزان والحداد على موتاهم مدة طويلة من الزمن ، والحقيقة أن هذا خطأ في الفهم والتقدير .

فرسول الله لم يسم هذا العام بعام الحزن تعبيرا عن حزن مستمر على عمه وزوجته لفراقهما له ، وانما لان سبل الدعوة استغلقت عليه من بعدهما ، لشدة ما ضيقت عليه قريش ، حتى انها منعته أن يقول في الناس كلمة يدعوهم بها

الى الله . فكان حزنه على أنه لا يستطيع أن ينفذ بكلمة الدعوة الى الناس ، شيئا غالبا على نفسه .

ومن اجل تخفيف هذا الحزن عليه ، كانت تنزل عليه آيات مسلية ومواسية من مثل قوله تعالى :

(قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) الانعام : ٣٣ .

ومن هنا يسقط الاستدلال بهذه التسمية على جواز الاحداد على الميت أكثر من ثلاثة أيام . اللهم الا الزوجة فانها تحد على وفاة زوجها أربعة اشهر وعشرة ايام . وهي ليست عدة حزن عليه ، وانما هي عدة وفاء له وامساك عن الزواج واسبابه ومقدماته خلال هذه المدة .

فلا يجوز اذن لاهل الميت اتخاذ أي شعار للحزن عليه . سواء كان لباسا على الجسم أو أثاثا في المنزل أو أي شعار آخر . وسواء كان قريب الميت ذكرا أم انثى .

ذلك لان اتخاذ هذا الشعار تعبير عن عدم الرضى بقضاء الله وحكمه . وهو محرم ، بل ربما أوصل الى الكفر . أما الحزن الداخلي ، أي الشعور الذي لا قبل للانسان بجلبه ولا دفعه ، فلا يتعلق به حكم اباحة ولا حرمة ، لانه من قبيل الانفعالات القسرية ، لا الافعال الاختيارية . وانما يتعلق التكليف بالافعال لا بالانفعالات .

* * *

هجرة الرسول الى الطائف

ولما نالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم ما وصفناه من الاذى ، واستغلقت عليه سبل الدعوة والاتصال بالناس ، خرج متجها الى الطائف ، يلتمس النصرة من قبيلة ثقيف ، ويرجو ان يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عزوجل .

فلما انتهى عليه الصلاة والسلام الى الطائف ، عمد الى نفر من ثقيف ، هم يومئذ ساداته فجلس اليهم ودعاهم الى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله. فردوا عليه ردا منكرا ، وفاجؤوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول . فقام رسول الله من عندهم ، وهو يرجوهم ان يكتموا خبر مقدمه اليهم عن قريش اذن . فلم يجيبوه حتى الى ذلك .

ثم اغروا بـه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، وجعلوا يرجمونه بالحجارة ، حتى ان رجلي رسول الله لتدميان ، وزيد بـن حارثة يقيه بنفسه : حتى شج في رأسه عدة شجاج[1] حتى وصل رسول الله الى بستان لعتبة بن ربيعة ، فرجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . فعمد رسول الله ، وقد أنهكه التعب والجراح ، الى ظل شجرة عنب ، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران اليه . فلما اطمأن النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك الظل ، رفع رأسه يدعو بهذا الدعاء : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين انت رب المستضعفين وأنت ربي . الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني أم الى عدو ملكته امري ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا ابالي . ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك » .

ثم ان ابني ربيعة ــ صاحبي البستان ــ تحركت له الشفقة في قلبيهما .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٩٦/١ .

فدعوا غلاما نصرانيا لهما ، يقال لـه عداس ـ فأرسلا اليه معه قطفا من العنب في وعاء • فلما وضع عـداس العنب بين يدى رسول الله ، وقال له : كل ، مـد الرسول يده قائلا : بسم الله ، ثم أكل • فقال عداس متعجبا : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد • فقال له رسول الله ، ومن أي البلاد أنت ؟ ومـا دينك ؟ قال : نصراني• وأنا رجل من أهل نينوى (قرية بالموصل) فقال له عليه الصلاة والسلام : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس : وما يدريك به ؟ فقال رسول الله : ذلك أخي كان نبيا وأنا نبي •• فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه[1] •

قال ابن اسحاق : ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعـا الـى مكـة ، حتى اذا كان بنخلـه قـام مـن جوف الليل يصلي ، فمـر بـه النفـر من الذين ذكرهـم الله تبـارك وتعـالى مـن الجـن ، فاستمعوا اليه • فلما فرغ من صلاته ولوا الى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا الى ما سمعوا •

وقد قص الله خبرهم على رسوله في قوله (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) •• الى قوله عز وجل : (•• ويجركم من عذاب اليم) [2] وفي قوله : (قل اوحي الي انه استمع نفر من الجن ••) الآيات •

ثم عاد رسول الله ادراجه ، ومعه زيـد بن حارثة ، يريد دخول مكة • فقال له زيد : كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ؟ فقال : يا زيد ان الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا • وان الله ناصر دينه ومظهر نبيه • ثم ارسل رجلا من خزاعة الى مطعم بن عدي يخبره أنه داخل مكة في جـواره • فاستجاب مطعم لذلك • وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة[3] •

* * *

(١) انظر تفصيل ذلك في سيرة ابن هشام ١/٤٢٠ .
(٢) الاحقاف : ٢٩ .
(٣) طبقات ابن سعد : ١/١٩٦ . وسيرة ابن هشام ١/٣٨١ .

الدلائـل والعبر :

في احداث هذه الهجرة دلائل كثيرة وهامة ، نجملها فيما يلي :

اولا ـ كيف يعلم الرسول فن الصبر :

مما لاريب فيه أن هذاالذي لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أثناء هجرته الى الطائف يشكل قمة أنواع الشـدائد والاذى التي لقيها من المشركين ، وانه لاذى متنوع كمـا قد رأيت يبعث على الالم من جوانب متعددة . وما كان اغنى رسول الله عن ذلك لو سأل ربه ان يعافيه من بعض تلك الشدائد الجسام ، بل لقد جاءجبريل فبما رواه الشيخان عن عائشة يعرض عليه أن يطبق الاخشبين على أهل مكة بسبب شدة ايذائهم له ، فقال رسول الله : بل أرجو أن يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا .

ولقد كان من أجل الحكم التي اقتضت أن يصبر رسول الله هـذا الصبر العجيب على تلك المحن المتنوعة ، أنه كان يعلم أصحابه والمسلمين من بعده كيف يجابهون أمثال هذه الشدائد ويصمدون لها بالصبر والتجمل .

ذلك لان عمله هذا كان من جملة اعماله التبليغية الى الناس .

فكما أنه جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة عن الكون والخـالق ، وأحكـام العبادات والمعاملات وكيفية تنفيذها ، كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله بـه من واجب الصبر ، ويبين لهم بسلوكه وأعماله كيفية تطبيق معنى الصبر والمصابرة اللذين أمر الله بهمـا في قوله : (يا أيهـا الذين آمنـوا اصبروا وصـابروا) آل عمران : ٢٠٠ .

هل كان في دعاء الرسول ضجر يتنافى مع الصبر ؟ :

ربما يتوهم من اصغى الى ظاهر الالفاظ التي دعا بها رسول الله ، لدى رجوعه من الطائف ، بأنه صلى الله عليه وسلم قد غلب على أمره ، وان الضجر قد نال منه ، ولذلك توجه الى الله بذلك الدعاء ، ولا أدل على ذلك من قوله فيه :

الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ؟ أم الى عدو ملكته أمري ؟ .. والا فما معنى ارتفاع صوته بهذه الشكوى ؟

والجواب أن هذا وهم باطل ، ولا شأن للدعاء الذي دعا به رسول الله ربه ، بهذا الوهم قط ! .. ذلك لان الشكوى الى الله من أجل مظاهر العبودية له ، والضراعة والتذلل على بابه من أعظم القربات والطاعات .

وليس معنى الصبر الذي امر به الله عز وجل ، وطبقه رسول الله على نفسه تعليما لنا ، أن يتظاهر الصابر بأنه قوي لا يبالي بشيء ، فذلك يخرجه من دائرةالعبودية للخالق عز وجل ، ويظهره بمظهر المستقل بقوته المستغني عن معونة ربه .

وانما معنى الصبر ان يستكين المسلم لامر الله ، مع بيان ضعفه وطلب المعونة منه ، وانه لا يملك من دون توفيق الله ورعايته له حولا ولا قوة . وبذلك يجمع بين طرفي معنى العبودية لله تعالى ، اذ يتمثل احدهما في الخضوع والاستكانة لامر الله ، ويتمثل الطرف الثاني في اظهار الضعف ومد يد الاستعانة اليه سبحانه وتعالى بتذلل وانكسار .

وان للمحن والمصائب حِكَما ، من أهمها انها تسوق أصحابها الى باب الله تعالى وتلبسهم رداء العبودية له ، وتلجئهم الى طلب العون منه .

ولقد جمع رسول الله في دعائه معاني العبودية كلها لله عز وجل ، من أقصى الطرف الاول الى أقصى طرفه الثاني . فهو بقوله عليه الصلاة والسلام : اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي .. الخ، يعبر عن ضعفه وأنه لا يملك لنفسه (بدونتوفيق الله) حولا ولا قوة. وهو بقوله بعد ذلك: إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، يعبر عن رضاه التام بكل ما قد قضى الله به ، وأنه صابر محتسب خاضع لسلطان الله عز وجل .

على أن النفس البشرية ، مهما كانت من القوة ، لا تتجاوز حدود بشريتها ، والانسان مجبول في أصل فطرته على الاحساس والشعور .. الشعور بلذة النعيم وبألم العذاب ، وهو مجبول على الركون الى الاول والفزع من

الثاني . وانما المطلوب في باب الصبر ان لا يذهب في فزعه من الآلام التي تعروه مذهبا يجعله يتمرد على قضاء الله وحكمه بل عليه أن يكون عبدا لله عز وجل بأن يتحقق بكلا المعنيين اللذين أوضحناهما ، واللذين جاء دعاؤه صلى الله عليه وسلم أبين تنسيق متكامل بينهما .

ثانيا ـ في كل جلال جمال ، وفي كل محنة لطف ورحمة :

إذا تأملت في مشاهد سيرته صلى الله عليه وسلم مع قومه ، وجدت أن في كل مشهد من مشاهد هذه المصائب والمحن التي لقيها من قومه ، لطفا إلهيا عجيبا يأتي كرد على ذلك الايذاء وما يهدف اليه أصحابه ، ومواساة وسلوى للرسول عليه الصلاة والسلام . كي لا تتجمع في نفسه من تلك الشدائد ما يبعث فيها اليأس .

ففي مشهد هجرته هذه الى الطائف ، وما قد اكتنفها من العذاب الواصب ، تجد ردا إلهيا واضحا على سفاهة أولئك الذين أطبقوا بالاذى عليه ، بل لعلك ترى في هذا الرد واللطف الالهي مظهر اعتذار له صلى الله عليه وسلم عن سفاهتهم وغلظتهم ... تجد ذلك في مظهر الرجل النصراني « عداس » حينما جاء يسعى اليه وفي يده طبق العنب ، وفي انكبابه عليه ، وتقبيله رأسه ويده وقدميه ! ..

وتلك هي سنة الله في عباده ، لا تجد شدة يبتلي بها أحدا من عباده المؤمنين ، الا ويحيطها بلطف منه ورحمة ، حتى يخف عليه وقعها ، ويجد في تلك الالطاف الالهية ما يعينه على الصبر والتجمل . وهذا معنى قولهم : في كل جلال جمال .

ثالثا ـ الجن : وجودهم وضرورة الايمان بهم :

فيما قصه علينا ابن اسحاق من استماع النفر من الجن اليه ، وهو يصلي في جوف الليل دليل على وجود الجن وأنهم مكلفون ، وأن فيهم من آمن بالله ورسوله ، وفيهم من كفر ولم يؤمن . وقد ارتقت هذه الدلالة الى درجة اليقين والقطع . اذ ان القرآن تحدث عنهم بنصوص قاطعة صريحة ، كالآيات التي في سورة الجن ، وكقوله تعالى في سورة الاحقاف (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) الى قوله تعالى (ويجركم من عذاب اليم) .

الا ان القصة التي ساقها ابن اسحاق ورواها ابن هشام في سيرته ، أوردها البخاري ومسلم والترمذي على نحو قريب وبتفصيل آخر .

واللفظ الذي رواه البخاري بسنده عن ابن عباس ، أنه صلى الله عليه وسلم انطلق في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم قد حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ؟ قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء الا ما حدث ، فاضربوا مشارق الارض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الامر الذي حدث ، فانطلقوا فضربوا مشارق الارض ومغاربها ينظرون ما هذا الامر الذي حال بينهم وبين خبر السماء . قال فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة الى رسول الله بنخلة وهو عامد الى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن تسمعوا له . فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ! .. فهنالك رجعوا الى قومهم فقالوا : يا قومنا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنزل الله على رسوله : قل أوحي الي أنه استمع نفر من الجن .. وانما أوحي اليه قول الجن[1].

واللفظ الذي رواه مسلم والترمذي ، متفق مع هذا . ولكنهما زادا عليه في صدر الحديث : « ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، انطلق في طائفة .. » الحديث .

قال في الفتح : فكأن البخاري حذف هذه اللفظة عمدا ، لأن ابن مسعود أثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الجن . فكان ذلك مقدما على نفي ابن عباس . وقد أشار الى ذلك مسلم . فأخرج عقب حديث ابن عباس هذا حديث ابن مسعود على النبي صلى الله عليه وسلم . قال أتاني داعي الجن ، فانطلقت معه فقرأت عليه القرآن .. ويمكن الجمع بالتعدد [2] أي يمكن الجمع بين الروايتين بتعدد الحادثة .

---

(١) البخاري : ٦/٧٣ .

(٢) فتح الباري : ٨/٤٧٣ .

ثم ان هذا الذي رواه مسلم والبخاري يختلف عما رواه ابن اسحاق من ناحيتين :

الاولى : أن روايـة ابن اسحاق خالية عن الاشـارة الى انه كان يصلي بأصحابه ، بل هي تفيد أنه كان يصلي منفردا ، في حين ان الروايات الاخرى ذكرت أنه كان يصلي بأصحابه .

الثانية : أن رواية ابن اسحاق ليس فيها تقييد بصلاة الفجر ، والروايات الاخرى تنص على أنه كان يصلي الفجر .

فأما رواية ابن اسحاق فلا اشكال فيها . غير أن الرواية الاخرى تشكل من ناحيتين :

احداهما ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن معه في ذهابه الى الطائف ورجوعه منها سوى زيـد بن حارثة ، كما قد علمت ، فكيف يستقيم أنه كان يصلي بطائفة من أصحابه ؟

الأخرى أن الصلوات الخمس لم تشرع الا ليلة الاسراء والمعراج . وانما كان المعراج بعد ذهاب رسـول الله الى الطائف ، على مـا ذهب اليه كثير من المحققين ، فكيف يستقيم أنه كان يصلي الفجر ؟

والجواب على الاشكال الاول : أنه صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون قد التقى مع بعض من أصحابه عندما وصل الى نخلة (مكان قريب من مكة) فصلى بهم الفجر هناك .

أما الاشكال الثاني ، فيحل بأن يقال : ان حادثة الجن واستماعهم للقرآن منه قد تكرر أكثر من مرة . فقـد رويت مرة عن ابن عباس ، ورويت بصورة أخرى عن ابن مسعود . وكل منهما صحيح . وهـذا ما ذهب اليه جمهـور المحققين [1] هذا على القول بأن حادثة الاسراء والمعراج كانت بعـد الهجرة الى الطائف . أما على القول بأنها كانت قبل ذلك فلا اشكال البتة .

---

(١) انظر عيون الاثر لابن سـيد الناس : ١١٨/١ وفتح الباري : ٤٧٣/٨ .

والذي يهمنا أن نعلمه ، بعد هـذا كله ، أن على المسلم ان يعتقد ويوقن بوجود الجن • وبأنهم كائنات حية كلفهم الله عز وجل بعبادته كما كلفنا بذلك • ولئن كانت حواسنا لا تشعر بهم ، فذلك لان الله عز وجـل جعل وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية التي بثها في أعيننا • ومعلوم أن أعيننا انما تبصر أنواعـا محددة من الموجودات والى مدى محدد ، وبشروط معينة •

ولما كان وجود هذه الخليقة مستندا الى أخبار يقينية متواترة ، وردت الينا من الكتاب والسنة ، وكان أمرهـا معلوما من الدين بالضرورة ـ فقد أجمع المسلمون على ان انكار الجن أو الشك في وجودهم يستلزم الردة والخروج عن الاسلام • اذ ان انكارهم انكار لشيء علم أنه من الدين بالبداهة والضرورة ، فضلا عن أنه يتضمن تكذيب الخبر الصادق المتواتر الوارد الينا عن الله ورسوله •

رابعا ـ ما هو تأثير تلك الشدة والخيبة التي فوجيء بهما رسول الله على نفسه ؟

يتضح لك الجواب على هذا السؤال ، فيما قاله رسول الله صلى عليه وسلم لزيد ، حينما سأله زيد متعجبا : كيف تعود الى مكة وقـد أخرجوك منها ؟ فقد أجابه في هدوء وثقة :

« يا زيد ان الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجـا ، وان الله ناصر دينه ومظهر نبيه » •

واذن ، فان كل ذلك الذي رآه وعاناه في الطائف ، بعد الشدائد التي رآها في مكة ، لم يكن لـه أي تأثير على ثقته بالله عز وجل ، أو على قـوة العزيمة الايجابية في نفسه •

ومحال ، في ميزان العقل ، أن تكون هذه عزيمة بشرية آتية من الثقة بالنفس والاعتداد بالذات • وانما هو يقين النبوة كان ثابتا مستقرا في قلبه صلى الله عليه وسلم • فهو يعلم أنه انما ينفذ امر ربـه ، ويسير في الطريق التي رسمها لـه ، ومما لا ريب فيه أن الله بالغ أمره ، أيا كان نوع الطريق الذي شـاء له الله أن يسير فيها •

والفائدة التعليمية لنا في هذا الامر ، هي أن لا تصدنا المحن والعقبات التي قد تظهر في طريق الدعوة الى الله ، عن متابعة السير باستقامة وثبات • ما دمنا واثقين بأننا نسير على هدي من الايمان بالله وتوفيقه ، وعلى صراط متقيد باحكام الشريعة الاسلامية وآدابها • اذ مادام ان الله هو الآمر ، فلا شك أنه هو الناصر أيضا • ولا يمكن أن يتخلف النصر الا اذا تخلف المسلمون عن الانضباط بالاوامر والحدود التي ألزمهم الله بها ، وفي مقدمتها الاخلاص لوجـه الله ، ثم الارتباط بأوامره ، والابتعاد عن نواهيه •

معجزة الاسراء والمعراج

ويقصد بالاسراء الرحلةالتي اكرم الله بها نبيه عليه الصلاة والسلام ، من المسجد الحرام بمكة، الى المسجد الاقصى بالقدس • أما المعراج فهو ما اعقب ذلك من العروج به الى طبقات السماوات العلا ، ثم الوصول به الى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وانس وجن ، كل ذلك في ليلة واحدة •

وقد اختلف العلماء في ضبط تاريخ هذه الخارقة الفريدة من نوعها ، هل كانت في العام العاشر من بعثته عليه الصلاة والسلام أم بعد ذلك • والذي رواه ابن سعد في طبقاته الكبرى انها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا

وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معا • ولذلك فهي من معجزاته الباهرة التي أكرمه الله بها •

أما قصة ذلك ، فقد رواها البخاري ومسلم بطولها •

وفيها انه صلى الله عليه وسلم أتي بالبراق ، وهو دابة فوق حمار ودون بغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه •• وفيها أنه صلى الله عليه وسلم دخل المسجد الاقصى فصلى فيه ركعتين ، ثم أتاه جبريل باناء من خمر واناء من لبن • فاختار عليه الصلاة والسلام اللبن • فقال جبريل : اخترت الفطرة • وفيها أنه عرج به الى السماء الاولى فالثانية فالثالثة •• وهكذا ، حتى ذهب به الى سدرة المنتهى ،

وأوحى الله اليه عندئذ ما أوحى .. وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين ، وهي في أصلها خمسون صلاة في اليوم والليلة (١) .

ولما كانت صبيحة اليوم الثاني ، وحدث رسول الله الناس بما شهد ، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضا ليتناقلوا هذا الخبر الطريف ويضحكوا منه .. وتحداه بعضهم أن يصف لهم بيت المقدس ما دام أنه قد ذهب اليه وصلى فيه (وكان بيت المقدس آنذاك أطلالا باقية) ولم يكن قد خطر في بال الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيل النظر فيه ويحفظ أشكاله وما تبقى من دعائمه وسواريه ، فجلى له الله عز وجل صورته بين عينيه ، وأخذ يصفه لهم وصفا تفصيليا كما يسألون . روى البخاري ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما كذبتني قريش قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته ، وأنا انظر اليه .

أما ابو بكر رضي الله عنه ، فقد أسرع فحدثه بعض المشركين عما يقول رسول الله ، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه . فقال : ان كان قال ذلك لقد صدق . اني لأصدقه على أبعد من ذلك .

وفي صبيحة ليلة الاسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وحدد له أوقاتها . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل مشروعية الصلاة ، يصلي ركعتين صباحا ومثليهما مساء كما كان يفعل ابراهيم عليه السلام .

* * *

الدلائل والعبر :

اولا ـ كلمة عن رسول الله والمعجزات :

يولع بعض الباحثين بالمبالغة في تصوير حياة النبي صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) اذا اردت الوقوف على قصة الاسراء والمعراج فاقراها في احد الصحيحين او في اي مصدر من مصادر السنة الصحيحة . وحاذر ان تعتمد على مثل كتاب « معراج ابن عباس » فهو مليء بالكذب والاباطيل . وابن عباس بريء من هذا الكتاب .

على أنها حياة بشرية خاضعة للنواميس الكونية المعروفة ، وذلك من خلال الاطناب في بيان أن حياته لم تكن معقدة وراء الخوارق والمعجزات ، بل كان منكرا لها غير عابيء بها ولا ملتفت الى المطالبين بها ، وأنه كان يؤكد دائما للناس ان المعجزات والخوارق ليست من شأنه وليس له اليها من سبيل • وربما اكثروا في ذلك من الاستشهاد بقول الله عزوجل : « قل انما الآيات عند الله » •

فما هو موقع هذا التصور من حقيقة امر محمد عليه الصلاة والسلام ، اذا حاولنا استجلاء ذلك على ضوء البحث المنطقي والموضوعي ؟ نجيب على ذلك من خلال عرض النقاط التالية :

أولا ــ اذا عدنا الى التأمل في ظاهرة الوحي التي تجلت واضحة في حياته عليه الصلاة والسلام (وقد سبق شرحها وتحليلها بتفصيل) رأينا ان هذه الظاهرة تشكل قمة الخوارق والمعجزات • وهي أساس اليقين بنبوته صلى الله عليه وسلم • واذن فان بين المعجزة الخارقة ونبوته التي لا ريب فيها تلازما لا يقبل الانفكاك • ومن ثم فلا يتسنى نفي المعجزات والخوارق عنه صلى الله عليه وسلم ، الا بهدم معنى النبوة نفسها من حياته • وذلك يساوي بالبداهة انكار الدين نفسه ! ••

ولئن لم يصرح بهذه النتيجة بعض الباحثين ، فذلك اكتفاء منهم برسم المقدمات عن التصريح بالنتائج• على أن كثيرين صرحوا بالنتيجة ، بعد أن ضاقت بها صدورهم ، مثل شبلي شميل ، حينما سمى الايمان بالدين ايمانا بالمعجزة المستحيلة [1] •

ثانيا ــ اذا تأملنا في سيرته صلى الله عليه وسلم وواقع حياته ، وجدنا ان الله تعالى أجرى معجزات كثيرة على يديه ، لا مناص من قبولها ، ولا مجال لردها • لانها نقلت الينا بالاسانيد الصحيحة المتواترة التي ترقى بالعقل الى درجة القطع واليقين •

فمن ذلك حديث نبع الماء من بين اصابعه ، اخرجه البخاري في كتاب الوضوء

(١) ذكر ذلك الدكتور شبلي شميل في مقدمته لتعريب كتاب بوكنر في شرح مذهب داروين عن نظرية النشوء والارتقاء .

ومسلم في كتاب الفضائل . ومـالك في الموطـأ في كتاب الطهارة وغيرهم من علمـاء السنة .

ومن ذلك حديث انشقاق القمر على عهـده صلى الله عليه وسلم ، حينما سأله المشركون ذلك . وقد وردت بذلك الاحاديث المتواترة بالاسانيد الصحيحة ، كما يقول ابن كثير في تفسيره[1] .

ومن ذلك حديث الاسراء والمعراج الذي نحن بصدد بيانه وشرحه . وهـو حديث متفق عليه ، لا تنكر قطعية ثبوته ، وهو باجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته .

الى جانب خوارق كثيرة أخرى ثبتت بأحاديث صحيحة لا مجال لخدشها أو لانكـارهـا .

ومن عجب أن هؤلاء الـذين يجردون حيـاة رسول الله من الخـوارق والمعجزات ، يتجاهلون هذه الاحاديث المتواترة التي بلغت من الصحـة درجـة القطع ، فلا يتحدثون عنها بسلب ولا ايجاب ، كأن كتب الحديث لا تفيض بها !..

ثالثا ـ المعجزة كلمة ليس لها مضمون ذاتي ثابت ، لدى التأمل والتدبر . وانما لها مدلول نسبي مجرد . اذ المعجزة فيما تواضع عليـه اصطلاح الناس ، كل أمر خارق للمألوف والعرف . والمألوف يتطور بتطور الازمنة والعصور ، ويختلف باختلاف الثقافات والمدارك والعلوم . فرب امر كان قبل حين من الزمن من المعجزات الباهرة ، فانقلب اليوم الى شـيء معروف ومألوف . ورب امر مألوف في بيئته متمدنه مثقفة ، ينقلب معجزة بين أناس بدائيين غير مثقفين .

بل الحق في ميـزان العلم ، أن كلا من المألوف وغير المألوف ، في أصله معجزة . ولكن طول الالف أنسانا وجه الغرابة فيه وأذاب معنى الاعجاز منه . ان الكواكب معجزة ، وحركة الافلاك معجزة . وقانون الجاذبية معجزة ، والروح التي في الانسان معجزة ، والمجموعة العصبية فيه معجزة ، والدورة الدموية فيه

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٤/٢٦١ .

معجزة ، والانسان بمجموعه معجزة ، وكم كان دقيقا ذلك العالم الفرنسي (شاتوبريان) الذي أطلق على الانسان اسم الحيوان الميتافيزيقي .

غير أن الانسان ينسى لطول الالف ،وجه المعجزة والغرابة في هذا كله ، فيحسب جهلا منه وغرورا ، أن الجدير باسم المعجزة هو ذاك الذي فاجأ مألوفاته التي اعتادها بالمعاكسة والتشاكس .. ثم لا يقف به الجهل والغرور عند هذا الحد ، بل يمضي يتخذ مما ألفه واعتاد عليه مقياسا لايمانه بالاشياء أو كفره بها ! ..

ان هذا التصور يخالف الحقيقة العلمية قبل ان يخالف الدين او يتعارض مع مقتضى النبوة والرسالة .

ثانيا ـ موقع الاسراء والمعراج من الاحداث التي مر بها رسول الله آنذاك :

لقد رأيت ان النبي صلى الله عليه وسلم عانى عند ذهابه الى الطائف من شدائد كثيرة ، ولعل من أهمها رجوعه خائبا منها بعد أن سار اليها على قدميه فوق تضاريس كادت أن تمزق قدميه مسافة لا تقل عن ٨٠ كيلو مترا ! .. رجع منها بعد هذا العذاب الذي تحمله في بلوغها وان حجارة القوم تشيمه وتهوي عليه من كل جانب .

ولقد رأيت كيف ظهر في دعائه عليه الصلاة والسلام ، عندما وقف يستريح في بستان ابني ربيعة ، ما قد يتعرض له الانسان من الشعور بالضعف ، والحاجة الى الحامي والنصير ، كما تجلى في دعائه معنى الشكوى الى الله عز وجل والطمع في عافيته ومعونته . ولعله خشي أن يكون مصدر كل هذا الذي يلاقيه غضبا قد استحقه من الله عز وجل لامر ما .. ولذلك كان من جملة دعائه قوله : ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي .

فجاءت ضيافة الاسراء والمعراج من بعد ذلك ـ بهذا الشكل الخارق العجيب ـ تكريما من الله تعالى له ، وتطمينا لقلبه ، وتجديدا لعزيمته وثباته . ثم جاءت دليلا على أن هذا الذي لقيه صلى الله عليه وسلم من قومه ، ليس بسبب أن الله قد

تخلى عنه أو أنه غضب عليه ، وانما هي سنة الله مع محبيه ومحبوبيه • وهي سنة الدعوة الاسلامية في كل عصر وحين •

ثالثا ـ المعنى اللاحظ في الاسراء به الى بيت المقدس :

ان في الاقتران الزمني بين الاسراء بـه عليه الصلاة والسـلام الى بيت المقدس والعروج به الى السماوات ، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقداسة عند الله عز وجل ، كما أن فيه دلالـة واضحة أيضـا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما الصلاة والسلام ،وعلى ما بين الانبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل بـه •

وفيه دلالة على مدى ما ينبغي ان يوجد لدى المسلمين فيكل عصر ، من الحفاظ على هذه الارض المقدسة وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين • وكان الحكمة الالهية تهيب بالمسلمين في كل عصر ان لا يهنـوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الارض المقدسة ، وأن يطهروها من رجسهم ، ويعيدوها الى اصحابها المؤمنين •

ومن يدري ؟ لعل واقع هذا الاسراء العظيم هو الذي جعل صلاح الدين الايوبي رحمه اللهيستبسل ذلك الاستبسال العظيم ويفرغ كل جهده في سبيل صد الهجمات الصليبية من هذه البقعة المقدسة ، حتى ردهم على أعقابهم خائبين •

رابعا ـ هل كان الاسراء بالروح فقط :

كان الاسراء به صلى الله عليه وسلم ، بكل من الجسد والروح معا ، على ذلك اتفق جمهور المسلمين من المتقدمين والمتأخرين • قال النووي في شرحه على صحيح مسلم •

« والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمينأنه أسري بجسده صلى الله عليه وسلم ، والآثار تدل عليه

لمن طالعها وبحث عنها ، ولا يعدل عن ظاهرها الا بدليل . ولا استحالة في حملها عليه فيحتاجَ الى تأويل »[1] .

ويقول ابن حجر في شرحه على البخاري : « ان الاسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة ، في اليقظة بجسده وروحه ، والى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين . وتواردت عليه ظواهر الاخبار الصحيحة . ولا ينبغي العدول عن ذلك ، اذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج الى تأويل »[2] .

ومن الادلة التي لا تقبل الاحتمال ، على أن الاسراء والمعراج كانا بالجسد والروح ، ما ذكرناه من استعظام مشركي قريش لذلك ، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له . اذ لو كانت المسألة رؤيا وكان اخبارهم لها على هذا الوجه ، لما استدعى الامر منهم أي تعجب أو استعظام ، لان المرئيات في النوم لا حدود لها . بل يجوز مثل هذه الرؤى على المسلم والكافر على السواء .. ولو كان الامر كذلك لما سألوه عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الالزام والتحدي .

أما كيف تمت هذه الخارقة ، فكما تتم أي خارقة غيرها من خوارق الكون والحياة ! .. لقد قلنا آنفا ان كل مظاهر هذا الكون ليست في حقيقتها الا خوارق ومعجزات . فكما تتصورها العقول في سهولة ويسر ، يمكنها أن تتصور هذه أيضا في سهولة ويسر .

خامسا ـ معراج « ابن عباس » :

احذر وأنت تبحث عن مرجع لقصة الاسراء والمعراج ، أن تركن الى ذلك الكتيب الذي يسمى « معراج ابن عباس » . فهو كتاب ملفق من مجموعة احاديث باطلة ، لا أصل لها ولا سند وقد شاء ذلك الذي فعل فعلته الشنيعة هذه أن يلصق هذه الاكاذيب بابن عباس رضي الله عنه . وقد علم كل مثقف أن ابن عباس بريء

---

(١) النووي على صحيح مسلم : ٢/٢٩٠ .
(٢) فتح الباري على صحيح البخاري : ٧/١٣٦ و ١٣٧ .

منه ، وأنه لم يؤلف أي كتاب في معراج الرسول ، بل ما ظهرت حركة التأليف الا في أواخر عهد الامويين .

ولما وقف دعاة السوء على هذا الكتاب ووجدوا فيه من الاكاذيب المنسوبة الى رسول الله ما يكفل زعزعة ايمان الكثير من الناس ، راحوا يروجون له ويدعون اليه (وكان في جملة من كتب عنه مادحا ومعظما ، الدكتور لويس عوض . وما أدراك من هو لويس عوض) . مع أن دعاة السوء يعلمون قبل سائر الناس أنه كتاب مكذوب على ابن عباس ، وان أحاديثه كلها باطلة . ولكن الكذب سرعان ما ينقلب الى حقيقة ثابتة اذا كان فيه ما يشوش أفكار المسلمين ويلبس عليهم دينهم .

* * *

عرض الرسول نفسه على القبائل وبدء اسلام الانصار

كان رسول الله خلال هذه المدة كلها ، يعرض نفسه في موسم الحج من كل سنة على القبائل التي تتوافد الى البيت الحرام ، يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم الى توحيد الله ، فلا يستجيب له أحد .

يقول ابن سعد في طبقاته : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوافي الموسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم ، بعكاظ ومجنة وذي المجاز ، يدعوهم الى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحدا ينصره . ويقول : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله ، تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم . واذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة » وأبو لهب وراءه يقول : « لا تطيعوه فانه صابيء كاذب » فيردون على رسول الله أقبح رد ويؤذونه[1] .

وروى ابن اسحاق عن الزهري ان النبي صلى الله عليه وسلم أتى بني عامر

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١/٢٠٠ و ٢٠١ وروى ابن اسحاق نحوه . انظر سيرة ابن هشام ١/٤٢٣

بن صعصعة ، فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه . فقال رجل منهم يقال لـه بيحرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لاكلت بـه العرب . ثم قال : أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك : أيكون لنا الامر من بعدك ؟ قال : الامر الى الله يضعه حيث يشاء . قال فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله كان الامر لغيرنا ؟! .. لا حاجة لنا بأمـرك[1] .

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض رسول الله نفسه على القبائل شأنه في كل عام . فبينما هو عند العقبة (موضع بين مكة ومنى ترمى منهـا جمرة العقبة) لقي رهطا من الخزرج[2] اراد الله بهم الخير فسألهم : من انتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج ؟

قال : أمن موالي يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى . فجلسوامعه ، فدعـاهم الى الله عـز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الاسلام ، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم . ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم . فكان اذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال ، قال لهم اليهود : ان نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله هؤلاء النفر ، ودعاهم الى الاسلام ، نظر بعضهم لبعض وقالوا : « تعلموا والله انه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلايسبقنكم اليه » .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤٢٥/١ وتاريخ الطبري : ٣٥٠/٢ .

(٢) كانوا ستة ، وهم : اسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله .

فأجابوه الى ما دعاهم اليه من الاسلام ، وقالوا : انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى ان يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك . ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين . فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا ووعدوه المقابلة في الموسم القادم[1] .

بيعة العقبة الاولى

وانتشر الاسلام خلال تلك السنة في المدينة . ولما كان العام الذي يليه ، وافى الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا ، فلقوه بالعقبة ، وهي العقبة الاولى ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء (أي على نمطها في البنود التي بايع النساء عليها ، أي انه لم يبايعهم فيها على الحرب والجهاد ، وكانت بيعة النساء ثاني يوم الفتح على جبل الصفا ، بعدما فرغ من بيعة الرجال) وكان منهم : أسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان .

وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه البايعة ، فقال : كنا اثني عشر رجلا ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم،ولا تعصوني في معروف،فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره الى الله ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه » قال عبادة بن الصامت فبايعناه على ذلك .

فلما أرادوا الانصراف بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين ، فكان يسمى مقرىء المدينة .

* * *

(٢) رواه ابن اسحاق عن عاصم بن عامر عن اشياخ من قومه . وانظر سيرة ابن هشام : ٤٧٨/١ .

الدلائل والعبر :

١ ـ التحول العجيب :

أرأيت كيف بدأ التحول في طبيعة ما كان يلاقيه النبي عليه الصلاة والسلام طوال هذه السنوات التي خلت من عمر بعثته صلى الله عليه وسلم ؟ .. لقد أينع الصبر ، وبدأ الجهد يثمر ، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوى على سوقه ، ليعطي النتائج المنتظرة ! ..

ولكن فلنلتفت مرة أخرى ، الى طبيعة ذلك الصبر النبوي العظيم أمام كل تلك الشدائد المتنوعة الجسام .

لقد رأينا أن رسول الله لم يكن يقصر الدعوة على قومه من قريش ، بل كان يدخل بين القبائل الآتية من خارج مكة من شتى الجهات والاطراف بمناسبة موسم الحج [1] فيعرض نفسه كدلال يدعوهم الى بضاعة الدين وكنز التوحيد . ويذهب ويجيء بينهم ، فلا يرى مجيبا له . روى أحمد وأصحاب السنن والحاكم وصححه ان رسول الله كان يعرض نفسه على الناس بالموسم ، فيقول : هل من رجل يحملني الى قومه ، فان قريشا منعوني أنأبلغ كلام ربي .

احدى عشرة سنة ، ورسول الله يعاني منغربة هائلة مظلمة بين قومه ، وجيرانه ، وسائر الجماعات والقبائل المحيطة به ، فلا ييأس ولا يضجر ، ولا يؤثر ذلك على شيء من أنسه بربه عز وجل .

احدى عشرة سنة من الجهاد والصبر المتواصل في سبيل الله وحده ، هي الثمن والطريق الى نشأة مد اسلامي زاخر عظيم . ينتشر في شرق العالم وغربه ،

---

(١) المراد بالحج هنا معناه اللغوي ،اذ لم يكن حجهم في الجاهلية وأوائل عهد الاسلام الى الكعبة الا قصدا اليها ، في مواسم متقلبة ، يتفقون عليها حسب ما تقضيه مصالحهم وظروفهم . وربما طافوا بالبيت عراة يصفقون ويصفرون .. حتى شرع الله تعالى لعباده فريضة الحج مفصلة طبق نسك واعمال معينة .

فتساقط أمامه قوة الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس ، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات .

ثمن من الجهاد والصبر والمصابرة ، كان من السهل جدا على الله عز وجل أن يقيم دعائم المجتمع الاسلامي بدونه ، ولكن تلك هي سنة الله في عباده ، أراد أن يتحقق فيهم التعبد له اختيارا ، كما تحققت فيهم صفة العبودية له اجبارا .

ولا يتحقق التعبد بدون بذل للجهـد ، ولا يتمحص الصادق من المنافق بدون عذاب أو استشهاد ، وليس من العدل أن يكسب الانسان المغنم دون أن يبذل على ذلك شيئا من المغرم .

والآن فلنتأمل كيفية ظهور هذه الثمار ، والمكان الذي ظهرت فيه ، والحكمة من ذلك .

٢ ـ لماذا ظهرت ثمار النصر خارج قريش ؟

قلنا في صدر هذا الكتاب ، لقد اقتضت رحمة الله بعباده أن تسير نبوة رسول الله في طريق بين لا تدع للمتأمل أي شك في طريق الايمان به ، ولا أي سبب من اسباب التباس دعوته بالدعوات الارضية والوضعية الاخرى .

من أجل هذا قضى الله ان يكون رسوله أميا لا يقرأ ولا يكتب .. ومن أجل هذا بعث في أمة من الاميين الذين لم يقتبسوا حضـارة ولم يعرفوا بمدنية أو ثقافة معينة .. ومن أجل هذا جعله الله مثال الخلق الكريم والامانة والنزاهة .

ومن اجل ذلك اقتضت الحكمة الالهية ان يكون أنصاره الاول من غير بيئته وقومه ، حتى لا يظن ظان بأن الـدعوة النبوية كانت في حقيقتها دعوة قومية صاغتها رغبات قريش واتجهت اليها مطامحهم .

وهذا في الواقع من أجل الخوارق العجيبة التي أدار الله حياة رسوله عليها ، حتى يتبين للمتأمل أن يدا إلهية تحوط حياة الدعوة النبوية ، من كل جانب ، كي لا توجد في أي جانب منها ثغرة لمطعن ، يقوم به مشكك أو محترف غزو فكري .

وهذا ما قاله واحد من الباحثين الاجانب أنفسهم ، فقد جاء في كتاب حاضر العالم الاسلامي نقلا عن « اديان دينه » قوله :

(ان هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقدة سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) بهذا الاسلوب الاوربي المحض ، لبثوا ثلاثة ارباع قرن ، يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم . وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية . فهل تسنى لهم شيء من ذلك ؟ الجواب : لم يتمكنوا من اثبات أقل شيء جديد ، بل اذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتى بها هؤلاء المستشرقون من فرنسيين وانكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين ، لا نجد الا خلطا وخبطا . وانك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره)[1] .

ثالثا ـ عوامل خفية وراء اسلام الانصار :

يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية اسلام الانصار ، أن الله عز وجل ، قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الاسلامية ، وانه كان في صدور أهل المدينة تهيؤ لقبول هذا الدين . فما هي أسبابه وعوامله ؟

لقد كان سكان المدينة خليطا من سكانها الاصليين ، وهم العرب المشركون ، ومن اليهود المهاجرين اليها من أطراف الجزيرة العربية . وكان المشركون ينقسمون الى قبيلتين كبيرتين هما الاوس والخزرج .

وكان اليهود ثلاث قبائل : بني قريظة ، وبني النضير ، وبني قينقاع .

ولقد احتال اليهود طويلا ـ كعادتهم ـ حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتي الاوس والخزرج فراح العرب يأكل بعضهم بعضا في حروب طاحنة متلاحقة . وقد ذكر كثير من المؤرخين أنها دامت بين القبيلتين مائة وعشرين عاما .

وفي غمار هذه الخصومة الطويلة ، حالف كل من الاوس والخزرج قبيلة من اليهود .. فحالفت الاوس بني قريظة ، وحالفت الخزرج بني النضير وبني قينقاع . وكان آخر ما بينهم موقعة بعاث . وذلك قبل الهجرة النبوية بسنوات قليلة . وكان يوما عظيما مات فيه أكثر رؤسائهم .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي : ٣٢/١ .

وفي تلك الاثناء ، كان كلما وقعت خصومة بين العرب واليهود هدد اليهود العرب بأن نبيا قد حانت بعثته ، وأنهم سيكونون من أتباعه ، ويقتلونهم معه قتل عـاد وإرم .

فهذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلعا الى هذا الدين ، وعلقت منهم آمالا قوية به ، عسى أن تتوحـد بفضله صفوفهم ويعود فيلتئم شملهم وتذوب أسباب الشقاق مما بينهم .

ولقد كان هذا ، مما صنعه الله لرسوله ، كما يقول ابن القيم في زاد المعاد [1] حتى يمهد بذلك لهجرتـه الى المدينة ، حيث اقتضت حكمة الله أن تكون هي المنطلق للمد الاسلامي في أرجاء الارض كلها .

رابعا ـ مسؤوليات الاسلام من خلال بيعة العقبة الاولى :

لقد رأينا أن اسلام تلك الطائفة مـن أهل المدينة لم يكن مجـرد نطق بالشهادتين ، وانما كان الى جانب الجزم القلبي والنطق اللساني بهما ، التزام بالبيعة التي أخذها رسول الله عليهم . فقد أخذ عليهم في هذه البيعة أن لا يشركوا بالله شيئا ،ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا رسول الله في أي معروف يامرهم به ..

وهذه هي أهم دعائم المجتمع الاسلامي الذي بعث رسول الله لانشائه . اذن فليست مهمته أن يلقن الناس كلمة الشهادة ، ثم يتركهم يرددونها بأفواههم ، وهم عاكفون على انحرافاتهم ومفاسدهم ! ..

صحيح أن الانسان يصدق عليه اسم المسلم اذا صدق بالشهادتين ، وأحل الحلال وحرم الحرام ، وصـدق بالفرائض . ولكن ذلك لأن هذا التصديق هو المفتاح والسبيل الى اقامة المجتمع الاسلامي وتحقيق نظمه ومبادئه . فحيثما وجد الايمـان الصحيح بالله عز وجل ، لا بـد أن يتبعه الايمان بحاكمية الله تعالى

---

(1)زاد المعاد ص ٥٠ طبعة الحلبي .

وضروره اتباع شريعته وأوامره .. وبما أننا لا نملك الغوص الى افئدة الناس ، فقد أمرنا أن نحكم بموجب ما تجلى من ظواهرهم ، وندع بواطنهم الخفية لله تعـالى .

ومن أعجب العجب ، ما يعمد اليه بعض الذين تأسرهم النظم والتشريعات الوضعية والاهواء المتحكمة بنفوسهم ، اذ يحاولون أن يسلكو مـع خالق هذا لكون ومالكه مسلكا ، أشبه ما يكون بمسلك الصلح والمفاوضات .

وسبيل المفاوضات فيما يحلولهم ، أن يقسموا مظاهر المجتمع بينهم وبين الاسلام . فللاسلام من المجتمع مساجده وسائر مظاهره العبادية ، ولهم منه نظمه وتشريعاته واخلاقه يغيرون منها ويبدلون كما يشتهون ! ..

ولو أن المتألهين والبغاة الذين أرسل الله اليهم الرسل فكذبوهم ، تنبهوا لهذا الحل العجيب ، للمشكلة التي وقعوا فيها ، اذا لمـا توانوا عن الدخول في الاسلام واظهار الطواعية له ما دام أنه لا يكلفهم التنازل عن بغيهم ولا التسامي فوق شهواتهم وأهوائهم ، ولمـا بخلوا في سبيل أن يبقى لهم كل ذلك بكلمة يرددونها أو طقوس يتجملون بها .. ولكنهم علموا أن هذا الدين يكلفهم أول ما يكلفهم الدخول في نظام وعالم جديدين ، تكون العبودية فيه لله وحده . فمن أجل ذلك شـاقوا الله ورسوله وعـز عليهم أن يعلنوا استسلامهم لدعوة الله عـز وجـل .

وفي بيان هذه الحقيقة والتحذير من فهم الاسلام على أنه ترديد لكلمات دون أن تحملهم أي مسؤولية ، يقول الله عز وجل (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) (١) .

أما سبب خلو بنود هذه البيعة عن بند الجهاد بالسلاح ، فهو أنه لم يكن قد شرع هذا الجهاد بعـد .

---

(١) النسـاء : ٦٠ .

خامسا ـ شمولية الدعوة وعموم مسؤوليتها :

ليست مهمة الدعوة الى الله وقفا على الرسل والانبياء ، ولا على خلفائهم من العلماء الذين يأتون على أثرهم • وانما الدعوة الاسلامية جزء لا يتجزأ من حقيقة الاسلام نفسه • فلا مناص لكل مسلم من القيام بها قدر استطاعته مهما كانت مرتبته ، ومهما كان شأنه • وانما تتلخص الدعوة في النهوض بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر • وهو جماع معنى الجهاد كله في الاسلام • وأنت خبير أن الجهاد فرض من فروض الاسلام تستقر تبعته على كل مسلم •

وانك لتجد مصداق هذه الحقيقة في ارساله صلى الله عليه وسلم لمصعب بن عمير ، مع صحبه الاثنى عشر الى المدينة لدعوة أهلها الى الاسلام وتعليمهم قراءة القرآن وأحكام الدين • ولم تكن لمصعب أي صفة أكثر من كونه مسلما صادقا في اسلامه ، ولم يكن يمتاز على غيره من المسلمين بأي مزية ، من علم زائد أو وظيفة كلف بها ، أو غيرها من الصفات التي يمتاز بها من يسمى بـ « رجل الدين » اليوم

ولقد انطلق مصعب سعيدا بتلبية أمر رسول الله ، وراح يدعو أهل المدينة الى الاسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ويبلغهم أحكام الله • ولقد كان الرجل يدخل عليه في يده حربة يريد أن يقتله بها • فما هو الا ان يتلو عليه شيئا من القرآن ويعرفه على بعض مبادئه وأحكامه ، حتى يلقي حربته ويتخذ مجلسه مع من حوله ، مسلما موحدا يتعلم القرآن وأحكام الاسلام ، حتى انتشر الاسلام ذلك العام في المدينة كلها •

اذا علمت هذا ، تبين لك أنه لا معنى لكلمة رجال الدين في المجتمع الاسلامي ، حينما تطلق على فئة معينة من المسلمين ، ذلك لان كل من دخل الاسلام ، فقد بايع الله ورسوله على الجهاد في سبيل هذا الدين ، ذكرا كان أم أنثى عالما أو جاهلا • ومهما كان شأنه أو اختصاصه • فالمسلمون كلهم رجال دين ، اشترى منهم الله أرواحهم وأموالهم بأن لهم الجنة يسخرونها في سبيل اقامة دينه ونصر شريعته •

على أن هذا كله لا علاقة له بما للعلمـاء من اختصاص البحث والاجتهاد وتبصير المسلمين بأحكام دينهم ، وحل ما قد يحل من المشكلات في حياتهم ، على ضوء نصوص الشريعة الثابتة مع الزمن .

* * *

بيعة العقبة الثانية

ثم ان مصعب بن عمير عاد الى مكة في موسم العام التالي ، ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين .

قال محمد بن اسحاق يروي عن كعب بن مالك : فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أواسط أيام التشريق . فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهـا ، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى اذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اذا اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي .

قال فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، فتكلم القوم وقالوا : خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت .. فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذي بعثك بالحق نبيا ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب ، وأهل الحلقة (أي السلاح كله) ورثناها كابراً عن كابر » .

فاعترض القول ــ والبراء يتكلم ــ أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : « يارسول

الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الـدم الدم والهدم الهدم • أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم •

وقد كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجوا الي منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس • فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم • وأنا كفيل على قومي •

وكان أول من ضرب على يد رسول الله البراء بن معرور ، ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك •

فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ارفضوا الى رحالكم • فقال له العباس بن عبادة بن نقلة : والله الـذي بعثك بالحق ان شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم » •

فرجعنا الى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى اصبحنا • فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش فقالوا يا معشر الخزرج انه بلغنـا أنكم قد جئتم الى صاحبنـا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا • وانه والله ما من حي من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم » •

فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله : ما كان من هذا شيء وما علمناه • وقد صدقوا لم يعلموه • قال : « وبعضنا ينظر الى بعض » •

ونفر الناس من منى ، فتحرى القوم الخبر فوجدوا أن الامر قد كـان • فخرجوا في طلبنا فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر [1] والمنذر بن عمرو ـ وكلاهما كانا نقيبا ـ فأما المنذر فأعجز القوم فهرب •

---

(١) اذاخر موضع قريب من مكة .

وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه الى عنقه ، بشراك رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجبهته ، وكان ذا شعر كثير .

قال سعد : فوالله اني لفي أيديهم يسحبونني ، اذ اقبل اليّ رجل منهم ، فقال : ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لكل من جبير بن مطعم والحارث بن امية تجارهما وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، قال : ويحك فاهتف باسمهما . قال ففعلت فجاء مطعم بن عدي والحارث بن أمية فخلصناه من أيديهم .

قال ابن هشام : وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله في القتال شروطا سوى شرطه عليهم في بيعة العقبة الاولى ، على بيعة النساء ، وذلك أن الله لم يكن قد أذن لرسوله في الحرب . فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة الاخيرة على حرب الاحمر والاسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

قال عبادة بن الصامت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا ، وأن لا ننازع الامر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

وكانت أول آية نزلت في الاذن بالحرب للرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تبارك وتعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز » .

* * *

الدلائل والعبر :

اولا ـ اهم مظاهر الفرق بين هاتين البيعتين :

نلاحظ فارقين مهمين جديرين بالملاحظة والدرس بين كل من بيعة العقبة الاولى والثانية .

الفارق الاول :

أن عددالمبايعين من أهل المدينة في المرة الاولى كان اثني عشر رجلا فقط • أما في البيعة الثانية ، فقد كان بضعة وستين بينهم امرأتان •

فقد عاد اولئك الاثنـا عشر في السنة الاولى ، ومعهـم مصعب بن عمير ، لا لينطوي كل على نفسه ، وينعزل في بيته ، بل ليعرف بالاسـلام ويدعو اليه كل من كان حوله من رجال ونساء ، فمن أجل ذلك انتشر الاسلام انتشارا عظيما حتى لم تبق دار الا دخلها الاسلام •

الفارق الثاني :

أن البنود المنصوص عليها في البيعة الاولى ، خالية عن الاشارة الى الجهاد بالقوة ، ولكنها في البيعة الثانية تضمنت الاشارة بل التصريح بضرورة الجهـاد والدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوته بكل وسيلة •

وسبب هذا الفارق أن أرباب البيعة الاولى انصرفوا وهم على موعد مع رسول الله في المكان ذاته في الموسم التالي • فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعتهم على القتال ، ما دام أن الاذن به لم يأت بعد ، وما دام أن هؤلاء المبايعين سيلتقون بعد عام مرة أخرى برسول الله صلى الله عليه وسلم •

لقد كانت البيعة الاولى اذن بيعة مؤقتة ، بالنسبة لاقتصارها على تلك البنود وحدها ، وهي البنود التي بايع عليها النساء فيما بعد •

أما البيعة الثانية ، فقد كانت الاساس الذي هاجر رسول الله الى المدينة بناء عليه • ولذا كانت شاملة للمبادىء التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة الى المدينة وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة بالقوة ، وهو حكم وان لم يكن قد أذن الله بتنفيذه في مكة ، فان الحكمة اقتضت أن تكون هذه البيعة مقدمة وتمهيـدا لهـا •

ومن هنا تعلم أن مشروعية القتال في الاسلام لم تكن الا بعد هجرته صلى

الله عليه وسلم على الصحيح ، وليس كما قد يفهم من كلام ابن هشام في سيرته انه انمـا شرع قبل الهجرة عند بيـع العقبة الثانية ..

والدليل على هذا ماسبق ذكره من أن العباس بن عبادة قال بعد البيعة : والله الذي بعثك بالحق ، ان شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له : لم نؤمر بذلك . ولكن ارجعوا الى رحالكم .

ومن أهم اسباب تأخر مشروعية القتال جهادا في سبيل الله الى ما بعد الهجرة سببان اثنان :

أولهما : أن من المناسب أن يسبق القتال تعريف بالاسلام ، ودعوة اليه واقامة لحجته ، وحل للشكلات التي قد تقف في سبيله . ولا ريب أن هذه هي المرحلة الهامة الاولى في الجهاد ، ولذا كان القيام بتحقيقها فرض كفاية يشترك المسلمون كلهم في تحمل مسؤوليته .

ثانيهما : اقتضت رحمة الله بعباده أن لا يحملهم واجب القتال ، الى أن توجد لهم دار اسلام تكون لهم بمثابة معقل يأوون اليه ويلوذون به ، ولقد كانت المدينة المنورة أول دار اسلام .

ثانيا ـ كلمة عن الجهاد ومشروعيته :

هذا وما دام البحث سيسوقنا منذ الآن الى الحديث عن الجهاد القتالي ، فمن الجدير أن نقف هنا لنتبين فكرة صحيحة ودقيقة عن الجهاد ومشروعية ومراحله . فانه من اخطر المسائل التي لا يجوز الجهل بها .

أما تعريف الجهاد ، فهو بذل الجهد في سبيل اعلاء كلمة الله ، واقامة المجتمع الاسلامي ، وانما بذل الجهد بالقتال نوع من أنواعه .

أما غايته فهو اقامة المجتمع الاسلامي عن طريق تكوين الفرد المسلم عقيدة وسلوكـا .

وأما المراحل التي مر بها ، فقد كان الجهاد في صدر الاسلام ، كما قد علمت ، مقتصرا على الدعوة السلمية مع الصمود في سبيلها للمحن والشدائد . ثم شرع

الى جانبها ـ مع بـدء الهجرة ـ القتال الدفاعي ، أي رد كل قوة بمثلها . ثم شرع بعد ذلك قتـال كل من عرف الحق ووقف عقبة في طريقه ، باستثناء أهل الكتاب ومن قد يلحق بهم ، فانهم يتركون وما يتدينون به على أن يخضعوا لنظام المجتمع الاسلامي وينسجموا مع مبادئه العامة .

وعند هذه المرحلة الاخيرة استقر حكم الجهاد في الاسلام ، وهذا هو واجب المسلمين في كل عصر : ينهضون بواجب الدعوة الى الاسلام والتبصير به بالحجة والحوار ، وبدافع من الاخلاص والشفقة على عباد الله ، كما كان يصنع رسول الله . ويدافعون عن المسلمين وعقائدهم وديارهم ، كلما اقتضى الامر ، وتهيأت الوسائل والاسباب . ويقاتلون كل من بلغتهم دعوة الاسلام وفهموا حقيقته ولكنهم وقفوا عقبة في سبيله من الملاحدة والوثنيين ، على أن يستثنى أهل الكتاب ان خضعوا لاحكام الاسلام نظاما اجتماعيا ، وان لم يعتنقوه عقيدة ودينا .

والمهم أن تعلم أن هذه المراحل مترتبة بعضها على بعض ، فلا يجوز مقاتلة من لم تبلغهم الدعوة ولم يتمكنوا من استيعابها وفهم حقيقتها . والدليل على ذلك موقف رسول الله من مشركي قريش خلال ثلاثة عشرة عاما من بعثته .

هذه خلاصة معنى الجهاد وغايته في الشريعة الاسلامية . وبذلك تعلم أن القتال الذي يكون دفاعا عن نفس أو مال أو عرض أو أرض ، لا يدخل اصطلاح تحت اسم الجهاد في الشريعة الاسلامية ، وانما هو داخل في باب الصيال ، وقـد أفرد الفقهاء بحثا خاصا تحت عنوان : الصيال .

وقد تسربت مغالطات وتشويهات متعمدة من قبل كثير من المستشرقين الى مفهوم الجهـاد ، استهدفت القضـاء عليه وسلخ المجتمع الاسلامي منه . وقد سارت هذه المغالطات في طريقين متخالفين في الظاهر ، ولكنهما متحدان في الغاية والتنسيق .

الطريق الاول : القول بان الاسلام لم ينتشر الا بحـد السيف وأن النبي وأصحابه سلكوا بالناس مسلك الاكراه . فكان الفتح الاسلامي فتح قهر وبطش لا فتح قناعة وفكر [1] .

---

(١) اقرأ هذا الكلام لفان فلوتن في كتابه « السيادة العربية » من ص ٥ فما بعد ..

الطريق الثاني : تنادي بنقيض ذلك ، اذ ينادي أصحابها بان الاسلام دين محبة وسلام ، وأنه لا يشرع الجهـاد فيه الا لرد غائلة العدوان ، ولا يحارب أهله الا اذا أرغموا على ذلك وبودئوا به .

وعلى الرغم من أن هاتين الطريقتين في فهم معنى الجهاد متناقضتان بحسب الظاهر ، فان دعاة كل منهما متفقون على غاية واحـدة من وراء هذين المذهبين المتعارضين ، فهي وحدها المقصودة من كلا المذهبين ، واليك بيان ذلك :

لقد أشاعوا اولا أن الاسلام دين بطش وحقد على الآخرين .. ثم انتظروا الى أن أتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين وانكار هذا الظلم في حق الاسلام .. وبينما المسلمون يلتمسون الرد على هـذا الباطل ، قام من اولئك المشككين انفسهم من اصطنع الدفاع عن الاسلام ، بموضوعية وتجرد ، وراحوا يردون تلك التهمة قائلين : لا .. بل الاسلام ليس الا دين محبة وسلام ، لا يشرع فيه الجهاد الا لضرورة ردالعدوان المداهم ، ولا يرغب أهله في الحرب ما وجدوا الى السلام من سبيل .

فصفق بسطاء المسلمين طويلا لهذا الدفاع « المجيد » في غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الاول ، وصادف ذلك في نفوسهم المتحفزة للرد عليه قبولا حسنا . فأخذوا يؤيدون ويؤكدون هذا الدفاع الثاني ، ويستخرجون البرهان تلو الآخر ، على ان الاسلام فعلا كما قالوا : دين مسالمة وموادعة ، لا شأن له بالآخرين الا اذا داهموه في عقر داره ، وأيقظوه من هدأته وسباته ! ..

وفات أولئك البسطاء أن هذه هي النتيجة المطلوب الصاقها بالاسلام ، في نفوس كل ممن روجوا للشائعة الاولى ، وأشاعوا الباطل الثاني ! .. فالمقصود هو السلوك بمقدمات ووسائل مدروسـة مختلفة ، الى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين ، واماتة روح الطموح في نفوسهم .

* * *

ونعود الآن الى ما كنا فيه من حديث بيعة العقبة الثانية :

لأمر أراده الله تعالى ، انتهى الـى سمع المشركين من أهل مكة خبر هـذه البيعة وما تم فيها بين رسول الله والمسلمين من أهل المدينة .

ولعل من حكمة ذلك ، أن تتهيأ أسباب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الى المدينة . فستجد أن لهذا الخبر الذي انتهى الى سمع المشركين أثرا كبيرا في تضييقهم الامر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجماعهم الرأي على قتله والتخلص منه .

ومهما يكن ، فان بيعة العقبة الثانية ، كانت المقدمة الاولى لهجرته عليه الصلاة والسلام ، الى المدينة المنورة .

* * *

اذن رسول الله لاصحابه بالهجرة الى المدينة

قال ابن سعد يروي عن عائشة رضي الله عنها : لما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه ، فقد جعل الله له منعة وقوما أهل حرب وعدة ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، لما يعلم المشركون من الامر ، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم . ونالوا ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والاذى ، فشكا ذلك أصحاب رسول الله واستأذنوه في الهجرة ، فقال : « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي يثرب ، فمن اراد الخروج فليخرج اليها » فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك . فكان اول من قدم المدينة من اصحاب رسول الله أبو سلمة بن عبد الاسد ، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة ومعه امرأته بنت أبي حشمة . فهي أول ظعينة قدمت المدينة[1] ثم قدم أصحاب رسول الله أرسالا ، فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فآووهم ونصروهم وواسوهم[2] .

ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله الا متخفيا ، غير عمر بن الخطاب ، فقد روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهما ، واختصر عنزته (عصاه) ومضى قبل الكعبة ،

---

(١) الظعينة المراة تكون في الهودج .

(٢) طبقات ابن سعد : ج ١ ص ٢١٠ و ٢١١ وتاريخ الطبري ١/٣٦٧ .

والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا مطمئنا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف فقال : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس • من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولده أو ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي •

قال علي : فما تبعه الا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه [1] •

وهكذا تتابع المسلمون في الهجرة الى المدينة ،حتى لم يبق بمكة منهم الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعلي ، او معذب محبوس ، أو مريض أو ضعيف عن الخروج •

* * *

الدلائل والعبر :

١ ــ فتنة مفارقة الوطن بعد فتنة الايذاء والتعذيب :

كانت فتنة المسلمين من اصحاب رسول الله في مكة ، فتنة ايذاء وتعذيب ، فلما أذن لهم الرسول بالهجرة ، أصبحت فتنتهم في ترك الارض ومفارقة الوطن والاموال والممتلكات •

ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم أمام الفتنتين : الاولى والثانية • قابلوا المحن والشدائد كلها بصبر ثابت وعزم عنيد ، فلما أمرهم رسول الله بالهجرة الى المدينة لــم يبالوا أن يتركوا من ورائهم الوطن وما فيه لهم من مال ونشب ومتاع • ذلك لانهم خرجوا كما علمت مستخفين متسللين ، ولا يتم ذلك الا اذا تخلصوا من الامتعة والاثقال ، فتركوا كل ذلك وراءهم ليسلم لهم الدين •

هذا عن اصحاب رسول الله في مكة •

أما أهل المدينة الذين آووهم في بيوتهم وواسوهم ونصروهم ، فقد قدموا المثل الصادق للاخوة الاسلامية والحب في الله عز وجل •

وأنت تعلم أن الله عز وجل قد جعل أخوة الدين أقوى من أخوة النسب

---

(١) اسد الغابة : ٥٨/٤ •

وحدها . ولذلك كان الميراث في صدر الهجرة قائما على أساس الدين والهجرة في سبيله ، دون نظر الى النسب .

ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة ، الا بعد أن تكامل الاسلام في المدينة ، وصارت للمسلمين دار اسلام قوية منيعة .

يقول الله عز وجل : « ان الذين آمنو وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ، ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » الانفال : ٧٢ .

٢ ـ وجوب الهجرة من دار الحرب الى دار الاسلام :

روى القرطبي عن ابن العربي أن هذه الهجرة كانت فرضا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وهي باقية مفروضة الى يوم القيامة . والتي انقطعت بالفتح ، انما هي القصد الى النبي عليه الصلاة والسلام ، فان بقي في دار الحرب عصى [1] .

ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى فيه للمسلم اقامة الشعائر الاسلامية ، من صلاة وصيام وحج وجماعة وأذان ..

ومما يستدل به على ذلك قوله تعالى « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » .

٣ ـ دار الاسلام ودار الحرب :

ولكن ما معنى كل من دار الاسلام ودار الحرب ؟ دار الاسلام هي البلدة التي فتحت صلحا أو عنوة واستعلنت فيها شعائر الاسلام ، سواء طبق فيها الحكم الاسلامي كاملا أم لم يطبق منه شيء . ودار الحرب هي تلك التي لم تفتح ،

---

(١) تفسير القرطبي : ٥/٣٥٠ .

ولم يقم بينها وبين المسلمين عهد صلح أو استئمان .. ودار الامان هي البلدة التي لم تفتح ، وبقي أهلها على الكفر ، ولكن قام بينهم وبين الدولة الاسلامية صلح أو معاهدة طبق نظام الاسلام وشروطه [1] .

فالهجرة انما تجب من دار الكفر ، سواء كانت دار حرب أو أمان ، الى دار الاسلام الا ان كان ثمة قصد شرعي سليم في بقائه فيها ، كالدعوة الى الاسلام ، وكتعلم علم داخل في الفروض الكفائية التي يحتاج اليها المسلمون .

٤ ـ وجوب تناصر المسلمين :

يجب نصرة المسلمين بعضهم لبعض ، مهما اختلفت ديارهم ، ما دام ذلك ممكنا . فقد اتفق العلماء والائمة على أن المسلمين اذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من اخوانهم ، في أي جهة من جهات الارض ، ثم لم يفعلوا ذلك ، فقد باؤوا باثم كبير .

يقول أبو بكر بن العربي : اذا كان المسلمون أسراء أو مستضعفين فان الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة بالبدن ، بأن لا تبقى منا عين تطرف ، حتى نخرج الى استنقاذهم ان كان عددنا يحتمل ذلك ، او نبذل جميع أموالنا في استخراجهم ، حتى لا يبقى لاحد درهم من ذلك[1] .

وكما تجب موالاة المسلمين ونصرتهم لبعضهم ، فانه يجب أن تكون هذه المولاة فيما بينهم ولا يجوز أن يشيع فيما بين المسلمين وغيرهم . وهذا ما صرح به كلام الله عز وجل اذ يقول « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، ان لا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير » .

٥ ـ العقيدة والدين هما سياج الوطن والارض :

لقد قضت سنة الله في عباده ، أن تكون القوى المعنوية التي تتمثل في

---

(١) تحفة المنهاج : ٢٦٩/٩ ، والمغني لابن قدامة : ٢٤٧/٩ ، وحاشية ابن عابدين : ٢٦٠/٣ .

(٢) احكام القرآن لابن العربي : ٨٧٦/٢ .

العقيدة السليمة والـدين الحق هي المحافظة بل الحصـن الواقي للمكاسب والممتلكات المادية . وقد اوضحنا طرفا من هذه الحقيقة من قبل .

فمهما كانت الامة غنية في خلقها السليم متمسكة بعقيدتها ودينها القويم ، فان سلطانها المادي المتمثل في الوطن والمال والارض ، يغدو أكثر تماسكا وأرسخ بقاء وأمنع جانبا . ومهما كانت فقيرة في أخلاقها مضطربة تائهة في عقيدتها فان سلطانها المادي المتمثل فيما ذكرنا ، يغدو أقرب الى الاضمحلال والزوال .. وان التاريخ اصدق شاهد على ذلك .

ولذلك شرع الله عز وجل للناس مبدأ التضحية بالمال والارض في سبيل العقيدة والدين ، عندما يقوم بينهما التناقض ، ولا شك أنهم بهذا يضمنون لانفسهم مع بقاء العقيدة عودة المال والوطن والارض ، وان بدا لاول وهلة انهم تعروا عن كل ذلك وفقدوه .

وحسبنا دليلا على ذلك هجرة رسول الله واصحابه من مكة الى المدينة .. لقد كانت بحسب الظاهر ، تركا للاوطان وتضييعا له . ولكنه كان في واقع الامر حفاظا عليه وضمانة له . ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشيء يبدو في صورة الترك له والاعراض عنه . فقد عاد المسلمون بعد بضع سنوات من هذه الهجرة (بفضل الدين الذي آثروا التمسك به وأقاموا صرحه ودولته) الى أوطانهم التي أخرجوا منها ، عزيزي الجانب ، منيعي القوة ، وقد أمد الله لهم من أوطانهم أوطانا كثيرة اخرى وأكرمهم بالمال الوفير والحضارة الباسقة ! .. ولو لا تلك التضحية بالارض والمـال في سبيل العقيدة السليمة والدين الصحيح ، لما تحقق لهم شيء من تلك المكاسب كلها .

وهذه صفحة واحدة من صفحات التاريخ وعبره . وانه لمليء بصفحات كثيرة أخرى تؤكد لك هذه السنة الالهية في الناس : كلما تمسكوا بالعقيدة السليمة وضحوا في سبيلها بالمال والارض ، رسخ الله أقدامهم في الارض وأورثهم أرضهم وديارهم وأراضي أخرى لم يكونوا يحلمون بها .. وكلما آثروا المال والوطن على العقيدة والدين ، شتت الله شملهم وبدد لهم المال والاوطان فعادوا لا يملكون شيئا .

* * *

هجرة رسـول الله
صلى الله عليه وسـلم

جاء في صحاح السنة وما رواه علماء السيرة ، أن أبا بكر رضي الله عنه ، لما وجد المسلمين قد تتابعوا مهاجرين الى المدينة ، جـاء يستأذن رسول الله هو الآخر في الهجرة . فقال له رسول الله : « على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي » فقال ابو بكر : « وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي ؟ قال : نعم .. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليصحبه . وعلف راحلتين كانتا عنده ، وأخذ يتعهدهما بالرعاية أربعة أشهر [1] .

وفي هذه الاثناء رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم .

فاجتمعوا له في دار الندوة (وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا الا فيها) يتشاورون فيما يصنعون بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع رأيهم أخيرا على ان يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا ، ثم يعطى كل منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، كي لا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعا ، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالهجرة ، وينهاه أن ينام في مضجعه تلك الليلة [2] .

قالت عائشة فيما يروي البخاري : فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في حر الظهيرة ، قال قائل لابي بكر : « هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها » . فقال أبو بكر : « فدا له ابي وأمي . والله ما جاء

---

1) البخاري : ٤/٢٥٥ .
1) سيرة ابن هشام : ١/١٥٥ وطبقات ابن سعد : ١/٢١٢ .

بـه في هذه الساعة الا أمر » ، قالت : فجـاء رسول الله صلى اللهعليه وسلم ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابي بكر : « أخرج من عندك » فقال أبو بكر : « انما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله » . قـال : « فاني قد أذن لي في الخروج » ، فقال أبو بكر : « الصحبة يا رسول الله » ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعـم » ، فقال أبو بكر : « فخذ بأبي أنت يا رسول الله احـدى راحلتي » ، قـال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « بالثمن » .

قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهمـا سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق [1] .

وانطلق رسـول الله صلى الله عليه وسلم الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس ، اذ لم يكن أحد من أهل مكة له شيء يخشى عليه الا استودعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من صدقه وأمانته .

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس عنهما في بياض النهار ، ثم يأتيهما اذ أمسى بمـا يكون معه من الاخبار . وأمر عـامر بن فهيرة (مولاه) أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما اذا أمسى ، الى الغار (غـار ثور) ليطعما من ألبانها ، وأمر أسماء بنته أن تأتيهمـا من الطعام بما يصلحهما في كل مساء .

وروى ابن اسحاق والامام احمد ، كلاهما عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر ، احتمل ابو بكر ما له كله معه : خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم ، قالت وانطلق بها معه .

---

(١) في طبقات ابن سعد : انها شقت نطاقها فأوكأت بقطعة منـه الجراب . وشدت فم الجراب بالباقي فسميت ذات النطاقين .

قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : والله اني لاراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت كلا يا أبت ، انه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، قالت فأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع مالـه فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه وقال : لا بأس ، اذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هـذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنـا شيئا ولكني أردت أن أسكت الشيخ بذلك (١) .

ولما كانت عتمة تلك الليلة التي هاجر فيها النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع المشركون على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتربصون به ليقتلوه ، ولكنه عليه الصلاة والسلام خرج من بينهم وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك عليـا رضي الله عنه في مكانه نائما على فراشه ، وطمأنه بأنه لن يصل اليه أي مكروه .

وانطلق رسول الله وصاحبه أبو بكر الى غار ثور ليقيما فيه ، وكان ذلك على الراجح في اليوم الثاني من ربيع الاول الموافق ٢٠ ايلول سنة (٦٢٢ م) بعد أن مضى ثلاث عشرة سنة من البعثة ، فدخل أبو بكر قبل الرسول صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية ، يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، فأقاما فيه ثلاثة أيام ، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر يخبرهما بأخبار مكة ، ثم يدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكـة كبائت بهـا ، وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من الغنم ، فاذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر أثره بالغنم كي لا يظهر لقدميه أثر .

أما المشركون فقد انطلقوا ــ بعد أن علموا بخروج النبي صلى الله عليه وسلم ــ ينتشرون في طريق المدينة ويفتشون عنه في كل المظان ، حتى وصلوا الى غار ثور، وسمع الرسول وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم، فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبي صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤٨٨/١ وترتيب مسند الامام احمد : ٢٨٢/٢٠ .

فأجابه عليه الصلاة والسلام : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] ؟ » .

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لاحد منهم التفاتة الى ذلك الغار ، ولم يخطر ببال واحد منهم ان يتساءل عما يكون بداخله ..

ولما انقطع الطلب عنهما خرجا ، بعد أن جاءهما عبد الله بن أرقط (وهو من المشركين ، كانا قد استأجراه ليدلهما على الطرق الخفية الى المدينة بعد أن اطمأنا اليه ، وواعداه مع الراحلتين عند الغار) فسارا متبعين طريق الساحل بارشاد من عبد الله بن أرقط .

وكان قد جعل مشركو مكة لكل من أتى برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضى الله عنه دية كل منهما .

وذات يوم ، بينما كان جماعة من بني مدلج في مجلس لهم ، وبينهم سراقة بن جعشم ، اذ اقبل اليهم رجل منهم فقال : اني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل . أراها محمدا واصحابه ، فعرف سراقة أنهم هم ، ولكنه أراد ان يثني عزم غيره عن الطلب ، فقال له : انك قد رأيت فلانا وفلانا ، انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم . ثم لبث في المجلس ساعة ، وقام فركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول فعثرت به فرسه فخر عنها ، ثم ركبها ثانية وسار حتى صار يسمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت قائمتا فرس سراقة في الارض حتى بلغتا الركبتين ، فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت ، فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لاثرهما غبار ارتفع في السماء مثل الدخان ، فعلم سراقة أنه ممنوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وداخله رعب عظيم ، فناداهما بالامان .

فوقف عليه الصلاة والسلام ومن معه حتى وصل اليهم ، فاعتذر اليه وسأله أن يستغفر له ، ثم عرض عليهما الزاد والمتاع ، فقالا : لا حاجة لنا ، ولكن عم عنا الخبر ، فقال كفيتم[2] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه ، والتفصيل للبخاري : ج ٤ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

ثم عاد سراقة أدراجه الى مكة وهو يصرف أنظار الناس عن الرسول ومن معه بما يراه من القول ... وهكذا انطلق اليهما في الصباح جاهدا في قتلهما ، وعاد في المساء يحرسهما ويصرف الناس عنهما .

قدوم قباء

ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء ، فاستقبله من فيها وأقام فيها بضعة أيام نازلا على كلثوم بن هدم ، حيث ادركه فيها علي رضي الله عنه بعد أن أدى عنه الودائع الى اصحابها . وأسس النبي صلى الله عليه وسلم هناك مسجد قباء ، وهو المسجد الذي وصفه الله بقوله « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه .. » الآية .

ثم واصل سيره الى المدينة فدخلها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول على ما ذكره المسعودي[1] فالتف من حوله الانصار ، كل يمسك زمام راحلته يرجوه النزول عنده فكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم : دعوها فانها مأمورة فلم تزل راحلته تسير في فجاج المدينة وسككها حتى وصلت الى مربد [2] لغلامين يتيمين من بني النجار أمام دار أبي ايوب الانصاري، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ههنا المنزل ان شاء الله » . وجاء أبو أيوب فاحتمل الرحل الى بيته ، وخرجت ولا ئدمن بني النجار ــ فيما يرويه ابن هشام ــ فرحات بمقدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وجواره لهن ، وهن ينشدن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام لهن : « أتحببنني ؟ » فقلن : « نعم » فقال : « الله يعلم أن قلبي يحبكن » .

---

(١) مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٧٩ ــ ط بيروت .

(٢) ارض يجفف فيها التمر .

صورة عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم في بيت ابي ايوب

روى أبو بكر بن أبي شيبة وابن اسحاق والامام احمد بن حنبل من طرق متعددة بألفاظ متقاربة أن أبا أيوب رضي الله عنه قال وهو يحدث عن أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في أسفل البيت وانا وام ايوب في العلو ، فقلت : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي اني لاكره وأعظم اناكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في الاعلى ، ونتزل نحن نكون في السفل . فقال : يا أبا ايوب ، انه لارفق بنا وبمن يغشانا ان نكون أسفل البيت .

قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفله وكنا فوقه في المسكن ، ولقد انكسرت جرة لنا فيها ماء يوما ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء يؤذيه ، فنزلت اليه وأنا مشفق فلم أزل استعطفه حتى انتقل الى العلو .

قال : وكنا نصنع له العشاء ، ثم نبعث به اليه ، فاذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا اليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلا وثوما ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثرا،فجئته فزعا فقلت يا رسولالله بأبي أنت وأمي،رددت عشاءك ولمأر فيه موضع يدك ، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة . فقال : اني وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجي ، فأما أنتم فكلوه . قال : فأكلناه ، ثم لم نضع في طعامه شيئا من الثوم أو البصل بعد [1] .

* * *

(١) الاصابة لابن حجر : ج ١ ص ٤٠٥ ، وسيرة ابن هشام : ج ١ ص ٧٤٩ وترتيب مسند الامام احمد : ٢٩٢/٢٠ .

الدلائل والعبر :

اذا تأملنا فيما سردناه من قصة هجرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقفنا منها على الدلائل والعبر التالية :

١ ــ مكانة ابي بكر عند رسول الله :

يدلنا استبقاء النبي صلى الله عليه وسلم لابي بكر دون غيره من الصحابة ، ليكون رفيقه في هذه الرحلة ، على مكانة متميزة لابي بكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد استنبط العلماء من ذلك ان ابا بكر كان أقرب اصحاب رسول الله الى نفسه ، وأولاهم بالخلافة من بعده . ولقد عزز هذه الدلالة أمور وأحاديث كثيرة أخرى ، مثل استخلافه في الصلاة اماما بالناس عند مرضه واصراره على أن لا يصلي عنه غيره . ومثل قوله في الحديث الذي رواه مسلم وغيره : « لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبابكر خليلا » .

ولقد كان ابو بكر رضي الله عنه ــ كما رأينا ــ على مستوى هذه المزية التي أكرمه الله بها . فقد كان مثال الصاحب الصادق بل المضحي بروحه وبكل ما يملك من أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد رأينا كيف أبى الا أن يسبق رسول الله الى الدخول في الغار، كي يجعل نفسه فداء له عليه الصلاة والسلام، فيما اذا كان فيه سبع أو حية أو أي مكروه ، ينال الانسان منه الاذى ! . ورأينا كيف جند كل ماله ، وسخر ابنه وابنته ومولاه وراعي أغنامه في سبيل خدمة رسول الله في هذه الرحلة الشاقة الطويلة ! ..

ولعمري ان هذا ماينبغي أن يكون عليه شأن كل مسلم صدق الله في ايمانه . ولذا يقول عليه الصلاة والسلام : لا يؤمن احدكم حتى اكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين[1] .

---

(١) متفق عليه .

٢ ـ سر الفرق بين هجرة النبي وهجرة عمر :

قد يخطر في بال الباحث ان يقارن بين هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهجرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن يتساءل : لماذا هاجر عمر علانية متحديا المشركين دون أي خوف ووجل ، على حين هاجر رسول الله مستخفيا محتاطا لنفسه ؟! .. أيكون عمر أشد جرأة من النبي عليه الصلاة والسلام ؟!

والجواب : أن عمر بن الخطاب أو أي مسلم آخر غير رسول الله ، يعد تصرفه تصرفا شخصيا ، لا حجة تشريعية فيه . فله أن يتخير من الطرق والوسائل والاساليب ما يعلو له وما يتفق مع رغبته الشخصية .

أما رسول الله فمشرع ، أي ان جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعد تشريعا لنا . ولذلك كانت سنته هي المصدر الثاني في مصادر التشريع . فلو أنه فعل كما فعل عمر ، لحسب الناس أن هذا هو الواجب ، ولظنوا انه لا يجوز اخذ الحيطة والحذر . مع ان الله عز وجل أقام شريعته في هذا الدنيا على مقتضى الاسباب والمسببات . وان كان الواقع الذي لا شك فيه أن الامر كله عائد الى قدرة الله وارادته .

ومعاذ الله أن يكون شيء من التدابير التي اتخذها ، على كثرتها ودقتها ، صادرا عن خوف شخصي منه صلى الله عليه وسلم . والدليل أنه عليه الصلاة والسلام ، بعد أن استنفد الاسباب والتدابير المادية كلها ، وتحلق المشركون حول الغار الذي يختبىء فيه مع صاحبه ، بحيث لو نظر احدهم عند قدمه لابصر رسول الله ، استبد الخوف بقلب أبي بكر رضي الله عنه ، على حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يطمئنه قائلا : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ . ولقد كان من مقتضى اعتماده على تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع .

ومن أبرز الادلة أيضا حالته التي كان عليها عندما لحق به سراقة يريد قتله وأصبح على مقربة منه ! .

لقد كان مقتضى تمسكه بتلك الاسباب (لو كان ذلك عن خوف وقلق

شخصي) أن يشعر قلبه بشيء من الخوف من هذا الذي يجدّ في اللحاق به . ولكنه لم يكن مباليـا بشيء ، بل كان مستغرقا في قراءته ومناجاته مع ربه . فقد كان يعلم ان الله الذي أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم .

اذن لقد كان كل ما فعله من تلك الاحتياطات ، وظيفة تشريعية كان عليه أن يحسن القيام بها .. فلما انتهى من أدائها ، عاد قلبه مرتبطا بالله عز وجل ، معتمدا على حمايته وتوفيقه ، ليعلم المسلمون ان الاعتماد في كل أمر لا ينبغي ان يكون الا على الله عز وجل . ولكن ذلك لا يتنافى مع احترام الاسباب الصورية التي أقام الله نظام كونه عليها .

٣ ـ مكانـة علي عند رسول الله :

ان في تخلف علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لاداء الودائع التي كانت عنده صلى الله عليه وسلم ، دلالة واضحة على التناقض العجيب الذي أوقع المشركون أنفسهم فيه ! .. ففي الوقت الذي كانوا يكذبون رسول الله ويرونه ساحرا ومخادعا ، لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصدقا ، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم وأمتعتهم الثمينة الا عنده ! .. وهذا يدل على أن كفرهم لم يكن عن شك في صدقه ، وانما كان بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق ، خوفا على زعامتهم وتمسكا بعصبيتهم .

كما ان اختيار رسول الله له للقيام بهذه المهمة ، يدل على سمو مكانته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكيف لا تكون له هذه المكانة ، وقد ربي منذ صباه في بيت رسول الله وعلى عينه ، وهو ابن عمه عليه الصلاة والسلام .

وهكذا فان تقديرنا لاصحاب رسول الله ، لا يحجبنا عن تقدير آل بيته وعن غرس محبتهم في أعماق قلوبنا ، كما أن حبنا لآل بيت رسول الله وفي مقدمتهم علي كرم الله وجهه لا يحجبنا عن معرفة المكانة التي يتبوؤها سائر اصحابه البررة الكرام ، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، رضوان الله عليهم جميعا .

٤ ـ قيمة النشاط الحركي في الدعوة :

اننا نلمح هذه القيمة في النشاط الذي كان يبذله عبـد الله بن أبي بكر

رضي الله عنهما ، ذاهبا آيبا بين الغار ومكة ، يتحسس الاخبار وينقلها الى رسول الله وأبيه ، كما نلمحها فيما عمدت اليه أخته أسماء رضي الله عنها من الجد في تهييء الزاد والراحلة ، كما نلمح ذلك الدور الذي كان يقوم به الراعي . وهو يعفي بسير أغنامه آثار أقدام عبد الله ـ نعم ، اننا نلمح في ذلك كله صورة لما يجب أن يكون عليه حال المسلم وهو يدعو الى الله تعالى ويسعى الى اقامة المجتمع الاسلامي ، جامعا بين الاتكال على الله بيقينه العقلي والنهوض بنشاطاته الحركية ، تحت سلطان الحكمة، واتباع هدي النبوة .

٥ ـ جملة خوارق تبرز في هجرته عليه الصلاة والسلام :

نذكر من ذلك خارقتين بارزتين في قصة الهجرة النبوية :

الاولى : خروجه صلى الله عليه وسلم من بيته، وقد أحاط به المشركون يتربصون به ليقتلوه ، فقد علق النوم بأعينهم جميعا ، حتى لم يحس به أحد منهم . وكان من تتمة السخرية بتآمرهم على حياته ما امتلأت به رؤوسهم من التراب الذي القاه رسول الله عليهم ، اذ خرج من بينهم وهو يتلو قوله تعالى « وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

لقد كانت هذه الخارقة اعلانا الهيا ، لهؤلاء المشركين وأمثالهم ، في كل عصر ومكان ، بأن ما قد يلاقيه الرسول وصحبه والدعاة الى الله من بعده ، من الوان المآسي والاضطهاد ، لا يعني ان الله قد تخلى عنهم أو ان النصر قد ابتعد عن متناولهم . فليس للمشركين وعامة اعداء الدين أن يفرحوا ويستبشروا بذلك . فان نصر الله قريب ، وان وسائل هذا النصر يوشك ان تتحقق بين كل ساعة وأخرى .

الثانية : ماحدث لسراقة وفرسه وهو يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهي خارقة عجيبة اتفق أئمة الحديث على صحتها ، وفي مقدمتهم البخاري ومسلم ، فأضفها الى معجزاته الاخرى التي سبق الحديث عنها فيما مضى .

٦ ـ كيف استقبلت المدينة رسول الله :

ان الصورة التي استقبل بها اهل المدينة المنورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تكشف عن مدى المحبة الشديدة التي كانت تفيض بها افئدتهم رجالا ونساء وأطفالا ! .. لقد كانوا يخرجون كل يوم الى ظاهر المدينة ، ينتظرون تحت لفح الشمس دخول رسول الله اليهم ، حتى اذا هب النهار ليدبر ، عادوا ادراجهم ينتظرون صباح الغد ليعودوا الى الانتظار تحت لفح الشمس . فلما طلع عليهم رسول الله من بعيد ، جاشت العواطف في صدورهم ، وانطلقت السنتهم تهتف بالقصائد والاهازيج فرحا بمقدم رسول الله عليهم ! .. ولقد بادلهم رسول الله المحبة ذاتها ، حتى انه جعل ينظر الى ولائد لبني النجار وهن ينشدن من حوله الاهازيج ، قائلا : أتحبينني ؟ والله ان قلبي ليحبكن .

كل هذا يدلنا على أن محبة رسول الله ليست كما توهم بعضهم مجرد الاتباع له ، وانما هي في الحقيقة اساس الاتباع ومصدره . فلولا المحبة العاطفية في القلب لما وجد الوازع الذي يحمل على الاتباع في العمل .

ولقد تاه قوم حسبوا أن محبة رسول الله ليس لها من معنى سوى الاتباع له والاقتداء به . وفاتهم ان الاقتداء لا يأتي الا بوازع ودافع . ومعاذ الله أن يستقل الايمان العقلي وحده بايجاد هذا الوازع .

والا فكم من مؤمن وموقن بالله وبنبوة رسول الله بعقله الاعزل ، ولكن عواطفه وأهواءه منصرفة الى محبة شيء من مظاهر الدنيا ، فلا يقوده ايمانه خطوة واحدة في طريق الاتباع .

٧ ـ رسول الله في ضيافة ابي ايوب الانصاري :

لا يمكن لكاتب ولا لشاعر أن يصف السعادة الغامرة التي ازدهرت في قصر أبي أيوب الانصاري عندما شاء الله أن تبرك ناقة رسول الله أمام باب داره ، وأن يشير رسول الله الى الدار قائلا : هاهنا المنزل ان شاء الله .

وحسبنا من ذلك أن نتأمل في كيفية تسابق أبي أيوب وزوجته التي التبرك

بآثار أصابع رسول الله في قصعة الطعام ، كلما اعـاده اليهم ، وفيه بقيـة من طعام ! .. اذن فالتبرك بآثار النبي امر مشروع وجائز . ذلك لان النبي قد أقره كما قد رأيت ونحن نفصل لك خبر أبي أيوب وزجته .

وقد روى البخاري ومسلم صورا كثيرة اخرى من تبرك الصحابة بآثار النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل بها للاستشفاء أو العناية والتوفيق وما شابه ذلـك .

من ذلك ما رواه البخاري في كتاب اللباس ، في باب (ما يذكر في الشيب) من أن أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسـلام كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم في جلجل لها (ما يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته) فكان اذا أصاب أحدا من الصحابة عين أو اذى ارسل اليها اناء فيـه ماء ، فجعلت الشعرات في الماء ، ثـم أخذوا الماء يشربونـه توسلا للاستشفاء وتبركا به .

ومن ذلك ما رواه مسلم في كتاب الفضائل في باب « طيب عرقه صلى الله عليه وسلم » أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يدخل بيت أم سليم فينام علـى فراشها ، وليست هي في البيت ، فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فجـاءت أم سليم ، وقد عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت عتيدتهـا [1] فجعلت تنشف ذلـك العرق فتعصره في قواريرها . فأفاق النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت يا رسول الله عرقك نرجو بركته لصبياننا .قال : أصبت[2] .

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من استباق الصحابة الى فضل وضوئه عليه الصلاة والسلام والتبرك بالكثير من آثاره كالبسته والقدح الذي كان يشرب فيـه .

---

(١) العتيدة كالصندوق الصغير ، تجعل فيه المراة ما يعز من متاعها .

(٢) مسلم : ٨٣/١ .

فاذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية المنفصلة عنه ، فكيف بالتوسل بمنزلته عند الله عز وجل وبكونه رحمة مهداة من الله للعالمين ؟

ولا يذهبن بك الوهم الى اننا نقيس التوسل على التبرك .. فان التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد ، وهو التماس الخير والبركة عن طريق المتوسل به ، وكل من التوسل بجاهه والتوسل بآثاره ، جزئيات داخله تحت كلي التوسل . وانما مناط التوسل في كل صوره وجزئياته منزلة رسول الله عند ربه وكونه رحمة مهداة للعالمين .

ومن ثم فان الفرق يسقط بين أن يكون التوسل به صلى الله عليه وسلم في حال حياته ، أو بعد وفاته . فان مناط التوسل باق على كل حال ، وهو منزلته عند الله عز وجل .

• • •

القسم الرابع

اسس المجتمع الجديد

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الاساس الاول بنـاء المسجد

لقد كانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الدينة ، تعني نشأة أول دار اسلام ، إذ ذاك على وجه الارض . وقد كان ذلك ايذانا بظهور الدولة الاسلامية باشراف منشئها الاول محمد عليه الصلاة والسلام .

ولذا فقد كان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أرسى الاسس الهامة لهذه الدولة . ولقد كانت هذه الاسس ممثلة في الاعمال الثلاثة التاليـة :

أولا ـ بنـاء المسجد .

ثانيا ـ المآخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والانصار خاصة .

ثالثا ـ كتابة وثيقة (دستور) حددت نظام حياةالمسلمين فيما بينهم ، كما أوضحت علاقتهم مع غيرهم عامة واليهود الذين يساكنونهم في المدينة خاصة .

وسنبدأ فنتحدث أولا عن بناء المسجد :

قلنا فيما مضى : ان ناقته صلى الله عليه وسلم برکت في موضع كان لغلامين يتيمين من الانصار . وكان أسعد بن زرارة قد اتخذه مصلى قبل هجرة رسول الله الى المدينة . فكان يصلي فيه بأصحابه فأمر رسول الله أن يبنى ذلك الموضع مسجدا . ودعـا الغلامين ـ وكانا في كفالة سعد بن زرارة رضي الله عنه ـ فساومهما فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنهما قالا له : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ، حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير [1] .

وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنبشت وبالنخيـل والشجر فقطعت ، وصفّت في قبلة المسجد . وجعل طوله مما يلي القبلة الى مؤخره مائة ذراع وفي الجانبين مثل

---

(١) رواه البخاري : ٤/٢٥٨ ، وابن سعدفي طبقاته : ٢/٤ ،وانظر اعلام المساجدفي احكام المساجد للزركشي ص ٢٢٣ .

ذلك أو أقل . ثم بنوه باللبن . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر البناء مع أصحابه وينقل معهم الحجارة بنفسه . وجعل قبلته الى بيت المقدس ،وجعل عمده الجذوع ، وسقفه بالجريد وقيل له : ألا نسقفه ؟ فقال : عريش كعريش موسى : خشيبات وثمام ـ نبت ضعيف قصير ـ الشأن أعجل من ذلك[1] أما أرضه فقد بقيت مفروشة بالرمال والحصباء .

وروى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ، أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم . قال : ثم انه أمر ببناء المسجد ، فأرسل الى ملأ من بني النجار فجاؤوا . فقال يا بني النجار : ثامنوني بحائطكم هذا . فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه الا الى الله . فقال أنس : فكان فيه ما أقول لكم ، كانت فيه قبور المشركين ، وكانت فيه خرب ، وكان فيه نخل . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ثم بالخرب فسويت وبالنخل فقطع .. قال : فصفوا النخل قبلة المسجد قال : وجعلوا عضادتيه حجارة ، وجعلوا ينقلون الصخور وهم يرتجزون ورسول الله معهم وهو يقول: اللهم لا خير الا خير الآخرة فانصر الانصار والمهاجرة [2] .

وقد ظل مسجد رسول الله على هذا الشكل دون أي زيادة او تغيير فيه ، مدة خلافة أبي بكر رضي الله عنه . ثم زاد فيه عمر رضي الله عنه بعض التحسين . ولكنه بناه على بنائه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشبا . ثم غيره عثمان رضي الله عنه . فزاد فيه زيادة كبيرة . وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة « الجص » [3] .

* * *

الدلائل والعبر :

نأخذ من هذا الذي ذكرناه الدلائل التالية :

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢/٥ .
(٢) البخاري : ١/١١١ .
(٣) اعلام المساجد للزركشي : ٢٢٤ و ٢٢٥ .

اولا ـ مدى اهمية المسجد في المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية :

لقد رأيت كيف ان النبي صلى الله عليه وسلم بادر بمجرد وصوله الى المدينة بالبحث عن أرض لبناء مسجد عليها ، لم يقدم على ذلك أي شيء آخر .

ولا عجب في ذلك ، فان اقامة المسجد يشكل أول ركيزة في بنـاء المجتمع الاسلامي .. ذلك لان المجتمع المسلم انمـا يكتسب صفـة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الاسلام وعقيدته وآدابه . وانما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيـه .

ان من نظام الاسلام وآدابه شيوع آصرة الاخوة والمحبة بين المسلمين . ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم الا في المسجد . فما لم يتلاق المسلمون يوميا ، على مرات متعددة ، في بيت من بيوت الله ، وقد تساقطت مما بينهم فوارق الجاه والمال ، لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن تؤلف بينهم .

وان من نظام الاسلام وآدابه ، أن تشيع روح المسـاواة والعدل فيما بين المسلمين ، في مختلف شؤونهم وأحوالهم . ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ، ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفا واحدا بين يدي الله عز وجل ، وقد وقفوا على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل . ومهما انصرف كل مسلم الى بيته يعبد الله ويركع ويسجد له دون وجود ظاهـرة الاشتراك في العبادة والاجتماع عليها ، فان معنى العدالة والمساواة لن يتغلب في المجتمع على معاني الاثرة والتعالي والانانية .

وان من نظـام الاسلام وآدابه ، أن ينصهر اشتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الراسخة ، يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه . ولكن ما لم تقم في انحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ، ليتمسكوا بهما عن معرفة وعلم ، فان وحدتهم تؤول الى شتات . وسرعان مـا تفرقهم عن بعضهم الشهوات والاهواء .

فمن أجل تحقيق هذه المعاني كلها أسرع رسول الله قبل كل شيء فبادر الى بناء المسجد .

٢ ـ حكم التعامل مع من لم يبلغ سن الرشد :

قلنا ان النبي صلى الله عليه وسلم اشترى المربد[١] من الغلامين اليتيمين ، بعد أن ساومهما فيه .

وقد استدل بذلك الحنفية على صحة تصرف غير البالغ ، اذ لو لم يكن تصرفه صحيحا لما اشترى رسول الله الارض منهما[٢] .

غير أن الذين ذهبوا الى عدم صحة تصرف غير البالغ سن الرشد ـ وهم جمهور الفقهاء ـ استدلوا بقوله تعالى « ولا تقربوا مال اليتم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ أشده » أما حديث شراء المربد فيجاب عنه بجوابين :

أحدهما : أنه جاء في رواية ابن عيينة أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم عمهما الذي كانا في حجره وكفالته وابتاعه منهما بواسطته[٣] فلا حجة فيه لما ذهب اليه الحنفية .

ثانيهما : أن للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولاية خاصة في مثل هذه الامور ، وأنه عليه الصلاة والسلام ، وانما اشترى الارض منهما بوصف كونه وليا عاما لجميع المسلمين ، لا بوصف كونه فردا منهم .

٣ ـ جواز نبش القبور الدراسة واتخاذ موضعها مسجدا :

ذكر الامام النووي تعليقا على هذا الحديث فقال : فيه جواز نبش القبور الدارسة وأنه اذا أزيل ترابها المختلط بصديدهم ودمائهم ، جازت الصلاة في تلك الارض . وجواز اتخاذ موضعها مسجدا ، اذا طيبت أرضه . كما أن الحديث يدل على أن الارض التي دفن فيها الموتى ودرست ، يجوز بيعها وأنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده اذا لم توقف[٤] .

وقد قال علماء السيرة عن تلك القبور التي كانت في المربد أنها كانت قبورا

---

(١) مكان واسع يجفف فيه الثمر .
(٢) اعلام الساجد : ص٢٣٣ .
(٣) فتح الباري بشرح البخاري : ٨/١٧٥ .
(٤) اعلام الساجد : ٢٣٦ .

قديمة دارسة فلا يتأتى فيها تصور الصديد والدم . ومع ذلك فقد نبشت وأزيل ما فيها من بقايا .

قلت : ومحل جواز نبش القبور الدارسة واتخاذ موضعها مسجدا ، اذا لم تكن الارض موقوفه . أما اذا كانت كذلك فلا يجوز تحويلها الى شيء آخر غير ما وقفت له .

٤ ـ حكم تشييد المساجد وزخرفتها :

التشييد أن تقام عمارة المسجد بالحجارة وشبهها ممايزيد في قوته ومتانته . والشيد هو الجبس ونحوه . أمـا النقش والزخرفة فالكلمتـان بمعنى واحد والمقصود بهما تجاوز أصل البناء الى شتى أنواع الزينة .

فأما التشييد فقد استحسنه عامة العلماء . بدليل ما فعله عمر وعثمان رضي الله عنهما من اعادة بناء مسجدهعليه الصلاة والسلام . وهو وان لم يكن مما فعله رسول الله ، الا أنه لا يدل على مفهوم مخالف اذ لا يتعلق بالتشييد وصف يخل بالحكمة التي من أجلها شرع بناء المساجد . بل ان في ذلك زيادة في العناية والاهتمام بشعائر الله . وقد استدل العلماء أيضا على ذلك بقوله تعالى (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) والعمارة انمـا تكون بالتشييد وتقوية البناء والعناية بـه .

وأما النقش والزخرفة ، فقد كرههما عـامة العلماء ، ثم هم في ذلك بين محرّم ومكره كراهة تنزيه غير أن الجميع اتفقوا على انه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيء من الزخرفة والنقش . أما اذا كان المال المصروف عليهما من الباني نفسه وبرغبة منه فيرد فيه الخلاف المذكور .

والحكمة في كراهية النقش أو حرمته أن من شأن المسجد الذي زين بالنقوش ان يشغل قلب المصلين فلا تتهيأ لهم فيه أسباب الخشوع والخضوع لله عز وجل .

ومما ذكرناه يتبين خطأ ما يعمد اليه كثير ممن يهتمون بعمارة المساجـد وتشييدها اليوم ، حيث ينصرفون بكل جهودهـم الى التفنن في تزيينها ونقشها

واضفاء مختلف مظاهر الابهة عليها .. وانك لتراهم كيف يتنافسون في ذلك . حتي ان الداخل الى كثير من هذه المساجد لم يعـد يستشعر أي معنى من ذل العبودية لله عز وجل ، اذكيف يستشعر ذلك ، وهو يرى نفسه مغموسا في مظاهر الزينة والابهة التي تذكر بالدنيا وتنسي الآخرة ؟

* * *

الاساس الثاني (الاخوة بين المسلمين)

ثم ان الرسـول صلى الله عليه وسلم آخـى بين أصحابه من المهاجرين والانصار . آخى بينهم على الحق والمواسـاة ، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات ، بحيث يكون أثر الاخوة الاسلامية أقوى من أثر قرابة الرحم .

فجعل جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وجعل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين ، وجعل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وخارجه بن زهير أخوين ، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين .. وهكذا .

ثم أقام صلة هذا التآخي بين جميع أفراد الصحابة ، بصورة عامة ، بحيث تشيع بينهم الموالاة على أساس الاخوة الاسلامية التي تسمو على صلة القرابة والعشيرة .

وقد تمثلت هذه الاخوة في مظاهر مادية ، وكان حكم التوارث بينهم من بعض هذه المظاهر . وظلت عقود هذا الاخاء مقدمة على حقوق القرابة الى موقعة بدر الكبرى ، فقد نزل في أعقابها قوله تعالى (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم) . فنسخت هذه الآية ما كان قبلها . وانقطع اثر المؤاخاة الاسلامية في الميراث ، ورجع كل انسان في ذلك الى نسبه وذوي رحمه ، وأصبح المؤمنون كلهم اخوة .

روى البخاري عن ابن عباس قال : كان المهاجرون حين قدموا المدينة ، يرث المهاجري الانصار دون ذوي رحمـه ، للاخوة التي آخى النبي عليـه الصلاة

والسلام بينهم . فلما نزلت (ولكل جعلنا موالي) ، نسخت . ثم قال (والذين عاقدت أيمانكم) أي من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث .

* * *

الدلائل والعبر :

١ ـ تظهر اهمية هذا الاساس الثاني لبناء المجتمع الاسلامي الجديد في الامور التالية :

أولا : ان أي دولة لا يمكن أن تنهض الا على أساس من وحدة الامة وتساندها . ولا يمكن للوحدة أن تتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة . فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية ، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما . وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة لا يمكن أن تتألف دولة راسخة .

على أن التآخي أيضا لا بد أن يكون مسبوقا بعقيدة راسخة يتم اللقاء عليها والايمان بها . فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للعقيدة الاخرى ، خرافة لا وجود له ، لا سيما إذا كانت تلك العقيدة تحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية .

ثانيا : ان المجتمع ـ أي مجتمع ـ انما يختلف عن مجموعة ما من الناس منتشرة متفككة ، بشيء واحد ، هو قيام مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أشخاص هذا المجتمع . فان كان هذا التعاون والتناصر قائمين طبق ميزان العدل والمساواة فيما بينهم ، فذلك هو المجتمع العادل السليم ،وان كان قائما على الحيف والظلم فذلك هو المجتمع المفكك المنحرف .

واذا كان المجتمع السليم لا يقوم الا على أساس من العدالة في الاستفادة من اسباب الحياة والرزق فما الذي يضمن سلامة هذه العدالة أن تطبق على خير وجه ؟

ان الضمانة الفطرية الاولى لذلك ، هي التآخي والتوادد ، يليها بعد ذلك ضمانة القانون والسلطة .

فمهما أراد ذوو السلطة أن يحققوا مبادىء العدالة بين الافراد ، فانها

لا تتحقق ما لم تقم على أساس من التآخي والمحبة اذ تشيع فيما بينهم • بل ان هذه المبادىء لا تعدو ، اذا فقد التآخي أن تكون مصدر أحقادا وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع • ومن شأن الاحقاد أن تحمل في طيها بذور الظلم والطغيان• ولن تفيد روادع السلطة والقانون شيئا •

٢ ـ المعنى التفسيري الذي صاحب شعار التآخي :

لم يكن ما أقامه رسول الله بين أصحابه من مبدأ التآخي ، مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم • وانما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الانصار والمهاجرين • وانما كان العون الكبير على رسوخ هذه الحقيقة وحدة العقيدة •

ولذا جعل رسول الله من هذه الاخوة مسؤولية كبرى تشيع بين هؤلاء الاخوة • وكانت هذه المسؤولية تؤدي فيما بينهم على خير وجه • ونحسبنا دليلا على ذلك ما قام به سعد بن الربيع الذي كان قد آخى رسول الله بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ، اذ عرض على عبد الرحمن أن يشركه في بيته وأهله وماله في قسمة متساوية • ولكن عبد الرحمن شكره وطلب منه أن يرشده الى سوق المدينة ليشتغل فيها ، ولم يكن سعد بن الربيع منفردا من غيره من الانصار فيما عرضه على أخيه كما قد يظن ، بل كان هذا شأن عامة الصحابة في علاقتهم وتعاونهم بعضهم مع بعض ، خصوصا بعد الهجرة وبعد أن آخى رسول الله فيما بينهم •

ولذلك أيضا جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطا بهذا التآخي ، دون صلة القرابة والدم • فقد كان من حكمة هـذا التشريع أن تتجلى الاخوة الاسلامية حقيقة محسوسة في أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أن ما بين المسلمين من التآخي والحب ، ليس شعارا وكلاما فارغين • وانما هو حقيقة قائمة ذات نتائج اجتماعية محسوسة ، يتكون منها أهم أسس نظام العدالة الاجتماعية •

أما حكمة نسخ التوارث على هذه الاخوة الاسلامية ، فيما بعد ، وربطه بقرابة الدم ، فهي أن نظام الميراث بعد ذاته قائم قبل كل شيء على وحدة الدين • فلا قيمة للقرابة ان لم تكن ضمن دائرة الدين الواحد الذي هو الاسلام • كل

ما في الامر أن الاسر كانت في أول الهجرة مفككة وأن الشرك والكفر قد فرق بين كثير من اعضاء الاسرة والواحـدة ، فلما ذهبت مدة من الزمن ، وانتشر الاسلام وعاد شمل الاسر مجتمعا تحت مظلة الاسلام ، لم تعد ثم حاجة الى جعل الاخوة الاسلامية هي وحدها أساس الميراث • اذ ان قرابة الدم لم تعد بديلا عن الاسلام ، بل أصبحت ضميمة الى أخوة الاسلام ، كما هو الحال في هذا العصـر •

* * *

الاساس الثالث كتابة وثيقة بين المسلمين وغـيرهم

وهذا الاساس هو أهم ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم ، من حيث القيمة الدستورية التي أعطاها للدولة الجديدة •• روى ابن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمض له سوى مدة قليلة في المدينة حتى اجتمع له اسلام عامة أهل أهل المدينة من العرب ، ولم يبق دار من دور الانصار الا أسلم أهلها ، عدا أفرادا من قبيلة الاوس • فكتب رسول الله كتابا بين الانصـار والمهاجرين وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم •

وقد ذكر ابن اسحاق هذا الكتاب بدون اسناد • وذكره ابن خيثمة فأسنده : حدثنا أحمد بن جناب أبو الوليد ، ثنا عيسى بن يونس ، ثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتابا بين المهاجرين والانصار ، فذكر نحو ما ذكره ابن اسحاق وذكره الامـام أحمد في مسنده فرواه عن سريج قال : حدثنا عباد عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتابا بين المهاجرين والانصار •• الـخ[1] •

ونحن لن نأتي هنا بنص هذه الوثيقة ، فهي طويلة ذات بنود كثيرة • وانما

---

(١) انظر ترتيب مسند الامام احمد البنا : ٢١/١٠ .

نذكر منها بعض البنود التي يمكن أن نستبين منها معنى هذه الوثيقة وطبيعتها ، وكيف أنها تعني ما يسمى في هذا العصر بالدستور .

تبتدأ بنود هذه الوثيقة بالبند التالي :

ـ « المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس » .

وتختم بالبند التالي : « ان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وان الله جار لمن بر واتقى »

أما مجموع ما فيها من بنود فهو يبلغ ما يقارب تسعين بندا :

وهذا بعض منها :

ـ هؤلاء المسلمون جميعا على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم ، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المسلمين[1] .

ـ ان المسلمين لا يتركون مفرحا[2] بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل .

ـ ان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[3] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

ـ لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافراعلى مؤمن .

ـ ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس .

ـ سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

ـ اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين .

---

(١) العاني الاسير .
(٢) المفرح المثقل بالديون .
(٣) الدسيعة بمعنى العظمة .

ـ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ(٥) الا نفسه وأهل بيته .

ـ ان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

ـ من خرج من المدينة آمن ، ومن قعد آمن ، الا من ظلم وأثم .

ـ كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله .

الى آخر البنود .. وبوسعك أن تقرأ نصها في سيرة ابن هشام أو نحوها .

وهي بمجموعها خطوط عريضة للمنهج السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي ستسير عليه الدولة الجديدة واحالة في تفاصيله الى كتاب الله وسنة رسوله .

* * *

الدلائل والعبر :

١ ـ المعنى الدستوري في هذه الوثيقة :

حسبنا هذه الوثيقة التي أطلعناك على بعض يسير من بنودها ، دليلا على أن المجتمع الاسلامي ، قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة ، وأن الدولة الاسلامية ، نهضت ، منذ فجرها ، على أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية التامة .

وظاهر أن هذه المقومات أساس لا بد منه لتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية تطبيقا سليما في المجتمع . اذ ان هذه المقومات تنهض في مجموعها على فكرة وحدة الامة الاسلامية ، وما قد يتعلق بها من بنود تنظيمية . ولا يمكن أن تجد أرضية يستقر عليها حكم الاسلام وتشريعه ، ما لم يمهد لترسيخها بهذا التنظيم الدستوري الذي يبرز الخطوط العريضة ويبلور الهيكل العام ، ثم يحيل تفاصيل الامور الى مصادرها .

---

(٥) يوتغ أي يهلك .

ومن هنا تسقط دعـاوى أولئك الذين يزعمون أن الاسلام ليس الا دينا يصل ما بـين الانسان الفرد وربه ، وليس فيه مـن مقومات الدولة والنظام الدستوري أي نصيب .

وهي أحبولة عتيقة كان ولا يزال يقصد بها محترفو الغزو الفكري أن يقيدوا بها الاسلام ، كي لا ينطلق فيعمل عمله الاصلاحي في المجتمعات الاسلامية . اذ ان الوسيلة الى هذا التقييد محصورة في أن يجبر الاسلام على أن يكون دينـا لا يصلح لاقامة دولة ، وأن يكون مجرد عبادات فردية لا تشريعات اجتماعية . وحتى لو كان الاسلام في واقعه دينا ودولة ، فان محترفي الغزو الفكري يرون ان عليهم أن يطوروه ويغيروا فيه هذا الواقع ، ولو بالتشويه وترويج باطل القول ، حتى لا يكون له من سلطان على المجتمعات الحديثة .

ولكن مهما يكن من أمر ، فان من بدهيات التاريخ الاسلامي ، أن مولد المجتمع الاسلامي انما كان ضمن هيكل متكامل للدولة . وما تنزلت تشريعاته إلا ضمن قوالب لهـذا الهيكل المتكامل . وان هذه الوثيقة تعـد أكبر شاهد على ذلـك .

٢ ــ بعض ما دلت عليه هذه الوثيقة من كليات المبادىء الاسلامية :

آ ــ الأمة ، ومصدر وحدتهـا : والغريب أن العرب لم يكونوا يرددون كلمة الامة ولا يستعملونها حتى ولد مفهومها الوحدوي في مهد الاسلام ، على على لسان المصطفى عليه الصلاة والسلام وفي كتاب الله عز وجل .

فلقد كانت الكلمات التي تستعمل مكان الامة ،الى يوم ميلاد هذه الوثيقة ، هي القبيلة ، والبطن ، والجماعة ، وبنو كذا .. ولقد كان واقع التمزق المرير مصداقا أليما لحيوية هذه الكلمات وسيادتها على أرض الجزيرة العربية .

فكان الاسلام هو البوتقة التي صهرت أشتات القبائل والبطون في كتلة واحدة متماسكة ، تفجر منها في أذهان العرب لاول مرة مفهوم الامة . ثم تجسد هذا المفهوم وترسخ في أول بند من بنود هذه الوثيقة ، لتنهض عليه بقية المبادىء والاسس التي لا بد منها لترسيخ المجتمع الاسلامي .

ب ــ يدلنا البند الثاني والثالث على أن من أهم سمات المجتمع الاسلامي رسوخ معنى التكافل والتضامن بين المسلمين بأجلى صوره وأشكاله ، فهم جميعا مسؤولون بعضهم عن بعض في شؤونهم الدينية والدنيوية . وهذه أولى ثمرات وحدة الامة الاسلامية . وان جل احكام الشريعة الاسلامية تطبيق لمقتضيات هذه المسؤولية وبيان لطرائقها التنفيذية .

جـ ــ يدلنا البند السادس ، وهو قوله عليه الصلاة السلام « ذمة الله واحدة .. الخ » على مدى الدقة التي اقامها الاسلام في تحقيق معنى المساواة بين المسلمين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم . وحسبك مظهرا لشمولية هذه المساواة ، أن يعلن رسول الله في هذا البند ، بأن أدنى رجل في المسلمين يجير على أعلى واحد فيهم . فجوار المسلم أيا كان محفوظ ، لا ينبغي أن يجار عليه فيه ، ومعنى ذلك أن من أدخل من المسلمين أحدا في جواره ، فليس لغيره حاكما ولا قاضيا ولا لغيرهما أن يهتك جواره فينفذ الى الشخص المجار بأي أذى . وانما ينفك جوار المجير بشيء واحد هو الحكم القضائي الذي يفصل في الامر .

والمرأة المسلمة لا تختلف في هذا عن الرجل اطلاقا ،فلجوارها من الحرمة ما لا يستطيع أحد من الناس أن ينتهكه أيا كان ! .. روى الشيخان أن أم هانيء أخت علي رضي الله عنه جاءت الى رسول الله يوم الفتح ، فقالت له : يا رسول الله زعم ابن أمي علي أنه قاتل رجلا أجرته ، فلان : ابن هبيرة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت يا أم هانيء .

د ــ يدلنا البند السابع ، الذي يقول فيه رسول الله : سلم المسلمين واحدة .. الخ ، على قانون كلي عام في ارساء مبادىء السلم مع الدول الاجنبية أو المحاربة عن طريق الصلح ونحوه . وهو أن على المسلمين جميعا أن يتفقوا فيصدروا عن قرار واحد عندما يقررون صلحا أو هدنة مع عدو لهم . ولا يجوز لهم أن يختلفوا في ذلك الى فريقين . فاذا وقع الاختلاف بطل السلم ولم يجز الصلح لمخالفته لهذاالقانون الكلي . والحكمة من ذلك أن اختلاف المسلمين في أمر كهذا يجعل من كل فريق عدوا للآخر ،نظرا الى أن أحدهما مصالح للاعداء والآخر غير مصالح لهم .فلابد أن ينعكس ذلك عليهما بالتباغض فالمخاصمة وربما الحرب.

هـ ـ ويدل البند قبل الاخير على أن الحكَم العدل الذي يجب على المسلمين أن لايهرعوا الى غيره في سائر مشكلاتهم وخصوماتهم ، انما هو شريعة الله ، وهي ما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله . ومهما بحثوا عن الحلول في غير هـذه الشريعة فهم آثمون ، معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيـا وعذاب الله تعالى في الآخـرة .

وهذا نموذج يسير .. فاذا أردت استيعاب الوثيقة وبنودها وما يدل عليه كل منها ، فارجع الى نصها في كتب السيرة النبويـة المبسطة ، لتزداد يقينا بمـا أوضحنـاه .

فهذه جملة الاسس الثلاثة التي أقام عليها رسول الله أول دولة اسلامية على ارض المدينة المنورة . وهي مرتبـة في الاهمية حسب الترتيب الزمني الذي وضعها رسول الله فيه . وهي ليست أسسا تاريخية طويت بذهاب ذلك العصر . بل هي الاسس التي لا بد منها في كل عصر لقيام مجتمع اسلامي سليم متماسك .

* * *

القسم الخامس

مرحلة الحرب الدفاعية

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

مقدمة

هذه الغزوات التالية ، التي وضعناها تحت عنوان : مرحلة الحرب الدفاعية ، هي غزوات دفاعية فعلا ، فكل منهـا ـ كما سترى ـ رد على مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون . ولذلك فهي انما تمثل مرحلة من مراحل الدعوة الاسلاميـة في عصره صلى الله عليه وسلم ، وليسـت تعبيرا عن الحكم الذي اسـتقر على أساسه الجهاد في الاسلام ، انها ليست الا دورا من أدوار الدعوة التي تحدثنا عن قسم منها ، كدور الدعوة سرا ثم الدعوة المسالمة جهرا .

وسنجد صورة المرحلة الاخيرة التي تشكل مع ما قبلها جملة الحكم الاسلامي، في الاحداث التي تلت صلح الحديبية ، ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى تلك المرحلة حينما قال لدى منصرفه عن غزوة بني قريظة ، فيما رواه البخاري : الآن نغزوهم ولا يغزوننا .

واليك الآن أحداث المرحلة الدفـاعية في عمر الدعوة الاسلامية الاولى ، مكتفين منها بذكر ما يتعلق به حكم ، أو يترتب عليه عظة أودرس ، دون أن نعرج الى تفصيلات أو ذكر خلافات تطيل علينا البحث غير ما طائل .

* * *

بـدء القتال
اول غزوة غزاها رسول الله

قلنا فيما مضى ان أصح ما دلت عليه الاحـاديث والآثار أن بدء مشروعية القتال انما كان بعد الهجرة ، ولقد وضعت هذه المشروعية موضع التنفيذ في شهر صفر على رأس اثني عشر شهرا من هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة . فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لاول مرة بقصـد الغزو . وكانت الغزوة إذ ذاك : غزوة ودان ، يريد قريشا وبني حمزة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام كفي القتال فقد وادعه بنو حمز ، وعاد النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الى المدينة دون قتال .

غزوة بـدر الكبـرى

وسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع بعير تجارية لقريش قادمة من الشام باشـراف أبي سفيان ابن حرب ، فندب المسلمين اليهـا ، ليأخذوها لقاء ما تركوا من أموالهم في مكة ، فخف بعضهم لذلك وتثاقل آخرون ، إذ لم يكونوا يتصورون قتالا في ذلك .

وتحسس أبو سفيان الامر وهو في طريقه الى مكة ، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لاخذ العير ، فأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري الى مكة ليخبر قريشا بالخبر ويستنفرهم للخروج محافظة على أموالهم .

فبلغ الخبر قريشا ، فتجهزوا سراعا ، وخرج كلهم قاصديـن الغزو ، حتى إنه لم يتخلف من أشراف قريش أحد ، وكانوا قريبا من ألف مقاتل .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال مضت من شهر رمضان مع أصحابه وكانوا ،فيما رواه ابن اسحاق ، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، وكانت ابلهم سبعين ، يتعاقب على الواحدة منها اثنانأو ثلاثةمن الصحابة ، وهم لا يعلمون من أمر قريش وخروجهم شيئا ، أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز عيره ، إذ سلك طريق الساحل الى مكة وجعل مـاء بدر عن يساره ، وأخـذ يسرع حتى أنجى عيره وتجارته من الخطر .

ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم أتـاه خبر مسـير قريش الى المسلمين ، فاستشار من معه من أصحابه ، فتكلم المهاجرون كلاما حسنا ، وكان منهم المقداد بن عمرو ، فقد قال :يارسول الله ! إمض لما أمرك الله فنحن معك .. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ظل ينظر الى القوم ويقول لهم : أشيروا علي أيها الناس . فقال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل . فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ! ..

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ثم قال : سيروا وأبشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين .. والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم .

ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخذ يتحسس أخبار قريش وعددهم عن عن طريق العيون التي بثها حتى علم المسلمون أنهم ما بين التسعمائة والالف ، وأن فيها عامة زعماء المشركين .

وقد كان أرسل أبو سفيان اليهم أن يرجعوا الى مكة ، اذ انه قد أحرز العير ، ولكن أبا جهل أصر على المضي ، وكان مما قال : والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا ، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا .

ثم انهم مضوا حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أدنى مـاء من مياه بدر . فقال الحبـاب بن المنذر : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا أن نتأخر عنه ، أم هـو الرأي والحرب والمكيـدة ؟ قال : بل هو الحرب والرأي والمكيدة ، فقال : فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى مـاء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحول الى المكان والرأي الذين أشار بهما الحباب رضي الله عنه[1] .

واقترح سعد بن معاذ أن يبنى عريش للنبي صلى الله عليه وسلم يكون بمأمن فيه رجاء أن يعود سالما الى من تخلف من المسلمين في المدينة وأن لا ينكبوا بفقده ، فوافق عليه الصلاة والسلام على ذلك . ثم أخذ يطمئن أصحابه بتأييد الله ونصره . حتى انـه كان يقول : هـذا مصرع فلان ، ومصرع فلان (أي من

(١) روى ابن هشام في سيرته حديث الحباب بن المنذر هذا عن ابن اسحاق عن رجال من بني سلمة ، فهي فيما رواه ابن هشام رواية عن قوم مجهولين . وذكر الحافظ ابن حجر هذا الحديث في الاصابة فرواه عن ابن اسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغير واحد في قصة بدر . وهذا سند صحيح والحافظ ابن حجر ثقة فيما ينقل ويروي . (راجع الاصابة : ١ ـ ٣٠٢) .

المشركين) ، وهو يضع يده على الارض ههنا وههنا .. فما تزحزح أحدهم في مقتله عن موضع يده[1] ! ..

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يجأر الى الله تعالى بالدعاء مساء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ويقول : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم الغداة ...وظل يناشد الله متضرعا وخاشعا وهو يبسط كفيه الى السماء حتى أشفق عليه أبو بكر رضي الله عنه ، فالتزمه من ورائه وقال له : يا رسول الله ! أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله لك ما وعدك . وأقبل المسلمون أيضا يستنصرون الله ويستغيثونه ويخلصون له في الضراعة[2] .

وفي صبيحة يوم الجمعة لسنتين خلتا من الهجرة بدأ القتال بين المشركين والمسلمين ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا وقال : شاهت الوجوه ، ثم نفحهم بها فلم يبق فيهم رجل الا امتلات عيناه منها ، وأيد الله المسلمين بالملائكة يقاتلون الى جانبهم[3] ، وانحسر القتال عن نصر كبير للمسلمين ، وقتل في تلك الموقعة سبعون من صناديد المشركين ، وأسر سبعون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا .

وألقيت جثث المشركين الذين صرعوا في هذه الغزوة ــ وفيهم عامة صناديدهم ــ في قليب بدر . وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفة البئر فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم[4] .

---

(١) رواه مسلم : ج ٦ ــ ١٧٠ .
(٢) ابن هشام : ج ١ ــ ٢٥ وزاد المعاد : ج ٢ ــ ٨٧ ، وحديث استغاثة الرسول
(٣) حديث تأييد الله للمؤمنين بالملائكة في بدر متفق عليه .
(٤) البخاري : ٥ ــ ٨ وروى مسلم نحوه في ٨ ــ ١٦٣ .

واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمر الاسرى ، فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنه أن يأخذ منهم فدية من المال فتكون قوة للمسلمين ويتركهم عسى الله أن يهديهم ، وأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتلهم لانهم أئمة الكفر وصناديده ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم مال الى ما رآه أبو بكر من الرحمة بهم وافتدائهم بالمال ، وحكم فيهم بذلك . غير أن آيات من القرآن نزلت عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وتأييدا للرأي الذي رآه عمر من قتلهم، وهي من قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض » الى قوله « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا »[1] .

* * *

الدلائل والعبر :

هذه الغزوة تنطوي على دلائل وأحكام كثيرة ، نجملها فيما يلي :

١ ـ حكم اموال الحربيين وممتلكاتهم :

دلت أحداث هذه الغزوة على أن سائر ممتلكات الحربيين ، تعد بالنسبة للمسلمين أموالا غير محترمة . فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما امتدت اليه أيديهم منها ، ما دام أصحابها محاربين . غير انه لا يجوز أن يتوازعها الافراد فيما بينهم ، وانما يتم ذلك عن طريق امام المسلمين ، يقسمها في المسلمين طبق قواعد الشرع وأحكامه .

وهذا حكم متفق عليه عند الفقهاء ، ودليل ذلك أن رسول الله ندب أصحابه للخروج لملاقاة عير قريش ، وقال لهم : لعل الله أن ينفلكموها .

على أن للمهاجرين عذرا آخر في القصد الى أخذ العير والاستيلاء عليه ، وهو محاولة التعويض ، ولو بشكل جزئي ، عن ممتلكاتهم التي اغتصبها منهم المشركون أو استولوا عليها من ورائهم .

٢ ـ ارادوا العير واراد الله لهم النفير :

وعلى الرغم من مشروعية ذلك القصد ، فان الله أراد لعباده المؤمنين قصدا

---

(١) صحيح مسلم : ج ٥/١٥٧ ـ ١٥٨ .

أرفع من ذلك وكسبا أشرف وأبقى . ولـذلك شاء الله أن ينقذ عير أبي سفيان من أيدي المسلمين ، وان يواجهوا بدلا منه جيشا لجبا جمع صناديد الكفر ورؤوس البغي والعناد .

وبمقدار ما كان النصر حليفا لعـير قريش على المسلمين ، كانت الهزيمة العجيبة نهاية ذلك الجيش العظيم ، فانظر وتأمل : أيهما أبقى في جبين الدهر وأدخل في صنع التاريخ ؟ أن يستولي المسلمون على قافلة تحمل القوت والطعام أم أن ينتصروا على رؤوس الشرك وتضاريس البغي في مكة ؟ لقد أجاب على ذلك بيان الله تعالى في هذه الآية :

« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » الانفال : ٧ .

٣ ـ خضوع حالات الغزو ومايتعلق بها لحكم الامامة :

وبيان ذلك أن أصل مشروعية الجهاد ووجوبه ، حكم تبليغي ، لا يخضع لاي تطوير أو تبديل . كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهـدات ثابت بحكم تبليغي لا يجوز ابطاله .

غير أن جزئيات الصور التطبيقية للجهـاد والصلح والمعاهدات ، تخضع لظروف الزمان والمكان وحالة المسلمين مع أعدائهم . والميزان المحكم في ذلك انما هو بصيرة الامام المتدين العادل وسياسة الحاكم المتبحر في أحكام الدين مـع اخلاص لله وتجرد في القصد .

فهذه الاحكام الجزئية المتعلقة بالجهاد والصلح والمعاهدات تسمى ، من أجل ذلك ، أحكام الامامة ، أو أحكام السياسة الشرعية .

٤ ـ التزام الشورى وحكمها في حق الامام :

رأينا كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام ، لم يتخذ أي موقف ، عندما فوجيء المسلمون بالجيش مقبلا اليهم ، بعد أن أفلت العير من أيديهم ، حتى بدأ فشاور أصحابه ، لا سيما الانصار منهم . وهكذا كان شـأنه صلى الله عليه

وسلم دائما ، يستشير في كل ما لم ينزل في حقه نص من القرآن أو وحي غير متلـو .

وهذا دليل على أن الامام مكلف باستشارة وجوه المسلمين وعلمائهم ، في كل ما يدخل في حكم الامامة بل في كل حكم اجتهادي لم يستقر حكمه بنص من قرآن أو سنة . اذ كان هذا شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن هل يلزم الحاكم المسلم الذي توافرت لديه شروط امامة المسلمين ، بما انتهى اليه مجلس الشورى أو أغلبيته ؟ والجواب أن ما اتفق عليه جمهور الفقهاء أن هذه الشورى واجبة على الامام ، ولكنها ليست ملزمة له . أي ان على الحاكم أن يأخذ بآراء الاكثرية كما هو المتبع في النظم الديمقراطية . يقول القرطبي في تفسيره :

« المستشير ينظر في اختلاف الآراء ، وينظر الى أقربها الى الكتاب والسنة ان أمكنه .. فاذا أرشده الله الى ما شاء منها عزم عليه ، وأنفذه متوكلا عليه »[1] .

ولكن اذا لم تكن شروط الامامة متوافرة في شخص الامام ، لا سيما شرط العلم والاجتهاد ، فالراجح أن على الامام أن يتقيد بما ينتهي اليه مجلس الشورى ، لا سيما عندما يكون أعضاؤه علماء مخلصين لدين الله عز وجل .

٥ ـ الاستعانة في الجهاد بالعيون والرقباء :

يجوز للامام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والرقباء ، يبثهم في صفوف الاعداء ليكشف المسلمون خططهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العدة والعدد ، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك . بشرط أن لا تنطوي الوسيلة على اضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو .

وقد جاء في كتب السيرة أن رسول الله لما نزل قريبا من بدر ، ركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم .. فقال الشيخ :

---

(١) الجامع لاحكام القرآن : ٤/٢٥٣ .

لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما . فقال عليه الصلاة والسلام : اذا اخبرتنا أخبرناك . فقا ل: أذاك بذاك ؟ قال : نعم : فأخبره الشيخ بما يعلم من أمر المشركين وبما قد سمعه من أمر النبي وأصحابه ، حتى اذا فرغ من كلامه قال : فممن أنتما ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نحن من مـاء ، ثم انصرف عنه . فأخذ الشيخ يقول : ما من مـاء؟أمن مـاء العراق ؟

٦ ــ ليس كل تصرفات النبي تشريعا :

يدلنا الحديث الذي جرى بين رسول الله والحباب بن المنذر ، في شأن المكان الذي نزل فيه (وهو حديث صحيح الاسناد كما رأيت) أن تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس كلها من نوع التشريع . بل هو في كثير من الاحيان يتصرف من حيث إنه بشر من الناس يفكر ويدبر كما يفكر غيره بعيدا عن وحي النبوة . ولا ريب اننا لسنا ملزمين باتباعه فيمثل هذه التصرفات . فمن ذلك نزوله عليه الصلاة والسلام في المكان الذي أختاره في هـذه الغزوة . فقد وجدنا كيف أن الحباب أشار بالتحول عنه الى غيره ووافقه عليه الصلاة والسلام في ذلك .. وذلك بعد أن استوثق الحباب رضي الله عنه أن اختيار النبي للمكان الذي اختاره لم يكن بوحي من الله عز وجل .

وقد رأينا قبل قليل ان من تصرفاته ما يدخل تحت اسم الامامة او السياسة الشرعية ، أي ما يتصرف فيه النبي صلى الله عليه وسلم من حيث انه امام ورئيس دولة ، لا من حيث انه رسول يبلغ عن الله .

وللفقهاء وعلماء الاصول تفصيل واسع في بيان علامات كل من هذه الانواع، وكيفية التمييز بينها ، لا مجال للخوض فيه في هذا المقام .

٧ ــ اهمية التضرع الى الله وشدة الاستغاثة بـه :

رأينا كيف أن النبي صلى اللهعليه وسلم كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم . حتى انه كان يشير الى أماكن متفرقة من الارض ويقول : هذا مصرع فلان .. هذا مصرع فلان .. ولقد وقع الامر كما أخبر ، فما تزحزح احد في مقتله عن موضع يـده كما ورد في الحديث الصحيح .

اذن ، فلماذا وقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له ، يجأر الى الله بالتضرع والدعاء باسطا كفيه الى السماء يناشد الله أن يؤتيه نصره الذي وعد ، وبالغ في الدعاء حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر ، والتزمه قائلا : كفى يارسول الله ان الله منجز لك ما وعـد .

الجواب أن اطمئنان النبي صلى الله عليه وسـلم وايمانه بالنصر انما كان تصديقا منه للوعد الذي وعد الله به رسوله . ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد . وربما أوحى اليه بخبر النصر في تلك الموقعة .. أما الاستغراق في التضرع والدعاء فهو وظيفة العبودية التي خلق من أجلها الانسان . وذلك هو ثمن النصر في كل حـال .

فهذه العبودية التي تجلت في طول دعاء النبي وشدة ضراعته ومناشدته لربه أن يؤتيه النصر ، هي الثمن الحقيقي الذي استحق به ذلك التأييد الالهي العظيم في تلك المعركة . وقد نصت على ذلك الآية الكريمة :

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » الانفـال : ٩ .

وما تقرب متقرب الى الله بصفة أرضى لله من ذل العبودية له ، وما استأهل انسان استجابة لدعائه ، كمن استأهل ذلك بواسطة الانكسار والتخلي عن الحول والقوة بين يدي الله عز وجل . وما المصائب في حقيقتها مهما تنوعت الا عوامل تنبيه الى هذه العبودية وتذكير بواجب التحقق بها .

٨ ـ الامداد بالملائكة في غزوة بدر :

انطوت غزوة بدر على خارقة من أندر الخوارق التي يبرز من خلالها تأييد الله ونصره لعباده من حيث لا يتصورون ولا يتوقعون .

فقد أمد الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم ! .. وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة من الكتاب والسنة الصحيحة . روى ابن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم خفق خفقة في العريش ثم انتبه فقال : « أبشر يا أبا بكر ، أتاك النصر .

هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع »، ورواه البخاري بلفظ : هذا جبريل آخذ بزمام فرسه عليه أداة الحرب .

وقد تأول بعضهم نص القرآن في إمداد الله المؤمنين بالملائكة ، بالروح المعنوية التي أمد بها المسلمين . وهذا تعسف في التأويل لا يمكن أن تتقبله القواعد العربية بشكل ما .. اذ ان الآية القرآنية قيدت الملائكة وأكدت حقيقتهم بالعدد ، الا ترى الى قوله : « .. بألف من الملائكة مردفين » وهذا التقييد بالعدد يقطع دابر ذلك التأويل عن الآية ، اذ ان التأييد المعنوي مهما كانت صورته لا يخضع لمفهوم العدد . كيف ؟ وان العدد من مقولة الكم ، والكم من صفات الاشياء المادية الخاضعة لصفة الكثرة والقلة العددية . ولعل من أهم الحكم التي اقتضت تقييد الملائكة في الآية الكريمة بعدد الالف ، قطع سبيل تأويل الآية والتلاعب بمعناها على من يبتغي ذلك ممن يحاولون اخضاع مفاهيم الآيات لاهوائهم ونزعاتهم الشخصية .

٩ ـ الحياة البرزخية للاموات :

في وقوف رسول الله على فم البئر ، ينادي من قتل من المشركين ويكلمهم بعدما ماتوا ، مع ما قاله عمر ، وفي رد رسول الله عليه ، دليل واضح على أن للميت حياة برزخية خاصة به وان كنا لا ندري حقيقتها أو كيفيتها ، وعلى أن أرواح الموتى تظل حائمة حول أجسادهم . ومن هنا يتصور نعيم القبر وعذابه .

غير أن ذلك كله انما يخضع لموازين لا تخضع لمفاهيمنا العقلية وادراكاتنا الدنيوية . اذ هو داخل فيما يسمى بعالم الملكوت ، البعيد عن مشاهداتنا وتجاربنا العقلية والمادية . فطريق الايمان بها انما هو التسليم لها بعد أن يصلنا الخبر عنها بطريق ثابت صحيح طبق الموازين العلمية المعروفة في قانون الخبر الصادق .

١٠ ـ الاسرى ومشاورة الرسول بشأنهم :

ثم ان في مسألة الاسرى من المشركين والمشاورة التي عقدت بشأنهم ، وما فعله رسول الله بهم دلالات هامة نجملها فيما يلي :

أ ـ اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم :

فقد دلتنا هذه الواقعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يجتهد ، فيما يطرء من المشكلات اذا انقطع عنه الوحي ، وهذا هو مذهب جمهور العلماء ، ومن أبرز أدلتهم على ذلك اجتهاده صلى الله عليه وسلم في أسرى المشركين في غزوة بـدر .

ب ـ قد يخطىء رسول الله في الاجتهاد ولكنه لا يقر عليه :

واذا صح أن رسول الله قد يجتهد ، صح منه بناء على ذلك أن يخطىء في الاجتهاد ويصيب . غير ان الخطأ لا يستمر ، بل لا بد أن يتداركه وحي يصحح له اجتهاده . فأما اذا لم ينزله عليه شيء ، فهو دليل على أن اجتهاده قد وقع على ما هو الحق في علم الله عز وجل .

وقد يستعظم بعض الناس نسبة الخطأ في الاجتهاد اليه صلى الله عليه وسلم ، متوهمين أن الخطأ يعني الاثم ونحوه مما يتنافى مع العصمة الثابتة للانبياء . غير أن المقصود بالخطأ هنا عدم مطابقة اجتهاده صلى الله عليه وسلم لما هو الكمال الثابت في علم الله عز وجل . وهو لا ينافي العصمة ، بل هو مناط أجر ومثوبة من الله تعالى . ثم ان الناس مكلفون باتباعه في ذلك من قبل الله عز وجل ، ما لم تنزل عليه آية تصرفه عن ذلك الوجه من الاجتهاد الى غيره . فخضوع اجتهاده صلى الله عليه وسلم لمعنى الخطأ بالنظر للعلاقة بين رسول الله وربه ، أما بالنظر لعلاقة رسول الله مع الناس ، فلا يكون اجتهاده الا حقا ، نظرا الى انهم مكلفون باتباعه على كل حال[1] .

جـ ـ تربية إلهية جاءت في الوقت المناسب :

كانت غزوة بدر اول تجربة للمسلمين في المواجهة القتالية مع الاعداء .. وكانت أيضا أول تجربة لهم في رؤية الغنائم والاموال وقد تراكمت أمامهم في اعقاب المعركة ، وقد كانوا على ما قد علمت من الفقر والحاجة .

وقد كان لا بد لهم ، وهذه هي حالهم ، أمام أول تجربة انتصار في معركة

---

(١) انظر في موضوع اجتهاده صلى الله عليه وسلم : شرح اللمع لابي اسحاق الشيرازي : ٨٢٤ ، والاسنوي على المنهاج : ٥٣٧/٤ .

قتالية وأمام أول تجربة لاقبال المال اليهم بهذه الصورة على غير توقع ، أن يتأثروا نوعا ما بهـذه المفاجأة ، وأن تهفو نفوسهم أو نفوس بعضهم الى تلك الغنـائم ويتساءلوا فيما بينهم عمن سيأخذها ويستحقها وكيف ستتم قسمتها بين الغانمين .

وتسابق بعض المسلمين فعلا يسألون رسول الله عن كيفية اقتسام الغنائم بينهم ، وكاد بعضهم يشتجر على ذلك ، فأقبلوا يسألون عن ذلك رسول الله ليتولى هو القسمة بينهم .

ولكن فانظر الى التربية الالهية لعباده ، في هذه المناسبة ، وتأمل في الآيات التي نزلت جوابا على تسابقهم واستفسارهم اللاهث من أجل تقسيم الغنائم :

« يسألونك عن الانفال ، قل الانفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين . انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانـا وعلى ربهم يتوكلون » الانفال : ١ و ٢ .

فأنت ترى أن الآيتين لا تنطويان على جواب عن سؤالهم ، وانما فيهما صرف لهم عن الموضوع كله .. لان الانفال (أي الغنائم) ليست لاحد منهم ، بل هي لله ورسوله . أما هم فعليهم ان يتركوا الاموال في مكانها وأن ينصرفوا الى اصلاح هذا الشقاق الذي دب فيهم ، وأن يتذكروا أنهم لم يقاتلوا ابتغاء مغنمة أو مال ، وانما انتصارا لدين الله عز وجل .. والله هو الذي يتولى رزقهم فليتكلوا عليه وحده ، ولا يمدوا أعينهم الى مثل هذه الغنائم بأي طمع ، وليروضوا أنفسهم على التسامي فوقها ، فهم مقبلون غدا على أضعاف هذه الاموال متمثلة في كنوز الاكاسرة والقياصرة فماذا عسى أن يصيبهم من ذلك إن كان هذا ما ستفعل بهـم رؤية الغنائم والاموال ؟ .

فلما ثاب هؤلاء المسلمون الى هدي هاتين الآيتين ، وندموا ، وصرفوا النظر عما اشتجروا فيه ، واطمأنت نفوسهم متعلقة بما عند الله عز وجل راضية مستسلمة لحكمه ، نزلت آيات أخرى تقرر كيفية تقسيم الغنائم بين المقاتلين على اختلافهم . وهي قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ... » الآيـة . وهذه من أبرع الوسائل التربوية الدقيقة كما ترى .

وهذا الموقف التربوي هو السبب ذاته في معاتبة الله لرسوله على افتداء الاسرى بالمال . فان الله لم يحب لهم في أول مواجهة قتالية مع المشركين أن يجعلوا من النظر الى المال ميزانا للحكم في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة المتجردة لمصلحة الدين وحدها . اذ يوشك لو تركوا لنظرتهم هذه أن يجرى ذلك مجرى القاعدة المطردة فتستولي النظرة المادية على مثل هذه الاحكام التي يجب أن تظل متسامية في علياء لا يطولها شيء من أعراض الدنيا على اختلافها .

أما رسول الله ، فانما دعاه الى هذا الافتداء بالمال ، شفقته الزائدة على أصحابه الذين تركوا كل ما يملكون في سبيل اللحاق به والهجرة معه الى المدينة، فأحب أن يكون لهم من ذلك بعض التعويض عن الاموال التي تركوهـا من ورائهـم .

ولكن التربية الربانية تسير فوق هذه الاعتبارات كلها . وانظر كيف تتمثل هذه التربية المتسامية من خلال هذه الآيات :

« ما كان لنبي أن يكون له أسـرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتـاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عـذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم » الانفال : ٦٧ و ٦٨ .

* * *

بنـو قينقـاع
واول خيانة يهودية للمسلمين

قال ابن اسحاق : كان من أمر بني قينقـاع أن رسول الله جمعهم بسوق قينقاع فنصحهم قائلا : يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة . وأسلموا فانكم قد عرفتم اني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله اليكم . فقالوا : يا محمد ، انك ترى أنا كقومك ؟ لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت فرصة ، انا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنـا نحن الناس .

وروى ابن هشام عن عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عوانة أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها (ما يجلب الى السوق للبيع) فباعته بسوق بني قينقاع . وجلست الى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت . فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها . فلما قامت انكشف عورتها . فضحكوا منها . فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا . وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود . فغضب المسلمون ، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وكان ذلك فيما رواه الطبري والواقدي في منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة[2] .

فحاصرهم رسول الله مدة من الزمن حتى نزلوا على حكمه . فقام اليه عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالي ! . فلم يلتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكرر ثانية فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأدخل يده في جيب درعه صلى الله عليه وسلم نيتره . فقال له : أرسلني، وغضب رسول الله حتى رأو لوجهه ظللا . ثم قال له : ويحك أرسلني . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي : اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الاحمر والاسود تحصدهم في غداة واحدة ؟ اني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها . فخرجوا الى أذرعات الشام ، وهلك أكثرهم فيها .

وكان لعبادة بن الصامت من المحالفة مع هؤلاء اليهود مثل الذي لعبد الله ابن أبي بن سلول . فمشى الى رسول الله قائلا : اني أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

ففيهما نزل قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم . ان الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » المائدة : ٥١ و ٥٢ .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤٧/٢ .

(٢) الطبري : ٤٨٠/٢ ، وطبقات ابن سعد : ٦٧/٣ .

الدلائل والعبر :

١ ـ طبيعة الغدر عند اليهود :

هذه الواقعة تدل في جملتها على مدى ما ركب في اليهود من طبيعة الغدر والخيانة، فلا تروق لهم الحياة مع من يجاورونهم أو يخالطونهم الا أن يبيتوا لهم شرا أو يحيكوا لهم غدرا . وهم على أتم الاستعداد لان يختلقوا جميع الوسائل والاسباب لذلك . ومن أهم ما هيجهم على الغدر ، ما تجمع في نفوسهم من الحقد اثر انتصار المسلمين في غزوة بدر ، وقد تجلى ذلك في حديثهم لرسول الله عندما وقف ينصحهم أن يؤمنوا به طبقا لما هو ثابت في كتابهم ، فهم من أعلم الناس بأنه رسول إليهم والى الناس جميعا من قبل رب العالمين .

وستجد سلسلة هذه الطبيعة فيما أقبلت اليه القبائل الاخرى من اليهود ، من وجوه الخيانة التي لا موجب لها ، على الرغم من خضوعهم في الظاهر للكتاب الذي كتبه رسول الله بينهم وبين المسلمين ، وعلى الرغم من أن المسلمين لم ينتقصوا لهم حقا ولم يتسببوا لهم بأي أذى ، ولم يجد اليهود منهم الا المسالمة والخير .

٢ ـ لماذا احتجبت المرأة عن اليهود :

لم تكن قد نزلت آية الحجاب بعد ، عندما وقعت هذه الحادثة وتم على اثرها اجلاء يهود بني قينقاع . فلماذا أصرت هذه المرأة على أن تنتقب عن اليهود عندما جلست الى صائغ منهم ؟

الجواب : أن ذلك كان بدافع شعور ديني منها ، نظرا الى أنها وجدت نفسها بين اليهود ، ولعلها أحست بريبة منهم أو من بعضهم ، ولقد أكد لها صدق هذا الشعور ارادتهم لها على كشف وجهها ، ثم سعيهم الى مغايظتها عندما أبت ذلك .

ولكن من المناسب ان نتحدث هنا بكلمة موجزة عن الحجاب وحكمه وحدوده في الشريعة الاسلامية .

اتفق علماء المسلمين على أن ما عدا الوجه والكفين من المرأة عورة في حق

الرجال الاجانب عنها . الا انهم اختلفوا في الوجه ذاته ، فجمهور الفقهاء « وهو الصحيح من مذهب الشافعية » على أن الوجه بعد ذاته ليس عورة فلا يجب ستره، وأنه هو المعني بالزينة الظاهرة في قوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منهـا » .

وذهب بعضهم الفقهاء وفي مقدمتهم الحنابلة وبعض الشافعية الى ان كل أجزاء المرأة عورة أمام الرجال الاجانب ، بما فيه الوجه والكفان[1] .

ولكل من الفريقين أدلة على ما ذهب اليه ، لا مجال في هذا المقام لسردها .

غير ان الفريقين متفقات على أن المرأة المسلمة اذا علمت او ظنت أن في الرجال من ينظر اليها بشهوة ولا يغض من بصره كما أمر الله ، فان عليها أن تمنعه من هذا المنكر جهد استطاعتها ، بأن لا تظهر أمام هؤلاء الرجال ، أو بأن تسـدل على وجهها نقابا أمامهم .

فاذا عم الفسق في المجتمع ، فان الخلاف ينطوي عن هذه المسألة ، اذ الكل يجمعون على وجوب ستر الوجه سواء قلنا ان الوجه عورة أم ليس بعورة .

وهذا هو الذي يفسر اختلاف الاحاديث الصحيحة الواردة في حال نساء الصحابة بعد نزول حكم الحجاب ،فقد كان في النسـاء من تبرز بادية الوجه والكفين ، وكان فيهن من تخرج متنقبة ، لا يرى من وجهها الا الحدقـة . فاذا وجدت المرأة نفسها في أناس عادلين يخشون الله ولا يتبعون النظرة تلو النظرة خرجت بادية الوجه ، واذا وجدت نفسها بين قوم من المنافقين أو في أحد أسواق اليهود مثلا خرجت متنقبة متلفعة .

وهذا قاسم مشترك في حكم الحجاب ، لم يقع فيه أي خلاف .

٣ ـ مقاومة المنافقين في الاسلام :

هذه الحادثة وما أعقبها من دفاع عبد الله بن أبي بن سلول ، عن اليهود ، بالشكل الذي رأيناه كلاشكاد تخفي من أمر نفاق هذا الرجل شيئا . والنفاق هو اظهار الاسلام واستبطان الكفر .

---

(١) انظر : المغني لابن قدامة : ٢٣/٧ ، ومغني المحتاج في شرح منهاج الطالبين : ١٢٨/٣ .

غير أن رسول الله عامله مع ذلك كله ، على أنه مسلم . فلم يخفر له ذمته ، ولم يعامله معاملة مشرك أو مرتد أو كاذب في اسلامه . بل أجابه الى ما أصر وألح عليه .

وذلك يدل ـ باجماع العلماء ـ على أن المنافق انما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين ، على أنه مسلم . حتى وان ظهر من الادلة ما جعل نفاقه مقطوعا به .

وسبب ذلك أن الاحكام الاسلامية في مجموعها تتكون من جانبين : جانب يطبق في دار الدنيا ، ويكلف المسلمون بتطبيقه على مجتمعاتهم وفيما بينهم ، على أن يشرف على ذلك الخليفة أو رئيس الدولة مباشرة أو عن طريق القضاء .. وجانب آخر يطبق في الآخرة ويكون أمره عائدا الى الله عز وجل .

فأما الجانب الاول فيستند الى الادلة القضائية المادية والمحسوسة ، دون غيرها . أي فليس للادلة الوجدانية والقرائن الاستنتاجية أي تأثير في هذا الجانب .

وأما الجانب الثاني فيقوم على ما استقر في القلوب واستكن في الصدور . وانما مرد القضاء في ذلك الى الله وحده .

ولبيان هذه القاعدة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخاري عن عمر رضي الله عنه موقوفا « انما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم » ويقول رسول الله فيما رواه الشيخان : « انكم تختصمون الي . ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . فأقضي له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذ منه شيئا ، فانما هو قطعة من نار » .

أما الحكمة من مشروعية هذه القاعدة ، فهي أن تظل العدالة بين الناس في مأمن من التلاعب بها والنيل منها . اذ ربما اتخذ بعض الحكام من حجية الادلة الوجدانية والاستنتاجية وحدها ذريعة الى الاضرار ببعض الناس بدون حق .

وتطبيقا لهذه القاعدة الشرعية ، كان رسول الله يعامل المنافقين (على الرغم من اخبار الله عنهم) على أنهم مسلمون دون أي تفريق بينهم وبين سائر المسلمين في شيء من الاحكام الشرعية . وهذا واجب المسلمين في كل عصر ، مهما تنوعت مظاهر النفاق .

غير أن هذا لا يتنافى مع واجب آخر ، وهو أن يكون المسلمون في حذر دائم من المنافقين وأن يكونوا في يقظة تامة أمام تصرفاتهم . فذلك من الواجبات البدهية على المسلمين في كل ظرف ووقت .

٤ ـ ولاية غير المسلمين :

لقد كانت الآيتان اللتان نزلتا تعقيبا على موقف كل من عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعبادة بن الصامت ، من يهود بني قينقاع ، من اهم النتائج التي أعقبت اجلاء هذه القبيلة من اليهود .

فقد قضى الله عز وجل بأنه لا يجوز لاي مسلم ان يتخذ من غير المسلم وليا له ، أي صاحبا يتمتع بسلطة التولية والاشراف عليه . ولا فرق في حرمة ذلك بين الفرد والمجتمع .

وهذا من الاحكام الاسلامية التي لـم يقع فيها خلاف بين علماء المسلمين . اذ الآيات القرآنية الصريحة فيهامتكررة وكثيرة والاحاديث النبوية الصحيحة في تأكيد ذلك بلغت مبلغ التواتر المعنوي ولا مجال هنا لسرد هذه النصوص ، فهي معروفية غير خفية على الباحث .

ولا يستثنى من عموم هذا الحكم الا حـالة واحدة ، هي ما اذا الجيء المسلمون الى هذه الموالاة بسبب ضعف شديد قد يحملهم كرها على ذلك . فقد رخص الله في ذلك في قوله « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا ان تتقوا منهم تقاة » آل عمران : ٢٨ .

ويجب في هذا الصدد ملاحظة أمرين اثنين :

أولهما : أن تعلم الفرق بين الموالاة المحرمة ، والتعامل ويدخل في حكمه من المصاحبة التي تكون على مستوى الند مع الند . فأن هذا الثاني غير محرم . فللمسلم أن يجاور كافرا ويشاركه ويصاحبه في سفر ونحوه . واذا قامت بينهما موجبات الصحبة فلا مانع من أن يقوم المسلم بحقها وأن يريـه من نفسه الخلق الحميدة ، ويهنئه في أفراحه ، ويعزيه في أتراحه ، ويعوده اذا مرض.. الخ ما هنالك

من الاخلاق الحميدة التي أمر الله بها المسلمين تجاه الناس جميعا .. والمهم أن تعلم أن هذا لا يدخل في معنى الموالاة المحرمة بحال .

ثانيهما : ان النهي عن موالاة غير المسلمين لا يعني الامر بالحقد عليهم . فالمسلم منهي عن أن يحقد على أحد من الناس أيا كان . ويجب أن تعلم أن هنالك فرقا كبيرا بين أن يغضب الانسان من أحد لله عز وجل ، وأن يحقد عليه شخصيا . أما الاول فمصدره التلبس بمنكر لا يرضى عنه الله . وأما الثاني فمصدره الشخص نفسه ، بقطع النظر عن تصرفاته وأعماله وهو ما ينهى عنه الاسلام .

والغضب لله مصدره شفقة على العاصي ، أما الحقد فمصدره أنانية نفسية تتجه بالكراهية الى الشخص ذاته .

والخلاصة أن المسلمين دون غيرهم أمة واحدة ، كما نصت على ذلك الوثيقة التي شرحناها فيما مضى . واذا كان كذلك ، فان ولاءهم يجب أن يكون فيما بينهم . أما معاملتهم مع الآخرين ، فيجب أن تقوم على أساس العدل ورغبة الخير للجميع دون تفريق بين فئات الناس وأشكالهم . والله أعلم .

* * *

غـزوة احـد

سببها أن بقية من زعماء قريش ممن لم يقتلوا في غزوة بدر ، اجتمع رأيهم على الثأر لقتلاهم في بدر ، وأن يستعينوا بعـير أبي سفيان وما فيهمن أموال لتجهيز جيش قوي لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاجتمعت كلمة قريش على ذلك ، وانضم اليهم غيرهم ايضا ممن يسمون بالاحابيش ، واستعانوا بعدد كبير مـن النسوة كي يمنعن الرجال مـن الفرار اذا أحـدق بهم المسلمون . وخرجوا من مكة وقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل .

وسمع رسول الله صلى الله عليهوسلمبالخبر فاستشار اصحابه وخيرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم ، والبقاء في المدينة ، فان دخلوا عليهم فيها قاتلوهم ، فكان رأي بعض شيوخ من المسلمين عدم الخروج من المدينة ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول من أصحاب هذا الرأي ، غير أن كثيرا من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال في بدر رغبوا في الخروج ، وقالوا ، يا رسول الله أخرج بنا الى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا .. ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا ، فدخل بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه وظن الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج انهم قـد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولمـا خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك ، فان شئت فاقعد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغي لنبي اذا لبس لأمته (أي درعه) أن يضعها حتى يقاتل[1] .

---

(١) رواه ابن سحاق والامام احمد وروى الطبري قريبا منه . وانظر سيرة ابن هشام : ٢ ـ ٦٢ وتاريخ الطبري : ٢ ـ ٥٠٠ وترتيب مسند الامام احمد : ٢٢ ـ ٥٢ .

★ ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في ألف من اصحابه ، وذلك يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من هجرته عليه الصلاة والسلام[1] ، حتى إذا كانوا بين المدينة وأحد انخزل عبد الله بن أبي بثلث الجيش ــ وعامتهم من شيعته وأصحابه ــ وكر راجعا بهم وهو يقول : عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، وما ندري علام نقتل أنفسنا ؟

وتبعهم عبد الله بن حرام يناشدهم الله ان لا يخذلوا نبيهم ، فلم يستجيبوا لندائه ، وقال زعيمهم : « لو نعلم قتالا لا تبعناكم » وروى البخاري رضي الله عنه ان المسلمين اختلفوا في أمر هؤلاء الذين انخزلوا عن المسلمين ، ففرقة منهم تقول نقاتلهم ، وأخرى تقول دعوهم ، فنزل في ذلك قوله تعالى : « فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله »[2] . واقترح بعض الصحابة الاستعانة باليهود ، بناء على ما بينهم من ميثاق التناصر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك »[3] .

★ وعسكر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ــ وهم لا يزيدون على سبعمائة مقاتل ــ في الشعب من أحد فجعل ظهور المسلمين الى أحد واستقبلوا المدينة ، وجعل على الجبل خلف المسلمين خمسين راميا ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وأوعز اليهم قائلا : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فان رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »[4] .

★ وألح كل من رافع بن خديج وسمرة بن جندب أن يشتركا مع النبي في القتال ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، فردهما النبي صلى الله عليه وسلم لصغر

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣ ــ ٨٧ . وسيرة ابن هشام : ٢ ــ ٦٢ .

(٢) صحيح البخاري : ٥ ــ ٣١ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٣ ــ ٨٠ وروى ابن اسحاق نحوه : ٢ ــ ٦٥ .

(٤) ابن سعد : ٣ ــ ٨٠ وابن هشام بالفاظ قريبة من هذه وروى نحوه البخاري : ٥ ــ ٢٨ .

أسنانهما ، فقيل له : يا رسول الله إن رافعا رام ، فأجازه ، فجاء سمرة بن جندب يقول : فأنا والله أصرع رافعا ، فأجازه هو ايضا .

★ وأمسك النبي صلى الله عليه وسلم بسيف فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فأقبل أبو دجانة قائلا : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فأخرج ابو دجانة عصابة حمراء فعصب بها رأسه (وكان ذلك شأنه عندما كان يريد ان يقاتل حتى الموت) ، ثم راح يتبختر بين الصفوف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن[1] . ثم أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء لمصعب بن عمير رضي الله عنه . وكان الذي يقود ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وميسرتهم عكرمة بن أبي جهل .

★ فاقتتل الناس ، وحميت الحرب ، وراح المسلمون يحسون المشركين في اندفاع مذهل ، وكان في مقدمة المبارزين والمقاتلين ابو دجانة ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير .

وقتل مصعب بن عمير دون الرسول صلى الله عليه وسلم فأخذ اللواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وما هو الا أن أنزل الله نصره على المسلمين فانكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء ونساءهم يدعون بالويل . وتبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون . فتكلم الرماة الذين كانوا يرابطون على الجبل في النزول ، واختلفوا فيما بينهم ، فنزل كثير منهم ظنا منهم بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، وراحوا يأخذون مع اصحابهم الغنائم ، وثبت رئيسهم عبد الله بن جبير مع عدد يسير قائلا : لا أجاوز أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، فكر راجعا بالخيل وتبعه عكرمة فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وأميرهم ، وأخذوا يهجمون على المسلمين من الخلف[2] .

---

(١) ابن هشام : ١ ــ ٢٣٣ . وروى نحوه مسلم عن طريق حماد بن سلمة . الا انه لم يرد في مسلم : انها لمشية يبغضها الله .. (انظر صحيح مسلم : ٧ ــ ١٥٠) .

(٢) طبقات ابن سعد : ٣ ــ ٨٣ . ورواه البخاري عن البراء في كتاب الجهاد : ٥ ــ ٢٨ .

★ وحينئذ انكشف المسلمون وداخلهم الرعب ، وأخذ المسلمون يقتتلون على غير شعار او هدى وأوجع المشركون في المسلمين قتالا ذريعا حتى خلص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمي بالحجارة حتى رمي لشقة ، وأصيبت رباعيته (السن المجاورة للناب) وشج في وجهه ، وجعل الدم يسيل على وجهه فيمسحه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ . وجاءت فاطمة رضي الله عنها تغسل عنه الدم وعلي يسكن الماء بالمجن ، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا ثم ألصقته بالجرح فاستمسك [1] .

★ وأثناء ذلك شاع في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، وكانت هذه الشائعة من أشد ما أدخل الرعب في قلوب بعض المسلمين ، وهي التي جعلت ضعاف الايمان يقولون : فما مقامنا هنا اذا كان قد قتل الرسول ؟ وذهبوا يولون الادبار ، وهي التي جعلت أنس بن النضر يقول : بل ما فائدة حياتكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أشار الى المنافقين والى ضعاف الايمان قائلا : اللهم اني أبرأ اليك مما يقول هؤلاء ، وأعتذر اليك مما يقول هؤلاء ، وانطلق فشد بسيفه على المشركين حتى قتل [2] .

★ وتجلى في هذه الاثناء مظهر رائع للتضحية والفداء ممن كانوا حول رسول الله من الصحابة فقد راحوا يقدمون أرواحهم رخيصة دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل معظمهم .

روى البخاري أنه لما كان يوم أحد ، انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو طلحة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم مجوب عليه (مترس بنفسه عليه) بجحفة له (ترس من جلد) ، وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزاع . يشرف النبي صلى الله عليه وسلم ينظر الى القوم ، فيقول ابو طلحة : بأبي انت وأمي لا تشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك [3] .

---

(١) متفق عليه بألفاظ متقاربة .
(٢) متفق عليه .
(٣) البخاري : ٥/١٣٣ .

وترس ابو دجانة نفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبل يتلاحق في ظهره وهو منحن على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتحول . وترس زياد ابن السكن نفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل هو وخمسة من اصحابه ، وكان آخرهم على مارواه ابن هشام عمارة بن يزيد بن السكن ، فقاتل دونه عليه الصلاة والسلام حتى أثبتته الجراح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :أدنوه منه ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

★ ثم ان الحرب هدأت بين الطرفين وانحسر المشركون منصرفين ، وقد زهوا بالنصر الذي أحرزوه ، وفزع الناس لقتلاهم ، وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب ، واليمان ، وأنس بن النضر ، ومصعب بن عمير وعدد كبير غيرهم ، وقد تأثر النبي صلى الله عليه وسلم لمقتل عمه تأثرا كبيرا ، وقد مثل به فبقر بطنه وجدع أنفه وأذناه . وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من القتلى في ثوب واحد ثم يقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فاذا أشير له الى أحدهم قدمه في اللحد ، وقال : أناشهيد على هؤلاء يوم القيامة . وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلوا [1] .

★ وأخذ اليهود والمنافقين يظهرون الشماتة بالمسلمين ، وراح عبد الله بن أبي بن سلول يقول هو وأصحابه للمسلمين : لو أطعتمونا ما قتل منكم من قتل ، وأخذوا يتسباءلون عن النصر الذي كانوا يتوهمونه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى آيات من سورة آل عمران تعليقا على ارجاف اليهود والمنافقين وبيانا لحكمة ما حصل في غزوة احد ، وهي تبدأ بقوله تعالى : « واذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » الى قوله تعالى : « الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين »[2] .

---

(١) البخاري : ٥/٩٤ .

(٢) آل عمران : ١٤٩ ـ ١٦٨ .

★ وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد مساء السبت ، فبات تلك الليلة في المدينة هو وأصحابه، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم. فلما صلى رسول صلى الله عليه وسلم الصبح يوم الاحد ، أمر بلالا أن ينادي أن رسول الله يأمركم بطلب العدو ، ولا يخرج معنا الا من شهد القتال بالامس .. ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلوائه وهو معقود لم يحل ، فدفعه الى علي رضي الله عنه ، وخرج القوم وهم ما بين مجروح وموهون ، ومشجوج، حتى عسكروا بحمراء الاسد (مكان من المدينة على بعد عشرة أميال) فأوقد المسلمون هناك نيرانا عظيمة ، حتى ترى من المكان البعيد وتوهم كثرة اصحابها .

★ ومر بهم معبد بن معبد الخزاعي (وكان يومئذ من مشركي خزاعة) ثم تجاوزهم فمر على المشركين ولهم زجل ومرح وزهو بالنصر الذي لا قوه في أحد ، وهم يأتمرون بالرجوع الى المدينة للقضاء على المسلمين ، وصفوان بن أمية ينهاهم . فلما رأى أبو سفيان معبدا قال :ما وراءك يا معبد ؟ فقال : ويحكم ! إن محمدا قد خرج في اصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ؟ .. فأدخل الله بذلك رعبا عظيما في قلوب المشركين ، وهبوا مسرعين عائدين الى مكة . وأقام النبي صلى الله عليه وسلم في حمراء الاسد : الاثنين والثلاثاء والاربعاء ثم رجع الى المدينة[1] .

* * *

الدلائل والعبر :

تنطوي غزوة احد على دروس بالغة الاهمية للمسلمين في كل عصر . ولكان الحكمة من وقوعها على الشكل الذي بيناه ، أن يتجلى للناس منها درس تطبيقي ، يتعلم به المسلمون كيفية البلوغ الى النصر في معاركهم مع أعدائهم ، وكيفية التحرز من مزالق الخيبة والهزيمة . فلنقف على هذه الدروس العظيمة ، ولنتأمل فيها الواحدة اثر الاخرى .

---

(١) طبقات ابن سعد ، وسيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبري .

١ ـ مرة اخرى مبدأ الشورى :

مرة اخرى يتجلى التزام رسول الله بمبدأ التشاور مع أصحابه ، في كل ما لا نص فيه من القرآن ولا تنزل عليه حكم في شأنه . فقد رأيت كيف استشار أصحابه في الموقف الذي ينبغي ان يتخذوه من جيش المشركين الذي اتجه مقبلا الى المدينة . ثم تخير لنفسه أحد الرأيين ، غير ملتزم نظام أكثرية أو نحو ذلك ، وانما سار وراء ما تهديه اليه بصيرة قلبه ، ولما انضم فريق الشباب والمتحمسين للخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة ، الى الشيوخ الذين كانوا يرون البقاء في المدينة ، لم يشأ رسول الله أن يعود عن رأيه الذي انشرح له صدره ، بعد ان لبس درعه وأخذ أهبته للقتال ، على الرغم من أنهم أظهروا الندم وعادوا عن رأيهم في الخروج ورجوه البقاء اذا كان لا يرى مانعا من ذلك .

ولعل الحكمة من موقفه هذا ، أن استمرار البحث في الامر ، بعد أخذ العدة للقتال ، وبعد ظهوره صلى الله عليه وسلم بين صحابه لابسا درعه آخذا سلاحه ، شيء خارج عن حدود التشاور ومقتضاه ، لا سيما في قضايا الحرب التي تحتاج الى قدر كبير من الحزم والعزم . وكان التمادي في التشاور بعد ذلك يتحول الى مظهر من مظاهر الضعف والاضطراب . ولذلك أجاب النبي صلى الله عليه وسلم أولئك الذين غيروا رأيهم بعبارة فيها الكثير من معنى الحزم والعزم ، غير ملتفت الى لغط القوم وتعابثهم فيما بينهم : ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

٢ ـ صورة اخرى لطبيعة النفاق :

لقد رأينا كيف انخزل عبد الله بن أبي بن سلول بثلاثمائة من اتباعه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه . فعل ذلك على حين غرة بعد أن خرج الجيش من المدينة يشد بعضه ازر بعض .. ليكون ذلك أشد تأثيرا في نفوس المسلمين ، وأبعث للاضطراب في صفوفهم .. ولقد كان سبب رجوعه في الظاهر ان الرسول لم يأخذ برأي أمثاله من الشيوخ وأرباب الحجى ، واخذ برأي الصبية والشباب . غير أن السبب الحقيقي هو أنه لا يريد قتالا ، لانه لا يريد أن يعرض

نفسه لمخاوفه ومثبطاته وتلك هي أبرز سمات المنافقين : يريدون ان يأخذوا ما في الاسلام من مغانم ، ويبتعدوا عما فيه من مغارم واتعاب ! .. وانما الذي يمسكهم على الاسلام أحد شيئين : غنيمة يتوقعونها ، أو مصائب ومحن يتوقونها .

وأهم من هذا ان تعلم كيف أن رسول الله لم يشأ ـ على الرغم من ذلك ـ أن يعامل عبد الله بن أبي بن سلول وجماعته الا معاملة المسلمين الصادقين ، بل انه أبى الا أن يتجاوز عن عمله الذي يعد جريمة كبرى من شأنها أن تفت في عضد المسلمين ، وأن يصفح عنه فلا يعاقبه عليها بشيء .

٣ ـ حكم الاستعانة بغير المسلمين في القتال :

لقد راينا أن رسول الله لم يشأ أن يستعين بغير المسلمين في هذه الغزوة ، على الرغم من قلة عدد المسلمين وعلى الرغم من أن الوثيقة تنص على ضرورة التناصر بين المسلمين واليهود ،اذا داهمهم عدو من خارج المدينة . وقال لمن اقترح عليه ذلك : « لا استنصر بأهل الشرك على أهل الشرك » . وقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل تبعه يوم بدر ليقاتل معه : أتؤمن بالله ؟ قا ل : لا . قال فارجع فلن أستعين بمشرك .

وقد ذهب الجمهور بناء على هذا ، الى انه لا يجوز الاستعانة بالكفار في القتال .. وفصل الامام الشافعي في ذلك ، فقال : ان رأى الامام أن الكافر حسن الرأي والامانة في المسلمين ، وكانت الحاجة داعية الى الاستعانة به جاز ، والا فلا [1] ومعنى هذا ان الحكم داخل في السياسة الشرعية وأحكام الامامة .

٤ ـ سر اندفاع الاطفال الى الغزو :

مما يجدر التأمل فيه حال سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وكلاهما طفلان لا يزيد عمر كل منهما على خمس عشرة سنة ، وكيف جاءا يناشدان رسول الله أن يسمح لهما بالاشتراك في القتال ! .. وأي قتال ؟ .. قتال قائم على التأهب للموت ، لا تجد فيه أي صورة من التعادل بين الفريقين ! ..

---

(١) انظر مغني المحتاج : ٤/٢٣١ .

والعجيب حقا أن يقف بعض محترفي الغزو الفكري على مثل هذه الظاهرة ، فيذهبوا في تحليلها الى ان العرب كانوا أمة تعيش في ظل الحروب والغزوات الدائمة ، لذلك كانوا ينظرون اليها رجالا وأطفالا نظرة طبيعية ، دون ان تسبب لهم أي قدر من الرهبة والخوف .

لا ريب أن أرباب هذا التحليل يغمضون أعينهم في تجاهل عجيب ، عن تخاذل أمثال عبد الله بن أبي بن سلول ، مع ثلاثمائة من أصحابه ، تحت وطأة الخوف من عواقب القتال ، وعن تخاذل اولئك الذين استعذبوا ظلال المدينة وثمارها أثناء حرارة الصيف ، وأعرضوا عن نداء الرسول بالخروج للقتال ، قائلين : لا تنفروا في الحر ، ويغمضون أعينهم عن هزيمة المشركين في غزوة بدر ، على الرغم من ضخامة عددهم وقلة عدد المسلمين .. وهم هم العـرب الذين نشأوا في ظل الحروب ورضعوا لبانها واستهانوا بصعابها ! ..

من الصعوبة البالغة للمنصف الحر أن يتهرب مما تحكم به البداهة الواضحة من أن سر هذا الاقدام على الموت من مثل هؤلاء الاطفال ، انمـا هو الايمان العظيم الذي استحوذ على قلوبهم ، والذي ترتبت عليه محبة عارمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فحيثما وجد الايمان وتحققت هذه المحبة لا بد أن يظهر هذا الاقدام والاستبسال . وحيثما ضعف الايمان أو فقد ، وفقدت معه المحبة القلبية ، انقلب الاقدام احجاما وتحول الاستبسال كسلا وتقاعسا .

٥ ـ ابو دجـانة وحكم التبختر في الحرب :

أبو دجـانة الذي تناول السيف من يـد رسول الله بحقه ، وراح يتبختر في زهو ومرح بين الصفوف ، ما أنكر عليه رسول الله ذلك ، مع أن الله يقول : « ولا تمش في الارض مرحا إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا » بل قال : ان هذه مشية يكرهها الله الا في مثل هذا الموضع ! .. وهذا يدل على أن كل مظاهر التكبر المحرمة تزول حرمتها في حالات الحرب ، وفي ميادين القتال . ومنها الزهو في المشي وتزيين آلات الحرب وأسلحتها بالفضة ، فكل ذلك غير ممنوع . ذلك لان هذه المظاهر تعود في هذا المقام الى افتخار بعزة الاسلام على أعدائه .. ثم أنها تشكل معنى من معاني الحرب النفسية التي يجب أن يرهب بها

المسلمون أعداءهم تطبيقا لقول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

٦ ـ لماذا انتصر المسلمون في احد ثم غلبوا ؟ :

اذا تأملنا في سير القتال بين المسلمين وأعدائهم في هذه الغزوة ، رأيناها تنقسم الى شطرين :

الشوط الاول : وفيه التزم الرماة أماكنهم التي عينهـا لهم رسول الله ، والتزم سائر المسلمين الاوامر التي وجهت اليهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان مآل هذا الشطر ونهايته مسارعة النصر الى صفوف المسلمين ومسارعة الهزيمة الى صفوف المشركين . واكتسح الرعب افئدة ثلاثة آلاف مقاتل فانحسروا عن أماكنهم وأخذوا يولون الادبار . وعن هذاالشوط الاول يتحدث البيان الالهي في قوله عز وجل : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه .. »

الشوط الثاني : وفيه نظر الرماة من فوق الجبل الذي كانوا يتمركزون فيه الى اخوانهم وقد انتصروا وترك المشركون من ورائهم الاسلاب والغنائم . فرغب بعضهم في النزول ليشتركوا في الغنائم نظرا الى ان الحرب قـد وضعت اوزارها بتصورهم . ونسوا أن رسول الله أوصاهم أن لا يتحركوا عن أماكنهم حتى يأذن لهم بذلك . فنزلوا واتجهوا الى حيث الغنائم ليشاركوا فيها . فماذا كان من نتيجة هذا الشوط ؟

لقد تحول الرعب الذي داهم أفئدة المشركين الى استبسال جديـد ! .. وتفتحت اسباب الحيلة لدى خالد بن الوليد الذي كان يولي هاربا ، فنظر من حوله ، واذا جبل الرماة قد أصبح فارغا الا من قلة يسيرة ترابط فوقه . فما هو الا أن استدار بمن معه من المشركين الى الجبل ، فصعدوا عليه وقتلوا من بقي فيه ، وانحطوا في ظهور المسلمين بالسهام .. وأقبل الرعب هذه المرة ليغزو أفئدة المسلمين كما رأينا . فهذا الشوط الثاني هو الذي علق عليه البيان الالهي بقوله عز وجل : « .. حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبـون ، منكم من يريد الدنيـا ومنكم من يريد الآخـرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » .

واظر كم كان وبال هذه الخطيئة جسيما .. وكم كانت عاقبتها عامة ! ..

لقد عادت خطيئة افراد قليلين من الجيش ، بالوبال على الجيش كله ، بحيث لم ينج حتى رسول الله من نتائجها . وتلك هي سنة الله في عباده ، لم يمنعها من الاستمرار وجود رسول الله في ذلك الجيش . فكان أن أنفذ الله فيهم قراره : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وبوسعك الآن أن تقارن بين تلك الخطيئة التي وقع فيها عدد يسير من أصحاب رسول الله ، والانحرافات الكبرى التي ينجرف فيها اليوم اكثر المسلمين لتعلم السبب الكامن خلف النكبات التي أصابتهم وسلطت عليهم أعداءهم ، وأفقدتهم قوتهم وسلطانهم ! ..

٧ ـ ما الحكمة من شيوع مقتل رسول الله بين الناس ؟

لقد علمنا أن رشاش تلك الخطيئة التي انجرف اليها بعض الرماة ، أصاب حتى رسول الله ، فوقع لشقه ، وشج رأسه ، وكسرت رباعيته ، وساح الدم غزيرا في وجهه . ولكن ما الحكمة من أن يشيع خبر مقتل رسول الله في صفوف المسلمين ؟ .

الحكمة أن ارتباط المسلمين برسول الله وبوجوده فيما بينهم كان من الشدة بحيث لم يكن أكثرهم يتصورون فراقه ، ولم يكونوا يتخيلون القدرة على التماسك من بعده . فكان أمر وفاته شيئا لا يخطر لهم على بال . وكانهم كانوا يستطون حساب ذلك من أذهانهم . ولا ريب أنهم لو استيقظوا من تصورهم هذا على الخبر الحقيقي لوفاة رسول الله ، لصدع الخبر أفئدتهم ، ولزعزع كيانهم الايماني ، بل ولقوضه في نفوس كثير منهم .

فكان من الحكمة الباهرة ، واللطف الرباني العظيم ، أن تنتشر هذه الشائعة، تجربة درسية بين تلك الدروس العسكرية العظيمة ، لكي يستفيق المسلمون من وراتها الى الحقيقة التي يجب أن يوطنوا انفسهم لها منذ الساعة ، وأن لا يرتدوا على اعقابهم اذ وجدوا أن رسول الله قد اختفى فعلا مما بينهم .

ويتضح هذا الدرس جليا من خلال البيان الالهي الذي نزل تعليقا على ما

أصاب كثيرا من المسلمين من ضعف وتراجع لدى سماعهم نبأ مقتل رسول الله ، وهو قوله تعالى :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفائن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين »

وستعلم كيف اتضح الاثر الايجابي لهذا الدرس ، يوم ان الحق رسول الله فعلا بالرفيق الاعلى ، وكيف أن هـذه الآية ربطت على قلوبهم . وأعادتهم الى الانضباط بحكم الله والرضا بقضائه .

٨ ـ صورة نادرة لمحبة الصحابة لرسول الله :

هل تأملت في وقع الموت على أصحاب رسول الله ، وهم من حوله يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين يتساقطون الواحد منهم تلو الآخر تحت وابل السهام، وهم في نشوة عارمة وحرص حريص على حفظ حياة رسول الله ، لا يبالون بشيء غير ذلك ! .. فما هو مصدر هذه التضحية العجيبة ؟ .

مصدر ذلك الايمان العقلي بالله أولا ،ثم المحبة القلبية لرسول الله ثانيا . والمسلم محتاج دائما الى هذين العاملين معا . لا يكفيه أن يكون مؤمنـا بالله ورسوله ايمانا عقلانيا ، حتى يمتلىء قلبه بمحبة الله ورسوله ايضا .

ذلك لان القلب اذا لم يشغل بمحبة الله ورسوله والصالحين مـن عباده ، فسيمتلىء بحب الشهوات والاهواء المحرمة . اذ القلب كالمرآة ان لم تثبت فيه هذه الصورة ثبتت تلك .. وإذا تعلق القلب بحب الشهوات والاهواء فهيهات أن تصبح القناعـة العقلية وحدها كافية لحمل صاحبها على شيء من اعمال التضحية أو الايثار .

فهذه المحبة القلبية لله ورسوله ، من وراء القناعة العقلية التامـة ، هـي التي جعلت أصحاب رسول الله يمدّون نحورهم دون نحر رسول الله ، ويعانقون الموت في سبيل حياتـه عليه الصلاة والسلام . وكم في غزوة أحد من المشاهـد الرائعة التي تكشف عن أثر هذه المحبة في الحياة والسلوك .

روى ابن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه : من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الاحياء هو أم في الاموات ؟ فقال رجل من الانصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد . فنظر ، فاذا هو جريح في القتلى وبه رمق . فقال له : إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الاحياء أنت أم في الاموات ؟.. قال : أنا في الاموات . فابلغ رسول الله مني السلام وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزي نبي عن أمته . وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص الى نبيكم صلى الله عليه وسلم ولكم عين تطرف . قال الانصاري: فلم أبرح حتى مات .

٩ ـ شهيد المعركة لا يغسل ولا يصلى عليه :

رأينا فيما رواه البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بدفن قتلى المسلمين بدمائهم ولم يصل عليهم . وجمع بين الرجلين في قبر واحد . وقد استدل من ذلك العلماء على أن الشهيد في معركة الجهاد ، لا يغسل ولا يصلى عليه . بل يدفن بدمائه .

وأما ماروي أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليهم عشرة عشرة ، في كل عشرة حمزة ، حتى صلى على حمزة سبعين مرة فضعيف وخطأ[1] .

كما استدلوا بذلك ايضا على أنه يجوز عند الضرورة الجمع بين أكثر من واحد في القبر . أما بدون ضرورة فلا يجوز ذلك .

١٠ ـ عودة النصر لدى العودة الى حمراء الاسد :

إذا تأملنا فيما أقدم عليه رسول الله مع أصحابه فور عودتهم الى المدينة من الخروج ثانية للحاق بالمشركين ـ اتضح لنا درس هذه المعركة وضوحا تاما ، وتبين لنا سبب كل من نتيجتها السلبية والايجابية . وظهر لنا بما لا يدع مجالا

---

(١) انظر مغني المحتاج : ١/٣٤٩ .

للتوهم أن النصر إنما يكون مع الصبر على الحق واطاعة أوامر الله وأوامر القائد الصالح واستهداف القصد الديني المجرد .

فقد رأينا أن رسول الله لم يكد يؤذن في الناس بالخروج مرة أخرى لطلب العدو ، حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالامس ، وقد اصابهم القرح وأنهكتهم الجراح ، ولم يسترح واحد منهم بعدّ في بيته ولافرغ للنظر في جسمه . وانطلقوا ثانية خلف رسول الله يبتغون المشركين الذين لم تخمد بعد في رؤوسهم نشوة النصر . ولم يكن فيهم هذه المرة من يطمع في مغنم أو مال . وإنما هو الائتمار بأمر رسول الله والتطلع الى النصر أو الاستشهاد في سبيل الله .

فما الذي كان من نتيجة ذلك ؟

لا نشوة الظفر ربطت على قلوب المشركين ليتمموا نصرهم . ولا وقع بهة وآلام الجراح الكثيفة في المسلمين حال دون اقدامهم وانتصارهم .

وكيف كان السبيل ؟.. كان السبيل الى ذلك آية آلهية خارقة ، تمت الدرس والموعظة للمؤمنين : فقد وقع الرعب فجأة في صدور المشركين . أمّا كيف داخلهم هذا الرعب ، وهم الذين كسروا شوكة المسلمين ووضعوا السيوف فيهم قبل ساعات من الزمن ، فمردّ ذلك الى ارادة الله عز وجل ، التي جعلت من هذه الموقعة كلها درسا بليغا للمسلمين ، جمع بين كلا المظهرين الايجابي والسلبي في آن واحد . على أساس من قانون الطرد والعكس ، في ارتباط السبب بالمسبب والعلة بالمعلول .

وفي هذه الخاتمة المشرفة للمسلمين والمتممة لموعظة أحد ودرسها البليغ ، نزل قوله تعالى :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » آل عمران : ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤ .

يوم الرجيع ، وبئر معونه

اولا ـ يوم الرجيع ، وكانت في السنة الثالثة :

قدم وفد من قبائل عضل والقارة على رسول الله يذكر أن أخبار الاسلام قد وصلت قبائلهم وأنهم بحاجة الى من يعلمهم شؤون هذا الدين . فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه . وفيهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق . وأمّر عليهم عاصم بن ثابت .

روى البخاري بسنده عن ابي هريرة قال : فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ، ذكروا لحيّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعوهم بقريب من مائة رام ، فاقتصوا آثارهم حتى اتوا منزلا نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة . فقالوا هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم ، حتى لحقوهم . فلما انتهوا الى عاصم وأصحابه لجأوا الى فدفد . وجاء القوم فأحاطوا بهم . فقالوا لكم العهد والميثاق ان نزلتم الينا أن لا نقتل منكم رجلا . فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر . اللهم أخبر عنا نبيك . فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر بالنبل . وبقي خبيب وزيد ورجل آخر ، فأعطوهم العهد والميثاق .

فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا اليهم . فلما استمكنوا منهم ، حلّوا أوتار قسيهم ، فربطوهم بها . فقال الرجل الثالث الذي معهما : هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم ، فلم يفعل ، فقتلوه .

وانطلقوا بخبيب وزيد ، حتى باعوهما بمكة . فاشترى خبيبا بنو الحارث . وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر . فمكث عندهم أسيرا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها . قالت: فغفلت عن صبي لي ، فدرج اليه حتى اتاه ، فأجلسه على فخذه ، فلما رأته فزعت فزعة عرف ذاك مني ، وفي يده الموسى . فقال : اتخشين أن أقتله ، ماكنت

لافعل ذلك إن شاء الله . وكانت تقول : مارأيت أسيرا قط خيرا من خبيب . لقد رأيته يأكل من قطف عنب ، وما بمكة يومئذ ثمرة ، وانه لموثق بالحديد ، وما كان الا رزقا رزقه الله . فخرج جوابه من الحرم ليقتلوه . فقال : دعوني أصلي ركعتين . ثم انصرف اليهم فقال : لولا أن تروا ان مابي جزع من الموت لزدت . فكان أول من سن الركعتين قبل القتل . ثم قال أبياتا منها :

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذين الاله فان يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام اليه عقبة بن الحارث فقتله . وبعثت قريش الى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه ، وكان عاصم قد قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر . فبعث الله عليه مثل المظلة من الدّبر ، فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء[1] .

قال ابن اسحاق : واما زيد ، فابتاعه صفوان بن أمية ، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان : أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك ، نضرب عنقه وانك في أهلك ؟ قال : والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي .. فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمداً[2] .

ثانيا ـ بئر معونة ، وكانت في السنة الرابعة :

قدم عامر بن مالك المشهور بلقب « ملاعب الاسنة » على رسول الله ، فعرض عليه الاسلام . فلم يسلم ولم يظهر تجنبا عن الاسلام . ثم قال : يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك . فقال عليه الصلاة والسلام : إني اخشى عليهم أهل نجد قال عامر : أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك .

---

(١) صحيح البخاري : ٤١/٥ .
(٢) سيرة ابن هشام : ١٧٢/٢ .

فبعث رسول الله سبعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، وكان ذلك على ما رواه ابن اسحاق وابن كثير ، في صفر على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد . فساروا حتى نزلوا ببئر معونة . فلما نزلوها ، بعثوا أحدهم « حرام بن ملحان » بكتاب من رسول الله الى عامر بن الطفيل .فلما أتاه لم ينظر في كتابه ، وعدا عليه فقتله .

روى البخاري عن أنس بن مالك أن حرام بن ملحان لما طعن وانتضح الدم في وجهه صاح : فزت ورب الكعبة[1] .

ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر يستعديهم على بقية الدعاة ، فأبوا أن يجيبوه وقالوا : لن نخفر ابا براء عامر بن مالك . فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصية ورعل وذكوان . فأجابوه ، فانطلقوا فأحاطوا بالقوم في رحالهم . فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم . فقتل المسلمون عن آخرهم .

وكان في سرح الدعاة اثنان لم يشهدا هذه الموقعة الغادرة . أحدهما « عمرو بن أمية الضمري » ولم يعرف النبأ إلا فيما بعد . فأقبلا يدافعان عن إخوانهما فقتل زميله معهم . وافلت عمرو ، فرجع الى المدينة . وفي الطريق لقي رجلين من المشركين من بني عامر فقتلهما . ثم تبين لما وصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر أنهما من بني كلاب وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أجارهما . فقال عليه الصلاة والسلام : لقد قتلت قتيلين لادينهما .

وثار النبي لمقتل هؤلاء الدعاة الصالحين من أصحابه ، وبقي شهرا يقنت في صلاة الصبح يدعو على قبائل سليم : رعل وذكوان وبني لحيان وعصية .

* * *

الدلائل والعبر :

في هاتين الحادثتين المؤثرتين دلالات هامة نجملها فيما يلي :

---

(١) البخاري : ٤٣/٥ .

١ ـ اشتراك المسلمين جميعا في مسؤولية الدعوة الى الله :

يدل كل من هاتين الحادثتين على اشتراك المسلمين جميعا في مسؤولية الدعوة الى الله ، وتبصير الناس بحقيقة الاسلام . فليس أمر الدعوة موكولا الى الانبياء والرسل وحدهم أو الى فئة معينة من الناس الذين يأتون من بعدهم .

وانك لتستشعر مدى أهمية القيام بهذه الدعوة ، من ارسال النبي صلى الله عليه وسلم أولئك القراء السبعين وقد اختارهم من أفضل أصحابه ، ولما يمض على مقتل أولئك النفر الستة أمد طويل وكان قد أرسلهم في السبيل ذاته . لقد استشعر الخوف عليهم ، ولكنه كان يرى أن القيام بأعباء التبليغ أهم من كل شيء

ولئن لم يكن تحمل مسؤولية الدعوة والتبليغ إلا بمثل هذه المغامرة وقبول ما قد ينتج عنها ، فلتكن المغامرة وليكن ما أراده الله عز وجل في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته .

٢ ـ صورتان متناقضتان وابطالهما عرب انبتتهم ارض واحدة :

الصورة الاولى صورة الغدر العجيب والخيانة التي جاءت في احط مظاهرها البشعة ، وابطالها أولئك الذين غدروا بالنفر من المؤمنين بعد أن قطعوا لهم العهود والمواثيق بانهم لن يقتلوهم ولن يغدروا بهم . وأولئك القتلة من قبائل سليم ارتكبوا جرائمهم بغير موجب وبدون سابقة عدوان ، في حق سبعين من المؤمنين المسالمين الذين لم يكن لهم هدف الا الدعوة الى الاسلام والتعريف به.

والصورة الثانية صورة الامانة والصفح والتسامي فوق دوافع الثأر والانتقام ، وتتجلى في مظهر خبيب رضي الله عنه وهو اسير في بيت بني الحارث ينتظر ساعة قتله . وكان قد استعار شفرة ليصلح بها شأنه استعدادا للموت . وفي البيت طفل صغير درج نحوه في غفلة من أمه . ولقد كانت تلك اللحظة فرصة رائعة لمن يتعلق بالحياة أو يفكر بالانتقام ، أن يساوم حياة بحياة . وهذا ما ظن به اهل البيت كلهم ولذلك هبت أم الطفل مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكد !.. ولكنها وقفت مندهشة عندما رأت طفلها وقد أجلسه خبيب في

حجره يلاطفه كأنه أب شفوق ! .. ونظر اليها وقد الم بما في نفسها من الخوف فقال لها في هدوء المؤمن الحليم : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لافعل ذلك إن شاء الله .

فانظر الى معجزة التربية الاسلامية للانسان ! .. خبيب هذا ، وأولئك المشركون الحاقدون الذين انحطوا الى أدنى دركات الغدر والخيانة ، عرب أنبتتهم أرض واحدة وأظلتهم طبائع وتقاليد واحدة . ولكن خبيبا اعتنق الاسلام فأخرجه الاسلام انسانا آخر ، وأولئك عكفوا على ضلالاتهم فحبستهم تلك الضلالات في طبائعهم المتوحشة الغادرة . فما اعظم ما يفعله الاسلام في الطبائع الانسانية من تغيير وتحويل ! ..

٣ ـ للاسير ان لا يستسلم ولو علم انه سيقتل :

يستدل مما ذكرنا من أخبار هاتين الحادثتين أن للاسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الامان ، وأن لا يمكن من نفسه ولو قتل ، ترفعا عن أن يخضع لحكم كافر ، وهذا ما فعله عاصم .

أما إن أراد الترخص ، فله أن يستأمن ، مترقبا الفرصة السانحة ، مؤملا الخلاص . وهذا مافعل خبيب وزيد . ولكن لو قدر الاسير على الهرب لزمه ذلك في الاصح . وان أمكنه اظهار دينه بينهم . لان الاسير في يد الكفار مقهور مهان . فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الاسر ورقه[1] .

أما الانتحار تخلصا من تعذيب ، أو خوفا من أن يستكره على افشاء سر ، فغير جائز بالاتفاق .

٤ ـ كل ما أمكن ان يكون معجزة لنبي يمكن أن يكون كرامة لولي :

دل ما ذكرناه من أمر خبيب أيام كان أسيرا في مكة وما رؤته إحدى بنات الحارث أنها رأت في يده قطف عنب يأكل منه وما بمكة يومئذ ثمرة (والحديث صحيح رواه البخاري في صحيحه) نقول دل

(١) انظر نهاية المحتاج للرملي : ٧٨/٨ .

ذلك على أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز ان يكون كرامة لولي • مع فارق اساسي لا بد منه ، وهو أن معجزة النبي تكون مقرونة بدعوى النبوة ، أما كرامة الاولياء والصالحين فتأتي عفوا دون أن تقترن بأي نـوع من التحدي المتعلق بـدعوى النبوة •

وهذا ما جرى عليه الجمهور من أهل السنة والجماعة • ولا أدل على ذلـك من هذا الذي أكرم الله به خبيبا قبل قتله •

٥ ــ ما الحكمة من تمكين يد الغدر من هؤلاء الفتية المؤمنين ؟

قد يتساءل البعض عن الحكمة من ذلك • والجواب هو ما كنا ذكرناه أكثر من مرة ، من أن الله تعالى تعبد عباده بتحقيق أمرين اثنين : إقامـة المجتمع الاسلامي ، والسعي الى ذلك في طريق شـائكة غير معبدة • والحكمة من ذلك ان تتحقق عبودية الانسان لله تعالى ، وأن يمحص الصادقون عـن المنافقين وأن يتخذ منهم شهداء ، وأن يتجلى المعنى التنفيذي للمبايعة التي جرت بين الله وعباده المؤمنين والتي صرح بها في قولـه تعالى « إن الله اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » •

على أن المشكلة في أساسها انما تطوف في رأس من قدر هذه الحياة العاجلة اكثر من قدرها الحقيقي ، وأولاها اكثر مما تستحق من الاهتمام ، وضعف تعلقه بالمقابل بالحياة الآخرة وشأنها • ومثل هؤلاء النـاس لا ينتظر منهم أن يغامروا بروح ولا مال • أما المؤمنون حقا فالمشكلة غير متصورة لديهم من أساسها • فلذة الحياة الدنيا في يقينهم أقل شأنا من أن تحبس المسلم عـن أداء أصغر طاعة يتقرب بها الى خالقه • وما التضحية بالروح في يقينهم الا الانطلاقة من سجن الدنيا الى نعيم الآخرة • وانعم بها من غاية هي كل أمل المسلم في حياته التي يعيشها •

وهذا الشعور يتجلى بأوضح صوره في الابيات التي قالها خبيب قبل قتله لا سيما البيت الاخير وهو قوله :

ولست بمبـد للعـدو تخشعا ولا جزعـا • إني الى الله مـرجعي

* * *

اجلاء بني النضير

وكان ذلك في شهر ربيع الاول سنة أربع للهجرة .

روى ابن سعد أن رسول الله خرج يوم السبت ، فصلى في مسجد قباء ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والانصار . ثم أتى بني النضير . فكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري . وكان لهما من رسول الله جوار وعهد . وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف . وذلك على ما رواه ابن اسحاق وغيره . فقالوا له : نفعل يا أبا القاسم ما أحببت . وخلا بعضهم ببعض وهموا بالغدر . وقال عمرو بن جحاش النضري : أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة . وكان رسول الله واقفا الى جنب جدار من بيوتهم .

وقد روى ابن سعد ان سلام بن مشكم (وهو من يهود بني النضير) قال لهم : لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به وانه لنقض العهد الذي بيننا وبينه[1]

فجاء رسول الله الخبر بما هموا ، فنهض سريعا كأنه يريد حاجة وتوجه الى المدينة ، ولحقه أصحابه فقالوا قمت ولم نشعر ! .. قال « همت يهود بالغدر فأخبرني الله بذلك فقمت » .

ثم أرسل إليهم رسول الله أن اخرجوا من بلدي ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر . وقد أجلتكم عشرا فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه .

فأخذوا يتهيؤون للخروج . ولكن عبد الله بن أبي بن سلول أرسل اليهم أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصنكم فان معي ألفين من قومي وغيرهم يقاتلون عنكم . فعادوا عما عزموا عليه من الخروج وتحصنوا في حصونهم . فأمر رسول الله بالتهيء لحربهم والسير اليهم .

ثم سار رسول الله اليهم ، وقد تحصنوا بحصونهم معهم النبل والحجارة . ولكن ابن أبيّ خذلهم فلم ينفذ وعده معهم . فحاصرهم النبي صلى الله عليه

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢/٩٢ .

وسلم ، وأمر بقطع نخيلهم واتلافها[1] فنادوه يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يصنعه . فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ وقد انزل الله في ذلك قوله ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين » الحشر : ٥ .

وأخيرا عرضوا على رسول الله أن يخرجوا من المدينة كما أراد .. ولكنه صلى الله عليه وسلم قال : لا أقبله اليوم الا على أن تخرجوا بدمائكم فقط ، وليس لكم من أموالكم إلا ما حملته الابل ، عدا الحلقة (السلاح) . فنزل اليهود على ذلك . واحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل . قال ابن هشام فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه (أي عتبته) فيضعه على ظهر بعيره وينطلق به . وتفرقوا ما بين خيبر والشام . ولم يسلم منهم إلا رجلان : يامين بن عمير بن كعب وأبو سعد بن وهب ، فأحرزا اموالهما[2] .

وقسم رسول الله الاموال على المهاجرين الاولين دون الانصار ، الا اثنين من الانصار اعطاهما لما ذكر له من فقرهما ، هما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة . وكانت أموال بني النضير خالصة لرسول الله ، وذكر البلاذري في فتوح البلدان أنه كان يزرع تحت النخل في أرضهم فيدّخر من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة . وما فضل جعله في الكراع والسلاح[3] . ونزل في بني النضير سورة الحشر بأكملها . ونزل تعليقا على سياسته صلى الله عليه وسلم في تقسيم أموال بني النضير قوله تعالى « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب . ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » الحشر : ٦ و ٧ .

* * * *

(١) متفق عليه .
(٢) انظر طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وتفسير ابن كثير عند تفسيره لسورة الحشر .
(٣) عيون الاثر : ٢/٥١ .

الدلائل والعبر :

١ ـ العصمة الخارقة :

مما لا ريب فيه أن الخبر الذي جاء من الله تعالى الى رسوله ببيان ما قد عزم عليه اليهود من الغدر به ، بعد واحدة من الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها رسوله ، قبل البعثة وبعدها . وهي ماينبغيان يسترعي انتباهنا ليحملنا على مزيد من الايمان بالله وبنبوة رسوله ، وعلى مزيد من التأكد بأن الله قد عصمه من الناس ، فلا يمكن أن يصار اليه بأي سوء يستهدف حياته والقضاء عليه .

وقد عبر بعض الكاتبين عن هذا الخبر الالهي الذي كشف للنبي عما بيته اليهود ، بالالهام . فقال : الله صلى الله عليه وسلم ألهم ما بيته اليهود !..

وكلمة الالهام تدل على معنى مشترك للناس كلهم . فحاسة الالهام ، عن طريق الاشارات والقرائن ، حاسة طبيعية لا تختص بها فئة من الناس دون أخرى . وكلمة الخبر الالهي ، التي استعملها علماء السيرة رحمهم الله ، هي التي تنطبق على سمات النبوة وخصوصياتها . ونحن نعلم أن هذا الخبر الالهي هو دون غيره الذي جعل النبي يشعربالمكر والخطر . وهو مظهر من الوفاء الرباني بالوعد القاطع لرسوله : والله يعصمك من الناس .

٢ ـ حكم قطع اشجار العدو وتهديم بيوتهم :

قطع نخيل بني النضير أو احراقها ثبت بالاتفاق . والذي أمر رسول الله باتلافه انما هو بعضه ، ثم أمر بترك الباقي . وقد نزل القرآن تصويبا لما أقدم عليه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك قطعا وابقاء . وذلك في قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله .. » الحشر : ٥ .

وقد استدل العلماء بذلك على ان الحكم الشرعي في أشجار العدو واتلافها منوط بما يراه الامام أو القائد من مصلحة النكاية بالاعداء ، فالمسألة اذن داخلة في عموم ما يسمى بأحكام الامامة والسياسة الشرعية .

وهذا هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد واسحاق وجمهور الفقهاء[1] .

٣ ـ حكم توزيع الفيء والغنائم :

اتفق العلماء على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال « الفيء » يعود النظر في توزيعه الى ما يراه امام المسلمين من المصلحة . فلا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التي اخذت بواسطة القتال . ودليلهم على ذلك سياسة رسول الله في تقسيم فيء بني النضير . فقد خص به ـ كما قد رأيت ـ المهاجرين دون الانصار .

ولكنهم اختلفوا في الاراضي التي غنمها المسلمون بواسطة الحرب : فذهب مالك الى أن الارض لم تقسم مطلقا وانما يكون خراجها وقفا لمصالح المسلمين ، الا اذا رأى الامام أن المصلحة تقضي بقسمتها فان له ذلك . ويذهب الحنفية مذهبا قريبا من هذا .

أما الشافعي فذهب الى أن الارض المأخوذة عنوة يجب تقسيمها كما تجب قسمة غيرها من الغنائم . وهو الظاهر من مذهب الامام أحمد .

ودليل الشافعي أن تصرف رسول الله في فيء بني النضير على خلاف ما تقتضيه القسمة بين الغانمين في الحرب ، انما كان بسبب عدم وجود أي قتال . وقد نصت الآية على هذا السبب في معرض تعليل حكمه عليه الصلاة والسلام ، في أموال بني النضير وهوقوله تعالى « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » . واذا كان هذا هو مناط عدم وجوب التقسيم لاراضي الفيء فمن الواضح أنه اذا ارتفع مناط الحكم ارتفع الحكم الطارىء معه ، وعاد الحكم المنصوص عليه في حق الغنائم في سورة الانفال ، سواء في ذلك الاراضي وغيرها .

أما دليل ما ذهب اليه مالك وأبو حنيفة فأمور كثيرة ، من أهمها عمل عمر

---

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم : ٥٠/١٢ .

رضي الله عنه حينما امتنع عن تقسيم سواد العراق وجعلها وقفا يجري خراجها ريعا للمسلمين ، وليس المجال متسعا هنا لاكثر من هذا العرض المجمل للموضوع .

انما الهم الذي ينبغي لفت النظر اليه ، هو التعليل الذي ذكره الله تعالى في سياسة تقسيم فيء بني النضير عندما اختص به المهاجرين دون الانصار . فقد ذكر الله تعالى في تعليل ذلك قوله « لكي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » أي لكي لا يكون تداول المال محصورا بين طبقة الاغنياء منكم وحدها .

والتعليل بهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الاسلامية في شؤون المال ، قائمة في جملتها على تحقيق هذا المبـدأ ، وأن سائر الاحكام المتعلقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال ، انما يبتغي من ورائها اقامة مجتمـع عادل تتقارب فيه الطبقات ، ويقضى على ثغرات الظلم والاستغلال .

ولو طبقت أحكام الشريعة الاسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزكاة ، ومنع للربا ، وقضاء على مختلف مظاهر الاحتكار ، لعاش الناس كلهم في بحبوحة العيش ، قد يتفاوتون في الرزق . ولكنهم جميعا مكتفون، ليس فيهم كل على الآخر ، وان كانوا جميعا متضامنين متعاونين .

هذا وجدير بك ان تعود الى سورة الحشر بكاملها ، لتتأمل تعليق البيان الالهي العظيم على هذه الحادثة بمجموعها وسائر ملابساتها : اليهود ، والمنافقون ، وسياسة الرسول في المال والحرب ، وغير ذلك .. فهذه السورة من أهم مـا يمكنك من الوقوف على دروس هذه القصة وعظاتها .

غزوة ذات الرقـاع

كانت في السنة الرابعة للهجرة ، بعد مرور شهر ونصف تقريبا على اجلاء بني النضير ، وذلك على ما ذهب اليه اكثر علماء السيرة والمغازي . ورجح البخاري وبعض المحدثين أنها كانت بعد غزوة خيبر .

وسببها ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين ، ذلك الغدر الذي تجلى أسوأ مظاهره في مقتل اولئك الدعاة السبعين الـذين خرجوا لتبليغ

الدعوة الاسلامية والتعريف بالاسلام . فخرج رسول الله قاصدا قبائل محارب وبني ثعلبة . واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري رضي الله عنه . ولكن الله قذف في قلوب تلك القبائل الرعب فتفرقوا بعيدا عن المسلمين ، ولم يقع أي قتال .

غير أن قصة هذه الغزوة تنطوي ، مع ذلك ، على مشاهد ، تستأهل الوقوف عندها وأخذ الدرس منها . فلنجتزىء عن ذكر القصة كلها بذكر هذه المشاهد .

أولا ــ روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في غزوة ذات الرقاع صلاة الخوف ، وأن طائفة صفت معه ، وطائفة وجاه العدو . فصلى بالتي معه ركعة ، ثم ثبت قائما وأتموا لانفسهم ، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الاخرى فصلى بهم الركعة الثانية التي بقيت من صلاته . ثم ثبت جالسا وأتموا لانفسهم ، ثم سلم بهم[1] .

ثانيا ــ روى البخاري ايضا عن جابر رضي الله عنه أنه لما قفل رسول الله قفل معه ، فأدركتهم القائلة « وقت القيلولة » في واد كثير الشجر ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر . ونزل رسول الله تحت سمرة فعلق بها سيفه . قال جابر : فنمنا نومة ، فاذا رسول الله يدعونا فجئناه ، فاذا عنده اعرابي جالس . فقال رسول الله ان هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا . فقال لي : من يمنعك مني ؟ فقلت له : الله . فهاهو ذا جالس .. ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

ثالثا ــ روى ابن اسحاق وأحمد عن جابر رضي الله عنه . قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع . فأصيبت امرأة من المشركين ، فلما انصرف رسول الله قافلا وجاء زوجها وكان غائبا ، حلف أن لا ينتهي حتى يهريق دما في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . فخرج يتبع أثر النبي صلى الله عليه وسلم فنزل النبي منزلا فقال : من رجل يكلؤنا ليلتنا

(١) رواه البخاري في : ٥/٥٢ باب غزوة ذات الرقاع . ورواه مسلم في ٢/٢١٤ باب صلاة الخوف .

(٢) صحيح البخاري : ٥/٥٢ و٥٣ و٥٤ .

هذه ؟ قال فانتدب رجل من المهاجرين وآخر من الانصار[1] فقالا نحن يا رسول الله . قال : فكونا بفم الشعب . قال : وكـان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد نزلوا الى شعب من الوادي .

فلما خرج الرجلان الى فم الشعب ، قال الانصاري للمهاجري : أي الليل تحب أن أكفيكه ؟ أوله أم آخره ؟ قال بل اكفني أولـه . فاضطجع المهاجري فنام . وقام الانصاري يصلي . قال وأتى الرجل فلما رأى شخص الانصاري عرف أنه ربيئة القوم (الطليعة الذي يحرسهم) فرمى بسهم فوضعه فيـه . فنزعه الانصاري وثبت قائما يصلي . ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، فنزعـه وثبت قائما ، ثم عاد له الثالثة فنزعه ، ثم ركع وسجد ، وأهب صاحبه (أيقظه) قائلا : اجلس فلقد أثبت . قال فوثب ، فلما رأهما الرجل علم أن قد نذر به[2] فهرب . ولما رأى المهاجري ما بالانصاري من الدماء قال : سبحان الله ، أفلا أيقظتني أول ما رماك ؟ قال كنت في سورة أقرؤها فلم أحب ان أقطعها . فلما تابع علي الرمي ، ركعت فآذنتك . وايم الله ، لولا أن اضيع ثغرا أمرني رسول الله بحفظه ، لتلف نفسي قبل أن أقطعها أو أهذها[3] .

رابعا ــ روى البخاري ومسلم ، وابن سعـد في طبقاته ، وابن هشام في سيرته عن جابر بن عبد الله قال : خرجت مع رسول الله الى غزوة ذات الرقاع على جمل ضعيف لي . فلما ثقل عائدا جعلت الرفاق تمضي ، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله فقال : مالك يا جابر ؟ قلت يارسول الله أبطأ بي جملي هذا . قال : أنخه . فأنخته وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك ، ففعلت ، فأخذها فنخسه بها نخسات ثم قال : اركب ، فركبت ، فخـرج ــ والذي بعثـه بالحق ــ يواهق ناقـة رسول الله مواهقـة[4] .

---

(١) زاد ابن اسحاق : وهما عمار بن ياسر ، وعباد بن بشر .
(٢) أي اكتشف أمـره .
(٣) رواه احمد والطبري وابو داود كلهم عن ابن اسحاق .
(٤) يواهق : أي يسابق .

وتحدثت مع رسول الله فقال لي : أتبيعني جملك هذا يا جابر ؟ قلت يا رسول الله ، بل أهبه لك ، قال : لا ولكن بعنيه قلت : فسمنيه يا رسول الله . قال آخذه بدرهم . قلت لا اذن تغبنني يا رسول الله . قال فبدرهمين ، قلت لا ، فلم يزل يرفع لي في ثمنه حتى بلغ الاوقية . فقلت : أفقد رضيت يا رسول الله ؟ قال نعم : قلت فهولك . قال قد أخذته .. ثم قال يا جابر هل تزوجت بعد ؟ قلت نعم يا رسول الله . قال أثيبا أم بكرا ؟ قلت بل ثيبا . قال أفلا جارية تداعبها وتداعبك ؟ قلت يارسول الله ان أبي أصيب يوم أحد ، ترك له بنات سبعا ، فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن . قال أصبت ان شاء الله . أما أنا لو قد جئنا صرارا[1] أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك . وسمعت بنا فنفضت نمارقها . فقلت والله يارسول الله ما لنا من نمارق ! .. قال انها ستكون . فاذا أنت قدمت فاعمل عملا كيّسا .

قال جابر فلما جئنا صرارا ، أمر رسول الله بجزور فنحر ، وأقمنا عليها ذلك اليوم . فلما أمسى رسول الله دخل ودخلنا المدينة .

قال جابر فلما جئنا صرارا ، أمر رسول الله بجزور فنحر ، وأقمنا عليها ذلك باب رسول الله . ثم جلست في المسجد قريبا منه . فخرج رسول الله فرأى الجمل . فقال ما هذا ؟ قالوا يارسول الله هذا جمل جاء به جابر . قال فأين جابر ؟ فدعيت له . فقال : يا ابن أخي ، خذ برأس جملك فهو لك . ودعا بلالا فقال له : اذهب بجابر فأعطه أوقية . فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئا يسيرا فوا الله ما زال ينمو عندي ويرى مكانه من بيتنا[2] .

* * *

الدلائل والعبر :

اولا ـ تحقيق في تاريخ هذه الغزوة :

الجمهور على أن غزوة ذات الرقاع كانت قبل خيبر في السنة الرابعة للهجرة .

---

(١) مكان في ضاحية المدينة .

(٢) هذا السياق لابن اسحاق . وهي في البخاري ومسلم قريب من ذلك .

• غير أن الامام البخاري نص في صحيحه على أنها كانت بعد خيبر • أي في السنة السابعة للهجرة • وقد رجح الحافظ ابن حجر ما ذهب اليه البخاري مستدلا بأن صلاة الخوف كانت مشروعة في ذات الرقاع ، مع أنه لم يصلها في الخندق ، وقد فاتته فصلاها قضاء ، فلا بد أن ذات الرقاع كانت بعد غزوة الخندق • وقد استشكل الامر على ابن القيم ، فرجح ما ذهب اليه البخاري وابن حجر •

قلت : بل يتعين أن تكون غزوة ذات الرقاع هذه قبلها • اذ ثبت في الصحيح أن جابرا رضي الله عنه استأذن رسول الله الى بيته في غزوة الخندق وأخبر امرأته بما رأى عليه رسول الله من الجوع • وفيه قصة الطعام الذي دعا اليه رسول الله واصحابه ، وفيه أن رسول الله قال لزوجة جابر : كلي هذا واهدي فان الناس اصابتهم مجاعة • وثبت في الصحيحين أيضا أن رسول الله سأل جابرا في غزوة ذات الرقاع هل تزوجت بعد ؟ قال نعم يارسول الله ، الحديث • وقد مر ذكره مفصلا • فهذا يدل بوضوح على أن ذا تالرقاع كانت قبل الاحزاب فضلا عن خيبر •

أما ما استدل به الحافظ ابن حجر من أنه لم يصل صلاة الخوف في الاحزاب وصلاها قضاء ، فيجاب عنه بأنه ربما كان سبب تأخر رسول الله في الصلاة استمرار الرمي بين المشركين والمسلمين ، بحيث لم يدع الرمي مجالا للانصراف الى الصلاة • وربما كان العدو في جهة القبلة ، والتي صليت في ذات الرقاع انما كان العدو فيها في غير جهة القبلة • أو ربما لبيان مشروعية قضاء الفائتة كيفما كانت •

ثانيا ـ حكم صلاة الخوف والحكمة منها :

الطريقة التي صلى بها رسول الله جماعة مع أصحابه في هذه الغزوة هي الاساس الذي قامت عليه مشروعية صلاة الخوف • أي فهي الكيفية الاساسية الاولى لها •

ولصلاة الخوف كيفيتان احداهما خاصة بما اذا كان العدو في جهة القبلة •

والثانية خاصة بما اذا كان العدو في غير جهتها . والكيفية الثانية هي التي صلى بها رسول الله في غزوة ذات الرقاع . فقد حان وقت الصلاة وأشتات العدو من حولهم في أكثر من جهة واحدة ، ويخشى أنهم يراقبون المسلمين من بعيد ، حتى اذا رأوهم متشاغلين او مدبرين غدروا بهم وانحطوا فيهم بالسيوف . ولذلك صلاها بأصحابه ، بالكيفية التي ذكرناها .

والذي اقتضى هذه الكيفية من الصلاة مع امكان ادائهم الصلاة بجماعتين ، سببان اثنان :

الاول : قصد اجتماعهم كلهم على الاقتداء برسول الله . وتلك فضيلة لا يصار الى غيرها عند امكان تحققها .

الثاني : استحباب وحدة الجماعة قدر الامكان . فتجزئة القوم أنفسهم الى عدة جماعات تتوالى لاداء الفريضة ، مكروه بدون ضرورة .

ولم يلاحظ السادة الحنفية الا السبب الاول منهما . ولذلك ذهبوا الى أنه لا مسوغ لبقاء مشروعية صلاة الخوف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

ثالثا ـ موقف رسول الله من الذي اخترط سيفه وهو نائم ليقتله :

هذه القصة التي ذكرناها ثابتة صحيحة كما رأيت .. وهي تكشف عن الامور التالية :

الاول : مدى رعاية الله جل جلاله لنبيه عليه الصلاة والسلام . ثم هي تزيدك يقينا بالخوارق التي أخضعها الله له عليه الصلاة والسلام ، مما يزيدك يقينا وتبصرا بشخصيته النبوية . لقد كان من السهل الطبيعي على ذلك الاعرابي وقد أصلت السيف فوق رسول الله وهو أعزل غارق في النوم ، أن يهوي به عليه فيقتله . وانك لتلمس هذا الاعتداد بالنفس واليقين في نفس الاعرابي بأن محمدا قد اصبح في حكم المقتول بيده ، من قوله له : من يمنعك مني ؟ . فما الذي طرأ فيما بعد ؟ وما الذي عاقه عن أن يهوي بالسيف عليه فيقتله ؟ ان الذي طرأ شيء لم يكن في حسبان الاعرابي ، الا وهو العناية الربانية التي حالت دون التنفيذ . لقد كانت حماية رب العالمين لرسوله كافية لان تملأ قلب المشرك

بالرعب ، وأن تقذف في ساعده رجفة تفقده القوة على الاستمرار في قبض السيف .. وهذا ما وقع ، فقد غاضت القوة من يده وسقط من كفه السيف ، فجلس قادما متأدبا بين يدي رسول الله !..

الثاني : صفح رسول الله عنه ، على الرغم من كل ذلك . فلم يحدث نفسه بالانتقام منه ، ولم يشعرها بحقد أو ضغينة عليه . اذ لم يكن يضع نفسه في تلك الساعة موضع المنتصر لنفسه الثائر من أجلها .. وانما كان يضع نفسه في الموضع الاسمى الذي شاء له الله ان يضعها فيه ، ألا وهو موضع الانتصار لدين الله ، والدعوة اليه بالحكمة ومن أقصر الطرق . وهذا يقتضي أن يتجاهل حظ نفسه وأن يضحي بحقوقها في سبيل السعي الى مرضاة الله ، وادخال الهداية الى القلوب من أقصرطريق .. وذلك هو سر تأثير النبي صلى الله عليه وسلم على القلوب وتفتح الافئدة لنصائحه ومواعظه .

الثالث : ايقاظه لمن حوله كي يروا الرجل جالسا ويعلموا القصة ، تعليم لهم أن يقفوا مثل هذا الموقف عندما تتعارض مصلحة الدعوة الى الله مع مصلحة النفس وحظوظها ، وأن لا ينتقموا لانفسهم في مثل تلك الحال ، بل عليهم أن يجعلوا حظوظ النفس فداء لمقتضيات الدعوة الى دين الله .

رابعا ـ صورة من لطف المعاشرة والذوق الرفيع لدى رسول الله :

اذا تأملت في قصة رسول الله مع جابر بن عبد الله ، ظهر لك جانب هام من الذوق الرفيع والخلق الرقيق السامي اللذين كان رسول الله يتمتع بهما ، كما تتجلى الحكمة الرائعة في معالجة المشكلات .

فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم متأثرا بالمحنة التي طافت على بيت جابر بسبب استشهاد والده في غزوة أحد ، وبسبب الفقر ورقة الحال التي كانت تعاني منها الاسرة بكاملها .

وكأنما استشعر رسول الله في تأخر جابر عن القوم بسبب بعيره الضعيف الذي لا يملك غيره ، مظهرا لحالته العامة هذه ، وقد كان من عاداته صلى الله

عليه وسلم اذا سار مع صحبه في طريق أن يتفقد اصحابه ويطمئن عليهم بين الحين والآخر ، فلذلك تأخر عن أصحابه ، ولم يزل يتأخر حتى أدركه جابر ، وراح يواسيه بذلك الاسلوب الفكه الرقيق في طريق ليس معهما فيه ثالث .

عرض صلى الله عليه وسلم شراء بعيره منه ، وهو انما يريد أن يجعل من ذلك ذريعة لاكرامه ومساعدته على الوضع الذي هو فيه . ثم سأله عن الزوجة والبيت في أسلوب محبب رقيق ، يطمئن بذلك الزوج الجديد من خلال حواره معه بأنه مقبل على يسر في حياته وبأن الله سيوسع عليه .

صورة رائعة عن لطف معشره وأنس حديثه والفكاهة الحلوة في محاورته لاصحابه ، لم يكتب لنا أن نراها في مجالسه وأسفاره وحديثه مع أصحابه . ولكن ها نحن نستشفها من أخباره وسيرته العطرة ، فيهزنا الشوق الى رؤيته ومجالسه وأحاديثه . اللهم عوضنا عن ذلك بلقاء معه في جنان خلدك ، وهيئنا لذلك بتوفيق من لدنك للتمسك بسنته واقتفاء أثره في تحمل كل محنة وضيم في سبيل دينك واقامة شريعتك .

خامسا ـ حراسة الثغور لم تكن منفكة عن عبادة الله :

لا بد من وقفة متأملة طويلة أمام خبر ذينك الصحابين وهما يقومان على الثغر الذي أمرهما رسول الله بحراسته ، لنعلم طبيعة الجهاد الاسلامي وكيف كان يمارسه أصحاب رسول الله .

لم يكن الجهاد عملا حركيا يقوم على أساس المقاومة المادية المجردة ، ولم يتصور واحد من اولئك المسلمين هذه الصورة الشوهاء له ولا في لحظة واحدة .

انما الجهاد ـ كما علمه رسول الله أصحابه وكما أمر به الله عز وجل ـ عبادة كبرى يتعلق فيها كيان المسلم كله بخالقه جل جلاله خاشعا متبتلا مستغيثا . وما ساعة يكون فيها المؤمن اقرب الى ربه جل جلاله من تلك الساعة التي يستدبر فيها الدنيا ويستقبل بوجهه شطر الموت .

لذا ، كان من الطبيعي جدا ، بالنسبة لذلك الانصاري « عباد بن بشر »

أن يشغل شطر حراسته من الليل بركعات خاشعة يقف فيها بين يدي الله عز وجل ، وقد انصرفت مشاعره كلها الى مناجاته بآيات من كتابه الكريم .

وكا من الطبيعي جدا أن لا يبالي بالسهم الذي اسرع فانحط في جسمه ، ولا بالسهم الثاني الذي تبعه ، وكان طبيعيا أن يستمر في صلاته ومناجاته ، لولا مسؤولية كبرى أنيطت بـه ، أن يحرس ثغـرا من ثغور المسلمين . فكان ذلك وحده هو الذي اضطره الى ان يلتفت فيقطع صلاته ويوقظ صاحبه .

فقارن ، ليتقطع منك الكبد حسرة وأسى ، بين ذلك الجهاد ، و « الجهاد » الآخر الذي تفخر باسمه وشعاره اليوم . قـارن ، لتعلم مدى عدالة الله في الارض ، ولتعلم أن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون .

غزوة بني المصطلق
وتسمى بغزوة المريسيع

ذكر ابن اسحاق وبعض علماء السيرة أنها كانت في العـام السادس من الهجرة . والصحيح الذي ذهب اليه عامة المحققين أنها كانت في شعبان من العام الخامس للهجرة ، ومن أبرز ادلة ذلك أن سعد بن معاذ كان حيا في هذه الغزوة ، وقد توفي سعد بن معاذ في غزوة بني قريظة متأثرا بجراحه الذي أصيب به في الخندق ، وقد كانت غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك . فكيف يكون سعد حيا بعد عام من وفاته؟![1] .

وسببها ما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم من أن بني المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث بن ضرار ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خرج اليهم حتى لقيهـم على مـاء يقال له « المريسيع » . فتزاحـم الناس واقتتلـوا

(١) راجع للوقوف على تفصيل الدليل في هذا فتح الباري : ٧ـ٣٠٤ وزاد المعاد لابن القيم : ٢ـ١١٢ وعيون الاثر لابن سيد الناس : ٢ ـ ٩٣ .

فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم . وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلين للراجل سهم وللفارس سهمان[1] .

وخرج مع المسلمين في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين ، كان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة ، وذلك لما رأوا من اطراد النصر للمسلمين وطمعا في الغنيمة .

وقد روى البخاري ومسلم من طريقين مختلفين أن بعض الصحابة استفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن العزل في هـذه الغزوة ـ وذلك عندما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم السبي ـ فقال لهم : ما عليكم أن لا تفعلوا ، ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة ، الا وهي كائنة .

وروى ابن سعد في طبقاته وابن هشام في سيرته ، أن غلاما لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اسمه جهجاه بن سعيد الغفاري تنازعا مع سنان بن وبر الجهني ، وهما مع جمع عند مـاء المريسيع أثناء مقـام النبي صلى الله عليه وسلم هناك ، وكادا أن يقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الانصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ، فسمع بالامر عبد الله بن أبي ابن سلول ، فغضب وقال للرهط ممن معه : أو فعلوها ؟ ! .. قد نافرونا وكاثرونا في دارنا والله ما أعدنـا وجلابيب قريش (يقصد المسلمين من قريش) الا كما قالوا : سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعـز منها الاذل .

وكان ممن سمع كلامه زيد بن أرقم ، فمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بالامـر ، كان عنده عمر رضي الله عنه ، فقال يا رسول الله مـر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال له عليه الصلاة والسلام : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا . ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

ومشى رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ،

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣ـ١٠٦ وسيرة ابن هشام : ٢ـ٢٩٠ .

وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الارض فوقعوا نياما . وانما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالامس من حديث عبد الله بن أبي .

ونزلت سورة المنافقين تصديقا لقول زيد بن أرقم عن عبد الله بن أبيّ بن سلول،وفيها يقول الله تعالى : « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون »[1] .

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بعد أن رجعواالى المدينة ــ فقال : انه بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه . فان كنت لا بد فاعلا ، فمرني فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني واني أخشى أن تأمر غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك اذا حدث عبد الله بن أبي بالحديث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لارعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته فقال عمر : قد والله علمت لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري .

---

(١) رواه بهذا الشكل ابن اسحاق مرسلا ، ورواه عن هذا ابن سعد ، والبيهقي عن جابر ، واحمد وابن جرير عن زيد بن أرقم ، وابن ابي حاتم عن عمرو بن ثابت الانصاري وجميع الروايات متقاربة في التفصيل ، متفقة في الخلاصة وكلها ما عدا مرسل ابن اسحاق موصولة السند وراجع تفسير ابن كثير : ٤/٣٧٠ وتاريخ ابن جرير : ٢ـ٦٠٦ والفتح الرباني : ٢١ ــ ٧٠و١٨ـ٣٠٦ وسيرة ابن هشام : ٢ـ٢٩١ .

الدلائل والعبر :

نأخذ من هذه الغزوة ما يلي :

اولا ـ مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين ، بعد استثناء السلب والخمس :

فأما السلب (وهو ما يكون مع المقتول من سلاح ونحوه) فيجوز أن يأخذه القاتل لقوله صلى الله عليه وسلم : من قتل قتيلا فله سلبه . وأما الخمس فهو لمن ذكرهم الله تعالى في كتابه : « واعلموا أنما غنتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وأما الاخماس الاربعة فتوزع على المقاتلين كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا متفق عليه بين الائمة في الاموال المنقولة ، أما الارض فقد وقع في أمر تقسيمها خلاف عرضنا له عند الحديث عن أمر بني النضير .

ثانيا ـ حكم العزل عند الجماع او (تحديد النسل) :

ويتبع ذلك إسقاط النطفة أو العلقة قبل نفخ الروح فيها ، كما يتبع ذلك عموم ما يسمى اليوم بتحديد النسل .

والحديث الذي ذكرناه في هذا صريح بجواز العزل . فقد قال لهم رسول الله حينما استفتوه في ذلك : ما عليكم أن لا تفعلوا ، (وفي رواية مسلم : لا عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة الى يوم القيمة إلا وهي كائنة) . أي ليس عليكم أن تتركوا العزل ، لأن ما قد قدر الله واقع لا ريب فيه ، فلا يمكن أن يمتنع المقدّر بعملكم . وأصرح من هذا الحديث ما رواه الشيخان عن جابر رضي الله عنه أنه قال : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل .

وقد ذهب جمهور الائمة بناء على هذا الى جواز ممارسة العزل . ولكنهم اشترطوا لذلك موافقة الزوجة ، لما قد يكون من الضرر بها ، غير أنه يكره ذلك إذا كان سببه خشية النفقة وقلة ذات اليد .

وخالف ابن حزم الجمهور ، فذهب الى حرمة العزل مطلقا ، مستدلا بما رواه مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن العزل ، فقال : ذلك الوأد الخفي ، واستدل بأحاديث أخرى كلها موقوفة على الصحابة . فمن ذلك ما رواه بسنده عن نافع أن ابن عمر كان لا يعزل ، وقال : لو علمت أحدا من ولدي يعزل لنكلته . ومنه ما رواه من طريق الحجاج بن المنهال أن علي بن أبي طالب كان يكره العزل .

وادعى ابن حزم ان حديث جابر الذي يدل على اباحة العزل منسوخ[1] .

أقول : وواضح أن قول النبي صلى الله عليه وسلم عن العزل : الوأد الخفي ، لا يعني التحريم ، بل الاظهر أن يحمل كلامه هذا ـ على ضوء الاحاديث الثابتة الاخرى ـ على النهي التنزيهي كما ذهب الى ذلك الجمهور .

ودعوى ابن حزم أن الاحاديث المبيحة للعزل منسوخة ، يردّها ما رواه الستة خلا أبا داود من حديث جابر : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل . زاد مسلم : فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . فلولا أن حكم إباحة العزل ظل مستمرا الى وفاته صلى الله عليه وسلم، لما قال جابر رضي الله عنه ذلك ، ولأوضح آخر ما استقر عليه الحكم الشرعي .

وحكم إسقاط النطفة قبل نفخ الروح فيها يتبع ما ذكرناه من حكم العزل . الا أن بعضا من الجماهير الذين أفتوا بالعزل حرموا الاسقاط ، ولعلهم تحرجوا عن القياس في ذلك ، وعدوا المضغة أقرب الى التخلق والذات الانسانية من النطفة قبل العلوق . وهو تحرج لا يتضح سببه ، اللهم إلا أن يكون ضررا صحيا للحامل .

إذا علمت هذا ، علمت الحكم الشرعي الذي يتعلق بتحديد النسل وهو اتباع وسيلة علاجية لمنع الحمل بدلا من العزل . فهو جائز إذا اتبعت له الوسائل التي أجازها جمهور الائمة ، بشرط أن لا يظن فيه أي ضرر للزوجة وبشرط أن يكون ذلك برغبة متفقة من الزوجين ، ولست أعلم ما يخالف هذا

---

(١) المحلى لابن حزم : ٨٧/١٠ .

الحكم عند أحد من أئمتنا الفقهاء رحمهم الله ، إلا ما روى من ذلك الحافظ ولي الدين العراقي ، عن الشيخ عماد الدين بن يوسف والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقد روى عنهما القول بحرمة استعمال المرأة دواء ما ، من شأنه أن يمنع الحمل قال ابن يونس : ولو رضي به الزوج[1] .

أقول وهذا الرأي محجوج بمقتضى دلالة السنة ، وبما ذهب اليه بناء على ذلك الجمهور .

غير أن من أهم ما ينبغي أن تعلمه في هذا الصدد ، أن الحكم باباحة العزل أو عموم ما يسمى اليوم : تحديد النسل ، منوط برضى كل من الزوجين أنفسهما دون أن يكون عليهما سلطان أو أي توجيه من الخارج . إذ إن ما يجوز ممارسته للفرد صاحب العلاقة ، قد لا يجوز تشريعه بشكل الزامي للجماعة: وهذه قاعدة من القواعد الفقهية المتفق عليها .

فالطلاق مما يجوز للفرد المتزوج ممارسته عند الحاجة أو المصلحة التي يراها . ولكن ليس للحاكم أن يأمر الناس ، أمرا الزاميا أدبيا أو توجيهيا ، بأن يمارسوا هذا الحق ، فيطلقوا زوجاتهم . وتحديد النسل ، شأنه في ذلك شأن الطلاق تماما . وهذه القاعدة الهامة لا بد من أن تعيها وتفهمها جيدا ، كي لا يلبّس عليك أحد ممن يحترفون اليوم صناعة الفتوى قائلين : لقد أباحت السنة تحديد النسل ، وهذا دليل على أن للدولة أن تحمل الناس ــ بما تراه من السبل ــ على ذلك .

والحقيقة أنه لا علاقة إطلاقا بين ذلك الدليل وهذا المدلول إلا علاقة التلبيس والتمويه .

فالخلاصة ، أن أمر العزل أو تحديد النسل ، إذا نظر إليه من حيث علاقة الزوجين ببعضهما وما تشيع بينهما من حقوق ويجمعهما من مصالح ، أمر سهل لا مشكلة فيه كما قد رأيت .

---

(١) انظر طرح التثريب وشرحه للحافظ العراقي : ٨ـ٦٢ .

ولكنه إذا نظر اليه ، على أساس أن يكون مبدأ يتدعى إليه دعوة عامة ويثغرى الناس بـه بناء على فلسفة توجيهية تنشط وسائل الاعلام والتوجيه في بثهـا ، فانه يغدو حينئذ أمرا على جانب كبير من الاهمية والخطورة وهـو يستدعي حينئذ من المسلمين أن ينشطوا في محاربته محاربة واعيـة فعالة ، تقوم على أساس فهم الخطط الماكرة المختلفة التي يبيتها أعـداء المسلمين للاجهـاز عليهم • وعليهم أن لا ينخدعوا بما يشاع من مشاكل الانتاج والاقتصاد فذلك جزء من التخطيط نفسه •

ثالثا ـ سماحة رسول الله وصفحه :

تدلنا معالجة النبي صلى الله عليه وسلم للمشكلة التي استغلها عبد الله بـن أبيّ بن سلول ، بالشكل الذي رأيناه ، على مدى ما قد آتاه الله من براعـة فائقة في سياسة الامور وتربية الناس والتغلب على مشاكلهم • لقد كان ما سمعه صلى الله عليه وسلم من كلام ابن سلول مسوغا كافيا لأن يأمر بقتلـه بحسب الظاهر ، ولكنه صلى الله عليه وسلم استقبل الامر بصدر أرحب من ذلـك ، وسمع عن اللغط الذي جرى ، والتناوش الذي وقع ، والجيش فيه عدد كبير من المنافقين الذين يبحثون عن شيء مثل هـذا ليقوموا ويقعدوا بـه ، فلم يعالـج الامر بحقد ولا ضغينة ، وإنما ترك للحكمة وحدها سبيل حل المشكلة • فكان أن أمر القوم بالمسير في وقت لم يكونوا يعتادونـه ، حتى يشغلهم السير عـن الاجتماع على المحادثة والكلام • وظل يسير بهم بقية اليوم والليل كله وصدرا من اليوم الثاني ، لا يدع لهم مجالا يفرغ فيه المنافقون للخوض فيما يريدون من باطل ، فلما انحطوا بعد ذلك على الارض لم يدع لهم التعب فرصة الحديث عن شيء ، وذهب الجميع في سبات عميق •

وتصور الناس أن رسول الله اذا وصـل المدينة أمر بقتل ابن أبي سلول ، وشد من قبضته على المنافقين ، ولذلك جاء اليه ابنه عبد الله رضي الله عنه يعرض على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتولى هو قتل أبيه إذا كان يريد أن يحكم بذلك ، ولكنه فوجيء من رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يكن متوقعـا

حينما قال : بل ترفق بـه ، ونحسن صحبته ما بقي معنا . وانظر إلى تعليـل ذلك فيما قاله لعمر رضي الله عنه : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابـه ؟

ولقد كان من نتيجة هذه الحكمة أن انحسر عن عبد الله بن أبيّ قومـه فكانوا هم الذين يعنّفونه ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يحدث شيئا ، وأنت خبير أن المنافق يعتبر في الاحكام القضائية الدنيوية مسلما مع وجوب الحيطـة والحذر منه كما سبق بيانه .

ومن هنا يتضح انـه لا يجوز الاستعجال بالحكم على الناس بالكفر ، ونشر الفتاوى سخية بجواز قتلهم واهدار دمائهم فان أولى الناس بذلك ، لو صحت الفتوى ، عبد الله بن أبي بن سلول . ومع ذلك فان رسول الله لم يسقط منزلته في التعامل القضائي عن مستوى المسلمين . لم يهدر له دما ولم يسمح بيد يد من الاذى اليـه .

وما اكثر ما يلتبس على الناس في هذه الحالات الانتصار لله مع الانتصار للنفس . فيقع الخلط والتخبط ، ويستغل الكثيرون اسم الدعوة والجهاد لاشفاء الغليل والانتصار للنفس .

غزوة الخنـدق

وتسمّى بغزوة الاحزاب ، وقد كانت في شوال سنة خمس على ما جـزم بـه ابن إسحاق وعروة بن الزبير وقتادة والبيهقي وجمهور علماء السيرة . وقيل في سنة أربع من الهجرة . وقد تفرد بـه موسى بن عقبة ورواه عنه البخاري وتابعـه في ذلك مالك[1] .

★ سببها : أن نفرا من زعماء اليهود من بني النضير خرجوا حتى قـدموا مكة ، فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : سنكون

---

(١) انظر ذلك في فتح الباري : ٧ـ٢٧٥ والفتح الرباني بترتيب الامام احمد : ٢١ـ٧٦ .

معكم حتى نستأصله ، وقالوا لهم إن ما أنتم عليه خير من دين محمد صلى الله عليه وسلم ففيهم نزل قول الله تعالى : « ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . فاتفقوا مع قريش على حرب المسلمين وتواعدوا لذلك .

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم الى مثل ما دعوا قريشا إليه ، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم على ذلك ثم التقوا ببني فزارة وبني مرة . وتم لهم مع هؤلاء جميعا تواعد في الزمان والمكان لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

★ تهيؤ المسلمين للحرب : فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وسمع بخروجهم من مكة ، ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الامر ، فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق ، فأعجب ذلك المسلمين (والخندق مما لم يعلمه العرب من وسائل الحرب) فخرجوا من المدينة وعسكر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفح جبل سلع فجعلوه خلفهم ، ثم هبوا جميعا يحفرون الخندق بينهم وبين العدو . وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، وعدد ما اجتمع من قريش والاحزاب والقبائل الاخرى عشرة آلاف[2] .

★ مشاهد من عمل المسلمين في حفر الخندق : روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : لما كان يوم الاحزاب ، وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه وكان كثير الشَعَر ، وروي عن أنس رضي الله عنه أن الانصار والمهاجرين كانوا يرتجزون وهم يحفرون الخندق وينقلون التراب على متونهم :

نحن الذين بايعوا محمداً على الاسلام ما بقينا أبداً

---

(١) سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد باختصار .
(٢) طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام .

فيجيبهم النبي صلى الله عليه وسلم :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الانصار والمهاجرة[1]

وروى البخاري أيضا في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْية شديدة . فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب ، فعاد كثيبا أهيل (أو أهيم) فقلت يا رسول الله ائذن لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان لي في ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ قالت عندي شعير وعَنَاق[2] . فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة[3] ، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الاثافي[4] قد كادت أن تنضج ، فقلت طعيّم لي ، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان . قال : كم هو ؟ فذكرت له ، قال : كثير طيب ، فقل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي . ثم نادى المهاجرين والانصار فقال لهم قوموا .. وفي طريق أخرى : فصاح النبي صلى الله عليه وسلم : يا أهل الخندق ، إن جابرا قد صنع سورا[5] فحيّ هلا بكم . فلما دخل جابر على امرأته قال : ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والانصار ومن معهم !. قالت : هل سألك كم طعامك ؟ قال : نعم ، قالت : الله ورسوله أعلم .

ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال :ادخلوا ولا تضاغطوا . فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب الى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية ! قال كلي هذا واهدي ، فان الناس أصابتهم مجاعة (وفي رواية أخرى) فأقسم بالله

---

(١) البخاري : ص٤٦ وروى مسلم عن البراء نحوه بالفاظ قريبة : ٦-١٨٧ .
(٢) هي الانثى من المعز .
(٣) البرمة : القدر .
(٤) الاثافي : الحجارة التي توضع عليها القدر .
(٥) السور : بضم السين همزة يطلق على الصنيع العام من الطعام .

لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغطّ كما هي ، وإن عجيننا ليخبز كما هو [1] .

★ موقف المنافقين من العمل في الخندق : روى ابن هشام أنه أبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم في الخندق رجال من المنافقين ، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها يستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له : فاذا قضى حاجته رجع الى ما كان فيه من عمله . وفي ذلك نزل قوله تعالى :« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » [2] .

★ نقض بني قريظة للعهد :وخرج حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي فأغراه بنقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى إنزلتهم بمجتمع الاسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي الى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه . فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر .. ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه ، فاني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء . ولم يزل حيي بكعب حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد . وانتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل سعد بن معاذ ليتحقق من الخبر وأوصاه أن يلحن له باشارة يفهمها إذا كان الخبر حقا ، وأن لا يفت في أعضاد الناس وإن كان كذبا فليجهر به في الناس . فلما استطلع سعد الخبر ورآه حقا عاد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : عَضَل

---

(١) صحيح البخاري : ٦ ـ ٤٦ وانظر فتح الباري : ٧ـ٢٧٩ و ٢٨٠ .

(٢) النور : ٦٢ .

والقاره ، أي كغدر عضل والقارة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معاشر المسلمين[1] .

★ ما آل اليه حال المسلمين إذ ذاك : بلغ المسلمين خبر نقض بني قريظة للعهد ، وذر قرن المنافقين بينهم يفتئون في عضد المسلمين ، وجاءهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، وراح المنافقون يرجفون في المدينة حتى إن أحدهم ليقول « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط » . ولما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الامر كذلك وأن البلاء قد اشتد بالمسلمين بعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما في أن يصالح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة كي ينصرفوا عن قتال المسلمين . فقالا له : يا رسول الله ، أهو أمر تحبه فنصنعه ، أم شيء أمرك به الله ، أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم كي أكسر عنكم من شوكتهم . وحينئذ قال له سعد بن معاذ : والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم بيننا وبينهم . فتهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : فأنت وذاك .

قال ابن إسحاق يروي عن عاصم بن عمرو بن قتادة وعن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري : ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح (أي بين المسلمين وغطفان) إلا المراوضة في ذلك[2] .

أما المشركون فقد فوجئوا بالخندق حينما وصلوا اليه ؛ وقالوا إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها . فعسكروا حول الخندق يحاصرون المسلمين : ولم يحدث قتال غير أن بعض المشركين أخذوا يتيممون مكانا ضيقا من الخندق فاقتحموا منه ، فأخذ عليهم المسلمون الثغرة التي اقتحموا منها ، فارتد بعضهم وقتل البعض . وكان ممن قتل إذ ذاك عمرو بن ودّ ، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

---

(١) طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢ ــ ٢٢٣ وتاريخ الطبري : ٢ ــ ٥٧٣ .

★ هزيمة المشركين بدون قتال : وكفى الله المؤمنين القتال فهزم جميع المشركين بوسيلتين لا دخل للمسلمين فيهما . أما أولاهما فرجل من المشركين اسمه نُعَيم بن مسعود أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما وعرض عليه تنفيذ أي أمر يريده النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إنما أنت رجل واحد فينا ، ولكن خذّل عنا إن استطعت ، فان الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود ، فأتى بني قريظة فأقنعهم ـ وهم يحسبونه لا يزال مشركا ـ أن لا يتورطوا مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن ، كي لا يولوا الادبار ، فيبقون وحدهم في المدينة دون أي نصير لهم على محمد وأصحابه ، فقالوا له : إنه للرأي !.. ثم خرج حتى أتى قريشا فأنبأهم أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا وأنهم قد اتفقوا خفية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يختطفوا عددا من أشراف قريش وغطفان فيسلموهم له لقتلهم ، فان أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فاياكم أن أن تسلموهم رجلا منكم . ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل الذي قاله لقريش . وهكذا تألب بعضهم على بعض ، واختفت الثقة مما بينهم ، وأصبح كل فريق منهم يتهم الفريق الآخر بالغدر والخيانة .

أما الوسيلة الثانية ، فهي ريح هوجاء مخيفة في ليلة مظلمة باردة ، جاءت فقلبت قدورهم واقتلعت خيامهم ، وقطعت أوتادهم ، وذلك بعد بضعة عشر يوما من المحاصرة التي ضربها المشركون على المسلمين .

روى مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الاحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقرّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ، فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، (ردد ذلك رسول الله ثلاثا) ثم قال : قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم . فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم . قال اذهب فأتني بخبرالقوم ولا تذعرهم علي . فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام ، حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت

سهما في كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا تذعرهم علي . ولو رميته لاصبته ، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام . فلما أتيته أخبرته بخبر القوم وفرغت ، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها . فلم أزل نائما حتى أصبحت ، قال : قم يا نومان[1] .

ورواه ابن اسحاق بزيادة : فدخلت في القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقرّ لهم قدرا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه ؟ قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان الى جانبي فقلت له من أنت ؟ فلان بن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، انكم والله ما أصبحتم بدرا مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، واخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون .. فارتحلوا فاني مرتحل [2] .

وفي صباح اليوم الثاني ، كان المشركون كلهم قد ولوا الادبار ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الى المدينة .

وكان لا يفتر عليه الصلاة والسلام طوال هذه الايام والليالي عن الاستغاثة والتضرع والدعاء لله تعالى أن يؤتي المسلمين النصر . وكان من جملة دعائه عليه الصلاة والسلام في ذلك : « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب إهزم الاحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزهم »[3] .

★ وفي هذه الغزوة فاتت النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة في وقتها فقضاها بعد خروج الوقت ، فقد ورد في الصحيحين أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق

---

(١) رواه مسلم : ٥ ـ ١٧٧ ، ورواية البخاري توهم أن الذي انما هو الزبير ، غير ان ذلك يتعلق بحادثة اخرى ، فقد ارسله النبي ص [illegible] به .. لم ليعلم له علما عن بني قريظة . اما الذي خرج الى الاحزاب [illegible] نص على ذلك عامة علماء السيرة وانظر عيون الاثر لابن سيد الناس وفتح الباري لابن حجر .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢ ـ ٢٣١ .

(٣) رواه البخاري .

بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ، فقال يا رسول الله : ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ! . قال النبي صلى الله عليه وسلم والله ما صليتها فقمنا الى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب »[1] وزاد مسلم على هذا حديثا آخر أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم الاحزاب : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر . ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا .ثم صلاها بين العشاءين : بين المغرب والعشاء .

* * *

الدلائل والعبر :

وهذه الغزوة أيضا ـ كما ترى ـ قامت على أساس من غدر اليهود وكيدهم ، فهم الذين أثاروا ، وألبوا ، وجمعوا الجموع والاحزاب ، ولم يتوقف ذلك على بني النضير الذين كانوا قد أخرجوا من المدينة ، بل اشترك معهم بنو قريظة الذين كانوا لا يزالون مرتبطين بعهود ومواثيق مع المسلمين ، دون أن يجدوا منهم أي مكروه من شأنه أن يدعوهم الى نقض تلك العهود والمواثيق !..

ولم نعد بحاجة الى أن نعلق على هذا ونحوه ، ونستنبط منه العظات أو الدروس ، فهو من جليات الامور التي أصبحت من المقولات التاريخية المعروفة في كل زمان ومكان .

ولنعد الآن الى هذا الذي استعرضناه من وقائع هذه الغزوة ومشاهدها لنقف على ما تنطوي عليه من دروس وعظات وأحكام ، وسنلخصها في الامور التالية :

اولا ـ لا حرج في ان يستفيد المسلمون من اي عرف صالح وحكمة نافعة :

لقد كان من جملة الوسائل الحربية التي استعملها المسلمون في هذه الغزوة حفر الخندق ، ولقد كانت غزوة الاحزاب أول غزوة في التاريخ العربي والاسلامي يحفر فيها الخنادق ، إذ هو مما كان متعارفا بين الاعاجم فقط ، وقد رأيت أن الذي اقترح ذلك في غزوة الاحزاب انما هو سلمان الفارسي ، وقد رأيت أن النبي

---

(1) متفق عليه واللفظ للبخاري .

صلى الله عليه وسلم أعجب بهـذه الوسيلة الحربية وسرعان ما دعا أصحابه الى القيام بتحقيقها .

وهذا من جملة الادلة الكثيرة التي تدل على الحكمة هي ضالة المؤمن . فحيثما وجدها التقطها بل هو أولى بها من غير . وأن الشريعة الاسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين اتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة ، تحب لهم أن يجمعوا لانفسهم أطراف الخير كله والمبادىء المفيدة جميعا ؛ أينما لاح لهم ذلك . وحيثما وجـد . فالقاعدة الاسلامية العامة في هذا الصدد : هي أن لا يعطل المسلم عقله الحر وتفكيره الدقيق في سلوكه وعامة شؤونه وأحواله . واذا كان المسلم كذلك ، فهو ولا ريب ، لا يمكن أن يربط في عنقه زماما يسلم طرفه للآخرين فيقودوه حيثما أرادوا بدون وعي وبصيرة ، وهو أيضا لا يمكن ان يتجاهل أي مبـدأ أو عمل أو نظام يسلم به العقل النير والفكر الحر وينسجم مع مبادىء الشريعة الاسلامية ، بل لا مناص له من الاخذ به والدعوة اليه .

ثانيا ـ المساواة الحقيقية في مسلك رسول الله وتعليمه :

وفيما استعرضناه من مشهد عمل الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق ، عبرة بالغة تبرى ، توضح لك حقيقة المساواة التي يرسيها المجتمع الاسلامي بين جميع أفراده المسلمين ، وتكشف لك عن أن العدالة والمساواة ؛ ليستا في الاعتبار الاسلامي مجرد شـعارات يزين بها ظاهرة المجتمع أو يوضع منه في اطار لامع براق ، وانما العدالة والمساواة هما الاساس الواقعي الذي تنبثق منه عامة القيم والمبادىء الاسلامية ظاهرا وباطنا .

فأنت تجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يندب المسلمين الى حفر الخندق ، ثم ذهب يراقبهم في قصر منيف له مستريحا هادئا ، ولا أقبل اليهم في احتفال صاخب رنان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه ، فيضرب به ضربة واحدة في الارض ايذانا ببدء العمل وتخييلا لهم أنه قد شاركهم في ذلك ، ثم يلقي المعول ويدير اليهم ظهره ، ينفض عن حلته ما قد علق بها من ذرات غبار ..

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم انخرط في العمل كأي واحـد من

أصحابه ، حتى لبس ثوبا من الاتربة والغبارعلى جسمه فما تفرقه عن أي عامل آخر من صحبه واخوانه ، يرتجزون لينشط بعضهم بعضا ، فيرتجز معهم ويتعبون ويجوعـون فيكون أولهم تعبا وجوعا • وتلك هـي حقيقة ما أقامته الشريعة الاسلامية من مساواة بين الحاكم والمحكوم والغني والفقير والصعلوك والامير ، وأنت لا تجد فرعا من فروع الشريعة وأحكامها الا قائما على هذا الاساس ضامنا لهذا الحق •

من أجل هذا ، لا تعوج الشريعة الاسلامية على شيء مما يسمى بالامتيازات لاي طبقة أو فئة من الناس ، ولا تخص أي جماعة منهم بحصانة ما مهما كانت الدوافع والاسباب ، لان صفة العبودية من شأنها أن تذيب كل ذلك وتلغيه من الاعتبارات •

ثالثا ـ اعجوبـة الرحمة في فؤاد رسول الله :

وفي هذا المشهد نفسه ايضا عظة وعبرة أخرى تكشف لك عن مظهر النبوة في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ، وتضعك أمام مـدى ما كانت تمتلىء به نفسه من محبة أصحابه والشفقة عليهم وتعطيك مثالا آخر للخوارق والمعجزات التي أكرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم •

فأما ما يتجلى من شخصيته النبوية في هذا المشهد ، فذلك يبدو في مكابدته صلى الله عليه وسلم للجوع الشديد أثناء عمله مع أصحابه ، حتى إنه ليشد الحجر على بطنه ، يتقي بذلك ما يجده الجائع من ألم الفراغ في معدته ، ترى ما الذي يمكن أن يحمله على معاناة مثل هذه المشقة والجهد ؟ أهو التطلع الى الزعامة !•• ام هي الرغبة في المال والملك !•• أم هو الطموح الى أن يجـد من حوله شيعة وأتباعا !• كل هذه المطامع ، تناقض مناقضة صارخة هذا الذي يكابده ويعانيه ، وما أبعد الرجل الذي يطمع في جاه أو ملك أو سلطان عن الصبر على تحمل مثل هذه الآلام •

ان الذي يحمله على تحمل كل ذلك انما هو مسؤولية الرسالة والامانة التي كلف بتبليغها والسير بها الى الناس في طريق هذه طبيعتها • فهذه الشخصية النبوية

التي تتجلى في عمله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في حفر الخندق .

وأما مـا يبدو خلال ذلك من محبته الشديدة لاصحابه والشفقة عليهم ، فانك لتجده واضحا في موقفه صلى الله عليه وسلم من دعوة جابر له الى طعامه القليل ، ذاك الذي صنعه له .

لقد كان الذي دفع جابرا الى دعوته صلى الله عليه وسلم ، ما اكتشفه مـن شدة جوعه عليه الصلاة والسلام حينما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف ، ولم يكن في بيته من الطعام الا ما يكفي لبضعة أشخاص ، فاضطر الى ان يجعل الدعوة على قدر ماعنده من الطعام .

ولكن كيف يتصور أن يترك النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في غمرة العمل وهم يتضورون مثله جوعا ، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعـة من أصحابه يستريحون ويأكلون ، وانه لاشفق على أصحابه من شفقة الام على أولادها ؟! .

أما جابر فقد كان مضطرا الى ما فعل ، وكان ذلك منه طبيعيا ، اذ انه ـ كأي مفكر عاديمن الناس ـ لم يكن يملك الا أن يتصرف حسب ما لديه من الاسباب المادية ، والطعام الذي لديه ، لا يكفي فيما يجمع عليه عرف البشر الا لهذا العدد اليسير ، فليختص به اذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يشـاء من بعض أصحابه في حدود ضيقة .

ولكنه عليه الصلاة والسلام ، لم يكن من شأنه أن يتأثر بنظرة جابر هذه . فهو أولا لا يمكن أن يتميز عن أصحابه بشيء من النعمة أو الراحة . وهو ثانيا لا يمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الاسباب المادية وحدودها التي ألفها البشر ، فالله وحده مسبب الاسباب وخالقها ، ومن اليسير عليه سبحانه أن يجعل من الطعام اليسير كثيرا ، وأن يبارك في القليل منه حتى يكفي القوم كلهم .

ومهما يكن ، فقد رأي النبي صلى الله عليه وسلم أنه وأصحابه متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلت كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت !.. فمـن أجل ذلك أرسل جابرا الى داره ليهيء لهم الطعام ، وانفتل هو الى عامة القوم يناديهم أن يقبلوا جميعا الى صنيعة كبرى لهم في دار جابر .

رابعا ـ واعجوبة الخارقة الكبرى في هذه القصة :

وأما المعجزة الخارقة في هذه القصة ، فهي ما رأيت من انقلاب شاة جـابر الصغيرة الى طعام وفير كثير ، شبع منه مئات الصحابة وبقيت منه بقية كثيرة تركوها بعد أن اقترح النبي صلى الله عليه وسلم على أهل البيت أن يتصدقوا بها ! .. لقد كانت هذه الخارقة العجيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تقديرا إلهيا لمدى محبته صلى الله عليه وسلم لاصحابه واعراضه عن الاسباب المادية وشأنها في جنب قدرة الله وسلطانه . وكأنها تقول بلسان الحـال : لن يكون محمد أشد رحمة بأصحابه من رحمة الله بهم . فلئن تجلت رحمة محمد عليه الصلاة والسلام بهم في ايثارهم على نفسه امام طعام جابر ، فان رحمة الله بهم تتجلى في تكثير الطعام القليل بحيث يشبع الجميع ويفيض عنهم الطعام ، بل يبقى كما هو .

والذي أريده من القارىء ، أن ينتبه بفكره الى مثل هذه المؤيدات الالهية التي كان يؤيد بها النبي صلى الله عليه وسلم مـن وراء قيمة الاسباب المادية وسلطانها ، فهي من أهم ما يبرز معالم شخصيته النبوية للدارس المتأمل . أريد من القارى أن ينتبه بفكره الى هذه الحقيقة ، بمقدار ما يمعن بعضهم في الاعراض عنها ، وان قابلتهم وجها لوجه أثناء البحث ، بأدلة ثابتة لا تقبل الشك .

خامسا ـ الحكمة من استشارة الانصار والقيمة التشريعية التي فيها :

ما هي الحكمة ، ترى ، في استشارته عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه ، في أن يعرض صلحا على غطفان ، قوامه اعطاؤهم ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفوا عن تأييد قريش ومن معهم ، ويرجعوا عن حرب المسلمين ، وما هي الدلالة التشريعية التي تؤخذ من تفكيره هذا ؟ ..

أمـا الحكمة ، فهي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يطمئن الى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون ، من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه رغم هـذا الذي فوجئوا به من اجتمـاع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة ، الى جانب ما طلعت بـه بنو قريظة في الوقت نفسـه من نقض العهود والمواثيق . وقد كان من عادته صلى الله عليه وسلم ـ كما قد رأيت ـ أنه لم

يكن يجب أن يسوق أصحابه الى حرب أو مغامرة لا يجـدون في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها ، أو لا يؤمنون بجدواها ، وقد كان هذا من أبرز أساليبه التربوية صلى الله عليه وسلم لاصحابه . فمن أجل ذلك ، عرض على أصحابه هذا الرأي ، وأنبأهم أنه ليس تبليغا من الله تعالى ، وانما هوشيء يبديه لهم كي يكسر عنهم شوكة المشركين ، اذا كانوا لا يجدون في انفسهم طاقة على مقابلتهم ، وقد علمت الجواب الذي أجاب به أصحابه رضوان الله عليهم .

وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة ، فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه . وهي بعد ذلك لاتحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم اذا ما اقتحموها ، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم منهم . اذ مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الاسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته صلى الله انما هو أقواله ، وأفعاله التي قام بها ثم لم يرد اعتراض عليها من كتاب الله تعالى ، فأما ما كان منذلك في حـدود الاستشارة والرأي المجرد ، فلا يعتبر دليلا بحال اذ الاستشارة أولا : يمكن أن يكون المقصود منهـا مجرد استطلاع لما في النفوس كما ذكرنا ، أي فهي ممارسة لعمل تربوي بحت ، وهي ثانيا : حتى ولو انتهت بعمل تنفيذي ، يمكن أن يرد عقبه اعتراض من كتاب الله تعالى ،فلا تبقى فيه أي دلالة تشريعية .

على أن علماء السيرة نصوا ،كما قـد رأيت ، على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبرم صلحا مع غطفان ولم تقع شهادة ولا عزيمة على الصلحوانما كان الامر مراوضة لم يتجاوزها .

نقول هذا ، لان فئة مجهولة فيعصرنا هذا ،أخذت تزعم زعما شنيعا في منتهى الغرابة ، وهو : أنه يجبعلى المسلمين أن يدفعوا « الجزية » الى غير المسلمين اذا اقتضت الحاجة ، مستدلة على ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم قد استشار أصحابه في غزوة الاحزاب أن يفعل ذلك !.

وبقطع النظر عن هذا الذي أوضحناه من أن مضمون الرأي المعروض على بساط الاستشارة لايعتبر دليلا تشريعيا ، فلسنا ندري ما الصلة بين «الجزيـة» وما يمكن أن يتصالح عليه فريقان متحاربان ؟.

فان قلت : فهب أن المسلمين اضطروا ــ بسبب من أسباب الضعف ــ إلى الخروج عن بعض أموالهم ، حفظا على حياتهم وحذرا من أن تستأصل شأفة المسلمين ، أفليس لهم أن يفعلوا ذلك ؟ .

فالجواب أن هنالك حالات كثيرة تستلب فيها أموال المسلمين وتصبح غنائم لاعدائهم : ويستعدي فيها الكافرون على بلاد الاسلام وخيراتهم فيتمكنون فيها ويسيطرون عليها . ومعلوم ــ بالبداهة ــ أن المسلمين لا يخضعون لشيء من ذلك عن طريق الاختيار واتباع الفتوى ، وانما يلجؤون الى ذلك إلجاءا ويحملون عليه كرها ، وهم مع ذلك يتربصون بأعدائهم الفرص السانحة . وأنت خبير أن أحكام الشريعة الاسلامية إنما يخاطب بها من لم يكن مكرها ولا ملجأ ولا صبيا أو مجنونا .

واذا فمن العبث انتزاع هذه الحالة التي هي من وراء حدود التكليف كما يقرر على أساسها حكم تكليفي يختار على أساس الرأي والمصلحة والمراوضة .

سادسا ــ كيف وباي وسيلة انتصر المسلمون وانهزم المشركون في هذه الغزوة ؟.

لقد رأينا أن الوسيلة التي التجأ اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في غزوة بدر ، هي نفسها التي التجأ اليها في الخندق .. إنها وسيلة التضرع إلى الله والاكثار من الاقبال عليه بالدعاء والاستغاثة ، بل لقد كان هو العمل المتكرر الدائم الذي ظل يفزع اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلما لقي عدوا أو سار إلى جهاد ، وهي الوسيلة التي تعلو في تأثيرها على كل الاسباب والتهيآت المادية الاخرى : وهي الوسيلة التي لا تصلح حال المسلمين إلا إذا قامت على أساسها بعناية كاملة .

أما كيف انهزم المشركون على كثرتهم ، بعد ثبات المؤمنين وصبرهم وصدق التجائهم إلى الله تعالى ، فقد وصف الله الكيفية في كتابه المبين إذ قال :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون

بالله الظنونا » إلى قولـه تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينـالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » الاحزاب : ٩ الى ٢٥ .

إن هذا المعنى الذي يتكرر في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس يعني إغراء المسلمين بالمغامرة والجهـاد دون استعداد ولا تأهب ، وإنمـا هو لايضاح أن على المسلم أن يعلم أن في مقدمة أسباب النصر المختلفة ؛ صـدق الالتجاء الى الله وإخلاص العبودية لـه ، فلن تجدي وسائل القوة كلها إذا لـم تتوفر هذه الوسيلة بعينها . وإذا تحققت في أعمال المسلمين هذه الوسيلة فحدث عن معجزات النصر ولا حرج .

وإلا فمن أين جاءت هذه الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم، دون أن يشعر بها المسلمون إلى جانبهم ؟! .. هي هناك تقلب قـدورهم وتطير خيامهم وتقلع أوتادها ، وتزلزل أفئدتهم بالرعب ، وهي هنـا ريح باردة رخاء : تنعش ولا تؤذي أحـداً ! ..

سابعا ـ يجب قضاء الصلاة الفائتة مهما كان سبب فواتها :

لقد فاتت النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر كما قد رأيت في هذه الموقعة ، لشدة انشغاله ، حتى صلاها قضاء بعدما غـربت الشمس ، وفـي روايات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته ، أكثر من صلاة واحـدة ، صلاها بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها .

وهذا يـدل على مشروعية قضاء الفائتة . ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب اليه بعضهم من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزا إذ ذاك ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالا وركبانا عند التحام القتال بينهـم وبين المشركين ، إذ النسخ ـ على فرض صحته ـ ليس واردا على مشروعيـة القضاء ، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال . أي إن نسخ صحة التأخير ليس نسخا لمـا كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضا ، بل هي مسكوت عنها ، فتبقى على مشروعيتها السابقة . على أن الذي يقتضيه

الدليل القطعي : هو أن صلاة الخوف شرعت قبل هذه الغزوة كما مر تحقيق ذلك عند الحديث عن غزوة ذات الرقاع .

ومن أدلة هذه المشروعية أيضا ما ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند منصرفه الى المدينة من غزوة الاحزاب ، لا يصلين أحد العصر « أو الظهر » إلا في بني قريظة ، فأدرك بعضهم وقت الصلاة في الطريق فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها . وقال بعضهم : بل نصلي ، لم يرد منا ذلك . فصلاها الفريق الاول بعد وصولهم إلى بني قريظة قضاء .

وإذا ثبت وجوب قضاء المكتوبة بعد فواتها ، فلا فرق بين أن يكون سبب الفوات نوما أو إهمالا وتركا متعمدا ، إذ لم يرد ـ بعد ثبوت الدليل العام على وجوب قضاء الفائتة عموما ـ أي دليل يخصص مشروعية القضاء ببعض أسباب التفويت دون بعضها الآخر . والذين تركوها في طريقهم الى بني قريظة ، لم يكونوا نائمين ولا ناسين . فمن الخطأ إذاً أن تخصص مشروعية قضاء الفائتة المكتوبة ـ مع ذلك ـ بما عدا التفويت المتعمد . وهو أشبه ما يكون بمن يخصصها ببعض المكتوبات دون بعض ، بدون أي مخصص شرعي .

وربما توهم بعضهم أنه قد ثبت دليل يخصص عموم أدلة مشروعية القضاء ، وهو المفهوم المخالف لحديث : « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها » . ولكن هذا وهم لا ينبغي أن يدخل على طالب علم متبصر . فالمقصود بالحديث ليس هو أمر الناسي والنائم بقضاء الصلاة ، دون غيرهما . ولكن المقصود التركيز على القيد ، وهو « إذا ذكرها » وذلك للتنبيه إلى أنه لا يشترط لمن فاتته صلاة وأراد تداركها أن ينتظر حلول وقتها من اليوم الثاني ثم يؤديها إذ ذاك . بل عليه أن يبادر الى قضائها بمجرد التذكر ، في أي وقت كان . فاذا عرفت أن هذا هو مقصود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تدل على ذلك صيغة الحديث نفسها وكما ذكر ذلك علماء الحديث وشراحه [1] عرفت انه لا دلالة تشريعية تتعلق بالمفهوم المخالف للنوم أو النسيان في الحديث.

---

(١) انظر فتح الباري : ٢ ـ ٤٧ ونيل الاوطار : ٢ ـ ٢٧ .

غزوة بني قريظة

جاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الخندق ووضع السلاح واغتسل : أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام : فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه ، فاخرج إليهم . قال فالى أين ؟ قال ههنا ، وأشار الى بني قريظة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم[1] .

ونادى صلى الله عليه وسلم في المسلمين ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة . فسار الناس ، فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلي . ولم يرد منا ذلك . فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم . فلم يعنف واحدا منهم[2] .

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة (وهم متحصنون في حصونهم) خمسا وعشرين ليلة وقيل خمسة عشر يوما[3] حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب .

روى ابن هشام أن كعب بن اسد قال لليهود : لما رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم ، يا معشر يهود : قد نزل بكم من الامر ما ترون : وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا : فخذوا أيها شئتم . قالوا فما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وانه للذي تجدونه في كتابكم : فتأمنون على دمائكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا . قال : فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ،

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري .

(٢) رواه البخاري .

(٣) الذي رواه ابن هشام أن مدة الحصار كانت خمسا وعشرين يوما . وجزم ابن سعد في طبقاته انها كانت خمسة عشر فقط .

قالوا فما ذنب المساكين ؟ قال : فان أبيتم هذه أيضا فان الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة : فأبوا ذلك أيضا .

ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ـ وقد كانت بنو قريظة حلفاء للأوس ـ فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوسيين ، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ ، وكان قد أصيب بسهم في الخندق فكان يداوى في خيمة هناك . فلما حكّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة وأرسل إليه بذلك ، أتى على حمار . فلما دنا من المسجد[1] ، قال للأنصار : قوموا إلى سيدكم أو خيركم : ثم قال إن هؤلاء نزلوا على حكمك . قال : تقتل مقاتلهم وتسبي ذريتهم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قضيت بحكم الله تعالى[2] .

ثم قال سعد رضي الله عنه : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم ، وأخرجوه . اللهم فاني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فان كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها ، واجعل موتي فيها . فانفجرت من لبّته ، فلم يرعهم وفي المسجد خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل اليهم . فقالوا يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم ؟ فاذا سعد يغذو جرحه دما فمات منها رضي الله عنه[3] ، وفي رواية أحمد أن جرحه حينما انفجر كان قد برىء الا مثل الخرص (حلي يوضع في الأذن) أي إلا شيء يسير قد بقي منه .

ثم استنزل اليهود من حصونهم فسيقوا الى خنادق في المدينة ، فقتل مقاتلهم

---

(١) ليس المراد به مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، بل مكان اختطه صلى الله عليه وسلم في بني قريظة للصلاة فكان مسجدا ، كما قال شراح الحديث .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري .

(أي رجالهم) وسبي ذراريهم . وكان في جملة من سيق الى القتل فقتل ، حيي ابن أخطب الذي كان قد سعى حتى أقنع بني قريظة بالغدر ونقض العهد . روى ابن اسحاق أنه جيء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويداه مجموعتان الى عنقه بحبل . فلما نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم جلس فضربت عنقه .

* * *

الدلائل والعبر :

استنبط علماء الحديث والسيرة من قصة بني قريظة هذه أحكاما هامة نجملها فيما يلي :

اولا ـ (جواز قتال من نقض العهد) ، وقد جعل الامام مسلم رحمه الله هذا الحكم عنوانا لغزوة بني قريظة ، فالصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم ، كل ذلك ينبغي احترامه والتزامه على المسلمين ، ما لم ينقض الآخرون العهد أو الصلح أو الامـان . وحينئذ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة في ذلك . ويكون النقض بمخالفة شرط من شروط الصلح من الجميع ، أو من فئة ولو قليلة ، مع سكوت الباقين .

ثانيا ـ (جواز التحكيم في امور المسلمين ومهماتهم) ، قـال النووي رحمه الله : فيه جواز تحكيم الامام شخصا برا وصالحا في أمور المسلمين رفي مهماتهم العظام والرجوع في ذلك إلى حكم مسلم عادل صالح للحكم ، وقد أجمع العلماء عليه في شأن الخوارج ، فانهم أنكروا على علي التحكيم ، وأقام الحجة عليهم .

وفيه جواز مصالحة أهل قرية أو حصن على حكم حاكم مسلم عدل صالح للحكم أمين على هذا الامر ، وعليه الحكم بما فيه مصلحة المسلمين ، واذا حكم بشيء لزم حكمه ، ولا يجوز للامام ولا لهم الرجوع ، وله ولهم الرجوع قبل الحكم[1] .

---

(1) النووي على مسلم ٩٢/١٢ .

ثالثا ـ (مشروعيـة الاجتهاد في الفروع وضـرورة وقوع الخلاف فيهـا)

وفي اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة » على النحو الذي روينا ، مع عدم تعنيف النبي صلى الله عليه وسلم أحدا منهم أومعاتبته ـ دلالة هامة على أصل من الاصول الشرعية الكبرى ، وهو تقريرمبدأ الخلاف في مسائل الفروع ، واعتبار كل من المتخالفين معذورا ومثابا ، سواء قلنا أن المصيب واحد أو متعدد . كما أن فيه تقريرا لمبدأ الاجتهـاد في استنباط الاحكام الشرعية . وفيـه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية ، أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم ، فالله سبحانه وتعالى تعبد عباده بنوعين من التكاليف :

احدهما : تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو كليات السلوك . وانما وردت النصوص الدالة عليها قطعية الدلالة والثبوت ، بحيث لا تستدعي اجتهادا في فهمها ولا في قوة ثبوتها .

ثانيهما : البحث وبذل الجهد ابتغاء فهم المبادىء والاحكام الفرعية من أدلتها العامة المختلفة ، فليس المطلوب ممن أدركته الصلاة في بادية التبست عليه جهة القبلة فيها ، أكثر من أن تتجلى عبوديته لله تعالى في أن يبذل كل ما لديه من وسع لمعرفة جهة القبلة حسب فهمه وما يبدو له من أدلة ، حتى إذا سكنت نفسه إلى جهة ما ، استقبلها فصلى إليها .

ثم إن هنالك حكما باهرة لمجيء كثير من الادلة والنصوص الشرعية ظنية الدلالة غير قطعية . من أبرزها ، أن تكون الاجتهادات المختلفة في مسألة ما ، وثيقة الصلـة بالادلة المعتبرة شـرعا ، حتى يكون للمسلمين متسع في الاخـذ بأيها شاءوا حسبما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم المعتبرة وتلك من أجلى مظاهر رحمة الله بعباده ، في كل عصر وزمن .

وإذا تأملت هذا ، علمت أن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع ، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الالهي في تشريعه ، عدا أنه ضرب من

العبث الباطل . إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما ما دام دليلها ظنيا محتملا ؟.. لو أمكن ذلك أن يتم في عصر ما ، لكان أولى العصور به عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم أصحابه ، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما قد رأيت ؟!.

رابعا ـ (تأكد اليهود من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم) ، لقد رأيت من مجرى كلام كعب بن أسـد مع إخوانه اليهود ، أنهم كانوا على يقين من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى إطلاع تام على مـا أثبتته التوراة من الحـديث عنه صلى الله عليه وسلم وعن علاماته وبعثته ، ولكنهم كانوا عبيدا لعصبيتهم وتكبرهم . وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعدم الايمان والفهم ، فلن تجد من عاقل سمع باسم الاسلام وألمّ بحقيقته وجوهره ثم كفر به كفرا عقليا . إنما هو أحد شيئين : إما أنه لم يسمع بالاسلام على حقيقته وإنما قيل له عنه كلام زائف باطل ، وإما أنه وقف على حقيقته واطلع على جوهره ، فهو يأباه إباء نفسيا لحقد على المسلمين أو غرض أو هوى أو عصبية تصدهعن اتباع الحق .

خامسا ـ (حكم القيام اكراما للقادم) ، أمـر النبي صلى الله عليه وسلم الانصار حينما أقبل نحوهم سعد بن معاذ راكبا دابته أن يقوموا إليه تكريما له ودل على هذا التعليل قوله : لسيدكم أو خيركم ، وقد استدل عامة العلماء بهذا وغيره على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام إليهم في المناسبات الداعية الى ذلك عرفا .

يقول الامام النووي في تعليق على هذا الحديث : « فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا ، هكذا احتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام . قال القاضي : وليس هذا من القيام المنهي عنه ، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قياما طول جلوسه . قلت القيام للقـادم من أهل الفضل مستحب ، وقد جاء فيه أحاديث ، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح »[1] .

ومن الاحاديث الثابتة الدالة أيضا على ذلك ، ما جاء في حديث كعب بن

(1) النووي على مسلم : ١٢ ـ ٩٣ .

مالك المتفق عليه ، وهو يقص خبر تخلفه عن غزوة تبوك ، قال : فانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة ، ويقولون لي لتهنك توبة الله عليه ، حتى دخلت المسجد ، فاذا رسول الله جالس حوله الناس ، فقام الي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ـ فكان كعب لا ينساها لطلحة ـ .

ومن ذلك أيضا ما رواه الترمذي وأبو داود والبخاري في الادب المفرد عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت أحدا من الناس كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم كلاما ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة ، قالت وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآها أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه ، وكانت إذا أتاها النبي صلى الله عليه وسلم رحبت به ثم قامت إليه فقبلته[1] .

واعلم أن هذا كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار . وذلك لسببين :

السبب الاول : أن مشروعية إكرام الفضلاء وتوقيرهم ، لا تستلزم السعي منهم الى ذلك . بل ان من ابرز صفات الصالحين أن يزهدوا فيذلك الاكرام الذي يربى الاسلام عليه عوام الناس . فلكل أدب ووظيفة ، ينبغي أن يتحلى بها ، وليس بينهما أي تناقض . بل بينهما غاية الانسجام .

السبب الثاني أن الحديث يتهدد من احب ان يتمثل له الناس قياما ، ومعنى التمثل قياما أن يقوم الرجل ثم يبقى كذلك كأنه تمثال ، لا يجلس . وهي عادة معروفة عند كثير من الاعاجم . وهو محرم نهى عنه رسول الله بقوله : لا تقوموا لي كما يقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضا ، كما دخل في هذا النهي الانحناء أيضا فهو أيضا من عادة الاعاجم .

---

(١) هذا اللفظ للبخاري والروايات الاخرى لا تختلف من هذه إلا بالفاظ او زيادات بسيطة .

سادسا ـ (مزايا خاصة لسعد بن معاذ) ، وإنك لتقف خلال اطلاعك على هذه الغزوة ، على مزية كبرى لسيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فانك لتجد ذلك أولا في إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم له صلاحية الحكم بما يشاء على بني قريظة وجعل موقفه منه ، وهو رسول الله موقف الموافق والمؤيد لكل ما سيحكم به . وتجد ذلك ثانيا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم للانصار بالقيام إليه حينما أقبل إليهم ، وذلك مزية كبرى لسعد حينما يكون هذا الامر صادرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم تجد ذلك في قصة الجرح الذي كان قد أصابه في كاحله في غزوة الخندق . لقد رفع يديه يدعو الله تعالى يوم أن أصابه هذا الجرح قائلا : « اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم ، وأخرجوه ، اللهم فان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك » وقد استجيب دعاء سعد فتحجر جرحه وتماثل للشفاء ، حتى كانت غزوة بني قريظة ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إليه ، وكفى الله المؤمنين شر اليهود وتطهرت المدينة من أرجاسهم ، رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول : « اللهم فاني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشا والمشركين) فان كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها » ، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله تعالى .

قال ابن حجر في الفتح : والذي يظهر لي أن ظن سعد كان مصيبا وأن دعاءه في هذه القصة كان مجابا ، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيها من المشركين ، فانه صلى الله عليه وسلم تجهز الى العمرة فصدوه عن دخول مكة ، وكادت الحرب أن تقع بينهم فلم تقع كما قال تعالى : « هو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » . ثم وقعت الهدنة ، واعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابل ، واستمر ذلك الى أن نقضوا العهد ، فتوجه اليهم غازيا ، ففتحت مكة[1] .

---

(١) فتح الباري : ٧ ـ ٢٩٢ .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في منصرفه عن غزوة الاحزاب ، فيما رواه البخاري : الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم . وأخرج البزار باسناد حسن من حديث جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم الاحزاب ، وقد جمعوا له جموعا كثيرة ، لا يغزونكم بعد هذا أبدا ولكن أنتم تغزونهم . وهو ايذان بانتهاء مرحلة الحرب الدفاعية .

أما المرحلة التي تليها فهي دعوة الناس عموما الى الاسلام مع قتال كل من وقف في وجهها ونهى أن تبلغ هذه الدعوة مداها . وستجد مصداق ذلك في الاحـداث التاليـة .

* * *

القسم السادس

الفتح : مقدماته ونتائجه

مرحلة جديدة من الدعـوة

Damascus University

صلح الحديبية

كان في شهر ذي القعدة ، آخر سنة ست للهجرة .

وسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن في المسلمين أنه متوجه الى مكة معتمرا ، فتبعه جمع كبير من المهاجرين والانصار بلغ عددهم ألفا وأربعمائة تقريبا . وأحرم صلى الله عليه وسلم بالعمرة في الطريق ، وساق معه الهدي ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه انما خرج زائرا البيت معظما له .

وأرسل صلى الله عليه وسلم وهو عند ذي الحليفة عينا له من قبيلة خزاعة اسمه بشر بن سفيان ليأتيه بخبر أهل مكة ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى وصل الى غدير الاشطاط ، فأتاه العين الذي كان قد أرسله ، فقال له : ان قريشا جمعت لك جموعا ، وقد جمعوا لك الاحابيش ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك ، فقال : أشيروا أيها الناس .. فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال له رجل من بني أسلم : أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقا وعرا بين الشعاب ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى إذا كانوا في ثنية المرار (وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية) بركت به راحلته ، فقال الناس : حل ، حل (اسم صوت كانوا يزجرون به الجمال) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما خلأت ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حفيرة قليلة الماء ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله

ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه[1] فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر معـه ، فقال إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لـؤي نزلوا مياه الحديبية ، ومعهم العوذ المطافيل[2] وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وان قريشا قـد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فان أظهر فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا (أي استراحوا) وان هم أبوا فوالذي نفسي بيده لاقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذن الله أمـره . فقال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق بديل فحدث قريشا بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقام عروة بن مسعود يعرض على المشركين أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيكلمه في تفصيل ما جاءهم به بديل بن ورقاء . فقالوا له دونك فاذهب .

فذهب ، فكلمه النبي صلى الله عليه وسلم بمثل ما كلم به بديلا ، فقال له عروة : أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحـد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الاخرى ، فاني والله لا أرى وجوها ، واني لارى أشوابا من الناس (أي أخلاطا منهم) خليقا أن يفروا ويدعوك . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أمصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه !..

فالتفت قائلا : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . فقال : أما إنه لولا يـد كانت لك

---

(1) هذه من رواية البخاري في كتـاب الشرط وابن اسحاق وغيرهما . ويذكر البخاري في كتاب المغازي هذا الحديث ، وقال : إنه جلس على البئر ثم دعـا بانـاء فمضمض ودعا الله ثم صبه فيها ، ثم قال دعوها ساعة ، ثم انهم ارتووا بعد ذلك . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : ويمكن الجمع بينهما بأن يكون الامران واقعين معا . واما حديث انه صلى الله عليه وسلم وضع يده في ركوة ماء فجعل المـاء يفور من بين أصابعه فتلك واقعة اخرى غير هـذه . وكـل ذلك ثابت صحيح .

(1) العوذ جمع عائذ ، وهي الناقة ذات اللبن والمطافيل الامهات من النوق اذا كان معها أطفالها . يريد انهم خرجوا بكل ما يحتاجون حتى لا يرجعوا إلا بعد ان يمنعوا المسلمين من دخول مكة .

عندي لم أجزك بها ، لاجبتك[1] . ثم جعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فكلما تكلم أخذ بلحيته ، والمغيرة ابن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده الى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، ضرب يده بنعل السيف ، وقال له أخر يدك عن لحية رسول الله صلى اللهعليهوسلم . فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، فقال : أي غدر وهل غسلت سوأتك الا بالامس ؟[2] .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه ، قال : عوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة ألا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، واذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون اليه النظر تعظيما له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمدا !... وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

ثم انهم ارسلوا اليه سهيل بن عمر مثلا عنهم ليكتب بينهم وبين المسلمين كتابه بالصلح فلما جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هلت اكتب بيننا وبينكم كتابا . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب (وكان الكاتب عليا رضي الله عنه) ـ فيما رواه مسلم ـ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : أما « الرحمن » فوالله ما أدري ما هي ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أكتب باسمك اللهم . ثم قال :

---

(١) اليد النعمة ، واليد التي يقصدها عروة ، ان عروة كان تحمل دية فأعانه ابو بكر فيها بعون حسن .

(٢) اراد عروة بذلك ان المغيرة بن شعبة قتل قبل اسلامه ثلاثة عشر رجلا فودى له عروة المقتولين .

هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن أكتب « محمد بن عبد الله » ، فقال رسول الله : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني !.. أكتب محمد بن عبد الله . (وفي رواية مسلم : فأمر عليا أن يمحوها ، فقال علي لا والله لا أمحوها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرني مكانها ، فأراه مكانها فمحاها) ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام القادم وليس مع المسلمين إلا السيوف في قرابها . فكتب . فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، ومن جاء منكم لم نرده عليكم ، فقال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلما ؟! (والتفتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه : أنكتب هذا يا رسول الله ؟! قال : نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا)[1] .

وكانت مدة الصلح بناء على هذه الشروط ـ على ما رواه ابن اسحاق وابن سعد والحاكم ـ عشر سنين لا إسلال فيها ولا إغلال (أي لا سرقة ولا خيانة) وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم .

ولما فرغ من الصلح والكتابة ، أشهد على الكتاب رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين .

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب قال : فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت ألست نبي الله حقا ؟ قال : بلى ، قلت : ألست على حق وعدونا على باطل ؟ قال : بلى ، قلت : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى ، قلت ففيم نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو

---

(١) ما بين القوسين تفصيل لرواية مسلم . والحديث بطوله من لفظ البخاري مع زيادات لمسلم .

ناصري . قلت أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قلت لا . قال فانك آتيه ومطوف به.فلم يصبر عمر حتى أتي أبا بكر رضي الله عنه فسأله مثل ما سأل النبي صلى الله عليه وسلم . فقال له يا ابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يعصي ربه ولن يضيعه الله أبدا . فما هو الا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى عمر فأقرأه إياها . فقال : يارسول الله أوفتح هو ؟!.. قال : نعم ، فطابت نفسه[1] .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على أصحابه فقال لهم : قوموا فانحروا ثم احلقوا ــ وكرر ذلك ثلاثا ــ فوجم جميعهم وما قام منهم أحد ، فدخل على زوجته أم سلمة ، وذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ أخرج لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لغرط الغم .

ثم جاء نسوة مؤمنات (بعد انصرافه الى المدينة) مهاجرات بدينهن ، بينهن أم كلثوم بنت عقبة ، فأنزل الله تعالى قوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن ، الله أعلم ، بايمانهن فان علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن » فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردهن بدينهن الى الكفار[2] .

بيعة الرضوان

وكان قد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه الى قريش قبل كتابة الصلح ليكلمهم في الامر ، فاحتبسته قريش عندها مدة ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك أن عثمان بن عفان قد قتل ، فقال

---

(١) متفق عليه .
(٢) صحيح البخاري .

لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة هنالك .

فكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بيد أصحابه الواحد منهم تلو الآخر يبايعونه على أن لا يفروا . وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه ، وقال : هذه عن عثمان .

ولما تمت البيعة ، انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي بلغه من مقتل عثمان باطل .

* * *

الدلائل والعبر :

كلمة وجيزة عن حكمة هذا الصلح :

قبل أن نخوض في تفصيل ما ينبغي أن نقف عليه من دروس صلح الحديبية وأحكامهما ، نقول في كلمة وجيزة : إن أمر هذا الصلح كان مظهرا لتدبير الهي محض تجلى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجل في أي عمل أو تدبير آخر ، فقد كان نجاحه سرا مرتبطا بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده ، ولذلك انتزع — كما قد رأيت — دهشة المسلمين أكثر مما اعتمد على فكرهم وتدبيرهم . ومن هنا ، فاننا نعد أمر هذا الصلح ، بمقدماته ومضمونه ونتائجه ؛ من الأسس الهامة في تقويم العقيدة الاسلامية وتثبيتها .

ولنتحدث أولا عن طرف من الحكم الالهية العظيمة التي تضمنها هذا الصلح، والتي تجلت للعيان فيما بعد ، حتى أضحت آية من آيات الله الباهرة ، ثم نتحدث بعد ذلك عن الاحكام الشرعية التي تضمنتها وقائع هذا الصلح .

فمن الحكم الباهرة : أن صلح الحديبية كان مقدمة بين يدي فتح مكة . فقد كانت هذه الهدنة — كما يقول ابن القيم — بابا له ومفتاحا وتلك هي عادة الله سبحانه وتعالى ، يوطىء بين يدي الامور التي تعلقت ارادته بانجازها ، مقدمات تؤذن بها وتدل عليها .

ولئن لم يكن المسلمون قد تنبهوا لهذا في حينه ، فلذلك لان المستقبل غائب

عنهم ، فأنى لهم أن يفهموا علاقة الواقع الذي رأوه بالغيب الذي لم يتصوروه بعد ؟

ولكن ما إن مضت فترة من الزمن ، حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما قد انطوت عليه من خير . فان الناس أمن بعضهم بعضا ، واختلط المسلمون بالكفار وناداوهم بالدعوة ، وأسمعوهم القرآن ، وناظروهم على الاسلام جهرة آمنين ، وظهر من كان مختفيا بالاسلام .

روى ابن هشام عن ابن اسحاق عن الزهري قال : ما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه (أي من صلح الحديبية) إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالاسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الاسلام قبل ذلك أو أكثر .

ولذلك أطلق القرآن اسم الفتح على هذا الصلح ، وذلك في قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » الفتح : ٢٦ .

ومن الحكم الجليلة ايضا ، أن الله جل جلاله أراد بذلك أن يبرز الفرق واضحا بين وحي النبوة وتدبير الفكر البشري ، بين توفيق النبي المرسل وتصرف العبقري المفكر ، بين الالهام الإلهي الذي يأتي من فوق دنيا الاسباب ومظاهرها ، والانسياق وراء إشارة هذه الاسباب وحكمها . أراد الله عز وجل أن ينصر نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أمام بصيرة كل متأمل عاقل ، ولعل هذا من

بعض تفسير قوله تعالى : وينصرك الله نصرا عزيزا ، أي نصرا فريدا في بابه ، من شأنه أن ينبه الافكار السادرة والعقول الغافلة .

فمن هنا أعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط ، وتساهل معهم في أمور لم يجد أحد من الصحابة ما يسوغ التساهل فيها ، ولقد رأيت كيف استبد الضيق والقلق بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حتى إنه قال عن نفسه فيما بعد

ـ فيما رواه أحمد وغيره ـ : ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ ولقد رأيت كيف ساد الوجوم القوم حينما أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحلق والنحر ، ليعودوا الى المدينة ، رغم أنه كرر عليهم الامر ثلاث مرات لقد كان السر في ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم إنما كانوا يتأملون في تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم يقفون على أرض من بشريتهم الطبيعية ، فلا يتبصرونها الابمقدار ولا يفهمون منها إلا ما تفهمه عقولهم البشرية القائمة على الخبرات المحسوسة ، على حين كانت النبوة المطلقة هي التي توجهه وتلهمه وتوحي اليه ، وكان تنفيذ الامر الالهي هو وحده الماثل أمام عينيه .

يتضح لك هذا من جوابه صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حينما أقبل إليه سائلا ومتعجبا ، بل وربما مستنكرا . فلم يزد على أن قال له : إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري . ويتضح لك هذا أيضا من وصية النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان حينما أرسله الى مكة ليكلم قريشا فيما جاء له النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد أمره أيضا أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالايمان .

ولكن سرعان ما انتهت الدهشة وزال الغم واتضح المبهم ، حينما تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم سورة الفتح التي تنزلت عليه عقب الفراغ من أمر الصلح . وتجلى للصحابة فيما بعد أن احتمالهم لتلك الشروط كان عين النصر لهم ، وأن المشركين ذلوا من حيث تأملوا العز ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والغلبة . وظهر من وراء ذلك كله النصر العظيم لرسوله والمؤمنين دون أن يكون في ذلك أي اقتراح للعقول والافكار .

فهل في أدلة العقيدة دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا الدليل وأظهر ؟...

ولقد تضايق المسلمون بادىء الامر من موافقة النبي صلى الله عليه وسلم

على الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو : من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليهم • وازداد ضيقهم لما أقبل أبو جندل (ابن سهيل بن عمرو) فارا من المشركين يرسف في الحديد ، فقام إليه أبوه آخذا بتلابيبه وهو يقول : يا محمد ، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال صدقت ، فجعل ينتره ويجره ليرده الى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوني في ديني ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا أعطينا القوم عهودا ، وانا لا نغدر بهم •

ولقد أخذ الصحابة ينظرون إلى هذا الامر ، وقد داخلهم من ذلك هم عظيم •

ولكن ، فما الذي تم بعد ذلك ؟•• لقد جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذهابه الى المدينة رجل آخر من قريش قد أسلم من قريش اسمه : أبو بصير ، فأرسلوا في طلبه رجلين من المشركين ليستردوه ، فسلمه الرسول صلى الله عليه وسلم اليهما ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فغافل أبو بصير أحد حارسيه وأخذ منه سيفه فقتله ، ففر الآخر • ثم عاد أبو بصير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا نبي الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني اليهم فأنجاني الله منهم ، ثم إنه خرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلت أبو جندل ، فلحق به هناك ، وأصبح ذلك المكان مثابة للمسلمين من أهل مكة ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم الا لحق بأبي بصير وإخوانه ، فما كانوا يسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوا المشركين وأخذوا أموالهم •

فأرسلت قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم اليه ، فجاءوا الى المدينة[1] •

ولما كان فتح مكة ، كان أبو جندل هذا ، هو الذي استأمن لابيه وعاش رضي الله عنه حتى استشهد في وقعة اليمامة[2] •

---

(١) من تتمة حديث البخاري السابق ذكره . (٢) راجع الاصابة : ٤/٢٤ .

وهكذا صحا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من همهم ذاك ، على مزيد من الايمان بالحكمة الالهية ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، روي في الصحيح أن سهل بن سعيد رضي الله عنه قال يوم صفين : أيها الناس ، اتهموا رأيكم ، لقد رأيتني يوم أبي جندل ، ولو استطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته !.

ومرة أخرى نكرر ونقول : هل في أدلة العقيدة دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا الدليل وأظهر ؟ .

ومن الحكم الجليلة ايضا ، أن الله جلت قدرته إنما أراد أن يجعل فتح مكة لنبيه فتح مرحمة وسلم ، لافتح ملحمة وقتال ، فتحا يتسارع الناس فيه الى دين الله أفواجا ، ويقبل فيه أولئك الذين آذوه وأخرجوه ، يلقون إليه السلم ويخضعون له الجانب مؤمنين آيبين موحدين . فجعل من دون ذلك هذا التمهيد : تؤوب فيه قريش الى صحوها وتحاسب فيه نفسها وضميرها ، وتشترك هي الاخرى مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخذ العبرة من أمر هذا الصلح ومقدماته ونتائجه ، فتنضج الآراء في الرؤوس وتتهيأ لقبول الحق الذي لا ثاني له .

وهكذا كان الامر ، كما ستعلم تفصيله في مكانه إن شاء الله تعالى .

الاحكام المتعلقة بذلك :

هذا عن بعض الحكم الالهية المتعلقة بأمر صلح الحديبية ، أما ما يتعلق بذلك من الدلالات والاحكام فانه لكثير ، وسنقتصر من ذلك على ما يلي :

اولا ـ (الاستعانة بغير المسلمين فيما دون القتال) ، قلنا إن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل بشر ابن سفيان عينا الى قريش ليأتيه بأخبارهم . وبشر بن سفيان كان مشركا من قبيلة خزاعة . وفي هذا تأكيد لما كنا قد ذكرناه سابقا من أن الاستعانة بغير المسلم يتبع الظرف وحالة الشخص الذي يستعان به . فان كان ممن يطمأن اليه ولا تخشى منه بادرة غدر أو خديعة ، جازت والا فلا . وعلى

كل فان النبي صلى الله عليه وسلم ، في كل الحالات ، إنمـا استعان بغير المسلمين بما دون القتال ، كارسالهم عينا على الاعداء أو استعارة أسلحة منهم وما شابه ذلك .والذي يبدو أن الاستعانة بغير المسلمين في القضايا السلمية أشبه بالجواز منها في أعمال القتال والحرب .

ثانيا ـ (طبيعة الشورى في الاسلام) لقد رأينا في عامة تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم ما يـدل على مشروعية الشوري وضرورة تمسك الحاكم بها ، وعمل النبي صلى الله عليه وسلم هنا ، يدل على طبيعة هذه الشورى والمعنى الذي شرعت من أجله : فالشورى في الشريعة الاسلامية مشروعة ولكنها ليست ملزمة ، وإنما الحكمة منها استخراج وجوه الرأي عند المسلمين ، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم دون بعض ، أو استطابة نفوسهم . فاذا وجد الحاكم في آرائهم ما سكنت نفسه اليه على ضـوء دلائل الشريعة الاسلامية وأحكامها ، أخذ به ، وإلا كان له أن يأخذ بما شاء بشرط ان لا يخالف نصا في كتاب ولا سنة ولا اجماعا للمسلمين .

ولقد وجدنا أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه في الحديبية ، وأشار عليه أبو بكر بما قد علمت ، قال له : إنك يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت ،فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه .

ولقد وافقه النبي صلى الله عليه وسلم في بادىء الامر ، ومضى مع أصحابه متجها الى مكة حتى اذا بركت الناقة ، وعلم أنها ممنوعة .. ترك الرأي الذي كان قد أشير به عليه ، وأعلن قائلا : والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها . وحينئذ تحول العمل عن ذلك الرأي الـذي أبـداه أبو بكر ، الى أمر الصلح والموافقة على شـروط المشركـين ، دون أن يصيخ الى استعظام واستنكار المستنكرين كما قد رأيت .

فهذا يعني أن أمر الشورى يأتي من وراء حكم الوحي الذي هو اليوم : الكتاب والسنة واجماع الائمة ، رضوان الله عليهم ، كما يدل أيضـا على أن الشورى انما شرعت للتبصر بها ، لا للإلزام أو التصويت على أساسها .

ثالثا ـ (التوسل والتبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم) ، قلنا ، إن عروة بن مسعود ،جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه ، قال : فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة الا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ما يحدون النظر إليه تعظيما له .

إنها لصورة بارزة حيّة ، أوضحها عروة بن مسعود لدى محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له . وإن فيها لدلالات هامة يجب أن يقف عليها كل مسلم .

وهي تدل ، على أن التبرك بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر مندوب اليه ومشروع . ولقد وردت أحاديث صحيحة ثابتة عن تبرك الصحابة رضي الله عنهم بشعر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرقه ، ووضوئه ، وبصاقه ، والقدح الذي كان يشرب فيه ، وقد ذكرنا تفصيل بعض هذه الاحاديث فيما مضى [1] . واذا جاز التوسل والتبرك بآثاره ، فلأن يجوز التوسل بفضله ومكانته عند ربه ، من باب اولى . سواء كان ذلك في حياته أو بعد وفاته . فان فضله ومكانته لا ينقص شيء منهما بالموت . فالتفريق في ذلك بين الحياة والموت خلط وجهل عجيب .

رابعا ـ (حكم الوقوف على الانسان وهو قاعد) ، لقد علمت مما سبق أن المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه ، كان واقفا على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وكلما أهوى عروة بن مسعود بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، ضرب يده بنصل السيف ، قائلا : أخر يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كنا ذكرنا فيما مضى ـ عند الحديث عن غزوة بني قريظة ـ انه لا يشرع القيام على رأس أحد وهو قاعد ، وأن ذلك من مظاهر التعظيم الذي

---

(١) ذكرنا ذلك عند الحديث عن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة .

تعارفه الاعاجم فيما بينهم وأنكره الاسلام ، وإنه التمثل الذي نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار » . فكيف كان الامر على خلاف ذلك هنا ؟.

والجواب أنه يستثنى من عموم المنع ، مثل هذه الحالة بخصوصها ، أي في حالة قدوم رسل للعدو الى الامام أو الخلفية ، فلا بأس حينئذ من قيام حرس أو جند على رأسه ، إظهارا للعزة الاسلامية وتعظيما للامام ووقاية له مما قد يفاجأ به من سوء[1] . أما في أعم الاحوال فلا يجوز ذلك لمخالفته مقتضى التوحيد والعقيدة الاسلامية ، دون أي ضرورة اليه .

ويشبه هذا ، ما مر بيانه ، عند الحديث عن أبي دجانة في غزوة أحد ، فقد قلنا : ان كل مايدل على التكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعا ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله صلى الله عليه وسلم عن مشية أبي دجانة : إنها مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع .

خامسا ـ (مشروعية الهدنة بين المسلمين واعدائهم) ، استدل العلماء والائمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة ، سواء كان ذلك بعوض يأخذه المسلمون منهم أم بغير عوض ، أما بدون عوض فلان هدنة الحديبية كانت كذلك ،وأما بعوض فبقياس الاولى لأنها إذا جازت بدون عوض ، فلان تجوز بعوض أقرب وأوجه .

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون ، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين ، لما فيه من الصغار لهم ، ولأنه لم يثبت دليل من الكتاب أو السنة على جواز ذلك ، قالوا : إلا إن دعت إليه ضرورة لا محيص عنها وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الاسر فيجوز ، كما يجوز للاسير فداء نفسه بالمال .

سادسا ـ ذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما وكثير من الائمة الى أن الصلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة ، وأنه لا يجوز أن تزيد المدة

---

(١) انظر زاد الميعاد لابن القيم : ٢/١١٤ .

على عشر سنوات مهما طالت ، لانها هي المدة التي صالح النبي صلى الله عليه وسلم قريشا عليها عام الحديبية .

سابعا ـ الشروط في عقد الهدنة تنقسم الى صحيحة وباطلة ، فالصحيح كل شرط لا يخالف نصا في كتاب الله أو سنة نبيه ، مثل أن يشترط عليهم مالا أو معونة للمسلمين عند الحاجة ، أو ان يشترط لهم ان يرد من جاءه من الرجال مسلما أو بأمان ، ولقد أطلق الائمة صحة هذا الشرط الاخير، ما عدا الشافعي رضي الله عنه ، فقد شرط لذلك أن تكون له عشيرة تحميه بين الكافرين ، وحمل على ذلك موافقة النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الشرط لقريش[1] .

والباطل ، كل شرط فيه معارضة لحكم شرعي ثابت ، ومنه أن يشترط رد النساء المسلمات أو مهورهن إليهم ، أو إعطائهم شيئا من سلاح المسلمين أو أموالهم . وأساس الاستدلال على هذا عدم رد النبي صلى الله عليه وسلم النساء اللاتي جئن هاربات بدينهن ، ونهي القرآن صراحة عن ذلك ، كما مرّ بيانه في حينه .

ولعلك تقول : أفلم يخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك عهدا قطعه على نفسه ، وذلك إذ وافق على رد كل من أتاه مسلما من مكة ؟ .. والجواب أن ذلك ليس نصا في خصوص النساء ، بل يحتمل أنه لا ينحطّ إلا على الرجال وحدهم . ومهما يكن فقد علمت فيما سبق أن تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم لا تكتسب قوة الحكم الشرعي إلا إذا أقرها الكتاب بالسكوت عليها أو التأكيد لها . ولقد أقر الكتاب كل بنود المصالحة ، إلا ما يتعلق بردّ النساء الى بلد الكفر ، فلم يقرّه ، وذلك على فرض دخوله في بنود الاتفاقية وشروطها . ولو أن القرآن لم يقرّ الصلح من أساسه ، لبطل في مجموعه . أي فقوة التشريع في فعله وأحكامه صلى الله عليه وسلم ، مصدرها تفويض الله له بذلك وإقراره على ما قد قضى به .

---

(١) راجع للتوسع في موضوع الهدنة ، مغني المحتاج : ٤ ـ ٢٠٠ ، والمغني لابن قدامة : ٩ ـ ٢٩٠ ، والهداية : ٢ ـ ١٠٣ ، وبداية المجتهد : ١ ـ ٣٧٤ .

ثامنا ـ (حكم الاحصار في العمرة والحج) ، ودلّ عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من أمر الصلح ، من التحلل والنحر والحلق ، على أن المحصر يجوز لـه أن يتحلل ، وذلك بأن يـذبح شـاة حيث أحصر أو مـا يقوم مقامها ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهل به ، سواء كان حجا أو عمرة .

كما دل على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعا ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه أنه أمر أحدا من أصحابه بالقضاء فيما بعد . ولم يعتمر معه في العـام الذي بعده كل من كان قد خرج في هذا العام ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

* * *

غـزوة خيبر

ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر ، في أواخر المحرم للسنـة السابعة من الهجرة . وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على بعـد مائة ميل شمال المدينة جهة الشام .

وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ألف وأربعمائة مقـاتل ما بين فارس وراجل . قال ابن هشام : فلما أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لاصحابه قفوا ، ثم قال :

« اللهم رب السـماوات ومـا أظللن ، ورب الأرضين ومـا أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فانا نسألك خير هذه القريـة وخير أهلها وخير مـا فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشـر ما فيها . أقدموا باسم الله » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما ، لم يغر عليهم حتى يصبح ، فان سمع أذانا أمسك وإن لم يسمع أذانا أغار ، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل ، فرآه عمال خيبر وقـد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم

ومكاتلهم ، يقصدون مزارعهم ، فلما رأوه صلى الله عليه وسلم ، صاحوا : محمد والخميس ، ثم ولّوا هاربين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين[1] .

قال ابن سعد : فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، وفرق بينهم الرايات ، وابتدأت المعارك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل خيبر ـ وقد تحصنوا بحصونهم ـ وأخذ المسلمون يفتحونها حصنا حصنا : إلا الحصنين الاخيرين : الوطيح ، والسّلالم ، فقد حاصرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة .

روى أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث بريدة بن الخصيب : قال : لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء ، فرجع ولم يفتح له ، فلما كان الغداة أخذه عمر ، فرجع ولم يفتح له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأدفعن لوائي غدا إلى رجل يفتح الله على يديه ، يحبّ الله ورسوله . قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم « أي يتساءلون ويختلفون » : أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها . فقال أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال فأرسلوا إليه ، فأتي به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا ، فبرأ ، حتى كأن لم يكن به وجع . فأعطاه الراية ، فقال عليّ يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا « أي مسلمين » ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم . ثم خرج فقاتل ، فكان الفتح على يديه[2] وغنم المسلمون كل ما في تلك الحصون من الاموال .

أما ذانك الحصنان ، فقد ظل المسلمون يحاصرونهما ، حتى إذا أيقن من

---

(١) متفق عليه .

(٢) الحديث متفق عليه ابتداء من قوله : لادفعن لوائي غدا .. الخ .

فيه بالهلاك ، سألوه صلى الله عليه وسلم أن يخرجهم ويجليهم ويحقن دماءهم ويتركوا له الاموال ، فوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك .

ثم إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ويزرعونها لأنهم أعرف بأراضيهم وأعمر لها . ولهم شطر ما يخرج منها ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وقال لهم : على أنا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم[1] .

قال ابن إسحاق : فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم ، شاة مصليّة « مشوية » وكانت قد سألت أي عضو من الشاة أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور ، وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله فلفظها . ثم قال : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال ما حملك على ذلك ؟ قالت بلغت من قومي مالم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بشر من أكلته[2] .

والذي جزم به الزهري وسليمان التيمي في مغازيه أنها أسلمت . واختلفوا بعد ذلك ، هل قتلها النبي صلى الله عليه وسلم قصاصا عن بشر أم لا ، فأخرج ابن سعد بأسانيد متعددة أنه صلى الله عليه وسلم دفعها إلى أولياء بشر فقتلوها ، غير أن الصحيح ما رواه مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : ما كان الله ليسلطك على ذاك « أي على قتلي » قالوا : ألا نقتلها يا رسول الله ؟ قال : لا .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر بين المسلمين : للراجل

(١-٢) متفق عليه .

سهم وللفرس سهمان ، وفسر ذلك نافع رضي الله عنه ، فيما رواه البخاري . بأنه إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم . فان لم يكن ، فله سهم واحد . وكانت صفية بنت حيي بن أخطب ـ زعيم اليهود ـ بين من أسر من نساء خيبر، فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن أسلمت ـ وتزوجها ، وجعل مهرها عتقها[1] .

قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة وهو في خيبر جعفر بن أبي طالب ومن معه وهم ستة عشر رجلا وامرأة وجمع آخر كانوا في اليمن فأسهم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم ، بعد أن استأذن في ذلك المسلمين.

قال ابن هشام : فلما قدم جعفر بن أبي طالب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّل رسول الله بين عينيه والتزمه ، وقال : ما أدري بأيهما أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[2] .

ولما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عائدا الى المدينة استعمل على خيبر رجلا من الانصار قيل إنه سواد بن غزيّة . من بني عدي . فجاءه منها بتمر جنيب[3] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكلّ تمر خيبر هكذا ؟ فقال . لا والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ؛ فقال : لا تفعل ، بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا[4] .

الدلائل والعبر :

استنبط العلماء من غزوة خيبر هذه ، دلالات وأحكاما كثيرة مختلفة ، نذكر فيما يلي جملة منها :

---

(١) سياق القصة بهذه الصيغة لابن اسحاق ، والقصة متفق عليها عند البخاري ومسلم .

(٢) خبر قدوم جعفر بن ابي طالب واشتراكه في الغنائم من رواية البخاري وغيره وليس في البخاري تفصيل كيفية استقباله صلى الله عليه وسلم له .

(٣) التمر الجنيب هو التمر الجيد .

(٤) رواه البخاري وانظر فتح الباري : ٧ ـ ٣٤٧ والجنيب الجيد من التمر .

اولها ـ (جواز الاغارة على من بلغتهم الدعوة الاسلامية وحقيقتها ، بدون انذار سابق او دعوة مجددة) ، وهو مذهب الشافعية وجمهور الفقهاء ، فذلك ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في إغارته على خيبر . وأما بلوغ الدعوة وتفهم الاسلام فهما صحيحا على وجهه فهو شرط بالاتفاق .

ثانيها ـ (تقسيم الغنائم على الاساس الذي ورد ذكره) ، وهو تقسيم اربعة اخماسها بين الغانمين يعطى للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم : سهم له واثنان لفرسه[1] . والخمس الباقي يوزع أخماسا على من نصت عليهم الآية القرآنية : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ، وسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخمس يوزع من بعده على مصالح المسلمين كما ذهب الى ذلك الشافعية والحنفية ، وقيل يختص به الخليفة فيصرفه فيما يراه ، والقولان متقاربان . ولقد كان رسول الله يصرفه في حياته على مصالح المسلمين ، لا يأخذ منه لنفسه وأهله أكثر من قوت سنة . فالمقتضى ان يصرفه الامام من بعد وفاته في المصرف ذاته .

ثالثها ـ (جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال) ،

ولكن ذلك مشروط باستئذان اصحاب الحق فيها . فقد أشرك النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب ومن معه في الغنائم ، باذن من الصحابه ، حينما عادوا من الحبشة واليمن .

واعلم أن رواية البخاري في هذا خالية عن التقييد باستئذان المسلمين ، ولكن زاد البيهقي في روايته أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يقسم لهم كلّم المسلمين فأشركوهم ، وزيادة العدل مقبولة . والذي زاد من قيمة القيد الذي

رواه البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُسهم لأبان بن سعيد ، وقد كان أرسله على سرية قِبَل نجد فعاد منها الى خيبر بعد انتهاء القتال ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : إقسم لنا يا رسول الله ، فلم يقسم له ، وإنما يجمع

(١) ذهب ابو حنيفة إلى ان للفارس سهمين ، سهم له وآخر لفرسه . وهو محجوج بما ذكرنا من تقسيم النبي صلى الله عليه وسلم لغنائم خيبر .

بين الخبرين بحمل الاول منهما على إذن الجماعة في القسمة ، والثاني على عدمه [1] .

ولعلك تسأل : فما مصير حكم الغنائم هذا ، مع ما تطورت اليه اليوم حالة الحروب والجند وسياسة عطاءاتهم ومرتباتهم ؟

والجواب : أنك قد علمت مما سبق ان الاموال غير المنقولة من الغنائم لا توزع بين المحاربين عند مالك وأبي حنيفة على نحو ما مر بيانه . إلا إذا دعت المصلحة أو الضرورة . أما الاموال المنقولة منها فيجب ان توزع على الغانمين بالطريقة ذاتها التي كان يسلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ملاحظة ما تطورت اليه وسائل القتال وطرائقه في تفاوت درجات المقاتلين .

ولا مانع من ان توزع عليهم حصصهم على شكل علاوات أو مرتبات متلاحقة إنما المهم أن الدولة لا يجوز لها ان تستملك شيئا من هذه الاموال لنفسها ، أو أن تصرفه في مصارف أخرى .

رابعها ـ (مشروعية عقد المساقاة) ، وهي ان يعامل مالك الارض غيره على ما فيها من شجر ليتعهده بالسقي والتربية على أن الثمار تكون بينهما ، وقد ذهب مالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم إلى صحة هذا العقد مستدلين على ذلك بمعاملته صلى الله عليه وسلم أهالي خيبر ، وانفرد ابو حنيفة رضي الله عنه ، فلم يجوز ذلك ، قال ولا دليل في الحديث ، لان خيبر فتحت عنوة ، فما أخذه من أرضها فهو له وما تركه منها فهو له ، وخالفه الصاحبان فاتفقا مع الجمهور على صحته . ثم اختلف العلماء : هل ينبغي ان يقال بصحة هذا العقد على كل انواع الشجر أم هو خاص بالنخيل والعنب ، وقوفا عند مورد الدليل ، إذ كانت عامة أشجار خيبر نخيلا وعنبا ، والذي ذهب اليه كثير من الفقهاء هو التعميم في كل أنواع الشجر .

أما المزارعة فقد منعها قسم كبير ممن صحح عقد المساقاة ، منهم الشافعية ، وهي أن يعامل مالك الارض شخصا آخر على ان يعمل فيها بالزراعة والاستنبات

(١) راجع فتح الباري : ٧ ـ ٣٤٠ و ٣٤٩ .

بجزء مما ستخرجه الارض ، قال جمهور الشافعية هو غير صحيح ، لما ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن المزارعة وأمر بالمؤاجرة ، قالوا إلا أن يكون عقد المزارعة تبعا للمساقاة أي بأن يكون بين الشجر بياض اتفق الطرفان على زراعته ضمن اتفاقهما على عقد المساقاة .

والراجح لدى التأمل في مجموع الادلة ، صحة كل من عقد المساقاة والمزارعة فقد قالوا في بيانه إن النهي كان في أول الامر لحاجة الناس وكون المهاجرين ليست لهم أرض ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الانصار بالتكرم بالمواساة ، ويدل له ما أخرجه مسلم من حديث جابر قال : كان لرجال من الانصار فضول أرض ، وكانوا يكرونها بالثلث والربع فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فان أبى فليمسكها ، ثم بعد توسع حال المسلمين زال الاحتياج فأبيحت لهم المزارعة وأن يتصرف المالك في ملكه كما بشاء . ويدل على ذلك ما وقع من المزارعة والمؤاجرة في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء من بعده .

خامسها ـ (مشروعية تقبيل القادم والتزامه) ، وهو مما لا نعلم فيه خلافا معتدا به اذا كان قادما من سفر او طال العهد به ، واستدل العلماء في ذلك بتقبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب بين عينيه والتزامه إياه عند قدومه من الحبشة ، والحديث رواه أبو داود بسند صحيح ، وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فأتاه فقرع الباب ، فقام اليه النبي صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه ، فاعتنقه وقبله .

ويشكل عليه في الظاهر ما رواه الترمذي ايضا عن أنس رضي الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله ، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له ؟ قال : لا ، قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا . قال فيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال : نعم .

وجواب الاشكال أن سؤال الرجل في هذا الحديث عن اللقاءات المتكررة بين الرجل وصاحبه ، والتقبيل أو الالتزام أمر غير مرغوب فيه في مثل هذه

الحال ، أما ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك بالنسبة لجعفر وزيد فانما كان ذلك ـ كما قد علمت ـ على أثر قدوم من سفر فالحالتان مختلفتان . على أن جواز التقبيل ونحوه مشروطان بأن لا تكون ثمة دوافع محرمة اليهما . فالقصد يلون الفعل بالحكم المناسب له . والله مطلع على السرائر وما تكنه الصدور .

سادسها ـ (حرمة ربا الفضل في المطعومات) ، وهو أن يتبادل اثنان مطعومين من جنس واحد مع تفاضل بينهما . وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحاديث كثيرة صحيحة منها ما رواه مسلم عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والتمر بالتمر والبر بالبر والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عينا بعين فمن زاد أو استزاد فقد أربى . ومنها ما رويناه عن البخاري من نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن مبادلة التمر الجيد بالتمر الرديء مفاضلة .

وليس هذا مجال البحث في الحكمة من تحريم هذا التبادل واعتباره ربا محرما ، فمجال ذلك المطولات من كتب الفقه .

ولكن الذي ينبغي التنبيه اليه هنا ، هو أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد من يريد أن يستبدل تمرا جيدا برديء أو غيره من المطعومات بمثله ، الى وسيلة أخرى سائغة لا ربا فيها ، وهي أن يبيع الرديء بالدراهم ثم يشتري بها الجيد الذي يبتغيه . ولا يضيره في شيء أنه إنما يريد أن يتوسل بالبيع ، الى شيء آخر كان محرما في الأصل وأنه لا يقصد البيع لذاته . لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سوغ ذلك ، وإنما المحرم ما قد نهى عنه الكتاب أو نهت عنه السنة نهيا جازما .

والحكم الذي يستنتج من هذا : أنه يجوز التوصل الى تحويل حكم لآخر بواسطة مشروعة لذلك ، ولا يعتبر ذلك حيلة محرمة ، فيجوز أن ينكح الرجل امرأة مطلقة بقصد تحليلها لزوجها السابق إذا لم يشترط ذلك في العقد ، ويجوز أن يعطي صاحب الدين زكاة ماله للمدين الذي عجز عن إبراء ذمته نحوه ، ثم يسترده منه عن دينه .

ولا عبرة لمخالفة ابن القيم في هذا محتجا بأن الاعمال بمقاصدها . وأن الذي باع ، قاصدا شيئا آخر غير ما شرع له البيع ، والذي نكح قاصدا غير الذي شرع له النكاح ، متلبسان بفعل باطل لانهما حولا الحكم عن غايته الى غاية أخرى لم يشرع لها ذلك الحكم ــ نقول لا عبرة لكلامه هذا ؛ لانه يناقض حديث البخاري الذي ذكرناه مناقضة صريحة . والقواعد الفقهية انما تأتي من وراء النصوص لا من فوقها ، ولان ابن القيم ناقض نفسه مناقضة في منتهى الغرابة والعجب بصدد هذا البحث في كتابه اعلام الموقعين . فقد أطال في ذم تحريم بعض الصور التي سماها حيلا محرمة وأطنب في تفنيد آراء الأئمة القائلين بصحتها ، وتوعد بأن لهم مواقف عصيبة بين يدي الله يوم القيامة . ثم ما لبث بعد بضع صفحات أن راح يسوغها ويضرب المثل بها للحيل الشرعية الصحيحة ، وكأنه ليس هو الذي أطنب قبل قليل في تفنيدها والتحذير منها [1] .

* * *

ثم إن في هذه الغزوة حادثتين ، كل منهما ثابت بالحديث الصحيح ، تعدان من الخوارق العظيمة التي أيد الله بهامحمدا صلى الله عليه وسلم .

أولاهما ــ أنه صلى الله عليه وسلم تفل في عين علي رضي الله عنه وقد كان يشتكي منها فبرأت في الوقت نفسه حتى كأن لم يكن به وجع .

الثانية ــ ما أوحى الله اليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الاكل منها . ولامر ما سبق قضاء الله تعالى فابتلع بشر بن البراء لقمته قبل أن ينطق

---

(1) انظر اعلام الموقعين : ج ٣ ص ٢٩٢ ط التجارية عندما يتحدث عن حيلة التوسل بالخلع لدرء الطلاق قائلا : هذه الحيلة باطلة شرعا .. الخ ثم انظر ج٤ ص ١١٠ منه ، لتجد كيف يسوغ هذه الحيلة ويوجهها بعشرة أوجه من الادلة المعتبرة عنده . وانظر ما قبل ذلك وبعده لتجد صورا من التناقض العجيب ! .

وإذا اردت التوسع في بحث ما يسمى بالحيل الشرعية واثر المقاصد في العقود والاحكام ، فارجع الى تفصيل ذلك في كتابي : ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية من ص ٢٩٣ الى ٣٢٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مسمومة ، فكان قضاؤه في ذلك : ولعل في ذلك مزيدا من بيان ما اختص الله تعالى به نبيه عليه الصلاة والسلام من الحفظ والعصمة من أيدي الناس وكيدهم ، تنفيذا لوعده جل جلاله : والله يعصمك من الناس .

ولقد ذكرنا أن الرواة اختلفوا : هل أسلمت المرأة اليهودية أم لا ، والذي يغلب ـ على ما جزم به الزهري وغيره ـ أنها قد أسلمت . ولذلك لم يقتلها صلى الله عليه وسلم على ماذكره مسلم .

لا يقال إن القصاص كان يقتضي قتلها ، لان القاعدة المتفق عليها : أن الاسلام يجب ما قبله ؛ فالقتل الذي يستوجب القصاص ، هو ما كان واقعا بعد إسلام القاتل . أما ما قبله فالامر في ذلك راجع الى الحرابة ، ومعلوم أن الحرابة تنتهي بالدخول في الاسلام .

ثم إن يهود خيبر مكثوا يزرعون الارض على النصف من نتاجها ؛ الى أن كانت خلافة عمر رضي الله عنه ، فقتلوا أحد الانصار وعدوا على عبد الله بن عمر ففدعت يداه ، فقال رضي الله عنه للناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الانصاري قبله ، لا نشك أنهم أصحابه ، ليس لنا عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فاني مخرج يهود .

وهكذا تم اخراج اليهود من الجزيرة العربية ، ولو لا بغيهم وعدوانهم واستكبارهم على الحق لما طوردوا ولما أخرجوا . ولكن الارض يرثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

سرايا الى القبائل ... وكتب الى الملوك

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا من أصحابه الى مختلف قبائل الاعراب المنتشرة في الجزيرة العربية لتقوم بوظيفة الدعوة الى الاسلام فان لم يستجيبوا عدوانا وعنادا قاتلوهم على ذلك .

ولقد كانت هذه السرايا خلال العام السابع للهجرة ، وتبلغ عدتها عشرة سرايا أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم بامرة مختلف الصحابة .

وفي هذه الفترة نفسها ، بدأ النبي عليه الصلاة والسلام يبعث كتبا الى مختلف ملوك ورؤساء العالم يدعوهم فيها الى الاسلام ونبذ ما هم عليه من الاديان الباطلة .

روى ابن سعد في طبقاته : أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ، أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتبا ، فقيل يا رسول الله ، ان الملوك لا يقرأون كتابا الا مختوما . فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خاتما من فضة نقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب . فخرج ستة نفر في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع ، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم .

فكان أول رسول بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي فأخذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه على عينيه ونزل من سريره ، فجلس على الارض تواضعا ثم أسلم وشهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت استطيع أن آتيه لاتيته[1] .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي الى هرقل ملك الروم ، فدفع دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى الى هرقل . فقرأه وكان فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان توليت فان عليك إثم الاريسيين[2] ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[3] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢ــ ٢٣ باختصار .

(٢) الاريسيين ، قال ابن حجر : جمع أريسي وهو منسوب الى اريس ، وهو الفلاح ، والمقصود بالكلمة الاتباع وعامة الشعب .

(٣) متفق عليه عند البخاري ومسلم .

قال ابن سعد في طبقاته : فقال هرقل بعد أن قرأ الكتاب لجمع من عظمائه وحاشيته: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم ، قالت الروم : وما ذاك أيها الملك ؟ قال : تتبعون هذا النبي العربي ، قالوا فحاصوا حيصة حمر الوحش ، وتناجزوا ورفعوا الصليب . فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من اسلامهم وخاف على نفسه وملكه ، فسكتهم ثم قال : إنما قلت لكم ماقلت لاختبر كم لانظر كيف صلابتهم في دينكم ، فقد رأيت منكم الذي أحب . فسجدوا له .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى يدعوه الى الاسلام ، وأرسل معه اليه كتابا ، قال فدفعت اليه الكتاب ، فقرىء عليه ، ثم أخذه فمزقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مزق الله ملكه . وكتب كسرى الى باذان عامله على اليمن أن ابعث من عندك برجلين جلدين الى هذا الرجل فليأتياني به ، فبعث اليه برجلين جلديـن ، وكتب اليه معهما كتابا ، فقدما المدينة ودفعا كتاب باذان الى النبي صلى الله عليه وسلم، فتبسم رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ارجعا عني يومكمـا هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريد . فجاءاه من الغد فقال لهما : « أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها » ـ قال ابـن سعد ـ وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الاولى سنة سبع « وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله » ، فرجعا الى باذان بذلك ، فأسلم هو والابناء الذين باليمن[1] .

---

(١) خبر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى بهذا التفصيل من رواية ابن سعد في طبقاته وقد ذكر ذلك البخاري ايضا مختصرا ، وفيه : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم ـ لما بلغه انه مزق كتابه ـ أن يمزقوا كل ممزق ، وقـد اسند الشيخ نـاصر ، في تعليقاتـه عـلى كتـاب فقـه السيرة للغزالي ، الى ابن سعد ، زيادة على ما ذكرته ، لم أجدها في طبقاته ، وهي : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شواربهما (أي الرجلين اللذين ارسلهما اليه باذان) مفتولة وخدودهمـا محلوقة فاشاح عنهم وقال : ويحكما ، من امركما بهذا ؟ قالا : امرنا ربنا : يعنيان كسرى ، فهذه الزيادة لم اجـدها في رواية ابن سعد ، وانما هي من رواية ابن جرير ، فلعله وهم في نسبتها الى ابن سعد .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الازدي الى عظيم بصرى من قبل الروم شرحبيل بن عمر الغساني ، فأوثقه رباطا وقتله ، قالوا ولم يقتل لرسول الله صلى الله وسلم رسول غيره[1] .

وبعث صلى الله عليه وسلم برسل وكتب أخرى كثيرة الى كثير من الامراء العرب المتفرقين في مختلف المناطق ، فأسلم منهم الكثير ، وعاند البعض منهم .

وفي هذه الفترة أيضا تلاحق الوفود تفد على رسول الله صلى الله عليه من مختلف الجهات تعلن اسلامها وتدخل في دين الله تعالى . وممن أسلم في هذه الفترة من كبار العرب وقادتهم : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

روى ابن اسحاق ، عن عمرو بن العاص ، قال : خرجت عامدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبل الفتح ، وهو مقبل من مكة . فقلت : أين تريد يا أبا سليمان ؟ قال : أذهب والله لاسلم ،فحتى متى ؟ ! قلت له : وما جئت الا لاسلم ، فقدمنا جميعا ، فتقدم خالد فأسلم وبايع ، ثم دنوت فبايعته .

* * *

الدلائل والعبر :

معالم المرحلة الجديدة : حديث هذه السرايا التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم منتشرة في القبائل ، والكتب التي أرسلها الى مختلف ملوك ورؤساء العالم ، جزء من المظاهر التي تميز هذه المرحلة من الدعوة في حياته عليه الصلاة والسلام ، عن المرحلة التي قبلها .

لقد كانت المرحلة التي تسير فيها الدعوة من بدء الهجرة الى صلح الحديبية ، مرحلة دفاعية كما قلت ، حتى انها كادت ان لا تترك مجالا لتعريف الناس بالاسلام مع الدعوة الهادئة السلمية اليه . اذ كانت الغزوات والحروب متلاحقة لا تتيح للمسلمين فرصة .

---

(١) رواه الواقدي ، عن عمر بن الحكم ، قال ابن حجر : وذكره ايضا ابن شاهين من طريق محمد بن يزيد .

فلما أبرم صلح الحديبية بين المشركين من قريش والمسلمين في المدينة ، واطمأنت أفئدة المسلمين واستراحوا من مناعب قريش ومناوشاتهم ـ تفرغ النبي صلى الله عليه وسلم للدخول في مرحلة جديدة لا بد منها في حكم الشريعة الاسلامية التي بعث لتبليغها وتطبيقها ، ألا وهي مرحلة قتال أولئك الذين بلغتهم الدعوة فوعوها وفهموها ، ولكنهم استكبروا عن الايمان بها والاذعان لها حقدا وعدوانا ، ومرحلة ابلاغ الاسلام والتعريف به للقبائل والامم الاخرى التي لم يتح لها أن تسمع بالاسلام أو ان تتعرف عليه وتفهم حقيقته .

انها المرحلة التي بها أنجز رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة ربه ، وهي المرحلة التي أصبحت ـ بعمله وقبوله ـ حكما شرعيا باتفاق المسلمين في كل عصر الى يوم القيامة ، وهي المرحلة التي يحاول محترفو الغزو الفكري أن يطمسوا عليها ويغيبوها عن أعين المسلمين ، بزعم أن كل ما يتعلق بالجهاد والدعوة في الشريعة الاسلامية إنما هو مبني على أساس الحرب الدفاعية ورد العدوان . ونظرا الى أن هيئة الامم قامت لتتولى الدفاع ورد العدوان عن المستضعفين ، فلا حاجة الى استبقاء مبدأ الحرب الدفاعية أيضا .

وليس سرا خافيا أن الامر الذي يدعوهم الى هذا الكيد والتضليل في البحث ، انما هو الخوف الشديد لدى الدول الاجنبية ـ غربيها وشرقيها على السواء ـ من أن يعود فيستيقظ في نفوس المسلمين معنى الجهاد في سبيل الله بمعناه الشامل العام الذي يتأسس على الدعوة الى دين الله والتعريف به تعريفا علميا سليما .

فلئن تم هذا ، فسيتم عندئذ لا محالة انهيار الحضارة الاوروبية مهما تطاول بنيانها .

ولقد نضجت عقلية الرجل الاوروبي لمعانقة الاسلام بمجرد أن يسمع دعوة خالصة اليه ، فكيف لو نهض المسلمون بهذه الدعوة مع التعريف بالاسلام ، في تلك الربوع على خير وجه ، وابتغاء مرضاة الله وحده ؟

ثم إن في قصة الكتب التي ارسلها صلى الله عليه وسلم الى الملوك والرؤساء دلالات وأحكاما كثيرة نجملها فيما يلي :

أولا ـ الاسلام دين ارسل لكل البشر :

إن الدعوة التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما بعث بها الى الناس كافة لا الى قوم بأعيانهم ، وإن رسالته إنما هي انسانية شاملة ليس لها طابع عنصرية أو قومية أو جماعة معينة ، ولذلك اتجه صلى الله عليه وسلم بدعوته يبلغها الى كل حكام الارض وملوكها ، روي عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى كسرى والى قيصر والى النجاشي والى كل جبار ، يدعوهم الى الله تعالى ، وقد مر بيان هذه الحقيقة في بعض مقدمات هذا الكتاب .

ثانيا ـ هرقل آثر الملك على الحق . وقومه اعمتهم العصبية الباطلة :

يدلك موقف هرقل مع اتباعه الذين يزعمون أنهم على دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، على مدى التكبر على الحق والتعنت في الباطل عند كثير من أهل الكتاب ، وهم الذين تحول الدين في تصورهم الى تقاليد وعصبية ، فلا ينظرون إليه من حيث إنه حق أو باطل بمقدار ما يتمسكون به من حيث إنه جزء من تقاليدهم ومظهر لعصبيتهم وشخصيتهم وليكن بعد ذلك اذا شاء حقا أو باطلا . ولقد بدى موقف هرقل بادىء الامر في مظهر المتدبر المقدر لحقائق الامور ، ولكن يبدو أنه كان يسوس بذلك رعيته وحاشيته ويجس نبضهم ، ليطمئن الى ما ينبغي أن يفعله حفظا على ملكيته وسلطانه حيال هذا الامر .

ثالثا ـ اتخاذ الخاتم واستجابته :

دل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا على مشروعية اتخاذ الخاتم ، وكان خاتمه صلى الله عليه وسلم من فضة ، كما دل على مشروعية نقش اسم صاحبه عليه وقد استدل كثير من العلماء بذلك على استحباب وضع خاتم من فضة في الاصبع التي كان صلى الله عليه وسلم يضع خاتمه فيها ، وهي اصبع الخنصر .

رابعا ـ وسائل الدعوة والاعداد لها :

ويدل أيضا عمله صلى الله عليه وسلم على أنه ينبغي على المسلمين أن يهيؤا للدعوة الاسلامية في كل ارجاء الارض وسائلها وأسبابها . ومن أهم أسباب ذلك ، المعرفة بلغة الامم والاقوام الذين يقومون بدعوتهم الى الاسلام ، وتعريفهم بمبادئه واحكامه . فقد رأينا أنه صلى الله عليه وسلم بعث ستة رجال من أصحابه في يوم واحد ليتفرقوا الى الملوك الذين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم اليهم وكان كل واحد منهم يتقن لغة القوم الذين بعثه اليهم .

خامسا ـ اصلاح المسلمين لانفسهم اولا شرط لا بد منه :

يدل عمله صلى الله عليه وسلم هذا ، مع ملاحظة التوقيت الذي جاء فيه على أن على المسلمين أن يقوموا أولا بمسؤولية الدعوى فيما بينهم ، وأن يصلحوا من أنفسهم ، حتى اذا قطعوا من ذلك شوطا كبيرا وفرغوا من تطبيق نظام الاسلام على حياتهم وسلوكهم ، آن لهم حينئذ ان يتجهوا بالدعوة الى الامم الاخرى . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قادرا أن يرسل عددا من أصحابه الى هؤلاء الرؤساء والملوك قبل هذا التاريخ بكثير ، غير أن ذلك ينطوي على الاخلال بهذا الواجب الذي ذكرناه . وينبغي أن نعلم أن إصلاح المسلمين أنفسهم هو بنفسه جزء عظيم من دعوة غيرهم الى الاسلام ، فالناس كانوا ولا يزالون يبحثون عن المثل الصالح في السلوك والخلق ، ليقتفوا أثره ويتبعوه . ولو أن المسلمين اليوم كانوا معتزين باسلامهم مطبقين مبادئه وأحكامه لرأيت ذلك الشعاع الهادي متوغلا بضيائه في مجاهل افريقيا وأقاصي اوروبا .

هذا وقد كان زمن ارسال هذه الرسائل والكتب ، خلال العام السابع للهجرة ، كما ذكرنا ، أي قبل الفتح ، وذلك هو الحين الذي أجمع عليه عامة علماء السيرة . ولايخل بذلك ما دل عليه صنيع الامام البخاري في صحيحه ، فقد أورد خبر كتبه صلى الله عليه وسلم بعد غزوة تبوك ، وذلك يدل على أنه انما كان في العام التاسع .

قال ابن حجر : أن الجمع بين القولين أنه صلى الله عليه وسلم ، كاتب قيصر مرتين وهذه الثانية قد وقع التصريح بها في مسند الامام أحمد ، وكاتب النجاشي الذي أسلم ، وصلى الله عليه لما مات ، ثم كاتب النجاشي الذي ولي بعده ، وكان كافرا .

سادسا ـ ما « الاريسيون » ؟ :

أصح ما يمكن أن يقال في تفسير هذه الكلمة ، انها نسبة لاريوس . وهو احد رجال الدين الذين كانوا في عهد قسطنطين الذي عقد مؤتمرا ، قضى فيه بتغيير العقيدة الصحيحة التي كان يؤمن بها اتباع عيسى عليه السلام من كونه بشرا من الناس ، وأنه لم يصلب ، ولكن شبه لهم المصلوب بشخصه . فحمل أريوس هذا لواء المعارضة لقسطنطين ورفض ادخال أي تعديل على الاناجيل المعروفة المتداولة آنذاك ، الى ما يخالف العقيدة الاسلامية الصحيحة . ولكن قسطنطين بحكم سلطانه تغلب في النهاية مستقطبا عددا كبيرا في صفه من رجال الدين أغراهم بالاموال والرتب .

ولكن ظل جمع كبير من الناس ثابتين على الحق الذي ثبت عليه أريوس ، فنسبوا مع الزمن اليه وقيل عنهم « اريوسيون » ولا يزال يوجد منهم كثرة كبيرة في ربوع اوربا .

غزوة مؤتة

وقد كانت في شهر جمادى الاولى سنة ثمان من الهجرة . ومؤتة قرية على مشارف الشام ، وهي التي تسمى اليوم : الكرك .

وسببها ما ذكرناه من مقتل الحارث بن عمير الازدي ، رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك بصرى ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره . فندب الناس للخروج الى الشام ، وسرعان ما اجتمع من المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل قد تهيؤوا للخروج الى مؤتة .

ولم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، وبذلك تعلم أنها في الحقيقة ليست بغزوة وانما هي سرية ، ولكن عامة علماء السيرة أطلقوا عليها اسم الغزوة لكثرة عدد المسلمين فيها ولما كان لها من أهمية بالغة . وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمير الناس زيد بن حارثة ، فان قتل فجعفر بن أبي طالب ، فان قتل فعبد الله بن رواحة ، فان قتل فليرتض المسلمون منهم رجلا فليجعلوه عليهم[1] . وأوصاهم صلى الله عليه وسلم أن يدعوا من هناك الى الاسلام ، فان اجابوا ، والا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم .

قال ابن اسحاق : ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المسلمين وأمراءهم عند خروجهم من المدينة ، وفي تلك الاثناء بكى عبد الله بن رواحة ، فقالوا له ما يبكيك ؟ قال أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله تعالى يذكر فيها النار : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود .

وناداهم المسلمون وهم يسيرون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم الينا صالحين . فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا
حتى يقال اذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز ، وقد رشدا

ولما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم ، جمع هرقل لهم أكثر من مائة ألف مقاتل من الروم ، وجمع شرحبيل بن عمرو مائة ألف مقاتل آخر من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء .

وسمع المسلمون بذلك فأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا . فشجعهم عبد الله

---

(١) رواه البخاري ، وأحمد ، وابن سعد في طبقاته . ولكن ليس في البخاري : فان قتل فليرتض المسلمون منهم رجلا .

ابـن رواحة وقـال لهم : يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ، ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الـذي أكرمنـا الله ، فانطلقوا فانما هي إحـدى الحسنيين : إما ظهور أو شهادة .

والتقى المسلمون مع أعدائهم قبيل الكرك ، وقد اجتمع منهم مالا قبل لاحد به من العدد والسلاح والعتاد ، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل المسلمون معه حتى قتل رضي الله عنه طعنا بالرماح . ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فأبلى بلاء عظيما ، حتى اذا ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها ثم انطلق يشتد في قتال القوم وهو يرتجز :

يا حبذا الجنـة واقترابها طيبـة وبـاردا شرابهـا
والروم روم قـد دنا عذابها كافـرة بعيـدة أنسابهـا
علي إذ لاقيتهـا ضرابهـا

وظل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه ، ضربه رجل مـن الروم فقده نصفين ، فوجد في جسمه خمسون طعنة ، ليس منها شيء في ظهره[1] !.. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وانطلق يرتجز قائلا :

أقسـمت يـا نفس لتنزلنـه لتنزلـن أو لتكرهنـه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ما لي أراك تكرهـين الجنـة
قد طـال ما كنت مطمئنـة هـل أنت الا نطفة في شـنة

ولم يزل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه . ثم اتفق الناس على إمرة خالد بن الوليد فأخذ اللواء ، وقاتل المشركين حتى انهزموا ، فانحاز بجيشه حينئذ عائـدا الى المدينة .

---

(1) رواه البخاري .

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفر وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ــ وعيناه تذرفان ــ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم .

وهذا الحديث يدل كما ترى ، على أن الله أيد المسلمين بالنصر أخيرا ، وليس كما قال بعض رواة السيرة أن المسلمين انهزموا وتفرقوا ، وعادوا بعد ذلك الى المدينة . ولعل مقصود الذين قالوا هذا ، أن المسلمين لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم ، واكتفوا بانكشافهم عن مواقعهم ، خوفا على المسلمين ، وانقلبوا عائدين الى المدينة ، ولا شك أنه تدبير حكيم من خالد بن الوليد رضي الله عنه .

قال ابن حجر : وقع في المغازي لموسى بن عقبة ــ وهي أصح المغازي ــ قوله : ثم أخذه (يعني اللواء) عبد الله بن رواحة فقتل ، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد ، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين . قال العماد بن كثير : ويمكن الجمع بأن خالدا حاز المسلمين وبات ، ثم أصبح وقد غير هيأة العسكر فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، ليتوهم العدو أن مددا قد جاء المسلمين . فحمل عليهم خالد فولوا فلم يتبعهم ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى[1] .

ولما دنوا من المدينة ، تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقيهم الصبيان يسرعون ، فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر !.. فأتى بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه .. وجعل الناس يصيحون بالجيش : يا فرار ، فررتم في سبيل الله .. فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .

وقال عليه الصلاة والسلام لاصحابه : اصنعوا لآل جعفر طعاما ، فانه قد أتاهم ما يشغلهم[2] .

---

(١) انظر فتح الباري : ٧ ــ ٣٦١ و ٣٦٢ .

(٢) رواه احمد والترمذي وابو داود .

الدلائل والعبر :

لغز لا يحله الا اليقين المطلق بالله :

أهم ما يثير الدهشة ، في هذه الغزوة ، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم والمشركين العرب ! .. لقد رأيت أن عدد المشركين ومن معهم من الروم قد بلغ ما يقرب مائتي ألف مقاتل !.. وذلك على ما رواه ابن اسحاق وابن سعد وعامة كتاب السيرة[1] على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف . ومعنى ذلك أن عدد المشركين والروم قد بلغوا مالا يقل عن خمسين ضعفا لعدد المسلمين ! ..

وهي نسبة ، إذا ما تصورتها ، تجعل رقعة الجيش الاسلامي ، أمام حشود الروم والمشركين ، أشبه ماتكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة الى بحر خضم مائج ، هذا الى ما كان قد جهز به جيش الاعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الابهة والبذخ ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من ذلك القلة والفقر ! ..

ومكان الدهشة في الامر ، أن تجد المسلمين بعد هذا كله ـ وهم سرية ليس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مقبلين غير مدبرين ، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزنا ، مع أنها ـ فيما يبدو ويظهر ـ لو التفت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم ، لانقلبوا الى ما يشبه نواة صغيرة في جوف قطعة أرض سوداء ! ..

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك ، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليم المتلاطم ، يقتل أميرهم الاول ، ثم الثاني ، فالثالث ، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب ، حتى يدخل الرعب الالهي في أفئدة كثير من المشركين ، دون أن يكون له سبب ظاهر ، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير ، وتقتل منهم خلائق لاتكاد تحصى ! ..

---

(١) انظر طبقات ابن سعد : ٢ـ١٧٥ ، وسيرة ابن هشام : ٢ـ٣٧٥ .

ولكن الدهشة كلها تزول ، والعجب ينتهي ، إذا تـذكرنا ما يفعله الايمـان بالله ، والاعتماد عليه ، واليقين بوعده .

بل إن الدهش بالنسبة للمسلمين ـ إذا كانوا مسلمين ـ أن لا يكونوا كذلك والعجيب فيهم حقا ، أن يكونوا مسلمين ثم يكون لارقام العـدد والعـدّة حساب مع ذلك في أفكارهم ، إلى جانب ما وعـد الله به مـن نصر وتأييد ، أو جنة ونعيم خالدين ... فالمسلمون ـ كما قال عبد الله بن رواحه رضي الله عنه ـ لا يقاتلون بعدد ولا قوة ، ولا كثرة ، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهـم الله بـه .

ثم إن هذه الغزوة ، تنطوي ، على عظات ودلالات باهرة كثيرة ، نـذكر منها ما يلي :

اولا ـ حكم الامارة المطلقة :

دلت توصية النبي صلى الله عليـه وسلم ، على أنه يجوز للخليفة أو رئيس المسلمين أن يعلق إمارة أحد الناس بشرط وأن يولي المسلمين عدة أمراء بالترتيب ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في تولية زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة ، قـال العلماء : والصحيح أنه إذا أمـر الخليفة بـذلك فان ولاية الكل تنعقد ، بوقت واحد ، في الحال ، ولكنها لا تنفذ إلا مرتبة[1] .

ثانيا ـ اذا غاب الامام فللامة اختيار امير مؤقت لهم :

دلت توصية الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا ، على مشروعية اجتهـاد المسلمين في اختيار أمير لهم ، إذا غـاب أميرهم ، أو وكل اليهم الخليفة اختيار من يرون . وقال الطحاوي : هذا أصل يؤخذ منه أن على المسلمين أن يقـدموا رجلا إذا غاب الامام يقوم مقامه الى أن يحضر .

كما دلت هذه التوصية على مشروعية اجتهاد المسلمين في حياة النبي صلى الله عليه وسـلم .

---

(١) انظر فتح الباري : ٣٦١/٧ .

ثالثا ـ الوحي الالهي يخبر محمدا باستشهاد امرائه ، كل في حينه :

لقد رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى لاصحابه زيدا وجعفر وابن رواحه وعيناه تذرفان وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم مسافات شاسعة بعيدة ! ..

وهذا يدل على أن الله قد زوى لرسوله الارض ، فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ، ما حدث أصحابه به ، وهي من جملة الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها حبيبه صلى الله عليه وسلم .

كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقته على أصحابه ، فلم يكن شيئا قليلا أن يبكي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف في أصحابه يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء . وأنت خبير أن بكاءه صلى الله عليه وسلم عليهم ، لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره فان العين لتدمع والقلب ليحزن ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الانسان عليهما .

رابعا ـ مكانة خالد بن الوليد عند رسول الله :

وحديث نعيه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الشهداء الثلاثة ، يسجل فضلا خاصا لخالد بن الوليد رضي الله عنه ، فقد قال لهم في آخر حديثه : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم . وتلك أول وقعة يحضرها خالد رضي الله عنه في صف المسلمين ، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة . ومن هنا تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو الذي سجل لقب سيف الله ، لخالد رضي الله عنه .

ولقد أبلى خالد رضي الله عنه ، في هذه الغزوة بلاء رائعا ، روى البخاري عنه رضي الله عنه قال : لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية . قال ابن حجر وهذا الحديث يدل على أن المسلمين قد قتلوا من المشركين كثيرا .

هذا ، وأما سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة : يا فرّارة

فورتم في سبيل الله ، فهو أنهم لم يتبعوا الروم ومن معهم في هزيمتهم ، وتركوا الارض التي قاتلوا فيها كما هي ولم يكن ذلك شأنهم في الغزوات الاخرى ، واكتفى خالد بذلك فكرّ عائدا الى المدينة . ولكنه كما رأيت كان تدبيرا حكيما من خالد بن الوليد رضي الله عنه حفظا للمسلمين وهيبتهم التي انطبعت في أفئدة الروم ، ولذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم عليهم قائلا : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ، إن شاء الله .

خامسا ـ يسن لجيران الميت صنع طعام لاهله :

وانه لمن مظاهر الذوق الرفيع الذي يربي الاسلام اتباعه عليه . فأهل الميت في شغل شاغل لهم عن اعداد الطعام لانفسهم وصغارهم .. لذا كان من الادب الاسلامي الرفيع أن يبادر جيران الميت الى صنع طعام يكفي أهله وصغارهم أيام انشغالهم بالحزن على ميتهم .

وأصل هذه السنة قول رسول الله : اصنعوا لآل جعفر طعاما فانه قد جاءهم ما يشغلهم .

وانظر الى الفرق العظيم بين هذا الادب السامي والذوق الرفيع الذي ربانا عليه الاسلام ، وتلك العادة القذرة الشائعة في معظم بلادنا اليوم ، إذ يتحمل أهل الميت ضرورة انلك ال بتهيىء مائدة عامرة لجمع الناس وحشودهم ، أكثر من تحمل اسباب الانشغال بترحيل ميتهم وتجهيزه !..

فتح مكة

وكان ذلك في شهر رمضان سنة ثمان من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وسببها أن أناسا من بني بكر ، كلموا أشراف قريش في أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح . (وخزاعة كانت قد دخلت في عهد المسلمين) ، فأجابوهم إلى ذلك ، وخرج جند من قريش متنكرين متنقبين ، فيهم صفوان بن

أمية وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ، فالتقوا مع بني بكر في مكان اسمه الوتير ، وبيتوا خزاعة ليلا وهم مطمئنون آمنون . فقتلوا منهم عشرين رجلا . وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبا من خزاعة ، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بما أصابهم ، فقام وهو يجر رداءه قائلا :

« لا نصرت إن لم أنصر بني كعب ، مما أنصر منه نفسي » وقال : « إن هذا السحاب ليستهل بنصر بني كعب »[1] .

وندمت قريش على مابدر منها ، فأرسلت أبا سفيان بن حرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجدد الهدنة ويمادها . وقدم أبو سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما أنا بفاعل .

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أنا أشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به (والذر صغار النمل) .

وانطلق أبو سفيان عائدا الى مكة خائبا ، لم يأت بشيء ! ..

وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخفى أمره ، وقال « اللهم خذ على أبصار قريش فلا يروني إلا بغتة »[1] .

ولما أجمع النبي صلى الله عليه وسلم المسير ، كتب حاطب بن أبي بلتعة الى قريش يحذرهم من غارة عليهم من المسلمين . قال علي رضي الله عنه : فبعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير ، والمقداد . فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان بها ظعينة (امرأة) معها كتاب فخذوه منها . قال : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظعينة قلنا لها : أخرجي

---

(١) روى ذلك ابن سعد وابن اسحاق . وهذا النص من رواية ابن سعد . قال ابن حجر : ورواه البزار والطبراني وموسى بن عقبة ، وغيرهم .. .

(١) رواه ابن اسحاق وابن سعد بالفاظ متقاربة .

الكتاب ، قالت مـا معي كتاب . فقلنا : لتخرجـن الكتاب أو لتلقين الثياب . قال : فأخرجته من عقاصها . فأتينا بـه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس بمكة مـن المشركين يخبرهم ببعض أمـر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حاطب ما هـذا ؟ قال : يا رسول الله ، لا تعجل عليّ ، إني كنت امـرءا ملصقا في قريش ـ أي كنت حليفا لهم ولست منهم ـ وكان مـن معك من المهاجريـن لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلـك من النسب فيهم ، أن اتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي ، ولم أفعلـه ارتدادا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم ، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم قـد غفرت لكم . فأنزل الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ... » الآيات الى قوله تعالى : فقد ضل سواء السبيل[1] .

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة كلثوم بـن حسين ، وخرج يوم الاربعاء لعشر ليال خلون مـن شهر رمضان بعـد العصر ، وأرسل صلى الله عليـه وسلم الى من حولـه من العرب : اسلم وغفار ومزينة ، وجهينة وغيرهم ، فالتقى كلهم في الظهران ـ مكان بين مكة والمدينة ـ وقد بلغ عـدد المسلمين عشرة آلاف . ولم تكن الانباء قد وصلت قريشا بعد ، ولكنهم كـانوا يتوقعون أمرا بسبب خيبة أبي سفيان فيما جاء بـه الى المدينة ، فأرسلوا أبـا سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ليلتمسوا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأقبلوا يسيرون ، حتى دنوا الى مـر الظهران فاذا هم بنيران عظيمة ، فبينما هم يتساءلون فيما بينهم عن هـذه النيران ، إذ رآهم أناس من

---

(1) متفق عليه واللفظ للبخاري .

حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم أبو سفيان(١) .

قال ابن إسحاق يروي عن العباس تفصيل إيمان أبي سفيان : فلما أصبح ، غدوت بـه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويحك يا أباسفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !. والله لقد ظننت أن لـو كان مع الله إله غيره لقـد أغنى عني شيئا بعد . وقال ويحك يا أبا سفيان ، ألـم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي وأمي مـا أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله ، فان في النفس منها حتى الآن شيئا . فقال له العباس : ويحك !.. أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك . قال فشهد شهادة الحق فأسلم .

قال العباس : فقلت يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل لـه شيئا ، قال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابـه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير مقبلا إلى مكة ، قال للعباس: احبس أبا سفيان بمضيق الوادي حتى تمر بـه جنود الله فيراها . قال فخرجت فحبسته عند مضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه، ومرت القبائل عليها راياتهـا ، كلما مرت قبيلة ، قال يا عباس من هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول ما لي ولسليم ؟..وهكذا ، حتى مر بـه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبة فيها المهاجرون والانصار ، لا يـرى منهم إلا الحدق مـن الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت هذا رسول الله فـي المهاجرين والانصار !.. قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقـة ، والله يا أبـا

(١) الى هنا من رواية البخاري ، وليس فيها كما ترى إشارة الى إسلام صاحبيه أيضا . والذي ذكره علماء السيرة ، وفي مقدمتهم موسى بن عقبة ، أن بديلا وحكيما أسلما بمجرد دخولهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأخر أبو سفيان باسلامه حتى أصبح . فلذلك عنيت رواية البخاري بذكر أبي سفيان وأهملت ذكر صاحبيه .

الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما !.. فقال يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن[1] .

ثم قال له العباس : النجاة الى قومك !.. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة قبل أن يصلها رسول الله ، وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فأقبلت إليه امرأته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه وهي تقول : اقتلوا الحميت الدسم الاحمس ، قبح من طليعة قوم !... فقال : ويلكم لا تغرنكم هذه من نفوسكم ، فانه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد[2] .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سعد بن عبادة قال لابي سفيان عندما رآه في مضيق الوادي ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، فلم يرض عليه الصلاة والسلام بقوله هذا ، وقال : بل اليوم يوم الرحمة ، اليوم يعظم الله الكعبة . وأمر قادة جيوشه أن لا يقاتلوا الا من قاتلهم[3] إلا ستة رجال وأربعة نسوة ، أمر بقتلهم حيثما وجدوا ، وهم عكرمة بن أبي جهل ، وهبار بن الاسود ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومقيس بن صبابة الليثي ، والحويرث ابن نقيد ، وعبد الله بن هلال ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو بن هشام ، وفرتنى وقرينة (وكانتا جاريتين تتغنيان دائما بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم)[4] .

---

(١) رواه ابن سعد ، وابن إسحاق ، وابن جرير . وروى نحوه البخاري ، والالفاظ متقاربة .

(٢) ابن إسحاق .

(٣) رواه البخاري وابن إسحاق وغيرهما .

(٤) رواه ابن سعد وابن اسحاق ، قال ان حجر : وقد جمعت اسماء هؤلاء الرجال الستة والنسوة الاربع من متفرقات الاخبار .

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة من أعلاها « كداء » وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بمن معه من أسفلها : « كدى » .فدخل المسلمون مكة من حيث أمرهم ، ولم يجد أحد منهم مقاومة ، إلا خالد بن الوليد ، فقد لقيه جمع من المشركين فيهم عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، فقاتلهم خالد فقتل منهم أربعة وعشرين من قريش ، وأربعة نفر من هـذيل . ورأى رسول الله بارقة السيوف من بعيد ، فأنكر ذلك . فقيل له : إنه خالد قوتل فقاتل ، فقال : « قضاء الله خير »[1] .

وروى البخاري عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى الى ذي طوى وقف على راحلته معتجرا «متعمما» بشقة برد حبرة ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعا لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل .

روى البخاري عن معاوية بن قرة قال : سمعت عبد الله بن مغفل يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح ، يرجّع ، وقال لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجع .

ودخل صلى الله عليه وسلم مكة متجها الى البيت ، وحوله ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها الواحدة تلو الاخرى بعود في يده ، وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد[2] . وكان في جوف البيت أيضا آلهة ، فأبى أن يدخل وفيه الآلهة ، وأمر بها فأخرجت وأخرجت صور لابراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط . ثم دخل البيت فكبر في نواحي البيت وخرج ولم يصل فيه[3] .

---

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات ، وروى ابن حجر عن موسى بن عقبة نحوه ، وفي سيرة ابن هشام أن الذين قتلوا من المشركين ثلاثة عشر أو أربعة عشر . والحديث رواه البخاري باختصار راجع فتح الباري : ٨/٨ و ٩ .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري : وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم دخل البيت فصلى فيه ، وسنذكر تحقيق ذلك في التعليق إن شاء الله .

وكان قد أمر صلى الله عليه وسلم عثمان بن طلحة (وهو من حجبة البيت) أن يأتيه بالمفتاح، فجاءه به، ففتح البيت، ثم دخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت، ثم خرج فدعا عثمان بن طلحة فدفع اليه المفتاح، وقال له خذوها خالدة مخلدة، اني لم أدفعها اليكم (أي حجابة البيت) ولكن الله دفعها اليكم، ولا ينزعها منكم الا ظالم. يشير بقوله هذا الى قول الله تعالى، إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها[1].

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا فصعد فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة. وأقبل الناس كلهم يدخلون في دين الله أفواجا. قال ابن اسحاق، وأمسك النبي صلى الله عليه وسلم بعضادتي باب الكعبة وقد اجتمع الناس من حوله ما يعلمون ما ذا يفعل بهم، فخطب فيهم قائلا:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، الا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، الا سدانة البيت وسقاية الحاج... يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب، وتلا قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم». ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[2].

وروى الشيخان عن أبي شريح العدوي أنه صلى الله عليه وسلم قال فيما خاطب به الناس يوم الفتح: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرا، فان أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فقولوا له: ان الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس، وليبلغ الشاهد الغائب.

---

(1) رواه الطبراني من مرسل الزهري، وابن ابي شيبة، وابن إسحاق. وانظر فتح الباري: ١٤/٨.

(2) وروى نحوه ابن سعد ايضا في طبقاته.

ثم إن الناس اجتمعوا بمكة لمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة لله ورسوله ، فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع اليه نساء من نساء قريش ، فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة رضي الله عنه ، فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئا ، فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال ، وسنؤتيكه ، قال : ولا تسرقن . قالت : والله إن كنت لاصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة ، وما أدري أكان ذلك حلا لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان ، وكان شاهدا لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل . فقال عليه الصلاة والسلام : وإنك لهند بنت عتبة ؟ فقالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف عفا الله عنك . قال : ولا تزنين ، قالت : هل تزني الحرة !. قال : ولا تقتلن أولادكن ، قالت قد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فأنت وهم أعلم . فضحك عمر من قولها حتى استغرب . قال : ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، فقالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح . ولبعض التجاوز أمثل . قال : ولا تعصينني في معروف .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : بايعهن واستغفر لهن رسول الله ، فبايعهن عمر . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه . إلا امرأة أحلها الله له[1] .

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام ، بهذه الآية : لا يشركن بالله شيئا ، قالت : وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة ، يملكها . وروى مسلم عن عائشة بنحوه[2] .

وأجارت أم هانيء بنت أبي طالب رضي الله عنها ، يوم الفتح ، رجلا من المشركين ، وكان علي رضي الله عنه يريد قتله ، قالت فجئت الى النبي صلى الله

---

(٢) رواه ابن إسحاق وابن جرير .

(١) انظر البخاري : ١٣٥/٨ ومسلم : ٢٩/٦ .

عليه وسلم فوجدته يغتسل ، وفاطمة بنته تستره بثوب ، قالت فسلمت عليه ، فقال من هذه ؟ فقالت : أم هانىء بنت أبي طالب . فقال : مرحبا بأم هانىء . فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفا في ثوب واحد ، ثم انصرف . فقلت يا رسول الله ، زعم ابن أمي علي أنه قاتل رجلا أجرته ، فلان : ابن هبيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء[1] .

وأما أولئك النفر الذين كان رسول الله قد هدر دمهم ، فقد قتل بعضهم وأسلم الآخرون : قتل الحويرث وعبد الله بن خطل ومقيس بن حبابة ، وقتلت إحدى الجاريتين المغنيتين وأسلمت الاخرى . وشفع في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وحسن إسلامه ، وأسلم عكرمة ، وهبار وهند بنت عتبة .

روى ابن هشام أن فضالة بن عمير الليثي [2] أراد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضالة ؟ قال نعم ، فضالة يا رسول الله قال ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : استغفر الله . ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه .

ومرّ فضالة عائدا إلى بيته بامرأة كان يميل اليها ويتحدث معها ، فقالت له : هلم الى الحديث ، فانبعث يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت : لا ... يأبى عليّ الله والاسلام
لو ما رأيت محمدا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الاصنام
لرأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الاظلام

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخاري عن ابن عباس ، تسعة عشر يوما يقصر فيها الصلاة : يصلي ركعتين .

---

(١) متفق عليه .

(٢) ذكر هذه القصة ابن هشام في سيرته ، وأوردها ابن القيم في زاد المعاد ، ولم اجد ترجمة لفضالة هذا في الاصابة ، ولا في الاستيعاب .

الدلائل والعبر :

مقدمة : عود على بدء :

الآن ، وقد رأيت أحداث الفتح العظيم الذي أكرم الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ـ تستطيع أن تبصر قيمة الدعوة السابقة وأحداثها وأن تبصر أسرارها وحكمها الالهية مجسدة أمام عينيك .

الآن ، وقد اطلعت على قصة فتح مكة ، تستطيع أن تدرك قيمة الهجرة منها قبل ذلك . تستطيع أن تدرك قيمة التضحية بالارض والوطن والمال والاهل والعشيرة في سبيل الاسلام . فلن يضيع شيء من ذلك كله إن بقي له الاسلام .

الآن ، وقد تأملت أحداث هذا الفتح الاكبر ، تستطيع أن تدرك تماما قيمة الجهاد والاستشهاد والمحن التي تمت من قبله ، إن شيئا من ذلك لم يذهب بددا ، ولم ترق نقطة دم لمسلم هدرا ، ولم يتحمل المسلمون كل ما لاقوه ، مما قد رأيت ، في غزواتهم وأسفارهم ، لان رياح المصادفات فاجأتهم بها . ولكن كل ذلك كان جاريا وفق حساب .. وكل ذلك كان يؤدي أقساطا من ثمن الفتح والنصر .. وتلك هي سنة الله في عباده : لا نصر بدون إسلام صحيح ولا إسلام بدون عبودية له ، ولا عبودية بدون بذل وتضحية وضراعة على بابه وجهاد في سبيله .

والآن ، وقد رأيت خبر هذا الفتح ، تستطيع أن تدرك القيمة الكبرى لصلح الحديبية ، وأن تستشف من وراء ظاهرها الذي أدهش عمر وكثيرا من الصحابة ، السر الالهي الرائع ، وأن تقف باطمئنان تام على المعنى الذي من أجله

أطلق الله على ذلك الصلح اسم الفتح : « فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » وإذا أدركت هذا ، أدركت مزيدا من حقائق النبوة التي كانت تقود حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

أتذكر يوم خرج النبي صلى الله عليه وسلم من وطنه : مكة ، مستخفيا في بطون الشعاب والاودية ، مهاجرا الى يثرب ، وقد سبقه من قبله ولحقه من

بعده أصحابه القلة المستضعفون يتسللون مهاجرين ، وقد تركوا المال والاهل والارض من أجل أن يبقى لهم الدين ؟...

ها هم أولاء وقد رجعوا الى الوطن والاهل والمال ، وقد كثروا بعد قلة ، وتقووا بعد ضعف ، واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالامس خاشعين أذلاء خاضعين ...

ودخل أهل مكة في دين الله أفواجا ، وأقبل بلال الحبشي وهو الذي طالما عذب في رمضاء مكة على أيدي المشركين ، فصعد على الكعبة المشرفة ينادي بأعلى صوته :

الله أكبر .. الله أكبر ..

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوما ما تحت أسواط العذاب : أحد ، أحد ، أحد ـ ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع منصت خاضع !..

ألا إنها حقيقة واحدة لا ثانية لها : هي الاسلام ، فما أحمق الانسان وما أجهله ، حينما يكافح أو يناضل أو يجاهد في غير سبيل الاسلام ، إنما يكافح حينئذ عن وهم لا حقيقة له ولا طائل .

* * *

وبعد ، فان أحداث هذا الفتح العظيم تنطوي على دلالات وأحكام كثيرة مختلفة ، يجب تبصرها والوقوف عليها . وسنذكر ما تيسر ذكره من ذلك حسب ترتيب الاحداث نفسها .

اولا ـ ما يتعلق بالهدنة ونقضها :

١ ـ يدلنا سبب فتح مكة ، على أن أهل العهد والهدنة مع المسلمين ، اذا حاربوا من هم في ذمة المسلمين وجوارهم ، صاروا حربا لهم بذلك . ولم يبق بينهم وبين المسلمين من عهد . وهذا ما اتفق عليه عامة علماء المسلمين .

٢ ــ تدلنا الطريقة التي قصد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، على أنه يجوز للامام المسلمين ورئيسهم أن يفاجيء العدو بالاغارة والحرب لدى خيانته العهد ونبذه له ، ولا يجب عليه أن يعلمهم بذلك . فقدرأيت أن النبي صلى الله قليه وسلم لما أجمع الخروج الى مكة دعا قائلا : اللهم خذ على أبصار قريش فلا يروني إلا بغتة ، وهذا ما اتفق عليه عامة العلماء .

أما إذا لم تقع الخيانة ، وإنما خيف منهم ذلك ، بسبب علائم ودلائل قوية ، فلا يجوز حينئذ للامام أن ينبذ عهدهم ويفاجئهم بالحرب والقتال ، بل لا بد من إعلامهم جميعا بذلك أولا ، بدليل قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » أي أعلمهم كلهم عن نبذك لعهدهم .

ثانيا ــ حاطب بن ابي بلتعة وما يتعلق بعمله :

٣ ــ وفي عمله صلى الله عليه وسلم أيضا دليل على أن مباشرة البعض لنقض العهد ، بمثابة مباشرة الجميع لذلك ، ما لم يبد الآخرون استنكارا حقيقيا له . فالنبي صلى الله عليه وسلم اكتفى بسكوت عامة قريش واقرارهم لما بدر من بعضهم من الاغارة على حلفاء المسلمين ، دليلا على أنهم قد دخلوا بذلك معهم في خيانة العهد . وهذا لانه لما دخلت عامة قريش في أمر الهدنة تبعا لكبارهم وممثليهم ، اقتضى الامر أن يخرج أيضا هؤلاء العامة عن الهدنة ، تبعا لما قام به كبارهم وزعماؤهم وممثلوهم .

١ ــ اننا نجد أنفسنا أمام مظهر جديد آخر لنبوته صلى الله عليه وسلم ، وما كان يؤيد به من الوحي من قبل ربه جل جلاله . لقد قال لبعض أصحابه : اذهبوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فمن الذي أخبره بأمر هذا الكتاب وأطلعه على مادار بين الظعينة وحاطب بن أبي بلتعة في شأنه ؟ إنه الوحي .. واذا فهي النبوة ، وهي التأييد من الله تعالى لنبيه حتى يتم المخطط الالهي للفتح العظيم الذي أكرم الله به نبيه والمسلمين .

٢ ــ هل يجوز تعذيب المتهم بمختلف الوسائل ، حملا له على الاعتراف ؟

لقد استدل بعضهم بما قاله علي رضي الله عنه لتلك المرأة : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب استدلوا بذلك على أنه يجوز للامام أو نائبه أن يسلك من الوسائل ما يراه كفيلا بكشف الجريمة وإظهارها . كما استدلوا على ذلك بما روي من أن اليهود غيبوا أموالا في غزوة خيبر لحيي بن أخطب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير (المسك وعاء من جلد) فقال : أذهبته النفقات والحروب . فقال : العهد قريب والمال أكثر من ذلك ، فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الزبير فمسه بعذاب ، فقال لهم : قد رأيت حيي يطوف بخربة هنا ، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة .

وبعض الباحثين اليوم ، يستندون مثل هذا الرأي الى الامام مالك رضي الله عنه .

والحق الذي عليه كل الأئمة الاربعة وجمهور الباحثين والعلماء ، أنه لا يجوز تعذيب المتهم الذي لم تثبت عليه الجريمة ببينة شرعية كافية ، حملا له على الاقرار . فالمتهم بريء ما لم تثبت جريمته .

وخبر الظعينة التي أرسلها حاطب الى مكة ، وتهديد علي رضي الله عنه لها ، ليس من هذا في شيء ، وذلك للسببين التاليين :

أولا ــ ليست تلك المرأة مجرد متهمة ، بما ووجهت به ، بل هي حقيقة ثابتة ، دل عليها خبر أصدق الناس محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو أقوى في دلالته من بينة الاعتراف والاقرار ، فكيف يقاس عليها من حامت حوله التهم لمجرد ظنون وشكوك من أناس غير معصومين ؟ وما يقال عن هذه المرأة ، يقال أيضا عن عم حيي بن أخطب .

ثانيا ــ ليس إلقاء الثياب للتفتيش عن الكتاب، كأمر التعذيب أو الحبس ، فالفرق بينهما كبير واضح ، وإذا ثبت أن الكتاب معها لامحالة ، ولم يكن من سبيل الى الوصول اليه الا بالتنقيب في ثيابها ، فذلك أمر مشروع ولا ريب ، بل هو واجب استلزمه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما تعذيب الزبير لعم

حيي بن أخطب ، فهو أولا : قائم كما قلنا على الحقيقة لا التهمة ، ثم هو ثانيا متعلق بأمر الجهاد والحرابة بين المسلمين وغيرهم ، فكيف يقاس عليه تعامل المسلمين بعضهم مع بعضهم ؟!..

أما زعم أن هذا مذهب ذهب اليه مالك رضي الله عنه في فقهه ، فهو زعم باطل مخالف لما هو معروف وواضح من مذهبه .

جاء في المدونة وهو من رواية سحنون عن مالك رضي الله عنه قوله :

(قلت أرأيت اذا أقر بشيء من الحدود بعد التهديد أو القيد أو الوعيد أو الضرب أو السجن ، أيقام عليه الحد أم لا ؟ قال : قال مالك من أقر بعد التهديد أقيل ، فالوعيد والقيد والتهديد والسجن والضرب تهديد عندي كله وأرى أن يقال) ثم قال (قلت فان ضرب وهدد فأقر فأخرج القتيل أو أخرج المتاع الذي سرق ، أيقيم عليه الحد فيما أقر به أم لا وقد اخرج ذلك ؟ قال : لا أقيم عليه الحد الا أن يقر بذلك آمنا لا يخاف شيئا)[1] .

٣ ــ دلنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاطب وجوابه له ، ثم القرآن الذي نزل بسببه ، على أنه لا يجوز للمسلمين ــ في أي الظروف كانوا ــ أن يتخذوا من أعداء الله تعالى أولياء لهم يلقون اليهم بالمودة ، أو أن يمدوا نحوهم يد الاخاء والتعاون ، وذلك رغم ما كان قد اعتذر به حاطب من أنه لصيق بقريش ليس له فيها شيعة تدافع عنه أو يحتمي بها ، فهو يريد أن يتخذ عندهم يدا يحتمي بها ، عندما يحتمي غيره بما له بينهم من قرابة وأهل .

ان الآيات القرآنية نزلت صريحة تأمر المسلمين أن يجعلوا ولاءهم لله وحده ، وأن يقيموا علاقاتهم مع الناس ، أيا كانوا ، على أساس ما يقتضيه ولاؤهم لهذا الدين الحنيف والاخلاص له والا كيف يتصور أن يضحي المسلمون بأموالهم وأنفسهم وشهواتهم وأهوائهم في سبيل الله تعالى ؟!..

---

(١) المدونة : ١٦/٩٣ .

ثالثا ـ امر ابي سفيان وموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم منه :

والعجيب في أمـر أبي سفيان يـوم الفتح ، أن يكون هـو أول طليعـة المحذرين لقومه من قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون في مقدمـة الداخلين في دين الله أفواجا يومئذ ، وهو الذي لم تخرج غزوة مـن مكة لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا باشرافه وتوجيهه وتهييجه ..

ولعل الحكمة الالهية اقتضت أن تفتح مكة بدون قتال يذكر ، وأن يدين أهلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهم الذين أخرجوه وآذوه وقاتلوه ـ بدون أي جهد أو إراقة دماء فتهيأت أسباب اسلام أبي سفيان قبل غيره ، وذلـك في اللقاء الذي تم بينه وبين رسول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ عنـد « مـر الظهران » ، كي يعود الى قومـه في مكة ، فينتزع من رؤوسهم فكرة الحرب والقتال ، ويهيىء جو مكة لسلم يكون مآله دفن حياة الجاهلية والشرك وبزوغ حياة التوحيد والاسلام .

ولقد كان من مظاهر التمهيد لهذا الامر ما أمر به الرسول صلى الله عليـه وسلم من اعلان : أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وذلك بعـد أن أعلـن إسلامه ، الى جانب ما في ذلك من تألف قلبه على الاسلام وتثبيته عليه . وأنـت خبير أن الاسلام إنمـا هو الاستسلام لاركانـه العملية والاعتقادية ، ولا بـد للمسلم بعد ذلك من رسوخ الايمان في قلبه ، وانما يكون ذلك بمداومته عـلى التمسك بمبادىء الاسلام وأركانه ، ومن أهم ما يحفزه على المداومة والاستمرار ، تألف المسلمين لقلبه بمختلف الوسائل والاسباب المشروعة ، ريثما تستقر جـذور الايمان في قلبه ويغدو إسلامه قويا صلدا لا تهزه أو تزعزعه الاعاصير .

وهذا الذي قلناه من الفرق بين الاسلام والايمان ، هو الذي يكشف لك عما قد تستشعره مـن الاشكال في الشكل الـذي تم عليه اسلام أبي سفيان رضي الله عنه .

والاشكال في هذا أنه قد يقال : فما هي قيمة اسلام لم يأت الا بالتهديد ،

إذ قد كان من قبل بلحظة واحدة يقـول ، إن في نفسـه من نبوة رسـول الله شـيئا ؟!..

ولكن الاشكال يزول بما قد علمت ، من أن المطلوب في الدنيا مـن المشرك أو الكافر ليس هو استقرار الايمان كاملا في فؤاده ، في اللحظة التي يراد منـه فيها الدخول في الاسلام ، وإنما المطلوب منه أن يستسلم كيانه ولسانه لدين الله تعالى فيخضع لتوحيد الله تعالى ويذعن لنبوة رسوله وكل ما جاء به من عند الله تبارك وتعالي . أما الايمان فيربو بعد ذلك في قلبه مع استمرار تمسكه بالاسـلام وخضوعه له .

ولذلك يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم »[1] .

ولذلك أيضا لايجوز للمسلم أثناء القتال أن يحمل اسلام أحد من الكفار في أثناء المعركة على الخوف من السلاح أو الرغبة في الغنيمة ، أن التظاهر بمـا لا يوقن به ، مهما كانت القرائن دالة على ذلك ، لان المطلوب ليـس الاستيلاء على ما في الضمائر والقلوب ولكن المطلوب إصلاح ما هو مكشوف وظـاهر . وفي ذلك يقول الله تعالى على ما بدر من بعض الصحابة في احدى السرايا التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قتل شخصا أعلن اسلامه ظنا منه أنـه انما أعلن ذلك مخافة السلاح :

« يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ؟ فعند الله مغانم كثـيرة ، كذلك كنتم مـن قبل فمن الله عليكم ، فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » . النسـاء : ٩٤ .

وانظر كيف ذكرهم بحالهم يـوم أن دخلوا الاسلام جديدا ، فقـد كـان كثير منهم اذ ذاك مثل هذا الذي لا يثقـون باسلامه اليـوم ، ثـم من الله عليهم فحسن إسلامهم وتصفى ، مع الدوام في ممارسة أحكامه ، من الدخل والشوائب .

---

(١) الحجرات : ١٤ .

ولقد كان من حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أعلن أبو سفيان إسلامه ، أن أمر العباس أن يقف به عند مضيق الوادي ، الذي ستمر فيه جنود الله تعالى ، حتى يبصر بعينه كيف أصبحت قوة الاسلام ، والى م انقلبت حال أولئك الذين هاجروا من مكة قلة مشتتين مستضعفين !.. وحتى تكون هذه العبرة البالغة أول مثبت لدينه ومؤكد لعقيدته .

وأخذ أبو سفيان يتأمل الكتائب التي تمر ، واحدة إثر أخرى ، وهو في دهشة وذهول مما يرى ! .. والتفت يقول للعباس ، وهو لا يزال تحت تأثير بقايا من الفكر الجاهلي وأوهامه :

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ! ..

فأيقظه العباس من بقايا غفلته السابقة قائلا : يا أبا سفيان انها النبوة .

أيّ ملك هذا الذي تقول ؟ .. لقد ألقى الملك والمال والجاه تحت قدميه يوم أن عرضتم كل ذلك عليه في مكة ، وهو يعاني من تعذيبكم وإيذائكم له ، وهل ألجأتموه الى الهجرة من بلده الا لأنه رفض أن يستبدل الملك الذي عرضتموه عليه بالنبوة التي كان يدعوكم الى الايمان بها ؟

انها النبوة ! ..

تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الالهية على لسان العباس ، حتى تصبح الرد الباقي الى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة ، أو إحياء قومية أو عصبية وهي كلمة جاءت عنوانا لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولها الى آخرها ، فقد كانت ساعات عمره ومراحله كلها دليلا ناطقة على أنه إنما بعث لتبليغ رسالة الله الى الناس ، لا لاشادة ملك لنفسه في الارض .

رابعا ـ تأملات في كيفية دخوله صلى الله عليه وسلم الى مكة :

١ ـ لقد رأينا فيما يرويه البخاري عن عبد الله بن المغفل أنه صلى الله عليه وسلم كان وهو على مشارف مكة يقرأ سورة الفتح ، يرجع في تلاوته لها ،

والترجيع كيفية معينة في القراءة يترنم بها القارىء . وهذا يدل ـ كما نرى ـ أنه صلى الله عليه وسلم كان مستغرقا في حالة شهود مع الله تعالى أثناء دخوله مكة ، فما كانت لنشوة الظفر والنصر العظيم الى نفسه من سبيل ، إنما هو الانسجام التام مع شهود الله تعالى والشكر على نصره وتأييده .

ويزيد في تصوير هذا المعنى ما رواه ابن اسحاق من أنه صلى الله عليه وسلم لما وصل الى ذي طوى كان يضع رأسه تواضعا لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل .

وهذا يعني أنه صلى الله عليه وسلم كان مندمجا في حالة من العبودية التامة لله تعالى إذ رأى ثمرة القيام بأمر ربه ، ونظر الى نتيجة كل ما قد كان لقيه من العذاب من قومه ، وكيف أن الله أعاده الى البلدة التي أخرجته عزيزا منصورا مكرما !.. انها الساعة التي ينبغي أن تمتلىء بشكر الله تعالى وحده ، وينبغي أن يفيض الزمن كله فيها بمعنى العبودية التامة لله تعالى .

٢ ـ ويدلنا أيضا هذا الذي رواه البخاري ، على مشروعية الترنم والتغني بقراءة القرآن ، وهو المعنى الذي عبر عنه عبد الله بن المغفل بالترجيع . وهو الحق الذي عليه عامة العلماء من الشافعية والحنفية وكثير من المالكية وغيرهم .

ولقد حمل هؤلاء الأئمة ما روي عن كثير من الصحابة أو التابعين مما يدل على النهي عن التطريب والتغني في تلاوة القرآن ، على التطريب الذي يطغى على سلامة الاداء ويذهب بالحروف والكلمات عن مخارجها العربية الصحيحة ، إذ إن مثل هذه التلاوة غير جائزة باتفاق .

٣ ـ لقد كان من التدبير الحكيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أمر به أصحابه من أن يتفرقوا في مداخل مكة ، فلا يدخلوها من طريق ومدخل واحد ، وذلك بنية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادوا ذلك إذ يضطرون الى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواهم في جهات مكة وأطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة ومغرياتها .

وانما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، حقنا للدماء ما أمكن ،

وحفظا لمعنى السلامة والامن في البلدة الحرام ، ومن أجل هـذا أمر المسلمين أن لا يقاتلوا الا من قاتلهم ، وأعلن أن من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن .

خامسا ـ ما اختص به الحرم المكي من الاحكام :

١ ـ حرمة القتال فيه :

لقد رأينا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أصحابه عن قتال أحـد ، الا أن يبـدأ أناس المسلمين بالقتال ، والا ستة انفار امـر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم أينما وجدوا .

ولقد رأينا أنه صلى الله عليه وسلم أنكر على خالد بن الوليد قتاله لبعض أهل مكة حينما رأى بارقة السيوف على بعد ، فقيل له أنه قوتل ، فقاتل . فقال قضاء الله خير ، ولم يقع فيما عدا ذلك قتال ما في مكة .

كما رأينا أنه صلى الله عليه وسلم قال فيما خطب به الناس يوم الفتح : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخـر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرا : فان أحد ترخص في قتال فيها فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وانما أذن له ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس .

وقد أخذ العلماء من هذا أنه لا يجوز القتال في مكة بما يتبعها من الحرم ، وهو صريح أمر النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة يوم الفتح .

ولكنهم بحثوا بعد هذا ، في كيفية تطبيق هذا الامر ، وسبيل التوفيق بينه وبين النصوص التي تأمر بقتال المشركين وابتداء وقتل من ثبت عليهم القصاص .

فقالوا : أما المشركون والملحـدون فلا يتصور أن تقـع المشكلة بالنسبة لقتالهم ، فقد ثبت شرعا أنه لايجوز تمكـين أحـد يدين بغـير الاسلام مـن الاستيطان بمكة ، باتفاق الأئمة ، بل ومن مجرد الدخول اليها عنـد الشافعية وكثير من المجتهدين ، وذلك لقول تعالى (انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) . وعلى هذا فمن قاتلوا هؤلاء قبل وصولهم البيت

والدخول فيها ، هذا الى أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ حرمه من أن يدنس باقامة أي كافر أو مشرك فيه ، وذلك مظهر من مظاهر اعجاز هذا الدين يتجلى في صدق الوعد الذي جاء في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

واما البغاة ـ وهم الذين يعلنون البغي على الامام الصالح ـ فقد ذهب جمهور الفقهاء الى أنهم يقاتلون على بغيهم اذا لم يمكن ردهم عن بغيهم إلا بالقتال ، لان قتال البغاة من حقوق الله تعالى التي لا يجوز إضاعتها ، فحفظها أولى في الحرم من إضاعتها . قال النووي : وهذا الذي نقل عن الجمهور هو الصواب وقد نص عليه الشافعي في كتاب اختلاف الحديث .

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه يحرم قتال البغاة بل يضيق عليهم في كل الوجوه حتى يضطروا الى الخروج من الحرم أو الرجوع الى الطاعة[1] .

واما اقامة الحدود ـ فقد ذهب مالك والشافعي الى أن الحدود تقام في الحرم المكي ، لما رواه البخاري من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الحرم لايعيذ عاصيا ولا فارا بدم ولا فارابخربة »[2] .

وذهب أبو حنيفة ـ وهو رواية عن أحمد ـ إلى أنه آمن ما دام في الحرم ، ولكن يضيق عليه ويضطر الى الخروج منه ، حتى اذا خرج استوفي منه الحد أو القصاص ، ودليل هؤلاء عموم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الفتح .

قال الزركشي : فوجه الخصوصية إذا للحرم المكي ، إن الكفار أو البغاة لو تحصنوا بغير مكة من البلدان الاخرى جاز نصب حرب عامة شاملة عليهم على أي وجه وبأي شكل تقتضيه المصلحة ، ولكنهم لو تحصنوا بها لم يجز قتالهم على ذلك الوجه[3] . قلت : هذا إلى جانب أن الله تعالى قد تعهد بأن يكون هذا

---

(١) انظر شرح مسلم النووي : ٩/١٢٤و١٢٥ ، والاحكام السلطانية للماوردي : ١٦٦ .

(٢) قال في النهاية : الخربة اصلها العيب ، والمراد به هنا الذي يفر بشيء يريد ان ينفرد بهويتغلب عليه مما لا تجيزه الشريعة .

(٣) انظر الاعلام الساجد في أحكام المساجد للزركشي : ١٦٢ وطرح التثريب : ٥/٨٦ .

الحرم موئلا ومثابة للمسلمين وحدهم ، وإذا كان الواقع كذلك ففيم يقوم سبب القتال فيه إذن ؟ اللهم الا لاقامة الحدود ورد البغي وقد عرفت حكم كل منهما .

٢ ـ تحريم صيده :

وهذا ثابت بالاجماع لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه : لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده . فاذا حرم التنفير فالاتلاف أولى . فان أصاب صيدا فيه وجب عليه إرساله ، وإن تلف في يده ضمنه بالجزاء كالمحرم . ويستثنى من عموم حيوانات الحرم خمسة أصناف استثناها صلى الله عليه وسلم من عموم المنع وسماها الفواسق وهي : الغراب ، الحدأة ، العقرب ، الفأرة ، الكلب العقور ، وقد قاس العلماء عليها ما يشاركها في صفة الايذاء من الحيوانات الاخرى كالحية والسباع الضارية .

٣ ـ تحريم قطع شيء من نباته :

ودليله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق : لا يعضد شوكه . وضابط ذلك قطع كل نبات أنبته الله تعالى دون أن يغرسه أحد من الناس ما دام رطبا . فلا يحرم ما غرسه الآدميون ، كما لا يحرم فيه ذبح الانعام ، واسترعاء خلاه ونباته وقطع ما يبس من أشجاره وأعشابه ، وروى الزركشي عن أبي حنيفة وأحمد منع رعي البهائم في الحرم[1] اه

واستثنى الجمهور من عموم النباتات ما كان مؤذيا منها ، قياسا على الفواسق الخمسة التي استثناها صلى الله عليه وسلم ، فهو من قبل تخصيص النص بالقياس[2] .

٤ ـ وجوب دخوله محرما :

فمن قصد مكة ـ أو قصد شيئا من حرمه كما قال النووي ـ وكان ممن لا يتكرر دخوله كالتجار والحطابين ومن تجبرهم مهنتهم على استمرار الدخول الى الحرم والخروج منه ، فان عليه ان لا يدخل الا محرما بحج أو عمرة .

---

(١) راجع اعلام الساجد للزركشي : ١٠٥٧ .

(٢) راجع ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية للمؤلف : ٢٠٠ .

وقد اختلف العلماء هل يتعلق الطلب بذلك وجوبا أم ندبا ؟ المشهور عن الأئمة الثلاثة وهو المفتى به عنـد الحنفية والمروي عن ابن عباس أن الطلب على سبيل الوجوب • وذهب جمهور الشافعية الى انه على سبيل الندب •

وسبب الخلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم حينمـا دخل مكة يوم الفتح لم يكن محرما بدليل مارواه مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء بغير احرام •

فالذين قالوا إن الاحرام مندوب استدلوا بهذا الحديث ، والذين صححوا الوجوب ، قالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل خائفا من غدر الكفار فكان متهيأ لقتال من سيقاتله منهم ، وهي من الحالات التي تستثنى من عموم حالات الوجوب •

٥ ــ حرمة تمكين غير المسلمين من الاقامة فيه :

وقد أوضحنا هذا الحكم مع بيان دليلـه عند ذكر الحكم الاول ، وهو حرمة القتـال فيه •

سادسا ــ تأملات فيما قام به صلى الله عليه وسلم من اعمال عند الكعبة المشرفة:

١ ــ **حكم التصوير واتخاذ الصور** : وقد رأيت فيمـا نقلناه من حـديث البخاري نفسه أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل الكعبة حتى أخرج كل ما فيها من صور وأصنام • وقد روى أبو داود عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب ، وهو بالبطحـاء ، أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وقد روى البخاري في كتاب الحج عن اسامة أنه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم ، فدعا بماء فجعل يمحوهـا •

وهذه الاحاديث ، في مجموعها ، تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ، أمر بالرسوم المصورة على الجدران فمحيت ، كما أمر بالصور المجسمة القائمة في جوفها فأخرجت ، ويبدو أنه حينما دخل بعد ذلك وجد آثارا لتلك الرسوم على بعض جدرانها فدعا بماء وجعل يبالغ في حتها ومحوها •

وهذا يدل بوضوح على حرمة التصوير والصور المجسمة وغير المجسمة . ولننقل لك في ذلك نص الامام النووي رحمه الله تعالى في شرحه على صحيح مسلم ، قال :

« قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد الحرمة ، وهو من الكبائر لانه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الاحاديث ، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره ، فصنعته حرام على كل حال ، لان فيه مضاهاة بخلق الله تعالى ، وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو اناء أو حائط أو غيرها .

أما تصوير الشجر ورحال الابل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان ، فليس بحرام .

هذا حكم نفس التصوير . وأما حكم اتخاذ المصور فيه صورة حيوان ، فان كان معلقا على الحائط أو ثوبا ملبوسا أو عمامة ونحو ذلك ، مما لا يعد ممتهنا ، فحرام . وإن كان في بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها ، مما يمتهن ، فليس بحرام . ولكن هل يمنع دخول ملائكة الرحمة ذلك البيت ؟ فيه كلام نذكره فيما بعد إن شاء الله .

ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له هذا تلخيص مذهبنا في هذه المسألة . وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم . وقال بعضهم : انما ينهى عما كان له ظل ولا بأس بالصور التي ليس لها ، وهذا مذهب باطل ، فان الستر الذي أنكر النبي صلى الله عليه وسلم الصور فيه[1] ، لا يشك أحد أنه مذموم ، وليس لصورته ظل ، مع باقي الاحاديث المطلقة في كل صورة » .

---

(١) يقصد بذلك ما رواه مسلم عن عائشة قالت : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانا مستترة بقرام فيه صور (أي متخذة ستائر رقيقة عليها صور) فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : ان من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله .

ثم قال رحمه الله تعالى : « وأجمعوا على منع ما كان له ظل ، ووجوب تغييره . قال القاضي الا ما ورد في اللعب بالبنات : « اللعب » لصغار البنات ، ففي ذلك رخصة »[٢] .

قلت : ويستشكل الناس حكم الصور الفوتوغرافية اليوم ؛ هل هي في حكم الرسوم والصور التي ترسم وتخطط بمهارة اليد ، أم لها حكم آخر .

وقد فهم بعضهم من علة التصوير التي ذكرها النووي فيما نقلناه من كلامه ، أن التصوير الفوتوغرافي ليس في حكم الرسم باليد ، إذ العمل الفوتوغرافي لا يقوم على أي مهارة في الصنعة أو اليد ، بحيث تتجلى فيها محاولة المضاهاة بخلق الله تعالى ، اذ هو يقوم على ضغط بسيط لزر معين في جهاز التصوير ، يتسبب عنه انحباس الظل في داخله بواسطة احماض معينة ؛ وهي حركة بسيطة يستطيع أن يقوم بها أي طفل صغير . والحق أنه لا ينبغي تكلف أي فرق بين أنواع التصوير المختلفة حيطة في الامر ، ونظرا لاطلاق لفظ الحديث .

هذا فيما يتعلق بالتصوير . أما الاتخاذ فلا فرق بين الفوتوغرافي وغيره .

ولكن مهما يكن ، فان لنوع الصور أثرا في الحكم على التصوير واتخاذه . فان كان الشيء المصور من قبيل المحرمات كصور النساء وما شابه ذلك فهو محرم ولا شك ، وان كان مما تدعو المصلحة والحاجة الى تصويره فربما كانت في ذلك رخصة ؛ والله أعلم .

ثم إنه ربما يعجب بعض الناس اليوم من أن يكون التصوير أو النحت محرما في الاسلام ، مع انهما يعدان من المقومات الفنية الكبرى لدى سائر الامم المتحضرة في هذا العصر !!.

وسر العجب عند هؤلاء الناس ، أنهم يتصورون ان موقع الاسلام من الحضارة الغربية إنما يجب ان يكون موقع التابع من المتبوع ، فهو مجرد منفذ لما تقضي به هذه الحضارة الوافدة اليوم .

---

(٢) النووي على صحيح مسلم : ٨١/١٤ .

غير أن الواقع ليس كذلك . فان الاسلام كان ولا يزال منطلقا حضاريا مستقلا بذاته لايتفق والمنطلقات المادية لهذه الحضارة التي فرضت نفسها علينا من نافذة التقليد الاعمى ، ولم تتقدم الينا عن طريق أي محاكمة عقلية صافية .

٣ ــ حجابة البيت : وبناء على ما ذكرناه من أنه صلى الله عليه وسلم أعاد مفتاح البيت الى عثمان بن طلحة وقال له : خذوها مخلدة ــ يقصد بني عبد الدار وبني شيبة ــ لا ينزعها منكم إلا ظالم ، فقد ذهب عامة العلماء الى أنه لا يجوز لاحد أن ينتزع حجابة البيت وسدانته منهم الى يوم القيامة . قال النووي نقلا عن القاضي عياض : هي ولاية لهم عليها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبقى دائمة لهم ولذرياتهم أبدا ، ولا ينازعون فيها ولا يشاركون ما داموا موجودين صالحين لذلك . أقول :و هي لا تزال اليوم في أيديهم طبق وصية النبي صلى الله عليه وسلم وأمره .

٤ ــ تكسير الاصنام : وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله ، إذ كان يطعن تلك الآلهة الحجرية المنثورة حول الكعبة بعصا معه ، وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ، ولقد روى ابن اسحاق وغيره أن كل صنم منها كان مرصصا من أسفله حتى يثبت قائما على الارض ، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفىء على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذا ! . ولماذا لا تنقلب لاشارته صلى الله عليه وسلم ولا تتكسر ، وقد قلب الله له جبروت قريش خضوعا وذلا ، وجعل مكة كلها وبمن فيها تدين للدين الذي جاء به وتذعن للحق الذي نادى به ؟!..

سابعا ــ تاملات في خطابه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح :

والآن .. ها هي ذي مكة : البلدة التي هاجر منها قبل ثمان سنوات ، خاضعة له مؤمنة برسالته وهديه ، وهاهم أولاء ، الذين طالما ناصبوه العداء وساموه أصناف الاذية والعذاب ، مجتمعون حوله في خشوع وترقب وإطراق ، فما الذي سيقوله صلى الله عليه وسلم لهم اليوم ؟!.

إن عليه قبل كل شيء أن يبدأ بالثناء على ربه الذي نصره وأيده وصدق وعده ، وهكذا استفتح خطابه بقوله :

لا إله إلا الله وحد لا شريك له صدق وعده ، ونصر عبـده ، وهزم الاحزاب وحده . ثم عليه بعد ذلك أن يعلن أمام قريش وغيرهم من سائر الناس ، عن المجتمع الجديـد وشعاره وهو الشعار الذي يتجلى في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وإذا فلتدفن تحت أقدام المسلمين بقايا تلك المآثر الجاهلية العتيقة العفنة ، من التفاخر بالآباء والاجداد ، والتباهي بالعنصرية والقبلية والعصبيات ، والاعتداد بفوارق الشكل واللغة والانساب ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب .

لقد طويت منذ اللحظة جاهلية قريش ، فلتطو معها سائر عاداتها وتقاليدها ، ولتدفن في غياهب الماضي الذي أدبر ، ولتغتسل قريش من بقية أدرانها لتنضم الى القافلة وتسير مع الركب .. فان الموعد عما قليل هناك .. عند إيوان كسرى ، وداخل بلاد الروم ، وإن مكة ستصبح بعد اليوم مشرق حضارة ومدنية جديدتين تلبس منهما الدنيا كلها حلة من السعادة الانسانية الشاملة .

وهكذا دفنت فعلا في تلك الساعة بقايا المـآثر الجاهليـة تحت الاقدام ، وبايعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام ، على أنـه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وعلى أنه لا تعاظم إلا بحلة الاسلام ولا مباهاة إلا بالتمسك بنظامه . وبناء على ذلك ملكهم الله زمام العالم وأخضع لهم الدنيا .

ثم يصل رسول الله من خطابه الى النقطة التي ينتظرها المشركون في رعب وقلق : ماذا سيفعل بهم النبي المنتصر ، وقد ملأ جنده رحاب مكة كلها . وهـم الذين ما تركوا لونا من الوان الاذية إلا أنزلوها به ، ثم كان آخرها أن اجتمعوا على قتله ؟!.. فما ماذا سيفعل بهم اليوم ؟ لقد فاجأهم رسول الله بهذا السؤال قائلا : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ ولمـا أحس المشركون في نغمة صوته ولون سؤاله لبضات الرحمة تجرؤوا فصاحوا : أخ كريم وابن أخ كريم .

واجابهم الرسول الكريم النبيل الرحيم الذي لم ينطو قلبه يومـا ما على ضغينة أو حقد : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

لقد كان هذا الموقف السامي الرحيم الذي ربي الله رسوله عليه من أهم العوامل التي استطت بقايا السخائم من أفئدة قريش فغسلها هذا الموقف الانساني العظيم من بقايا الكبر والعناد • وجاؤوا في اليوم الثاني يتسابقون الى مبايعته على الاسلام •

ثامنا ـ بيعة النساء وما يتعلق بها من احكام :

نأخذ منها ما يلي :

أولا ـ اشتراك المرأة مع الرجل ـ على أساس من المساواة التامة ـ في جميع المسؤوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم • ولذلك كان على الخليفة الحاكم المسلم أن يأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة المجتمع الاسلامي بكل الوسائل المشروعة الممكنة ، كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال • ليس بينهما فيه فرق ولا تفاوت •

ومن هنا كان على المرأة المسلمة ان تتعلم شؤون دينها ، كما يتعلم الرجل ، وأن تسلك كل السبل المشروعة الممكنة الى التسلح بسلاح العلم والوعي والتنبه الى مكامن الكيد وأساليبه لدى أعداء الاسلام الذين يتربصون به ، حتى تستطيع أن تنهض بالعهد الذي قطعته على نفسها وتنفذ عقد البيعة الذي في عنقها •

وواضح أن المرأة لا تستطيع أن تنهض بشيء من هذا إذا كانت جاهلة بحقائق دينها غير متنبهة الى أساليب الكيد الاجنبي من حولها •

ثانيا ـ علمت مما ذكرناه من كيفية بيعة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء ، أن بيعتهن انما تكون بالكلام فقط من غير أخذ الكف ، وذلك على خلاف بيعة الرجال ، فدل ذلك على أنه لا يجوز ملامسة الرجل بشرة امرأة أجنبية عنه ، ولا أعلم خلافا في ذلك عند علماء المسلمين ، اللهم إلا أن تدعو إلى ذلك ضرورة كتطبيب وفصد وقلع ضرس ونحو ذلك •

وليس من الضرورة شيوع العرف بمصافحة النساء ، كما قد يتوهم بعض الناس ، فليس للعرف سلطان في تغيير الاحكام الثابتة بالكتاب او السنة إلا حكم

كان قيامه من أصله بناء على عرف شائع . فان تبدل ذلك لعرف من شأنه أن يؤثر في تغيير ذلك الحكم ، إذ هو في أصله حكم شرطي مرهون بحالة معينة . وليس موضوع البحث من هذا في شيء .

ثالثا ـ دلت أحاديث البيعة التي ذكرناها على أن كلام الاجنبية يباح سماعه لدى الحاجة ، وأن صوتها ليس بعورة ، وهو مذهب جمهور الفقهاء ومنهم الشافعية . وذهب بعض الحنفية الى أن صوتها عورة للاجنبي . وهم محجوجون في ذلك بما صح من أحاديث بيعته صلى الله عليه وسلم للنساء ، وأحاديث كثيرة أخرى .

تاسعا ـ هل فتحت مكة عنوة ام صلحا ؟

اختلف العلماء في ذلك ، فذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما وآخرون الى أنه دخلها صلحا ، وكان الممثل لقريش في هذا الصلح هو أبو سفيان ، وكان الاتفاق والشرط فيه على أنه : من أغلق بابه فهو آمن ، ومن أسلم فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، إلا ستة أنفس هدر دمهم.

وذهب أبو حنيفة ومالك الى أنه دخلها عنوة ، واستدلوا على ذلك بالطريقة التي دخل بها المسلمون مكة ، وبما كانوا يحملونه من السلاح وعدة الحرب .

واتفق الكل على أنه لم يغنم منها مالا ولم يسب فيها ذرية ، فأما من ذهب إلى أنها فتحت صلحا فسبب ذلك واضح ، وأما من ذهب الى أنها فتحت عنوة فقد قالوا إن الذي منع الرسول صلى الله عليه وسلم من قسمتها شيء آخر تمتاز بـه مكة عن بقية البلاد ، فانها دار النسك ومتعبد الحق وحرم الرب تعالى ، فكأنه وقفه من الله تعالى على العالمين ، ولهذا ذهب بعض العلماء ومنهم أبو حنيفة الى منع بيع أراضي ودور مكة المكرمة[1] .

هذه خلاصة عن بعض الاحكام والعبر التي تؤخذ من أحداث الفتح الكبير لمكة المكرمة ، وحسبنا هذا القدر من ذلك . والله أعلم .

---

(١) راجع الاحكام السلطانية : ١٦٤ ، وزاد المعاد لابن القيم : ٢/١٧٤ .

غزوة حنـين

وقد كانت في شوال سنة ثمان من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

وسببها أن الله جل جلاله ، حينما فتح على رسوله مكة ، ودانت له قريش بعد بغيها وعدوانها ، مشت أشراف هوزان وثقيف بعضها الى بعض ، وقد توغر صدورهم للنصر الذي آتاه الله رسوله والمؤمنين . فحشدوا حشودا كبيرة ، وجمع أمرهم مالك بـن عوف سيد هوزان ، وأمـرهم فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم ، حتى نزلوا بأوطاس (مكان بـين مكة والطائف) ، وإنما أمرهم بذلك حتى يجد كل منهم ما يحبسه عن الفرار ، وهو الدفاع عن الاهل والمال والولد ! .. وأجمعوا المسير الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فخرج اليهم صلى الله عليه وسلم من مكة لست ليال خلون من شوال[1] في اثني عشر الف من المسلمين ، عشرة آلاف من أهل المدينة ، وألفين من أهل مكة[2] .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حدرد الاسلمي ليذهب فيدخل بين المشركين ويقيم فيهم ويعلم أخبـارهم ثم يعود بذلك إليه صلى الله عليه وسلم . فانطلق حتى دخل بينهم وطاف بمعسكرهم ثم جاءه بخبرهم .

وكان قد ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن عند صفوان بن أمية أدراعا وأسلحـة ، فأرسل اليـه ــ وهو يومئذ مشرك ــ فطلب منـه تلك الـدروع والاسلحة . فقال صفوان : أغصبا يا محمد ؟!.. قال : بل عارية ، وهي مضمونة حتى تؤديها إليك . فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح[3] .

وعلم مالك بن عوف بمقدم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعبأ أصحابه في وادي حنين وانتشروا يكمنون في أثنائه ، وأوعز ليهم أن يحملوا على محمـد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حملة واحدة .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٤ــ٢٠٠ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٤ــ٢٠٠ وسيرة ابن هشام .

(٣) رواه ابن إسحاق بسند صحيح ، ورواه عن طريقه ابن جرير وابن سيد الناس .

وصل المسلمون إلى وادي حنين ، فانحـدروا فيه في غبش الصبح : فما راعهم إلا الكتائب خرجت إليهم مـن مضايق الوادي وشعبه وقد حملوا حملـة واحدة على المسلمين ، فانكشفت الخيول وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد منهم على آخـر .

وانحاز رسول الله صلى الله ذات اليمين ، ثم نـادى في الناس : إلي يا عباد الله . أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . روى مسلم عن العباس رضي الله عنه قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فلزمته أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ولم نفارقـه ، وهو على بغلة له بيضاء ، فلمـا التقى المسلمون والكفار ولىّ المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلـة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها ، إرادة أن لا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليـه الصلاة والسلام : ناد أصحاب السمرة[1] (وكان رجلا صيتا) فقلت بأعلى صوتي يا أصحاب السمرة ، قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك .. وأقبلوا يقتتلون مع الكفار ، وكان النداء : باللانصار ، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى قتالهم قائلا : الآن حمي الوطيس . ثم أخذ حصيات من الارض فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد[2] .

وقذف الله في قلوب المشركين الرعب ، فانهزموا لا يلوي واحد منهم على أحد ، واتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، فما رجع الناس إلا والاسرى مجندلة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الغزوة أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه[3] .

---

(١) هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .
(٢) رواه مسلم ، وروى نحوه باختصار البخاري ايضا ، وترويه بتفصيل كل كتب السيرة .
(٣) متفق عليه .

فروى ابن إسحاق وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لقد استلب أبو طلحة يوم حنين عشرين رجلا وحده ، هو قتلهم .

وروى ابن إسحاق وابن سعد بسند صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبي طلحة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أم سليم !.. قالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ؟ ـ وكان معها خنجر ـ فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس مجتمعون عليها ، فقال ما هذا ؟ قالوا امرأة قتلها خالد بن الوليد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه : أدرك خالدا فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا [1] .

وفر مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه حتى وصلوا الى الطائف ! وامتنعوا بحصنها وقد تركوا وراءهم مغانم كثيرة .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم كلها فحبست في الجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري ، واتجه صلى الله عليه وسلم بمن معه الى الطائف فحاصروها ، وأخذت ثقيف تقذف المسلمين من حصونها بالنبال ، فقتل بذلك ناس منهم ، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصاره للطائف بضعة عشر يوما ،وقيل بضعة وعشرين يوما . ثم بدا له ان يرتحل . روى عبد الله بن عمرو أنه صلى الله عليه وسلم أعلن في أصحابه : انا قافلون إن شاء الله ، فقال بعض أصحابه : نرجع ولم نفتحه ؟. فقال لهم : أغدوا على القتال ـ أي فقاتلوا إن شئتم ـ فغدوا عليه ، فأصابهم جراح ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قافلون غدا ، فأعجبهم ذلك : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه ، وروى الشيخان بمعناه . والعسيف : الاجير والعبد .

(٢) متفق عليه .

ولما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عائدا ، قال لاصحابه : قولوا «آيبون، تائبون عابدون لربنا حامدون » ، وقال له بعض الصحابة : يا رسول الله أدع الله على ثقيف فقال : اللهم اهد ثقيفا وآت بهم[1] .

قلت : وقد هدى الله ثقيفا بعد ذلك بقليل ، فقد جاء وفدهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة لاعلان اسلامهم .

امر الغنائم وكيفية تقسيم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجعرانة ، وفيها السبي والغنائم التي أخذت من هوزان في غزوة حنين ، فقسم السبي هناك . ثم قدم عليه وفد من هوزان المسلمين ، وسألوه أن يرد اليهم أموالهم وسبيهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : معي من ترون ، وأحب الحديث الي أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبي وإما المال ، وقد كنت أستأنيت بكم (أي أخرت قسم السبي والغنائم آملا اسلامكم) . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أنظرهم بضع عشرة ليلة حين رجع من الطائف .

فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فالحسب أحب الينا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فان إخوانكم قد جاءوا تائبين ، وإني رأيت أن أرد اليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل[2] .

فنادى الناس جميعا : قد طيبنا ذلك يا رسول الله . فقال عليه الصلاة والسلام : إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع

(١) رواه ابن سعد في الطبقات ، واخرجه الترمذي في سننه . وقد رواه ابن سعد عن عاصم الكلابي عن الاشهب ، عن الحسن .

(٢) اي بأن يرد السبي بشرط ان يعطى عوضه فيما بعد .

إلينا عرفاؤكم أمركم ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا ، وأذنوا[1] فأعيد إلى هوزان سبيها .

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد هوزان ـ فيما رواه ابن إسحاق ـ عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا هو بالطائف مع ثقيف ، فقال لهم : أخبروه أنه إن أتى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل ، فأخبر مالك بذلك ، فجاء يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه فيما بين الجعرانة ومكة ، فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الابل ، وأسلم فحسن إسلامه .

وخص النبي صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم ـ وهم أهل مكة ـ بمزيد من الغنائم والاعطيات يتألف قلوبهم على الاسلام ، فوجد بعض الانصار في نفوسهم من ذلك وقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم[2] !.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى الانصار فاجتمعوا في مكان أعد لهم ، ولم يدع معهم أحدا غيرهم ، ثم قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

يا معشر الانصار ، ما مقالة بلغتني عنكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي . (كلما قال لهم من ذلك شيئا قالوا بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل) ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الانصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ فلله ولرسوله المن والفضل . فقال صلى الله عليه وسلم :

أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . فصاحوا : بل المن علينا لله ولرسوله .

---

(١) رواه البخاري . ورواه الطبري والبيهقي وابن سيد الناس كلهم عن طريق ابن إسحاق بمزيد من التفصيل .

(٢) متفق عليه .

ثم تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : أوجدتم يا معشر الانصار في أنفسكم من أجل لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به . والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار . وانكم ستلقون أثرة من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض ، اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار .

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا[2] .

وتبعه صلى الله عليه وسلم ناس من الاعراب يسألونه مزيدا من العطاء ، حتى اضطروه إلى سمرة تعلق بها ردلؤه ، فالتفت إليهم قائلا : أعطوني ردائي أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوبا ولا جبانا[3] ، أيها الناس والله ما لي من فيئكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم[4] .

وأدركه أعرابي فجذبه صلى الله عليه وسلم جذبة شديدة من برده ، وكان عليه برد نجراني غليظ ، حتى أثرت حاشية الرداء في صفحة عنقه ، وقال له ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء[5] .

قال ابن اسحاق : ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة معتمرا ، فلما فرغ انصرف راجعا الى المدينة ، واستخلف على مكة عتاب ابن أسيد .

---

(١) اللعاعة : بقلة خضراء تستهوي المين ، شبه بها الدنيا ..
(٢) رواه البخاري ومسلم ، وابن إسحاق : وابن سعد ، بنصوص متقاربة في الزيادة والنقصان ..
(٣) رواه البخاري .
(٤) هذه الزيادة أخرجها ابو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو .
(٥) متفق عليه .

الدلائل والعبر :

تعد غزوة حنين هذه درسا في العقيدة الاسلامية وقانون الاسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذي أوحت به غزوة بدر ، بل متمما له .

فاذا كانت موقعة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئا في جنب كثرة أعدائهم ، إذا كانوا صابرين ومتقين ، فان غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضا لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين . وكما نزلت آيات من كتاب الله تعالى في تقرير عبرة « بدر » ، فقد نزلت آيات منه أيضا في تقرير العبرة التي ينبغي أن تؤخذ من « حنين » .

كان المسلمون في بدر أقل عددا منهم في أي موقعة أخرى ومع ذلك فلم تضرهم القلة شيئا بسبب صدق اسلامهم ونضج ايمانهموشدة ولائهم لله ولرسوله .

وكان المسلمون في حنين أكثر عددا منهم في أي موقعة اخرى خاضوها من قبل . ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئا ، بسبب تلك الجماهير التي لم يتمكن الايمان بعد في نفوسها ، ولم يتغلغل معنى الاسلام بعد في أعماق أفئدتها ، وربما خرج كثير منهم ابتغاء مغنم من المال .

لقد انضمت تلك الجماهير الى الجيش بجسومهم وأشكالهم ، بينما لا تزال الدنيا وأهواؤها تتخطف أفئدتهم وتستولي على نفوسهم . وهيهات أن يكون لتعداد الجسوم والاشكال أي أثر في النصر والتوفيق .

فمن أجل ذلك أدبرت هذه الجماهير وارتدت على أعقابها متفرقة في متاهات وادي حنين ، حينما فوجئوا بكمائن العدو تخرج في وجوههم ، وربما امتدت ظلال هذا الهلع الى أفئدة كثير من المؤمنين الصادقين أيضا بادىء الامر .

ولكن ما هو الا أن سمع الانصار والمهاجرون صيحات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونداءه لهم حتى كروا عائدين ، يلتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخوضون معه معركة حامية الوطيس ، ولم يكن هؤلاء يزيدون على المائتين !..

ولكن بهؤلاء المائتين عاد النصر الى المسلمين ، ونزلت السكينة على قلوبهم ، وهزم الله عدوهم شر هزيمة ، بعد أن كانوا اثني عشر ألفا من الامشاج الذين لم يغنوا عن أنفسهم شيئا ..

وأنزل الله تعالى هذه العظة البليغة في كتابه الكريم :

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » التوبة : ٢٥، ٢٦، ٢٧ .

وإليك الآن ما يؤخذ من هذه الغزوة من العظات والاحكام :

اولا ـ (بث العيون بين الاعداء لمعرفة شانهم واخبارهم) سبق أن ذكرنا أن هذا عمل جائز ، بل هو واجب ان دعت اليه الحاجة . وهذا ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ، فقد بعث عبد الله بن أبي حدرد الاسلمي ليتحسس أخبار العدو ويأتي المسلمين بالخبر عن عددهم وعدتهم . وهو ما لم يقع فيه خلاف بين الأئمة . وليس في هذا ما يتعارض مع التوكل على الله ، واليقين بأنه هو وحده خالق النصر وبيده كل شيء . لان هذا الاله أمر عباده باستخدام الاسباب التي وضعها بين أيديهم .

ثانيا ـ (للامام ان يستعير اسلحة من المشركين لقتال اعداء المسلمين) ومثل الاسلحة في ذلك كل ما يحتاجه الجيش من عدة الحرب والقتال ، ومثل الاستعارة تملكها منهم مجانا أو بثمن ، وهذا ما فعله رسول الله في هذه الغزوة ، حينما استعار اسلحة من صفوان بن أمية وكان لا يزال مشركا إذ ذاك .

وهذا داخل في عموم حكم الاستعانة بالكفار عند الحرب ، وكنا قد ذكرنا هذه المسألة عند تعليقنا على غزوة أحد . ويتبين لك الآن أن الاستعانة بالكفار تنقسم الى نوعين :

النوع الاول ـ الاستعانة بأشخاص منهم للقتال مع المسلمين ، وهذا ما مضى الحديث عنه في غزوة أحد ، وقد قلنا إذ ذاك إنه غير جائز عند اكثر الفقهاء .

ولكنه عند الشافعية جائز اذا دعت الحاجة اليه ، واطمأن المسلمون الى صدق وأمانة أولئك الذين سيقاتلون معهم . أي فهو من احكام الامامة .

النوع الثاني ـ الاستعانة ببعض ممتلكاتهم كالسلاح وأنواع العدة ، ولا خلاف في أن ذلك جائز بشرط أن لا يكون فيه خدش لكرامة المسلمين ، وأن لا يتسبب عن ذلك دخول المسلمين تحت سلطان غيرهم أو تركهم لبعض واجباتهم وفروضهم الدينية . وأنت تجد أن صفوان بن أمية حينما أعار الاسلحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان في وضع المغلوب الضعيف وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المركز الاقوى[1] .

ثالثا ـ (جراته صلى الله عليه وسلم في الحرب) وإنك لتبصر صورة نادرة حقا لهذه الجرأة ، عندما تفرقت جموع المسلمين في الوادي وقد ولوا الادبار ، ولم يبق إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط حومة الوغى حيث تحف به كمائن العدو التي فوجئوا بها . فثبت ثباتا عجيبا امتد أثره الى نفوس أولئك الفارين من أصحابه ، حتى عادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش وقوة العزيمة .

روى ابن كثير في تفسيره خبر غزوة حنين ثم قال :

(قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة . إنه في مثل هذا اليوم ، في حومة الوغى ، وقد انكشف عن جيشه ، وهو مع هذا على بغلة ، وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضا يركضها الى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائما الى يوم الدين ، وما هذا كله الا ثقة بالله وتوكلا عليه وعلما بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الاديان)[2] .

رابعا ـ (خروج المراة للجهاد مع الرجال) : فأما خروجها لمداواة الجرحى وسقي العطاش ، فقد ثبت ذلك في الصحيحين ، في عدة غزوات ؛ وأما خروجها للقتال ، فلم يثبت في السنة وإن كان الامام البخاري قد ذكر في كتاب الجهاد بابا

---

(١) انظر زاد المعاد : ٢ـ١٩٠ ومغني المحتاج : ٤/٢٢١ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢ـ٣٤٥ .

جعل عنوانه : باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال . إذ إن الاحاديث التي ساقها في هذا الباب ليس فيها ما يدل على اشتراك النساء مع الرجال في القتال قال ابن حجر : ولم أر في شيء من ذلك (أي الاحاديث الواردة في هذا الموضوع) التصريح بأنهن قاتلن[1] .

أما ما ذكره الفقهاء في حكم خروج المرأة للقتال ، فهو أن العدو إن داهم بلدة من بلاد المسلمين وجب على جميع أهلها الخروج لقتاله بما فيهم النساء ، إن تأملنا منهن دفاعا وبلاء ، وإلا فلا يشرع ذلك[2] أما الخنجر الذي كان مع أم سليم فقد كان لمجرد الدفاع عن نفسها كما قالت .

وعلى كل فان خروج المرأة مع الرجال الى الجهاد مشروط بأن تكون في حالة تامة من الستر والصيانة ، وأن يكون خروجها لحاجة حقيقية الى ذلك ، فأما إذا لم تكن ثم حاجة حقيقية أو كان ذلك يعرضها للوقوع في المحرمات فخروجها محرم لا يجوز اقراره .

والمهم أن تعلم أن الاحكام الاسلامية منوطة بعضها ببعضها ، فلا ينبغي تخير ما توحي به الاهواء منها لاسباب معينة مع الاعراض عما يتعلق به من الاحكام والواجبات الاخرى . إن مثل هذا يعد بلا ريب مصداقا واضحا لقول الله تعالى : « .. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيمة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » البقرة : ٨٥ .

خامسا ـ (تحريم قتل النساء والاطفال والاجراء والعبيد في الجهاد)

فقد دل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى المرأة التي قتلها خالد بن الوليد ، وقد اتفق العلماء والأئمة كلهم على ذلك .

ويستثنى منه ما إذا اشتركوا في القتال وباشروا في مقاتلة المسلمين ، فانهم يقتلون مقبلين ، ويجب الاعراض عنهم مدبرين .

---

(١) راجع فتح الباري : ٥١/٦ .
(٢) راجع مغني المحتاج : ٢١٩/٤ .

كما أنه يستثنى ما إذا تترس الكفار بصبيانهم ونسائهم ، ولم يمكن رد غائلتهم إلا بقتلهم ، فان ذلك جائز ، وعلى الامام أن يتبع ما تقتضيه المصلحة[1] .

سادسا ـ (حكم سلب القتيل) : قلنا إن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن في هذه الغزوة أن من قتل قتيلا فله سلبه ، قال ابن سيد الناس : فصار ذلك حكما مستمرا .

قلت : وهذا متفق عليه ، ولكن وقع الخلاف بين الأئمة في نوع هذا الحكم الثابت المستمر ، هل هو من أحكام الامامة أم الفتوى ؟ .

أي هل أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك مبلغا عن الله عز وجل حكما لا اختيار له ولا لأحد فيه كتبليغه أحكام الصلاة والصيام أم أعلنه حكما مصلحيا قضى به بوصف كونه إمام المسلمين يقضي فيهم بما يرى أنه الخير والمصلحة لهم ؟ .

فذهب الشافعي رحمه الله الى أنه حكم قائم على أساس التبليغ والفتوى . وعليه فان المجاهد له في كل عصر أن يأخذ سلب من قتل على يده من أهل الحرب ولا حاجة في ذلك إلى إذن الامام أو القائد .

وذهب أبو حنيفة ومالك رحمهما الله إلى أنه حكم قائم على أساس الامامة فقط ، فيتوقف جواز اخذ السلب في كل عصر على اذن إمامه . فان لم يأذن ، أضيفت الاسلاب الى الغنائم وسرى عليها حكمها[2] .

سابعا ـ (الجهاد لا يعني الحقد على الكافرين) وقد دل على ذلك ما ذكرناه من أن بعض الصحابة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند منصرفهم من حصار الطائف : أدع الله على ثقيف ، فقال اللهم اهد ثقيفا وآت بهم . وهذا يعني أن الجهاد ليس الا ممارسة لوظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما هي مسؤولية الناس كلهم تجاه بعضهم ، لمحاولة اعتاق أنفسهم من العذاب الابدي يوم القيامة .

---

(١) الاحكام السلطانية : ٤ ، مغني المحتاج : ٤/٢٢٣ .
(٢) انظر الاحكام السلطانية ص ١٣٩ والاحكام للقرافي ص ٢٨ .

ومن ثم فان الدعاء من المسلمين لا ينبغي أن يتجه الى غيرهم الا بالهداية والاصلاح ، لان هذه الغاية هي الحكمة من مشروعية الجهـاد . وليس الجهاد تربصا بأرواح الناس ، وسعيا الى اشفاء الغليل بالفتك بهم .

ثامنا ـ (متى يتملك الجند الغنائم ؟) ذكرنا أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال لوفد هوازن حينما جاؤوه مسلمين : لقد استأنيت بكم أي أخرى قسم الغنائم آملا إسلامكم .

وهذا يدل على أن الجند إنما يملكون الغنائم بعد تقسيم الحاكم أو الامام لها ، فهي لا تعتبر ذلك ملكا للمقاتلين . وتلك هي فائدة تأخـير النبي صلى الله عليه وسلم لتقسيمها بين المسلمين .

كما أن هذا يدل أيضا على ان للامام أن يعيـد الغنائم إذا جاءه أصحابها مسلمين إذا لم يكن قد قسمها بين الجنـد ، وقد كان هذا ما يفضله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويدل موقفـه صلى الله عليه وسلم من وفـد هوازن وأموالهم التي غنمها المسلمون ، على أن ما قسم من هذه الاموال بينهم ، لا يجوز للامام أن ينتزد شيئا منه إلا بطيب نفس من صاحبه دون أن يتأثر بأي جبر أو إكراه .

وتأمل في مدى دقته صلى الله عليه وسلم في أمر هذا الاستئذان من أصحاب الامـوال فانه عليه الصـلاة والسلام لم يشـأ أن يكتفي بصيحاتهم الجمـاعية المرتفعة : قـد طيبنا ذلك يا رسول الله « أي طابت بارجاعه نفوسنا » ؛ بل أصر على أن يعلم أمر هذا الرضا ويستوثق منه بواسطة السماع من كل شخص منهم على حدة أو السماع من وكلائهم وعرفائهم .

وهـذا يعني أنه ليس للحاكم أن يستعمل شيئا من صلاحياته وسلطانه في حمل الناس على أن يتنازلوا عن شيء من حقوقهم وممتلكاتهم المشروعة ، بل إن الشارع لم يعطه شيئا من هذه الصلاحيات والامتيازات ، حتى ولو كان رسولا .

وتلك هي العدالة والمساواة الحقيقية الرائعة !.. فلتدفن نفسها في الرغام

كل دعوى باطلة تريد أن تخب ـ بالالفاظ والشعارات ـ وراء هذه المثل والقيم الالهية العظيمة .

تاسعا ـ (سياسة الاسلام نحو المؤلفة قلوبهم) :

لقد رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم اختص أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم ، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة الاصلية بين المقاتلين . وهذا العمل منه صلى الله عليه وسلم من أهم الادلة التي استدل بها جمهور الأئمة والفقهاء على أنه يجوز للامام أن يزيد في عطاء من يتألف قلوبهم،بل يجب عليه ذلك عندما تدعو الحاجة اليه،ولامانع من أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم . ومن هنا كان لهؤلاء الناس سهم خاص باسمهم في الزكاة ، يجتمع تحت يد الحاكم ليعطي منه (كلما دعت الحاجة) لمن يرى أن المصلحة الاسلامية تدعو الى تألف قلوبهم .

عاشرا ـ (فضل الانصار ومدى محبة رسول الله لهم) :

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم،فقد أراد الشيطان أن يبث في نفوس جماعة من الانصار معنى النقد على السياسة التي اتبعها عليه الصلاة والسلام في توزيع الغنائم ، وربما أراد لهم الشيطان أن يتصوروا ان النبي صلى الله عليه وسلم قد ادركته محبة قومه وبني وطنه فنسي في جنبهم الانصار !..

فماذا قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام لما اخبر بذلك ؟

إن الخطاب الذي ألقاه عليهم جوابا على هذه الوساوس ، ليفيض بمعاني الرقة والذوق الرفيع ، ومشاعر المحبة الشديدة للانصار ، وهو يفيض في الوقت ذاته بدلائل التألم من أن يتهم من قبل أحب الناس اليه بنسيانهم والاعراض عنهم .

عد الى خطابه هذا فتأمله .. فسترى انه قد ضمنه ادق خفقات قلبه والطف إحساساته ! .

ولقد لامست هذه الرقة والخفقات مشاعر الانصار فهزتها هزا ، ونفضت

منها ما كان قد علق بها من الوساوس والهواجس ، فارتفعت اصواتهم بالبكاء فرحا بنبيهم وابتهاجا بقسمتهم ونصيبهم .

فما المال وما الشياه والغنائم ، في جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يعودون به ويعود بهم الى ديارهم ليكون المحيا والممات فيما بينهم ؟ . وأي برهان منه عليه الصلاة والسلام ينطق بالوفاء وخالص المحبة والود أكثر من هذا .. أي أكثر من أن يدع وطنه ومسقط رأسه ليقضي بقية أيامه فيما بينهم ؟ !

ثم متى كان المال في ميزان رسول الله صلى الله عليه وسلم دليلا على التقدير والحب ؟ !

إنه أعطى قريشا كثيرا من الاموال والغنائم .. فهل خص نفسه بشيء من ذلك أم جعل نصيبه منه كنصيب الانصار ؟ لقد عمد الى « الخمس » الذي جعله الله خاصا برسوله يضعه حيث شاء ، فوزعه بين أولئك الاعراب الذين كانوا من حوله .

وتأمل فيما قاله لهم ، وهم يحدقون به ويستزيدون في العطاء : أيها الناس ، والله ما لي من فيئكم الا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله وعلى أصحابك البرره من الانصار والمهاجرين . وجمعنا تحت لوائك المحمود ، وجعلنا مع أولئك الذين سيلقونك على الحوض يوم القيامة .

* * *

غزوة تبوك

وسببها على ما رواه ابن سعد وغيره ، أنه بلغ المسلمين من الانباط الذين كانوا يتنقلون بين الشام والمدينة للتجارة ، أن الروم قد جمعت جموعا وأجلبت إلى جانبها لخم وجذام وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم ،

ووصلت طلائعهم الى أرض البلقاء . فنـدب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج ، وروى الطبراني من حديث ابن حصين أن جيش الروم كان قوامه أربعين ألف مقاتل[1] .

وكان ذلك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة ، وكان الفصل صيفا ، وقد بلغ الحر أقصاه ، والناس في عسرة من العيش ، وكانت ثمار المدينة ـ في الوقت نفسه ـ قد أينعت وطابت ، فمن أجل ذلك أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجهة التي سيتجهون إليها ـ وذلك على خلاف عادته في الغزوات الاخرى .

قال كعب بن مالك : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريـد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة التي غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا ومفازا وعـدوا كثيرا ، فجلى للمسلين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم[2] .

وهكذا ، فقد كانت الرحلة في هذه الغزوة ثقيلة على النفس ، فيهـا أقسى مظاهر الابتلاء والامتحان ، فأخذ نفاق المنافقين يعلن عن نفسه هنا وهناك ، على حين أخذ الايمان الصادق يعلن عن نفسه في صدور أصحابه .

أخذ أقوام من المنافقين يقولون لبعضهم : لا تنفروا في الحر .. وجـاء الجد[3] يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إئذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد علم قومي أنه ما مـن رجل بأشد عجبا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الاصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فيما أراد[4] وعسكر عبد الله بن ابي بن سلول في ضاحية بالمدينة مع فئات من أصحابه وحلفائه ، فلما سار النبي صلى الله عليه وسلم ، تخلف بكل من معه ! .

وفيما نزل في ذلك قوله تعالى « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله

---

(١) انظر طبقات ابن سعد : ٢١٨/٣ وفتح الباري : ٨٧/٨ .
(٢) متفق عليه .
(٣) جد الجد بن قيس .
(٤) رواه أبو أسحاق [illegible] عن [illegible] ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، انظر الاصابة : ١٠٣/١ .

وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون »[1] وقوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »[2] .

أما المؤمنون فأقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل صوب ، وكان قد حض أهل الغنى على النفقة وتقديم ما يتوفر لديهم من الدواب للركوب فجاء الكثيرون منهم بكل ما أمكنهم من المال والعدة ، وجاء عثمان رضي الله عنه بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها[3] وبألف دينار نثرها في حجره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يضر عثمان ما فعل بعدها[4] .

وجاء أبو بكر رضي الله عنه بكل ماله ، وجاء عمر بنصف ماله ، روى الترمذي عن زيدبن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك عندي مالا ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر ، إن سبقته يوما . قال : فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أبقيت لاهلك ؟ قال مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر ما أبقيت لاهلك ؟ فقال أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت لا أسبقه إلى شيء أبدا[5] .

وإذا صح هذا الحديث فلا بد أن يكون هذا الندب بمناسبة غزوة تبوك كما قال ذلك فريق من العلماء .

---

(١) التوبة : ٨١ .

(٢) التوبة : ٤٩ .

(٣) رواه الطبراني واخرجه الترمذي والحاكم والامام احمد من حديث عبد الرحمن بن خباب ، والاحلاس جمع حلس وهو الكساء الذي يوضع على ظهر البعير .

(٤) رواه الترمذي في سننه والامام احمد في مسنده من حديث عبد الرحمن بن سمرة .

(٥) رواه الترمذي والحاكم وابو داود . وفي سنده هشام بن سعد عن زيد بن اسلم وقد ضعفه الامام احمد والكسائي ، واعتبره الحافظ ابن حجر من المرتبة الخامسة . فقال عنه : صدوق له أوهام ، إلا أن الذهبي نقل عن أبي داود انه اثبت الناس إذا روى عن زيد بن اسلم كما في هذا الحديث ونقل عن الحاكم ان مسلما اخرج له في الشواهد .

وأقبل رجال من المسلمين أطلق عليهم (البكاءون) يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهورا يركبونها للخروج الى الجهاد معه ، فقال لهم : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا لديهم ما ينفقونه في أسباب خروجهم للغزو .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقارب ثلاثين ألفا من المسلمين[1]، وتخلف عنه نفر من المسلمين عن غير شك ولا ارتياب ، منهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وأبو خيثمة . وكانوا ـ كما قال ابن اسحاق ـ نفر صدق لا يتهم في اسلامهم . غير أن أبا خيثمة لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك .

روى الطبراني وابن اسحاق والواقدي أن أبا خيثمة رجع ، بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدة أيام ، إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين (أي خيمتين) لهما في بستان له ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له ماء فيه وهيأت له طعاما ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر الى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟! ما هذا والله بالنصف . ثم قال والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم . فهيأتا له زادا : ثم قدم ناضحه فارتحله وخرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك ، ولما دنا أبو خيثمة من المسلمين قالوا : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كن أبا خيثمة » ! فقالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أولى لك يا أبا خيثمة !.. ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فدعا له صلى الله عليه وسلم بخير .

وعانى المسلمون في هذه الرحلة جهودا شاقة وأتعابا جسيمة . حتى ان الثلاثة كانوا يتعاقبون على بعير واحد .

---

(١) روى ذلك ابن سعد وابن اسحاق وغيرهما .

وروى الامام أحمد في مسنده عن أبي هريرة :قال لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقالوا يا رسول الله : لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم افعلوا فجاء عمر فقال يا رسول الله إنهم ان فعلوا قل الظهر ، ولكن أدعهم بفضل أزوادهم ثم ادع لهم بالبركة لعل الله أن يجعل فيه ذلك ، فدعا عليه الصلاة والسلام بنطع فبسطه ، ثم دعاهم بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجيء بكف الذرة ، والآخر بكف التمر والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، ثم دعا عليه بالبركة ، ثم قال لهم : خذوا في أوعيتكم قال : فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملؤوه وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت منه فضله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة[1] .

ولما انتهوا الى تبوك ، لم يجدوا هناك كيدا ولا قتالا ، فقد اختفى وتفرق أولئك الذين كانوا قد تجمعوا للقتال . ثم أتاه يوحنه حاكم « أيلة » فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح فاعطوه أيضا الجزية ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك لهم كتابا .

ومر الجيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر (وهي منازل ثمود) فقال لاصحابه :لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أن يصيبكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي[2] .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قفل راجعا الى المدينة ، فلما أشرفوا على المدينة قال عليه الصلاة والسلام لاصحابه : هذه طابة ، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه[3] وقال لاصحابه : إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا

---

(١) رواه احمد في مسند واورده الحافظ ابن كثير في تاريخه ، ثم قال : ورواه مسلم عن ابي كريب عن ابي معاوية عن الاعمش .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

كانوا معكم . قالوا : يارسول الله ، وهم بالمدينة ؟! قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العـذر[٤] .

وقدم المدينة عليه الصلاة والسلام في رمضان من السنة نفسها ، فيكون قد غاب قرابة شهرين .

امـر المخلفـين

ولمـا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فجاءه المخلفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا . فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمر كعب بن مالك وصاحبيه الى أن نزلت آيات بقبول توبتهم .

وقد روى كعب رضي الله عنه خبره في ذلك ـ في حديث طويل رواه البخاري ومسلم ـ وجاء فيه قوله : كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة .. وطفقت أغـدو لكي أتجهز مع المسلمين ، فأرجع ولـم أقض شيئا ، فأقول في نفسي : أنـا قادر عليه (أي لن يعوقني شيء عن سرعة التجهز) فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد ولم أقض من جهازي شيئا . ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو (أي خرجوا وفاتوا) وهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليتني فعلت ـ فلم يقـدر لي ذلك . فكنت اذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم ، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموسا بنفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .. ولمـا بلغني أنه توجه قافلا حضـرني همي ، فطفقت أتذكر الكـذب ، وأقول بمـاذا سأخرج من سخطه غـدا ؟! .. واستعنت على ذلـك بكل ذي رأي من أهلي ، ولمـا قيـل إن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـد أقبل ، زاح عني الباطل وأجمعت أن أصدقه ، فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ،

---

(٤) متفق عليه ، البخاري : ٥/١٣٦ ومسلم : ز/٤٩ .

ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه ، إني لارجو فيه عفو الله . والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ! . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك . فقمت ، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني يؤنبونني (أي يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت من هما ؟ فقالوا : مرارة ابن الربيع وهلال بن أمية . فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرا لي فيهما أسوة .. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي الارض فما هي بالتي أعرفها فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الاسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه أسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي . وإذا التفت نحوه أعرض عني . وبينما أنا امشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدلني على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع الي كتابا من ملك غسان ، فاذا فيه : « أما بعد فانه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله في دار هوان

ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك » ، فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها . حتى اذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل الى صاحبيّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك فكوني

عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر .. فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله « قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الارض بما رحبت » سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون .. ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة . ودخلت المسجد ، فاذا رسول الله صلى الله جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال : قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله .فقلت يا رسول الله ! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة الى الله ورسوله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت : يا رسول الله إنما نجاني الصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت . وأنزل الله تعالى على رسوله : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار » الى قوله : « وكونوا مع الصادقين »[1] .

* * *

الدلائل والعبر :

اولا ـ كلمة على هامش هذه الغزوة :

لقد أخذ الاسلام يستقر في الجزيرة العربية ، واستولى سلطانه على الافئدة والنفوس وهذا ما كانت نصارى الروم تراقبه من بعيد في خوف وقلق .

(١) البخاري ومسلم ، باختصار .

فالرومان ، لم يعانقوا النصرانية إيمانا منهم بها . وإنما كانوا قد اتخذوها ذريعة الى استعمار شعوب تلك المنطقة ، ولاجل ذلك تلاعبوا كما أرادوا ، وغيروامنها وبدلوا ، فخلطوا هديها بوثنيتهم وأضافوا الى ما فيها من الحق الكثير من باطلهم .

والاسلام ـ وهو الدين الذي تكررت الدعوة إليه على لسان جميع الرسل والانبياء ـ إنما جاء ليخرج به الناس عن كل سلطان غير سلطان الله تعالى ، فلا يكون لاحد عليهم من سيادة ولا سلطان ولا حكم إلا سلطان الله وحكمه .

والرمان ـ وقد علموا من النصرانية كل حقائقها ـ أدرى الناس بخطورة هذه الرسالة الاخيرة وما تحمل في طيها من تهديد لحكم الطغاة وسلطان المتسلطين وبغي الباغين .

فلا غرو أن يكون هذا الدين ـ وقد استقر امره في الجزيرة العربية ـ مصدر قلق وتخوف لدى طغاة الروم واتباعهم الذين مـا دخلوا النصرانية إلا ظاهرا ، وما أرادوا من ذلك إلا ضمان بسط سلطانهم على المستضعين .

فمن أجل ذلك تلقوا خبر فتح مكة ونبأ انتصار الاسلام في الجزيرة العربية بالذعر ، ثم أخذوا يجمعون جموعهم بين الشام والحجاز ، علهم يقفون في وجه هذا الدين الذي سيكون في انتشاره القضاء عليهم وعلى سلطانهم .

ولقد كان من مقتضى هذا الاهتمام لدى الروم ، أن يكون الاشتباك بينهم وبين المسلمين عظيما وخطيرا . ولكن حكمة الله عز وجل تشاء أن يكتفي من جهاد المسلمين في هذه الغزوة بذلك الجهد العظيم الذي بذلوه والمشقات الجسمية التي تحملوها ، إذ قطعوا تلك المسافات المضنية بين المدينة وتبوك ذهابا وأيابا ، ولقد كانت ـ كما رأيت ـ رحلة عجيبة في عذابها وأتعابهاومشاهد العسر التي فيها . وما الجهاد الذي أمر الله به ؟ . هل هو إلا بذل النفس والجهد في سبيل شرعة الله ودينه ؟ .. إن هذا هو كل ما يريد الله من عباده ، ومعاذ الله أن يكون بحاجة من وراء ذلك الى معونتهم لرد كيد الكافرين أو إدخال معنى الهداية والايمان في قلوب الجاحدين .

وقد بذل « جيش العسرة » في هذه الغزوة العسيرة المضنية ، المال والجهد وضحوا بالراحة في أجمل فرصها ، واستبدلوا به العذاب في أقسى صوره وأشكاله . ولقد برهنوا بذلك على صدق إيمانهم بالله ومحبتهم له ، فحق لهم النصر والتأييد ، وأن يكفيهم الله القتال ، برعب من لدنه يقذفه في قلوب أعدائهم ، فيتفرقون عنهم ويخضعون لحكم الله فيهم .

وهكذا فقد كان يسر خضوع الروم لحكم الجزية وقيودها ، في مقابل العسر الذي تحمله المسلمون مع رسولهم صلى الله عليه وسلم في سبيل مرضاة ربهم جل جلاله .

ثانيا ـ العبر والاحكام :

وإنك لتجد في هذه الغزوة دروسا وأحكاما كثيرة ، نجمل منها ما يلي :

١ ـ **(اهمية الجهاد بالمال)** : فالجهاد ضد أعداء الاسلام ليس محصورا بالخروج للغزو ، بل لا يكفي منه ذلك وحده . فحيثما توقف أمر الجهاد بالقتال والسلاح على نفقات ومال ، وجب على المسلمين كلهم أن يقدموا من ذلك ما يقع موقعا من الكفاية ، بشرط أن يكون ذلك بنسبة ما يتفاوتون به من كفاية وغنى .

ولقد قرر الفقهاء أن الدولة إذا ما اضطرت الى النفقات للجهاد ، كان لها أن تفرض على الناس حاجتها من ذلك بالشكل الذي ذكرناه ، غير أنهم اتفقوا على أن ذلك مشروط بأن لا يكون في أموال الدولة ما يوضع في نفقات كمالية أو غير مشروعة . إذ ان أموال الناس ليس أولى من أموال الدولة بأن تصرف الى حاجات الجند والقتال .

هذا ، ولقد رأيت كيف أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قد جاء الى النبي عليه الصلاة والسلام بثمانمائة بعير بكل ما تحتاجه من الاقتاب والاحلاس وبمائتي أوقية من الفضة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم . وفي هذا بيان لفضل عثمان رضي الله عنه . بل إن في هذه الكلمة التي قالها عنه عليه الصلاة والسلام : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » ـ زجرا

وتأديبا لكل من أراد أن يطيل لسانه على عثمان من أمثال أولئك الذين يتشدقون بالنقد على سياسته أيام خلافته . يكتبون الصفحات الطوال عما يسمونه بمظهر الضعف أو التحيز في سياسته ، مقتفين في ذلك ما يطيب للمستشرقين القيام به من إمطار التاريخ الاسلامي بوابل النقد والكذب والتضليل تحقيقا لغاية مرسومة معروفة يتطلعون اليها ويغذون السير للوصول اليها .

إن هؤلاء الذين يضعون أنفسهم في أبراج عالية من النزاهة النادرة لينطقوا من هناك بأحكامهم على عثمان وسياسته ، هم أحوج مايكونون الى أن يتحسسوا أمراضهم المختلفة ثم يداووها بدراسة شيء من مناقب هذا الخليفة العظيم والاهتداء بسيرته وسلوكه .

ومهما يكن من شأن عثمان في خلافته ، فأي بقية من الادب توجد عند من يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » ثم يمضي بعد ذلك منتشيا بنقده وتسفيه سياسته ؟!.

٢ ـ (كلمة عن حديث ابي بكر وما اختلقه البعض من زيادة فيه ، ليسوغوا بها بدعة من اهم البدع المحرمة) :

ذكرنا الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود ، عن تقديم أبي بكر ماله كله للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه أجابه عليه الصلاة والسلام حينما سأله ، ما أبقيت لاهلك : « أبقيت لهم الله ورسوله » .

وقد اختلق بعضهم زيادة على الحديث : أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له : يا أبا بكر إن الله راض عنك فهل أنت راض عنه ؟ . فاستفزه السرور والوجد ، وقام يرقص أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : كيف لا أرضى عن الله ؟! .. ثم ذهبوا يجعلون من هذه الزيادة المختلفة دليلا على مشروعية الرقص والدوران في حلق الذكر على نحو ما يفعل « المولوية » وطوائف أخرى من المتصوفة .

فأما الدليل الذي يستندون اليه ، فهو دليل مختلق كما ذكرت . ولم يثبت

في حديث صحيح ولا ضعيف أن أبا بكر قام يفعل ذلك بن يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . كل ما ورد في الامر هو ما ذكرته من نص حديث الترمذي والحاكم وأبي داود ، على ما فيه من احتمالات الضعف التي بينتها في تخريج الحديث .

وأما المدلول ، فلا نقول : انه لم يثبت دليل عليه ، بل الحق الذي ينبغي أن يقال : إن الدليل قد ثبت على حرمته . وإليك بيان ذلك .

أجمع الأئمة على أن الرقص محرم ، إن كان مع التثني ، واتفق الجمهور على أنه مكروه إن كان بدون ذلك فادخال الرقص مهما كانت كيفيته في ذكر الله تعالى إقحام لما هو مكروه أو محرم ، في عبادة مشروعة ، وتحويل له بذلك إلى عبادة يتقرب بها إلى الله دون أي دليل عليها ، أو على أنها قد خرجت عن الكراهة أو التحريم .

أضف الى ذلك ما يتلبس به حال هؤلاء « الذاكرين » من التفوه بأصوات ليست من ألفاظ الذكر في شيء ، وإنما هي حمحمات وهمهمات تصاعد من حلوقهم . ليتكون منها دوي متناسق معين ينسجم مع تواقيع المنشدين والمطربين ، فتحدث بذلك مزيدا من النشوة والطرب في النفوس .

فكيف يكون هذا ذكرا لله تعالى كالذي أمر الله به والذي كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟!.. وكيف يكون هذا العمل عبادة ، والعبادة كما تعلم ــ هي ما شرعه الله تعالى في كتابه أو سنة رسوله يزاد عليها ولا ينقص منها ؟!..

واعلم أن هذا الذي نقوله ، هو ما اتفق عليه علماء الشريعة الاسلامية في مختلف العصور ، لم يشذ عنهم إلا قلة مبتدعة شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله فكم من محرمات استحلوها ومن موبقات ارتكبوها ، باسم الوجد أو التواجد آنا ، وباسم الانعتاق من ربقة التكاليف آنا آخر .

وإليك ما يقوله في هذا إمام من أجل أئمة المسلمين دينا وعلما وورعا وتصوفا وهو العز بن عبد السلام :

(وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الاناث ، لا يفعلها الا راعن أو متصنع كذاب ، كيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب عقله ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ولم يكن واحد من هؤلاء الذين يقتدون بهم يفعل شيئا من ذلك)[1] .

ويقول مثل هذا الكلام ابن حجر أيضا في كتابه : كف الرعاع .

أما الامـام القرطبي فيتوسع في التحذير من هذه البدعة وبيـان حرمتها توسعا كبيرا . وإذا أرادت أن تقف على كلامه في ذلك فارجع الى تفسيره ، عند قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » ، وقوله تعالى : « ولا تمش في الارض مرحا إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا » .

ولولا الاطالة فيما ينبغي الاختصار فيه لسردت لك نصوص كثير من الأئمة في هذا الشأن ، لتعلم أن هذا هو الحق الذي اتفق عليه عامة الأئمة من سلف وخلف لا خلاف فيه ولا نزاع .

ومن الواضح أنه يستثنى من عموم ما ذكرناه ، ما إذا خرج الذاكر عن طوره بأن سيطرت عليه حال لم يملك معها شعوره وزمام نفسه ، اذ لا يتعلق به حكم تكليفي في ذلك الطور ، وعليه يحمل ما قد قيل من أن العز بن عبد السلام نفسه قد هاج مرة فقام يقفز ، إذ كيف يفعل ذلك باختيار وقصد وهو صاحب النص الذي نقلنا عن كتابه؟[2] .

٣ ـ (المنافقون : طبيعتهم ومدى خطورتهم على الاسلام) ، نال أمر هذه الغزوة من حديث كتاب الله عنها وتعليقه عليها ما لم تنله أي غزوة أخرى ، وإنك لتقرأ عنها في سورة التوبة آيات بل صفحات كثيرة . وتركز معظم هـذه الآيات على بيان أهمية الجهـاد بالنفس والمال في سبيل الله . كمـا تطيل في الحديث عن المنافقين وفضح نواياهم والتخفي من مقاصدهم .

---

(١) قواعد الاحكام في مصالح الانام : ١٨٦/٢ .

(٢) انظر كتاب كف الرعاع : ٤٨ على هامش الزواجر لابن حجر .

والدرس الذي في ذلك هو بيان خطورة أمر النفاق والمنافقين على المسلمين في كل عصر ، وإيضاح أن الاسلام دعوى لا بد أن يصدقها الجهاد والتعرض للمحن ، حتى يتميز الصادق عن الكاذب ، ويمحص إيمان المؤمنين عن دجل المنافقين . ولقد كانت غزوة تبوك أعظم مادة لهذا الدرس القرآني ، إذ كان اختبار المسلمين بها أعظم اختبار إلهي كشف اللثام عن النفاق في المدينة وميز المنافقين عن المسلمين الصادقين أعظم تمييز ، ثم نزلت الآيات المتوالية في كتاب الله تعالى تضبطهم بجرائمهم وتعلن للمسلمين سرائرهم وتحذرهم منهم في كل زمان ومكان .

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون . فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين »[1] .

وأنت إذا رجعت الى ما قبل هذه الآيات وما بعدها ، رأيت فيها اهتماما غريبا بشأن المنافقين والحديث عنهم والتحذير منهم . وما ذلك إلا لان المسلمين لا يؤتون في معظم ما يصيبهم من نكبات ، إلا من قبل المنافقين ، فلا يتسنى لعدوهم أن يتسلل إليهم إلا من خلال ثغرات النفاق والمنافقين ، ولا ينخدع المسلمون بعدو لهم كما ينخدعون بالمنافقين منهم ، ولا يصابون بعدوى الضعف والخبال والتفرق كما يصابون به من قبل المنافقين ، وصدق الله تعالى إذ يقول :

« لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين »[2] .

ومكمن الخطورة فيهم ، أنهم إنما يحاربون الاسلام باسمه ، ويكيدون له بسلاحه ، يتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الاصلاح والمرونة والتمسك بروح التشريع ويستخرجون منه الفتاوى الملفقة المصطنعة تحقيقا لامانيهم أو تقربا الى سادتهم وأولياء نعمتهم .

---

(1) سورة التوبة : ٨١ ـ ٨٣ . (2) سورة التوبة : ٤٧ .

٤ ـ (الجزية واهل الكتاب) ، في هذه الغزوة دليل على مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب ، وأنهم يحرزون بذلك دماءهم وأموالهم ، فقد رأيت أن الروم اختفوا وتفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وصل الى تبوك ، وجاءه متنصرة العرب فصالحوه صلى الله عليه وسلم على الجزية ، وكتب لهم عليه الصلاة والسلام وبذلك كتابا .

والجزيـة ضريبة مالية تقوم بالنسبة لاهل الكتاب مقـام الزكاة بالنسبة للمسلمين والفرق الذي بينها وبين الزكـاة أن الجزية تقوم على أساس قضائي مجرد على حين تقوم مشروعية الزكاة على أساس من الديانة والقضاء معا .

ويعتبر الخاضعون لحكم الجزيـة داخلين في حكم الاسلام القضـائي في المجتمع الاسلامي وإن لم يدينوا به عقيدة في نفوسهم . ولذلك فان عليهم أن لا يجاهروا في مخالفة شيء من قوانينه وأحكامه العـامة إلا ما يتدينون من ذلك بخلافه في زعمهم كشرب الخمر ونحوه .

هذا ، والفرق بين الكتابيين وغيرهم من الملاحـدة والوثنيين ، في أمـر الجزية ، هو أن الكتابيين يمكنهم أن ينسجموا مـع المجتمع الاسلامي ونظامه العام مع احتفاظهم بما يدينون . أما الملاحدة والوثنيون وأشياههم فلن تجد بينهم وبين المجتمع الاسلامي قـدرا مشتركا يضمن الانسجام ، إذ لا يمكن لفكـرة الالحاد والوثنية أن تلتقي مع الحكم والنظام الاسلامي في أي فرع من الفروع ، لقيام التناكر والتخالف بينهم في أعمق الاسس والجذور .

٥ ـ ضرورة الاعتبار عند رؤية المعالم والآثار :

يدلنا ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما مرّ بمنازل ثمود أنـه يكره للمسلم أن يدخل ديار الامم الخالية ممن أهلكهم الله بكفرهم أو أن يمـر على شيء من آثارهم ـ إلاّ وهو معتبر بحالهم يتأمل في مآلهم يسأل الله تعـالى العافية والرحمة لـه وللمسلمين . إذ هي منـازل شهدت مظهـرا من غضب الله تعالى ، وسجلت على أطلالها آثار من ذلك الغضب ، فهي باقية عليها مع الدهر ،

ولا ريب أن الله عز وجل إنما ترك هذه الآثار في الارض لتكون عبرة لأولي البصيرة والألباب ، كما أوضح ذلك في كثير من آياته . فمن الخطأ الكبير أن يمر الانسان عليها ساهيا لاهيا ، لا يعبأ منها بغير مظهر الشكل أو البناء والنقوش .

وكم في الارض من عبر وعظات من هذا القبيل ، تظل تدوي بلسان حالها على اسماع الناس أن اعتبروا يا أولي الأبصار ، ولكن الناس لا يستمعون منها إلا إلى مايوسوس إليهم شياطينهم على السنتها ، ولا يقبلون منها إلا على مظاهر الفن والقيمة الأثرية والتاريخية ! ..

٦ ـ سياسة المجاملة مع المنافقين والشدة مع المؤمنين :

لقد تخلف ـ كما رأيت ـ كثير من المنافقين عن هذه الغزوة ، وجاءوا يعتذرون له صلى الله عليه وسلم بشتى الاعذار المختلفة ، ومع ذلك فقد صفح عنهم وقبل علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل . وتخلف عدد يسير من المؤمنين من غير ريبة ولا نفاق ، ثم جاءوا إليه صلى الله عليه وسلم لا يصطنعون عذرا ولا كذبا يسألونه العفو والصفح ، ومع ذلك فقد عاقبهم ولم يصفح عنهم . وقد رأيت مدى قسوة العقوبة التي أنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ..

فلماذا ؟! .. لماذا اختار مع المنافقين اللين والصفح ، واختار للمسلمين الصادقين الشدة والعقاب ؟!

والجواب : أن الشدة والقسوة في هذا المقام مظهر للاكرام والتشريف . وهو مالا يستأهله المنافقون ، وكيف يستأهل المنافقون أن تنزل آيات في توبتهم وعفو الله عنهم ؟! .

ثم إن المنافقين محكوم عليهم ـ على أي حال ـ أنهم كفرة ، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا ، من الدرك الاسفل في النار يوم القيمة ، وقد أمر الشارع جل جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ونجري الاحكام الدنيوية حسب ظواهرهم ، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم ، وفيم

معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن انما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والاحكام ، كما يبدون لنا ، هم أيضا ، الظاهر فقط من أحوالهم ، وعقائدهم .

قال ابن القيم : وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم ، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده ، بأدنى زلة وهفوة ، فلا يزال مستيقظا حذرا . وأما من سقط من عين الله وهان عليه فانه يخلي بينه وبين معاصيه ، وكلما أحدث ذنبا أحدث له نعمة[1].

واعلم أن في حديث كعب الطويل الذي ذكرناه عبرا ودلالات هامة نذكر منها ما يلي :

أولا ـ مشروعية الهجر لسبب ديني ، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين عن مكالمة كعب وصاحبيه طيلة تلك المدة ، قال ابن القيم : وفيه دليل أيضا على أن رد السلام على من يستحق الهجر ليس بواجب[2] ، إذ كان مما قاله كعب : فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين .. وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ فلو كان رد السلام عليه واجبا لكان لا بدّ من اسماعه .

ثانيا ـ وبتلاء آخر امتحن الله به كعبا رضي الله عنه ، ومن الجدير التأمل فيه لتعلم كيف ينبغي أن يكون إيمان المسلم بربه جل جلاله . فقد رأيت أن ملك غسان أرسل إليه معظما ومبجلا يدعوه الى ترك هؤلاء الذين آذوه وأعرضوا عنه ، واللحاق ببلاده ، ليجد عنده الاكرام والسعادة ، وكان قد بلغ الكرب اذ ذاك بكعب أشده ، ولكن هذا الابتلاء لم يكشف الا عن المزيد من إيمانه بربه وشدة إخلاصه ومحبته له .

وكم من أقدام زلّت ، وتزلّ اليوم في هذا المنزلق الذي وضع أمام كعب

---

(1) زاد المعاد : ج ٣،ص ٢٠ .

(2) المرجع السابق : ج٣ ، ص ٢٠ .

رضي الله عنه لابتلائه بـه ، فمرّ من فوقه عزيزا بايمانه قويا باسلامه ، لم يتأثر بـه ولا انزلق فيـه .

ثالثا ـ سجود الشكر لله تعـالى عبادة مشروعة ، دل عليها سجود كعب رضي الله عنه حينما سمع صوت المبشر بتوبـة الله عليه . قال ابن القيم : وقـد سجد أبو بكر الصديق لمـا جاءه قتل مسيلمة الكذاب ، وسجد عليّ بن أبي طالب لمـا وجد ذا الثدية مقتولا في الخوارج ، وسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بشره جبريل أنـه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا[1] .

رابعا ـ ذهب الحنفية ، ما عدا زفر ، الى أن الرجل إذا نذر ماله كلـه صدقة على المساكين ، لم يلزمه التصدق إلا بالاموال الزكوية فقط ، ولهم أدلة على ذلك ، لعل من جملتها ما أجاب بـه رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبـا حينما قال لـه : إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ورسوله ، فقد قال له : أمسك عليك بعض مالك .

والذين ذهبوا الى أنّ كلّ مـاله يصبح صدقة إذا نذره كله ، قـالوا إن قول كعب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في حقيقته إنشاء لصيغة نذر ، ولكنه استشارة له عليه الصـلاة والسلام ، فأخبره صلى الله عليه وسلم أن بعض ذلك يجزيه[2] . ولعل هذا هو الاقرب في فهم سياق كلام كعب رضي الله عنه وجواب الرسول صلى الله عليه وسلم لـه .

* * *

مسـجد الضـرار

روى ابن كثير عـن سعيد بن جبير وقتادة وعروة وغيرهم أنه كان في المدينة رجل من الخزرج اسمه أبو عامر الراهب وكان قد تنصر في الجاهلية ولـه مكانة

(1) المرجع السابق : ج٣ ، ص ٢٢ .
(2) راجع المبسوط للسرخسي : ٢ ١ـ ٩٣ وزاد المعاد لابن القيم : ٣ـ٢٣ ؛ وضوابط المصلحة للمؤلف : ٢٤٤و٣٨٤ .

كبيرة في الخزرج . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية ، شرق أبو عامر بريقه وأظهر العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج فارّا الى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إنه لما رأى أمر رسول الله في تقدم وارتفاع ، ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوعده ومنّاه ، فاقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من منافقي المدينة يعدهم بما وعده به هرقل ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك .

فشرعوا في بناء مسجد قريب من مسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته . وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلّة في الليلة الشاتية . فعصمه الله من الصلاة فيه وقال . « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » ، فلما قفل عليه الصلاة والسلام راجعا الى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه الى المدينة[1] . ونزل قوله تعالى :

« والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً ، لمسجد : أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٨٧ و ٣٨٨ ، ورواه ابن هشام في سيرته على نحو قريب في ج ٢/٣٢٢ .

(٢) سورة التوبة : آية (١٠٧ ـ ١٠٨) .

ومعنى قولـه تعالى « ضراراً » أنهم إنما بنوه ضراراً لمسجد قباء . وقوله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » إشارة الى مسجد قباء .

* * *

الدلائل والعبر :

تعدّ قصة هذا المسجد ، قمـة الكيد الذي وصل إليه المنافقون بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المسلمين . وليس هو هذه المرة نفاقـا فحسب ، بل هو مؤامرة وكيد يدبر ضد المسلمين ..

ولذلك ، لم يكن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الامر ، استمرارا لموقف التجاهل والاهمـال . وإنما كان له موقف آخـر ، استلهمه بوحي من ربـه جل جلاله . وقد ترك لنا دلالة على أحكام شرعية هامـة بها يتكامل موقف الشريعة الاسلامية من مظاهر النفاق .

وكان هذا الموقف هو الكشف عن حقيقة المنافقين وتعرية أهدافهم عن تلك الاقنعة التي ستروها بها ، ثم هدم وتحريق ذلك البنـاء الذي زعموه مسجدا ، وهم إنمـا بنوه مرصـدا لنفاق المنافقين وموئلا لتنظيم المكائد ضـد المسلمين ، وذريعة للتفريق بينهم .

وان قصة هـذا الكيد الاخير من المنافقين ، مـع القصص السابقة لنفاقهم وكيدهم ـ وموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم منها جميعا ، كـل ذلـك يعطينا صورة كاملة عن مجموع حكم الشريعة الاسلامية في حقهم .

والخلاصة أنهم بالنسبة لكل ما يصـدرون عنه من تظاهر بغـير ما يظنون يتركون لظواهرهم في الدنيـا ، وتوكل ضمائرهم الى الله عز وجل والى مـا يقضي بحقهم يوم القيامة . ولكنهم فيما قد يصدرون عنه من مؤامرات ومساع ضد المسلمين ، يؤخذون من النواصي متلبسين بجريمتهم ، كما ينبغي أن يدكّ ويهدم كل ما قد بنوه من مكائد ومؤامرات . فتكفيرهم بدلائل النفاق غير جائز . إذ لا سبيل لنا الى اقتحام قلوبهم . أما المكائد والمؤامرات التي يتلبسون بها ، فيعاقبون عليها بقطع النظر عن هوياتهم الشخصية .

وقد دل على ذلك مجموع سياسته صلى الله عليه وسلم ومعاملته مع هؤلاء المنافقين وهو ما اتفق عليه عامة الأئمة الباحثين استنادا الى هديه صلى الله عليه وسلم في ذلك .

هذا وإنك إذا تأملت في خطوات هذا الكيد المتلصص من المنافقين ، وكيفيته ووسائله ، علمت أن طبيعة النفاق واحدة في كل عصر وزمن ، وأن وسيلة المنافقين لا تتبدل ولا تختلف .

فهم الذين يسجدون بجباههم دائما على أقدام المستعمر الأجنبي ليعينهم بوسيلة حرب ضد إسلام المسلمين في بلدهم ، حتى إذا انقلوا الى أقوامهم من المسلمين ، تظاهروا بالاسلام واصطنعوا مظهر الاعجاب به والدعوة إليه . فاذا امكنتهم الفرصة من خنق حقيقة من حقائق هذا الدين والقضاء على بعض دعائمه ، أعلنوا أنهم يقومون برسالة تطويره وتجديده بما يلائم العصر وروحه .

وبعد ، فقد دل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ، على ضرورة تعطيل أو هدم أو تحريق أماكن المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها ، وإن اختبأت حقيقة هذه الاماكن عن أنظار الناس وراء مظاهر الخير والبر .

وإذا كان هذا هو ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمسجد الضرار فما بالك بأماكن المعاصي والفواحش التي يعصى الله فيها جهارا وعلنا ؟ ! وقد أحرق عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرية بكاملها كان يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقا[1] وهذا ما لم يقع فيه أي خلاف بين علماء المسلمين .

* * *

وفد ثقيف ودخولهم في الاسلام

روى ابن اسحاق أنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة من تبوك في شهر رمضان ، وفي ذلك الشهر قدم عليه وفد ثقيف .

(١) راجع زاد المعاد لابن القيم : ٣/١٧ .

وكانوا قد تشاوروا بينهم ، ورأوا أنـه لا طاقة لهم بحرب من حولهم مـن العرب ، وقد بايع كلهم وأسلموا . فأرسلوا وفـدا منهم يرأسهم كنانة بن عبد يالیل ، فلما دنوا من المدينة لقيهم المغيرة بـن شعبة ـ وهو منهم ـ فاستقبلهم وعلّمهم كيف يحيّون رسول الله صلى الله عليـه وسلم عند دخولهم عليـه ، ولكنهم لم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية .

وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفـد ثقيف في المسجد وبنى لهـم خياما لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، ومكث الوفد أياما عديـدة يختلفون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويختلف اليهم وهو يدعوهم الـى الاسلام[1] . روى ابن سعد : أنه صلى الله عليه وسلم كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء ، فيقف عليهم يحدثهم حتى يراوح بين قدميه (أي يقوم على كل قـدم مـرة من التعب)[2] .

روى موسى بن عقبة في مغازيه : أن عثمان بن أبي العاص كان في ذلك الوفد ، وكان أصغرهم ، فكانوا إذا ذهبوا الى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفوه على رحالهم ، فكان عثمان كلما رجع الوفد ، وقالوا في الهاجرة ، عمد فذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، واختلف إليه عثمان على ذلك مرارا حتى فقّهه في الدين ، وكان إذا وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما عمـد فذهب الى ابي بكر ، وكان يكتم ذلك مـن أصحابه ، فأعجب ذلك منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحبه .

وأخيرا دخل الاسلام أفئدتهم ، ولكن كنانة بن عبد يالیل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرأيت الزنى ، فانـا قوم نغترب ولا بدّ لنا منه قال : هو عليكم حرام ، فان الله يقول : «ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا»[3] . قالوا : أفرأيت الربا ، فانه أموالنا كلها ، قال : لكم رؤوس أموالكم إن الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مـا بقي من الربا إن كنتم مؤمنين »[4] . قالوا : أفرأيت الخمر ، فانه عصير أرضنا لا بـدّ لنا منها ،

(١) ابن هشام : ٣٢٤/٢ .
(٢) طبقات ابن سعد : ٧٨/٢ .
(٣) سورة الاسراء : آيـة ٣٢ .
(٤) سورة البقرة : آيـة ٢٧٨ .

قال : إن الله قد حرمها ، وقرأ آيـة تحريم الخمر[1] . قال ابن اسحاق : وسألوه أيضا أن يضع عنهم الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم لهم : لا خير في دين بـلا صلاة فخلا بعضهم الى بعض يتشاورن في الامر ثم عادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خضعوا لذلك كله ، ولكنهم سألوه أن يدع لهم وثنهم الذي كانوا يعبدونه (اللات) ثلاث سنين لا يهدمهـا ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فمـا برحوا يسألونه سنة سـنة ويأبى عليهم ، حتى سـألوه شهرا واحدا بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها الى أي أجل ــ قال ابن اسحاق : وإنما أرادوا بذلك أن يتخلصوا من أذى سفائهم ونسائهم وذراريهم ، وكراهية منهم أن يردعوا قومهم بهدمها حتى يدخل الاسلام قلوبهم .

فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فتولّ أنت إذاً هدمها ، فأما نحن فانا لا نهدمها أبداً . فقال لهم : فسأبعث لكم من يكفيكم ذلك . ثم استأذنوا رسول الله صـلى الله عليه وسلم فأذن لهم ، وأكرمهم وحيّـاهم ، وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص لمـا رأى من حرصه على الاسلام ، وكان قد تعلم سـورا من القرآن قبل أن يخرج .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وفـدا على أثرهم أمّر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب ، فعمدوا الى اللات فهدموها ، وخرجت نساء ثقيف حسرا يبكين عليها ويرثينها ، وكلما ضربها المغيرة بفأسه قال أبو سفيان : وآها لك ، وآها لك![2] .. يسخر منه ويصانع حزن تلك النسوة اللاتي يندبن ويبكين عليه .

قال ابن سعد في طبقاته ــ يروى عن المغيرة رضي الله عنه ــ : فدخلت ثقيف في الاسلام ، فلا أعلم قوما مـن العرب ، بني أب ولا قبيلـة ، كانوا أصحّ إسلاما ، ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه ، منهم[3] .

---

(١) انظر : زاد المعاد : ٣/٢٦ ، ٢٨ .
(٢) ابن هشام : ٢/٣٢٧ .
(٣) طبقات ابن سعد : ٢/٧٨ .

تتابع وفود العرب ودخولهم في دين الله

قال ابن اسحاق : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، وإنما كانت العرب تتربص بالاسلام أمر هذا الحيّ من قريش ، إذا كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت والحرم ؛ وصريح ولد اسماعيل عليه السلام وقادة العرب . فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوّخها الاسلام ، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجا ، كما قال تعالى : « إذا جاء نصرُ الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »[1] .

ونحن لا نرى حاجة ـ في هذا المجال ـ الى سرد تفاصيل هذه الوفود وأخبارها إذ لا يوجد كبير غرض لنا في هذا التفصيل .

* * *

الدلائل والعبر :

الطائف التي طردت رسول الله بالامس والتي اقبلت تؤمن به اليوم ! ..

أتذكر خبر أولئك الذين استقبلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن هاجر الى الطائف ، شر استقبال ، وأخرجوه من ديارهم شر إخراج ، وألحقوا به سفهاءهم وصبيانهم يضربونه ويؤذونه ويسخرون منه ؟ .. تلك هي ثقيف التي سمت اليوم اليه ودخلت في دين الله تعالى صادقة طائعة .

وهل تذكر إذ قال زيد بن حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عاد أدراجه من الطائف الى مكة : كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام :

يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه!.

---

(1) سورة النصر .

إن ما حدث اليوم هو مصداق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ، فتلك هي الطائف ، وهذه مكة وشتى قبائل وبطون العرب قد سعت جميعها تدخل في دين الله أفواجا .

ثم تعال فتأمل ! .. تأمل في كل ذلك الايذاء الذي رآه من ثقيف والخيبة التي فوجىء بها بعد أن هاجر ساعيا على قدميه يعبر اليهم جبالا وأودية قاصية مؤملا عندهم استقبالا كريما أو استجابة حسنة . ان أدنى ما يترك ذلك في نفس أي إنسان من الناس من الاثر ، أن يفكر في الانتقام أو يقابل إساءة بمثلها .

ولكن أين تجد هذا ــ أو حتى شيئا من هذا ــ في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه ثقيف ؟ لقد حاصر الطائف أياما ثم أمر أصحابه بالرجوع ، فقيل لـه : ادع على ثقيف ، فأبى ذلك ورفع يديـه يقول : اللهم اهـد ثقيفـا وأت بهم مؤمنين ! ..

ولمـا استجاب الله دعاء رسوله فجاء وفـد ثقيف الى المدينة ، تسابق أبو بكر الصدّيق والمغيرة بن شعبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرانه بذلك ، لمـا يعلم كل منهما من شدة سرور النبي صلى الله عليـه وسلم بنبأ اسلام ثقيف وهدايتهم ، فخرج يستقبلهم في بشر وإكرام . وراح يحبس عليهم وقته كلـه يعلّمهم ويرشدهم وينصح لهم .

ترى أيمكن أن يكون هذا كله شأن إنسان من الناس يدعو الى عقيـدة يراها ، أو مبـدأ اخترعه ؟ أما انها ليست الا مـن آثار النبوة . فلولا انه نبي مرسل ، لتقلبت عليه نوازع البشرية المعروفة لـدى سائـر الناس ، ولكن الله عز وجل جعله بسرّ النبوة مظهرا لقوله عز وجل : « ومـا أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فأصبحت بشريته خاضعة لسلطان النبوة التي أكرمه الله بها .

* * *

تلك هي العبرة التي ينبغي أخذها من قصة هذه الوفود . أما الـدروس والاحكام فاليك منها ما يلي :

أولا ـ (جواز إنزال المشرك في المسجد إذا كان يرجى اسلامه وهدايته) ؛ فقد رأيتَ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستقبل وفد ثقيف في مسجده لمحادثتهم وتعليمهم ، وإذا كان هذا جائزا للمشرك ، فجوازه للكتابي أولى . وقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، حينما جاءوه لسماع الحق ومعرفة الاسلام .

قال الزركشي : واعلم أن الرافعي والنووي رحمهما الله أطلقا أنه يجوز للكافر أن يدخل المساجد غير الحرم باذن المسلم ،بقيود :

أحدها : أن لا يكون قد شرط عليه في عقد الذمة عدم الدخول ، فان كان قد شرط عليه ذلك ، لم يؤذن له .

ثانيها : أن يكون المسلم الذي أذن له مكلفا ، كامل الاهلية .

ثالثها : أن يكون دخوله لسماع قرآن أو علم ورُجِيَ إسلامه ، أو دخل لاصلاح بنيان ونحوه ، وقضية كلام القاضي أبي علي الفارقي أنه لو دخل لسماع القرآن أو العلم وهو ممن لا يرجى إسلامه أنه يمنع وليس لنا أن نأذن له في الدخول ، أي كما إذاكانت الحالة تشعر بالاستهزاء أو بالمجاملة السياسية ابتغاء غرض معين كما هو شأن كثيرمن الاجانب اليوم .

فأما إذا استأذن لنوم أو أكل ونحوه ، قال في الروضة : ينبغي أن لا يؤذن له في دخوله لذلك ، وظاهره الجواز : وقال غيره ـ أي غير النووي ـ لا يجوز لنا أن نأذن له في ذلك . قال الفارقي : وفي معنى ذلك ، الدخول لتعلم الحساب واللغة وما كان في معناه . ولا خفاء أن موضع التجويز إذا لم يخش على المسجد ضرر ولا تنجيس ولا تشويش على المصلين[1] .

قلت : وأهم من ضرر التشويش ضرر الفتنة التي قد يتعرض لها المصلون بدخول نساء كافرات وهن بأزيائهن الفاضحة . ومثل الدخول للنوم والاكل في المنع ، الدخول للنظر في معالم البناء ونقوشه .

(١) إعلام الساجد للزركشي : ص ٣١٩ ـ ٣٢١ باختصار .

ثانيا ـ (حسن معاملة الوفود والمستامنين) والفرق بين الوفد والمستأمن ، أن الاول قادم رسولا عن قومه وهو يكون دائما مكونا من عدة أفراد ؛ أما الثاني فقادم لنفسه يطلب الامان في بلاد المسلمين ريثما يأخذ علما عنهم وعن الاسلام .

فأما المستأمن فقد أمر الله بحسن استقباله والمحافظة عليه ثم إبلاغه مأمنه أي الحدود التي يجد فيها طمأنينته وأمنه عندما يريد ذلك ، وذلك بصريح قوله « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه»[1] .

وأما الوفود ، فقد دل على هذا الحكم أيضا في حقهم ، القياس على المستأمن ، وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حسن سياسته لهم ومعاملته معهم ، فقد رأيت كيف أكرم الرسول صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف في القدوم والاقامة .

ثالثا ـ (احق الناس بالولاية والامامة اعلمهم بكتاب الله تعالى) ولذلك أمّر النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي العاص على ثقيف ، فقد أعجبه ما رأى فيه من الحرص على فهم كتاب الله تعالى ولقد أصبح خلال الفترة التي أقامها في المدينة مع أصحابه ، أعلمهم بكتاب الله وأفقههم في الاسلام . والامارة والولاية ليس كل منهما إلا مسؤولية دينية يراد منها إقامة الحكم والمجتمع الاسلامي فلا بد من توفر هذا الشرط فيهما .

رابعا ـ (وجوب هدم الاوثان والتماثيل) وليس من شرط وجوب ذلك أن يكون هناك من يعبدها أو يقدسها ، بل الحكم في ذلك عام وشامل لكل حالة ، لعموم الدليل هنا ، ولدليل أمره صلى الله عليه وسلم بتحطيم تلك التماثيل التي استخرجت من جوف الكعبة ، مع أنها لم تكن تعبد كتلك الاصنام الاخرى ، وهذا يدل على ما كنا قد ذكرناه من حرمة صنع التماثيل على اختلاف أنواعها وأشكالها ، وعلى حرمة اقتنائها مهما كانت أسباب ذلك .

* * *

(١) سورة التوبة : من آية « ٦ » .

هذا ولنكتف بهذا الذي ذكرناه من خبر وفد ثقيف ، عن تفصيل ذكر أخبار الوفود الكثيرة الاخرى ،التي قدمت خلال هذا العام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعدم تعلق غرض كبير في هذا المقام بذلك .

غير أن مما ينبغي أن تعلمه ، أن هـذه الوفود كانت في مجموعها تمثل فئتين : احداهما فئة المشركين ، والثانية فئة أهل الكتاب .

فأما المشركون ، فقد دخل عامتهم في الاسلام ، وما رجعت وفودهم إلا وهي تحمل مشعل الايمان والتوحيد الى قومهم . وأما أهل الكتاب فقد بقي أكثرهم على ما هم عليه ، من اليهودية أو النصرانية .

ولقدكان الوفد الذي جاء يمثل نصارى نجران مؤلفا من ستين رجلا ، وقد لبثوا عنده صلى الله عليه وسلم أياما يجادلونه في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ووحدانية الله تعالى .

وكان آخر ما عنده صلى الله عليه وسلم لهم أن تلا عليهم قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وأنفسكم . ثم نبتهل ، فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . آل عمران : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

فلما أبوا أن يقروا ، دعاهم الى المباهلة[1] كما أمره الله بذلك ، وذهب عليه الصلاة والسلام فأقبل مشتملا على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له ، وفاطمة رضي الله عنها تمشي خلفه ، للمباهلة .

فأبى رئيس وفدهم ، وهو شرحبيل بن وداعة ، المباهلة أيضا وحذر اصحابه من عاقبة ذلك عليهم . فأقبلوا إليه صلى الله عليه وسلم يحكمونه فيما دون كل من الاسلام والمباهلة ، وينزلون عنـد حكمه في ذلك . فصالحهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وكتب لهم بذلك كتابا ، والتزم فيه رسول الله

(١) المباهلة : اي الدعوة إلى ان يبتهل كل طرف الى الله ان يجعـل لعنته على الطرف الكاذب .

صلى الله عليه وسلم لهم ــ ان دفعوا الجزية المتفق عليها ــ أن لا تهدم لهم بيعة ، ولا يفتنوا عــن دينهم ما لم يحدثوا حدثا ــ أي غــدرا أو خيانة ــ أو يأكلوا الربــا [1] .

* * *

بعوث رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى الناس
لتعليمهم مبادىء الاسلام

وكما أقبلت الوفود تسعى الى رســول الله صلى الله عليه وسلم لاعلان اسلامها ، فقد أخذ هو أيضا يبعث رسله يتفرقون في شتى الجهات ، وخاصة في جنوب الجزيرة ، لتعليم الناس مبادىء الاسلام وأحكامه . فقد انتشر أمر الاسلام في الجزيرة ومختلف أطرافها ، وأصبحت الحاجة داعية الى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الاســلام . حتى يستقر في قلوبهم بعــد أن انتشر في ربوعهــم .

فأرسل صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد الى نجران ليدعو من هناك الى الاسلام ويعلمهم مبادئه وأحكامه ، كما أرسل عليا رضي الله عنه الى اليمن[2] .

وأرسل صلى الله عليه وسلم أبا موسى الاشعري ومعاذ بن جبل الى اليمن أيضا ، بث كلا منهما الى طرف من أطرافها ، ووصاهما قائلا : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا[3] وقال لمعاذ : إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب ،

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة بتفصيل مطول ، وروى خبر المصالحة على الجزية ، ابو داود أيضا في كتاب الخراج ، باب اخذ الجزية ، وانظر قصة وفد نصارى نجران في تفسير ابن كثير ٣٦٨/١ ، ٣٦٩ .

(٢) طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ، وفي البخاري : ارسل خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب الى اليمن ، وانظر صحيح البخاري : ١١٠/٥ .

(٣) متفق عليه .

فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فان هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فان هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكر إثم اموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينه وبين الله حجاب[1] .

وفي مسند الامام احمد أنه صلى الله عليه وسلم خرج مع معاذ الى ظاهر المدينة يوصيه ومعاذ راكب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي تحت راحلته . ثم قال : « يا معاذ لئك عسى ان لا تلقاني بعد عامي هذا ! ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري » فبكى معاذ لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

ولبث معاذ في اليمن إلى ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الامر كما أخبر به عليه الصلاة والسلام .

* * *

الدلائل والعبر :

١ ـ تبليغ الاسلام والدعوة اليه هو لب الجهاد :

أهم ما ينبغي على المسلم أن يفهمه من أمر هؤلاء الرسل وأمثالهم الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لامر الدعوة الى الاسلام وتعليم مبادئه وأحكامه أن مسؤولية الاسلام في أعناق المسلمين في كل عصر وزمن ليست من السهولة واليسر كما يتصور معظمهم اليوم .

فلا يكفي أن ندعي الاسلام بألسنتنا المجردة ، كما لا يكفي ان يكون نصيبه من حياتنا بعض أعمال يسيرة ، كانت في أصلها جليلة ، ثم تحولت في حياتنا الى عادات وتقاليد ، بل ولا يكفي أن يتمسك الواحد منا بالاسلام لنفسه فقط ، ثم يغلق بابه دونه لا يسأل عن شيء .

---

(١) متفق عليه .

(٢) مسند الامام احمد : ٢١٤/٢١ .

لا ترتفع مسؤولية الاسلام عن أعناق المسلمين حتى يضيفوا الى هذا ، القيام بواجب الدعوة اليه والتبشير به ، والسفر في سبيل ذلك الى شتى الجهات والقرى والبلدان .

تلك هي الامانة التي ألقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعناقنا ، وذلك هو الواجب الذي لا محيص عنه في كل عصر ومكان . وقد أجمع العلماء والأئمة الاربعة أن القيام بحق هذه الدعوة في داخل البلدة التي يقيم بها المسلمون وخارجها ، فرض كفاية على المسلمين ، ولا يتحللون من مسؤوليته وجريرة التقصير فيه الا بقيام جمهرة منهم تنتشر فيما تستطيع أن تنتشر فيه من الجهات والبلدان داعية الى الله تعرض حجج الايمان وبراهين الاسلام وتزيل ما قد يعترض أذهان الناس الى ذلك من الشبه والوساوس المختلفة ، بحيث تقع أعمال هذه الجمهرة موقعا من الكفاية في القيام بهذا الواجب . وما لم تتوفر هذه الفئة في كل بلدة من بلادالاسلام فجميع أهل تلك البلدة آثمون .

والصحيح الذي ذهب اليه جمهور الأئمة والفقهاء ، أن هذا الواجب الخطير لايتعلق بأعناق الذكور من المسلمين فقط ، بل هو عام يشمل الذكور والنساء ، ما داموا داخلين في ربقة التكليف قادرين على القيام بأعباء الدعوة والتوجيه ، كل حسب حدود امكاناته ووسائل استطاعته[1] .

واعلم أن أساس الجهاد في الشريعة الاسلامية انما يتمثل في هذا العمل الذي هو لب الجهاد وجوهره .

والمؤسف أن كثيرا من المسلمين اليوم يظنون أن الجهاد انما يعني حمل السلاح والقيام به في وجوه حكام المسلمين بحجة أنهم لا يحكمون بما أنزل الله ، وهم عن هذا الاساس الجوهري معرضون وغافلون يبحثون عن الحكم بما أنزل الله تحت اقواس القضاء فقط دون أن يكلفوا أنفسهم نشر الاسلام والتعريف به في بيوت الناس وفي القرى التي عمها الجهل ، وهجر الناس فيها المساجد ،

---

(١) انظر مغني المحتاج : ٤/٢١١ ، والاحكام السلطانية للماوردي .

وتنوسي فيها الاسلام • مع أن هذا هو الجهاد الحقيقي الذي أمر به رسول الله ، ووزع أصحابه من أجله في شتى البقاع •

٢ ــ من آداب الدعوة الى الاسلام :

ثم إن التوصية التي زود بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا وأبا موسى الاشعري ، تدل على بعض الآداب التي يجب أن يتحلى بها الداعي الى الله تعالى أثناء ما يقوم به من توجيه وتعليم •

فمن ذلك أن يغلب جانب التيسير على التشديد والتضييق ، وأن يعتمد على التبشير أكثر من الانذار أو التهديد ، وهو ما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنفير •

وقد أوضح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثال تطبيقي ، فأمر معاذا أن يدعو الناس أولا الى الاقرار بالشهادتين ، فان هم استجابوا لذلك ، فليدعهم الى اقام الصلاة فان هم استجابوا لذلك ، فليدعهم الى دفع الزكاة •• وهكذا •

غير أن مظاهر التيسير والتبشير ، ينبغي أن لاتتجاوز حدود المشروع والمباح ، فليس من التيسير المطلوب أو المشروع تبديل بعض الاحكام أو التلاعب بمفاهيم الاسلام بغية التيسير على الناس ، وليس منه الاقرار على المعصية مهما كان شأنها ، وان كان للتيسير المشروع دخل في اختيار الوسيلةالتي ينبغي أن تستعمل لانكارها •

ومن آداب الدعوة الى الله ، (وهي من آداب الامارة والولاية أيضا)

الاحتراز عن التلبس بظلم أي انسان ، وخاصة ما يكون منه بأخذ شيء من أموال الناس بغير حق ، وهو نوع خطير من الظلم قد يتعرض له الدعاة الى الله تعالى إذا ما غفلوا عن حقيقة مسؤولياتهم ومراقبة الله عز وجل لهم ، كما يتعرض له أرباب الولاية والسلطان •

ولما كان معاذ رضي الله عنه متسما بكلا الصفتين لدى ارسال الرسول صلى

الله عليه وسلم له الى اليمن : أي صفة الدعوة ، وصفة الامارة والولاية ، فقد شدد النبي عليه من التحذير من الوقوع في أي نوع من أنواع الظلم قائلا :

واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينه وبين الله حجاب .

* * *

حجة الاسلام
وخطبة الوداع

روى الامام مسلم بسنده عن جابر رضي الله عنه قال : مكث رسول الله بالمدينة المنورة تسع سنين لم يحج . ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله حاج . فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ويعمل مثل عمله .

وخرج رسول الله من المدينة لخمس ليال بقين من ذي القعدة . قال جابر : فلما استوت به ناقته في البيداء ، نظرت الى مد بصري بين يدي رسول الله من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك ورسول الله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن .

واختلف الرواة . فأهل المدينة يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم أهل بالحج مفردا . ويروي غيرهم أنه قرن مع حجة عمرة ، وروى بعضهم أنه دخل مكة متمتعا بعمرة ثم أضاف اليها حجة .

ودخل مكة من أعلاها من طريق كداء حتى انتهى الى باب بني شيبة . فلما رأى البيت قال « اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة . وزد من عظمته ممن حجه واعتمره تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وبرا » .

ثم مضى رسول الله في حجه ، فعلم الناس مناسكهم وبين لهم سنن حجهم .

وألقى رسول الله يوم عرفة خطبة جامعة في جموع المسلمين الذين احتشدوا حوله في الموقف : هذا نصها :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، فاني لا أدري ، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شركم هذا في بلدكم هذا . ألا وكل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة ، وان أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة ابن الحارث وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فانه موضوع كله .

أيها الناس : ان الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس ان النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وان الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهرا ، منها اربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

اتقوا الله في النساء ، فانكم انما أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، إن لكم عليهن حقا ولهن عليكم حقا . لكم عليهن أن لا يوطئن فراشكم أحدا تكرهونه[1] فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به : كتاب الله وسنة رسوله . أيها الناس اسمعوا واطيعوا وان أمّر عليكم عبد حبشي مجدّع ما أقام فيكم كتاب الله تعالى . أرقاءكم أرقاءكم . اطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ، وان جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم[2] .

---

(١) المقصود بذلك أن لا يأذن لاحد ممن يكرهون دخولهم عليهن . وليس وطء الفراش كناية عن الزنا كما قد يتوهم .

(٢) هاتان الفقرتان من رواية ابن سعد في الطبقات .

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه . فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ وستلقون ربكم فلا ترجوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، وأنتم تسألون عني فما انتم قائلون ؟

قالوا نشهد انك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بأصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكتها الى الناس : اللهم اشهد « ثلاثا »[1] .

ثم لم يزل رسول الله في عرفات ، حتى غربت الشمس . وحينئذ دفع بمن معه الى المزدلفة ، وهو يشير بيده اليمنى قائلا : أيها الناس ، السكينة ، السكينة ، فصلى في المزدلفة المغرب والعشاء جمع تأخير . وبات تلك الليلة في المزدلفة ، ثم دفع قبل أن تطلع الشمس الى منى ، فرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها . ثم انصرف الى المنحر ، فنحر ثلاثا وستين بدنة ثم أعطى عليا فنحر ما غبر « أي تتمة المائة » . ثم ركب رسول الله فأفاض الى البيت فصلى بمكة الظهر واتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم . فقال : انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم . فناولوه دلوا فشرب منه .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قفل عائدا الى المدينة .

* * *

(١) نقلنا نص هذه الخطبة من صحيح مسلم . وأضفنا اليها زيادة جاءت في البخاري . وهي « وستلقون ربكم ... الى : من سمعه . كما اضفنا اليها زيادات بسيطة اخرى وردت في ابن اسحاق وطبقات ابن سعد وغيرهما .

الدلائل والعبر :

اولا ـ تاريخ مشروعية الحج ، وعدد حجاته صلى الله عليه وسلم :

شرع الحج في العام العاشر للهجرة • فلم يكن واجبا قبل ذلك • ولم يحج رسول الله بعدها الا هذه الحجة ، التي تسمى حجة الاسلام وتسمى حجة الوداع أو حجة رسول الله • وبها عنون الامام مسلم حديث هذه الحجة •

وأما ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم حج ثلاث حجج قبل هجرته ، فهو مبني ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ على عدد وفود الانصار الى العقبة بمواسم الحج كما قد مر بيانه • أما الحج المفروض فلم يؤد رسول الله الا حجة واحدة •

ومن الادلة على أن فريضة الحج لم تثبت الا في العام العاشر ، ما رواه الشيخان من خبر وفد عبد القيس الذين قدموا على رسول الله ، فقد جاء فيه أن رسول الله قال لهم : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع • وعدد لهم الاوامر الاربعة فقال : آمركم بالايمان بالله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم • ويبدو أن الامر بالايمان جاء زيادة على الاربعة •• فلو كان الحج مفروضا اذ ذاك لعده في جملة الاوامر التي وجهها اليهم •

ثانيا ـ المعنى الكبير في حج رسول الله •

إن لحجة رسول الله هذه ، معنى جليلا ، يتعلق بحياته صلى الله عليه وسلم ، كما يتعلق بأمر الدعوة والمنهج العام لنظام الاسلام •

فلقد تعلم المسلمون من رسول الله صلاتهم وصيامهم وأمر زكاتهم وعامة ما يتعلق بهم من عبادات وواجبات • وبقي أن يعلمهم مناسكهم وكيفية أدائهم شعائر الحج ، بعد أن قضى الاسلام على تلك العادات الجاهلية أثناء الطواف بالبيت ، من تصفيق وصفير وعري ، وغير ذلك من مظاهر الوثنية والشرك •

من أجل ذلك أذن رسول الله في الناس أنه حاج الى بيت الله الحرام ، ومن

أجل ذلك أقبل الناس من كل حدب وصوب ، يريدون أن يأتموا به ، ليتعلموا الاعمال الصحيحة للحج ، فلا يقعوا في رواسب التقاليد الجاهلية البائدة .

ويبدو أنه قد القي في روعه أن مهمته في الارض توشك أن تنتهي ، فقد أدى الامانة ، وأينعت الجزيرة العربية بغرس التوحيد ، وانتشر الاسلام يدخل أفئدة الناس في كل مكان .. وان بالناس ـ وهم اليوم كثرة متفرقون ـ لشوقا الى مزيد من اللقاء مع رسولهم والاستفادة من تعاليمه وارشاداته ، وبه هو أيضا شوق الى مزيد من اللقاء بهم ، لاسيما تلك الحشود التي دخلت الى الاسلام حديثا من مختلف الجهات ، ممن لم تتح لهم فرصة لقاء كاف معه صلى الله عليه وسلم . وان أجمل فرصة لذلك إنما هو التلاقي لاداء فريضة الحج لبيت الله الحرام .. لقد كان لقاء كبيرا اتضح أنه كان في علم الله عز وجل وإلهام رسوله لقاء توصية ووداع .

ويريد رسول الله أيضا أن يلتقي مع هؤلاء الحشود المسلمة الذين جاؤوا ثمرة جهد دام ثلاثة وعشرين عاما ، ليلخص لهم تعاليم الاسلام ومبادئه في كلمات جامعة وارشادات مختصرة يضمنها كوامن وجدانه وحبه لامته .. وليستطلع في وجوههم صورة أعقابهم الذين سيأتون من بعد ، فيرسل اليهم نصائحه وتعاليمه من خلف حواجز الزمن ووراء أسوار القرون .

ذلك هو بعض معاني حجه صلى الله عليه وسلم : حجة الوداع . وانك لتراها متجسدة في خطبته التي ألقاها في وادي عرنة يوم عرفة .

ثالثا ـ تاملات في خطبة الوداع :

في موقف جامع خاشع أحدق فيه برسول الله الآلاف المؤلفة من الذين دخلوا في دين الله أفواجا ، يمتد سوادهم امتداد النظر من كل الجهات ، موقف يتجلى فيه مصداق قول الله عز وجل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » .

في هذا الموقف الفريد أخذ رسول الله ينظر الى هذا الحشد ، وينظر من

خلاله الى الاجيال المقبلة الى العالم الاسلامي الكبير الذي سيملأ شرق الارض وغربها ، وراح يلقي على مسامع هذا العالم خطابه المودّع .. : « أيها الناس اسمعوا قولي فاني لا أدري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا »!..

وأنصتت الدنيا لتسمع خطابه . وأنصت الحجر والقفر والمدر الى الكلمة المودعة يرسلها رسول الله في الحشود المحيطة به ، وغرس الارض بغراس الايمان .. وها هو الآن يلخص المبادىء التي جاء بها وجاهد في سبيلها ليضعها أمانة من بعده في أعناق الاجيال .

فماذا كان أول بند فيها ؟

الغريب أن أول بند في خطابه المودع ، هو بذاته آخر بند فيه . فلقد ركز عليه باهتمام وجعل منه الفاتحة والختام . ذلك لان مشكاة النبوة أرته واقع المنزلقات التي سيتنكب فيها أقوام من أمته خلال العصور سائر وراء الامم الاخرى مقتفين آثارهم معرضين عن كتاب الله وهدي رسوله ، فكان هذا البند تحذيرا من أخطر هذه المنزلقات التي سينجرف فيها كثير من المسلمين الذين هم ذيول للغرب أو الشرق ، ألا وهو العدوان على حرمات الابدان والاموال :

« أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » ! ..

وأنظر كيف عاد فأكدها مرة أخرى في أخر خطابه فقال :

« تعلمن أن كل مسلم أخ المسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، الا هل بلغت » ؟

أما البند الثاني ، فلم يكن مجرد توصية ، ولكنه قبل ذلك قرار أعلنه على الملأ كله .. وهذه هي صيغة القرار :

« الا ان كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ! .. دماء الجاهلية موضوعة .. وربا الجاهلية موضوع .. الخ .

فما المعنى الذي تضمنه هذا القرار ؟

إن يقول : كل ما كانت الجاهلية تفخر في التمسك به من تقاليد العصبية والقبيلة ، وفوارق اللغة والعرق والانساب ، واستعباد الانسان أخاه الانسان باغلال الظلم والمرباه ، قد بطل أمره ومات اعتباره ، فهو اليوم جيفة منتنة غيبها الاسلام في باطن الارض ، واصبح مكانها من حياة المسلم تحت مواطىء الاقدام!.. فمن الذي يرجع بعد ذلك لينبش التراب عن جيفة منتنة ليعانقها ؟! .. وأي أبيّ يعمد الى القيد الذي كسره بالامس والقاه ، ليصلحه ويعود فيقيد نفسه به اليوم ؟

أرجاس من تقاليد الجاهلية ، أبعدها رسول الله من طريق الانسانية نحو تقدمها الفكري والحضاري ، وأعلن أنها قد عادت حثالة دفنها تحت قدميه ، كي يثبت للدنيا كلها ويسجل على سمع القرون والاجيال ، أنه ما من تائه يزعم التقدم الفكري يعمد فينبش شيئا من هذا الدفين القديم ليبعثه من جديد ويتجلى به ، الا وهو رجعي يرجع القهقرى ويسبح في أغوار قصبة من التاريخ المظلم القديم ، وان اصر الا أن يوهم نفسه بأنه يتقدم صعدا في مراقي التقدم والرقي ! ..

وأما البند الثالث ، فقد أعلن فيه رسول الله عن تطابق الزمن اذ ذاك ، مع اسماء الاشهر المقسم عليها . وذلك بعد طول تلاعب بها في الجاهلية وصدر الاسلام .. فقد كانوا يجعلون حجهم كل عامين في شهر معين من السنة ، فيحجون في ذي الحجة عامين ، ثم في المحرم عامين ، وهكذا ، وكانوا يتلاعبون بالاشهر الحرام تقديما وتأخيرا ، حسب ظروفهم التي تدعوهم الى القتال أو السلم .. فلما حج رسول الله هذا العام ، وافق حجه شهر ذي الحجة ووافقت أزمنة الاشهر أسماءها التي سماها الله تعالى بها . فأعلن رسول الله اذ ذاك أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والارض .. أي فلا تتلاعبوا بعد اليوم بالاشهر تقديما أو تأخيرا ، ولا حج بعد اليوم إلا في هذه الايام من هذا الزمن الذي استقر عليه اسم ذي الحجة .

وفي البند الرابع أوصى رسول الله خيرا بالنساء ، وأكد الظلم البائد للمرأة في الجاهلية ، بما دعت اليه الشريعة الاسلامية من ضمانة المحافظة على حقوقها وكرامتها الانسانية .

وسبب تأكيد رسول الله لهذه الحقيقة أن اولئك المسلمين كانوا قريبي عهد بتقاليد الجاهلية التي تقضي باهمال شأن المرأة وعدم الاعتراف بأي حق لها .

ولعل هنالك حكمة اخرى لهذا التأكيد ، وهي أن يكون المسلمون في سائر العهود والعصور ، على بينة من الفرق الكبير بين تكريم المرأة والمحافظة على حقوقها التي ضمنتها لها الشريعة الاسلامية ، وما يهدف اليه بعضهم من استباحة الوسائل المختلفة الى التمتع والتلهي بها . وهو ما حاربه الاسلام . مع محاربة لكل أنواع الكيد والخداع .

أما البند الخامس ، فقد وضع فيه رسول الله الناس من جميع المشكلات التي قد تعترض حياتهم ، أمام مصدرين لا ثالث لهما ، ضمن لهم في الاعتصام بهما الامان من كل شقاء وضلال ، هما كتاب الله وسنة رسوله .

وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان الى جميع الاجيال المتعاقبة من بعده ، ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفا على عصر دون آخر ، وأنه لا ينبغي أن يكون لاي تطور حضاري أو عرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما .

وفي البند السادس أوضح صلى الله عليه وسلم ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الامام والرعية أو الرئيس والشعب إنها علاقة السمع والطاعة من الشعب للحاكم ، مهما كان نسبه وشأنه ومظهره ، ما دام أنه يحكم بمقتضى كتاب الله وسنة رسوله . فاذا حاد عنهما فلا سمع ولا طاعة .

ولقد أوضح رسول الله بهذا أنه لا امتياز للحاكم من وراء حدود كتاب الله وسنة نبيه ، ولا يجوز لحاكميه ان ترفعه قيد شعرة فوق مستوى المنهج الاسلامي .

إذ هو في الحقيقة ليس بحاكم ولكنه أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله عز وجل . ومن هنا لا تقيم الشريعة الاسلامية وزنا لما يسمى بالحصانة والامتيازات الطبقية بين فئات المسلمين .

وفي الختام يشعر رسول الله أنه أخرج مسؤولية الدعوة وتبليغ الاسلام عن عنقه ، فها هو الاسلام قد انتشر ، وها هي ضلالات الجاهلية والشرك قد تبددت ،

وها هي أحكام الشريعة قد بلغت ، وها هو الوحي يتنزل على رسول الله بقول الله مخاطبا الناس كلهم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » .. ولكنه يريد أن يطمئن الى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يسألون . ولذلك أنهى توصياته هذه لهم بأن نادى فيهم قائلا : إنكم ستسألون عني فما أنتم قائلون ؟

وارتفعت الاصوات من حوله تعلو : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

وحينئذ اطمأن رسول الله .. لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التي سيلقى بها وجه ربه عز وجل .. ولقد اطمأن عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ، الرضا في عينيه ، ونظر بهما الى الاعلى مشيرا بسباته الى السماء ثم الى الناس يقول :

اللهم اشهد .. اللهم اشهد .. اللهم اشهد ..

وياما أعظمها من سعادة .. سعادة رسول الله بشبابه الذي أبلاه وعمره الذي أمضاه في سبيل نشر رسالة ربه عز وجل ، حينما ينظر اليوم فيرى حصيلة الجهد الذي قدم والعمر الذي أفنى ، أصواتا ترتفع بتوحيد الله وجباها تعنو ساجدة لسلطان الله ، وقلوبا خفاقة تجيش بحب الله . ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر وشتات السفر في القفار وعذاب السخرية والايذاء ، في سبيل هذا الدين الذي شاده فوق أرض الله ! .. فلتكتحل به عيناك يا سيدي سعادة وسرورا ، وليبارك لك ربك في وجيب قلبك حمدا ونشوة وحبورا .

* * *

ثم أتم رسول الله حجه ، وتضلع من شرب ماء زمزم ، وعلم الناس مناسكهم ، ثم عاد أدراجه الى المدينة ليواصل السعي والجهاد طوال الايام القليلة الباقية من حياته .

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

شـــكوى رسول الله
ولحاقـــه بالرفيق الاعلى

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

بعث اسامة بن زيد الى البلقاء

ما ان عـاد رسول الله الى المدينة المنورة ، حتى أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم . واختار عليه الصلاة والسلام لامرة هذه الغزوة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، وكان شابا حدثا ، فأمره أن يسير الى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة ، وأن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . وذلك مع بدء شكواه صلى الله عليه وسلم من مرضه الذي توفي فيه .

ولكن المنافقين راحـوا يقولون مستنكرين : أمر غلاما حـدثا على جلّة المهاجرين والانصار[1] . فخرج رسول الله الى الناس وقد عصب رأسه ، وخطب فيهم قائلا :

« إن تطعنوا في إمارة أسامة بن زيد فقد طعنتهم في إمارة أبيه من قبله . وايم الله ان كان لخليقا بها . وايم الله ان كان لاحب الناس اليّ ، وايم الله ان هذا لهـا لخليق ــ يريد أسامة بن زيد ــ وايم الله ان كان لاحبهم اليّ من بعده . فأوصيكم به فانه من صالحيكم »[2] .

وتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرون والانصار ، وخرج أسامة بجيشه الى ظاهر المدينة فعسكر بالجرف (مكان على فرسخ من المدينة) .

شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفي هذه الاثناء ، اشتدت برسول الله شكواه التي قبضه الله فيها اليه ، فأقام الجيش هناك ينظرون ما الله قاض في هذا الامر .

وكان ابتداء شكواه ما رواه ابن اسحاق وابن سعد عـن أبي مويهبة مولى

(١) كان اسامة اذ ذاك ابن ثماني عشرة او عشرين على اختلاف في ذلك .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم : ٧/١٣١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل ، فقال : يا أبا مويهبة ، قد أمرت ان استغفر لاهل هذا البقيع ، فانطلق معي . فانطلقت معه ، فلما وقفنا عليهم ، قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيما أصبح الناس فيه . أقبلت الفتن مثل قطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولاها ، الآخرة شر من الاولى . ثم أقبل عليّ فقال : إني قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة ، فقلت : بأبي أنت وأمي ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا وتخلد فيها ، ثم الجنة . قال لا والله يا أبا مويهبة ، قد اخترت لقاء ربي والجنة . ثم استغفر لاهل البقيع ، ثم انصرف فابتدأ رسول الله وجعه الذي قبض فيه[1] .

وكان أول وجعه صداعا شديدا يجده في رأسه ، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من البقيع استقبلته وهي تقول : وارأساه . فقال لها رسول الله بل أنا والله يا عائشة وارأساه[2] . ثم ثقل عليه الوجع ، فكان حمى شديدة تنتابه . وكان بدء ذلك في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة . وكانت عائشة ترقيه خلال ذلك بمعوذات من القرآن .

روى البخاري ومسلم عن عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان اذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه ، طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي صلى الله عليه وسلم عنه .

وشعرت نساؤه صلى الله عليه وسلم برغبته في أن يمرّض في بيت عائشة رضي الله عنها ، لما يعلمن من محبته لها وارتياحه إليها ، فأذنّ له في ذلك ، فخرج الى بيتها من عند ميمونه يتوكأ على الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

---

(٣) رواه ابن اسحاق وابن سعد ، واحمد في مسنده ، وروى نحوه ابو داود والنسائي وابن ماجه .

(٤) رواه ابن اسحاق وروى بنحوه الامام احمد في حديث طويل .

وفي بيت عائشة اشتد به وجعه ، كان قد شعر بقلق أصحابه وحزنهم عليه ، فقال : أهريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن ، لعلي أعهد الى الى الناس (أي أخرج إليهم لاكلمهم) . قالت عائشة رضي الله عنها : فأجلسناه في مخضب (ما يشبه الاجانة يغسل فيها الثياب) ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب ، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن . ثم خرج الى الناس فصلى بهم وخطبهم[1] خرج عاصبا رأسه ، فجلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم . ثم قال :

« عبد خيّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عنده . فبكى أبو بكر ، إذ علم ما يقصده رسول الله ، وناداه قائلا : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا أبا بكر ، أيها الناس إن أمنّ الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر . ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الاسلام . لا تبقين خوخة في المسجد الا خوخة أبي بكر[2] واني فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، واني والله لانظر الى حوضي الآن . واني أعطيت مفاتيح خزائن الارض ، واني والله ما أخاف أن تشركوا من بعدي ، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها[3]

وعاد رسول الله الى بيته ، وما هو الا أن اشتد به وجعه ، وثقل عليه مرضه . روت عائشة قالت : قال لي رسول الله في مرضه أدعي لي أبا بكر أباك وأخاك ، حتى أكتب كتابا ، فاني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون الا أبا بكر[4] .

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما اشتد برسول الله المرض ، قال لرجال كانوا في البيت : هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده . فقال بعضهم : إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله . فاختلف أهل

(١) رواه البخاري .
(٢) هو الباب بين البيتين . والحديث الى هنا متفق عليه واللفظ لمسلم .
(٣) متفق عليه .
(٤) رواه مسلم في باب فضل ابي بكر ، وروى البخاري نحوه .

البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم كتابا لاتضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك، فلما اكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا[1] .

ولم يعد رسول الله يطيق الخروج الى الصلاة مع الناس ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . قالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله ، إن أبا بكر رجل أسيف (رقيق) وانه اذا قام مقامك ، لم يكد يسمع الناس . فقال : إنكن صواحب يوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس[2] .

فكان أبو بكر هو الذي يصلي بالناس بعد ذلك ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم خلال ذلك مرة ــ وقد شعر بخفة ــ فأتى فوجد أبا بكر وهو قائم يصلي بالناس ، فاستأخر أبو بكر . فأشار إليه رسول الله أن كما أنت ، فجلس رسول الله الى جنب أبي بكر ، فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله ، وهو جالس ، وكان الناس يصلون بصلاة أبي بكر [3] .

واستبشر الناس خيرا بخروجه إذ ذاك . ولكن المرض اشتد عليه . وكان ذلك آخر مرة خرج يصلي فيها بالناس . روى ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله وهو يوعك . فمسسته بيدي فقلت يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا . فقال صلى الله عليه وسلم :أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم . قال فقلت : ذلك أن لك أجرين ؟.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل ، ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها[4] .

وكان أثناء ذلك يطرح خميصة (غطاء) له على وجهه ، فاذا اغتم وضايقه الالم ، كشفها عن وجهه ، فقال : لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[5] كأنه يحذر المسلمين من أن يصنعوا صنيعهم .

---

(١) متفق عليه .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه البخاري ومسلم .
(٤) متفق عليه .

رسول الله ، وسكرة الموت

وذلك هو قضاء الله في عبـاده : « إنك ميت وإنهم ميتون » الزمر : ٣٠ .
فقد دخل فجر يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الاول ، من العام الحادي عشر للهجرة .
وبينما الناس في المسجد يصلون خلف أبي بكر رضي الله عنه ، اذا بالستر المضروب على حجر عائشة قد كشف ، وبرز رسول الله من ورائـه ، فنظر اليهم ، وهم في صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف ، فقد ظن أن رسول الله يريد أن يخرج الى الصلاة . وكاد المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله ، فأشار اليهم بيده أن أتمـوا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى السـتر[1] .

وانصرف الناس من صلاتهم، وهم يحسبون أن رسول الله قد نشط من مرضه، ولكن تبين أنها لم تكن إلا نظرة توديع لاصحابه . فقد عـاد فاضطجع الى حجر عائشة رضي الله عنها . وأسندت رأسه الى صـدرها ، وجعلت تغشاه سكرة الموت . قالت : وكان بين يدي رسول الله ركوة فيها ماء فجعل يدخل يديه فيها فيمسح بها وجهه ويقول : لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات[2] وكانت فاطمة رضي الله عنها إذا رأت منه ذلك قالت : واكرب أباه !.. فيقول لها عليه الصلاة والسلام : ليس على أبيك كرب بعد هذا اليوم[3] .

قالت عائشة : إن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته ، دخل علي عبد الرحمن وبيده السواك ، وأنـا مسندة رسول الله ، فرأيتـه ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم . فتناولته ، فاشتد عليه . فقلت ألينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم . فليته ، فأمرّه ، وبين يديه ركوة فجعل يدخل

---

(٥) متفق عليه . (٦) متفق عليه .

(١) رواه البخاري ، والترمذي والنسائي واحمد بلفظه آخر .

(٢) رواه البخاري .

يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول : لا إله الا الله إن للموت سكرات • ثم نصب يده فجعل يقول : في الرفيق الاعلى ، حتى قبض ، ومالت يده[1] •

وانتشر خبر وفاته صلى الله عليه وسلم في الناس • وأقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرس من مسكنه في السنح ، حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمم رسول الله ، وهو مغشى بثوب حبرة • فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه يقبله • وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها[2] •

ثم خرج الى الناس وعمر يكلم الناس أن رسول الله لم يمت ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، وأنه لا يموت حتى يفني الله المنافقين • فأقبل أبو بكر يقول له : على رسلك يا عمر ، أنصت • ولكنه استمر في كلامه مهتاجا • فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، فأقبلوا عليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد أيها الناس ، من كان منكم يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فان الله حي لا يموت • قال الله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم » آل عمران : ١٤٤ • فكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية ، حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم • فما سمعت بشر من الناس الا وأخذ يتلوها • قال عمر رضي الله عنه : والله ماهو الا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت ، حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت الى الارض حين سمعته تلاها ،ان النبي قد مات[3]•

وقد اجمع الرواة وأهل العلم أن رسول الله توفي عن ثلاثة وستين عاما من العمر • قضى أربعين منها قبل البعثة وثلاثة عشرة عاما يدعو الى الله في مكة ، وعشر سنين قضاها في المدينة بعد الهجرة ، وكانت وفاته في أول العام الحادي عشر •

وروى البخاري عن عمرو بن الحارث : قال ما ترك رسول الله دينارا ولا

---

(١) رواه الشيخان واللفظ للبخاري •

(٢) رواه البخاري •

(٣) رواه ابن اسحاق وغيره ، كما روى البخاري نحوه بالفاظ مختلفة •

درهما ولا عبدا ولا أمة ، الا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه ، وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة .

* * *

الدلائل والعبر :

في أحداث هذا القسم الاخير من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، تلوح قصة الحقيقة الكبرى في هذا الوجود !.. الحقيقة التي يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين ، وطغيان البغاة والمتألهين .. إنها الحقيق التي تمد صفحة هذا الوجود كله بغاشية الانتهاء ، وتصبغ الحياة البشرية كلها بصبغة العبودية لقهار السماوات والارض ، حقيقة تسربل بها طوعا أو كرها العصاة والطائعون ، والرؤساء والمتألهون ، والرسل والانبياء ، والمقربون والاصفياء والاغنياء والفقراء ، ودعاة العلم والاختراع !..

انها الحقيقة التي تعلن على مدى الزمان والمكان ، أن لا ألوهية الا لله وحده ، وأن لا حاكمية الا لذاك الذي تفرد بالبقاء ، فهو الذي لا مرد لقضائه ، ولا حدود لسلطانه ولا غالب على أمره .

أي حقيقة تنطق بهذه الدلالات نطقا بينا لا لبس فيه ولا غموض ، أعظم من حقيقة الموت ، اذ قهر الله بها سكان هذه الدنيا كلها ، منذ فجر الوجود الى أن تغيب شمسه .

لقد مر على قنطرة هذه الدنيا كثير من أولئك المغترين الذين غرقوا في شبر من القوة التي أوتوها ، أو العلوم التي فهموها ، أو المخترعات التي اكتشفاها . ولكن هذه الحقيقة الجاثمة الكبرى ، سرعان ما القت بهم في بيداء العبودية وأيقظتهم الى صحو التذلل لقيوم السماوات والارض مالك الملك كله ، فقدموا الى الله عبيدا أذلاء خاضعين .

كل نفس ذائقة الموت ! ..

اطلاق لا قيد فيه ، وعموم لا مخصص له ، وشمول ليس للدنيا كلها أن تجعل له حدا ..فليأت دعاة العلم الجديد والرقي الحديث،ومتوثبو الغزو الفضائي،

فليجمعوا أمرهم ، وليضفروا جميع امكاناتهم ، وليحشدوا كل أقمارهم المصنوعة ومراكبهم المشروعة ، فليستعينوا بذلك كله على أن يحرروا أنفسهم بشكل ما من سلطان هذا الموت الذي قهرهم واستذلهم • وليبطلوا ولو جـزءا من التحدي الالهي : كل نفس ذائقة الموت !•• فان هم فعلوا ذلك فان لهم عندئذ أن يشيدوا لانفسهم عروشا باذخة من الجبروت والطغيان والتأله والكفران • وإلا فأحرى بهم أن يتفرغوا للتأمل في تلك القبور التي سيغيبون في أحشائها ، وفي القبضة التي لن ينجوا من حكمها •

ولقد كان يسيرا على الله عز وجل أن يجعل رتبة رسوله فوق مستوى الموت وآلامه • ولكن الحكمة الالهية اقتضت أن يكون قضاء الله في تجرع هذه الكأس بشدتها وآلمها عاما للناس كلهم ، مهمـا تسامت درجة قربهم الى الله عز وجل • حتى يعيش الناس كلهم في معنى التوحيد وحقيقته ، وحتى يدركوا جيدا ان كل من في السماوات والارض الا آتي الرحمن عبدا • فليس لاحد أن يتمطى ليعلو بنفسه عن مستوى العبودية لله، بعدان خضع رسول الله لحكمها ونزل به قضاؤها ، وليس لاحد أن لا يكثر من ذكر الموت وسكرته ، بعد أن عانى حبيب الله تعالى من برحائه وغشيته سكرته وآلامه • وهو ما أوضحه بيان رب العالمين « إنك ميت وانهم ميتـون » وقوله « وما جعلنـا لاحد من قبلك الخلـد ، أفان مت أفهـم الخالدون ؟ » الانبياء : ٣٤ •

ولنستعرض الآن بعض ما في ثنايا هذا المشهد الاخير ، من دروس وأحكام :

اولا ــ لا مفاضلة في الاسلام الا بالكفاءة الذاتية والعمل الصالح :

لقد علمت أن زيد بن حارثة كان رقيقا ، وهو والد أسامة هذا • وأسامة كان لا يتجاوز العشرين من عمره حينما سماه رسول الله أميرا على الجيش الذي وجهه الى الشام • ومع ذلك فلا صغر السن ولا الرق القديم منع رسول الله من أن يجعله أميرا على سائر الصحابة في غزوة مهمة كبرى !•• ولئن وجد المنافقون في هذا مثارا للعجب او الاستنكار ، فان الشريعة الاسلامية لا تضعه موضع أي

تعجب أو استنكار . بل الاسلام ما جاء الا ليحطم مقاييس الجاهلية التي كانوا بها يتفاضلون .

ولعل رسول الله وجد في أسامة مزية جعلته اولى من غيره بقيادة الجيش في هذه الغزوة وليس على المسلمين في هذه الحال إلا السمع والطاعة ، وإن أمر عليهم عبد حبشي . ولذلك كان أول عمل قام به أبو بكر رضي الله عنه في خلافته ، هو انفاذ جيش اسامة . وخرج رضى الله عنه فشيع جيشه بنفسه ماشيا وأسامة راكب. فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله ، لتركبن أو لانزلن . فقال أبو بكر : والله لا نزلت ولا ركبت . وما علي أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله ؟ .. ولقد رجع أسامة رضي الله عنه من هذه الغزوة منصورا ظافرا ، وكان في تسيير ذلك الجيش نفع عظيم للمسلمين[1] .

ثانيا ـ مشروعية الرقية وشروطها :

والرقية والتعويذ بمعنى واحد . ودليل مشروعية الرقية ما رويناه من حديث الشيخين أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى ، نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه بيده .. الحديث .

وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرقي أصحابه بالقرآن آنا ، وبالاذكار والادعية أخرى . روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله اذا اشتكى منها انسان مسحه بيمنه ثم قال : أذهب البأس رب الناس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء الا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما . وروى البخاري ومسلم عن عائشة أيضا أن رسول الله كان اذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات ، وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها . ومن أوضح الادلة على مشروعية الرقية بالقرآن الكريم قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا » الاسراء : ٨٢ .

والفرق بن الرقية والدعاء أن الرقية تزيد عليه المسح باليد والنفث بالفم ، وهو النفخ بدون ريق في الاصح .

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٢/٣ .

وقد نقل النووي والحافظ ابن حجر وغيرهما الاجماع على مشروعية الرقية عند اجتماع ثلاثة شروط وهي أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وأن يكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه ، من غيره ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل المؤثر هو الله وحده[1] .

وقد دلت على هذه الشروط أحاديث صحيحة مثل ما رواه مسلم عن عوف بن مالك الاشجعي ، قال : كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنا يا رسول الله : كيف ترى في ذلك ؟ فقال : اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك .

ثالثا ـ مظاهر من فضل ابي بكر رضي الله عنه :

فيما أسلفنا من أخبار مرضه صلى الله عليه وسلم دلائل متعددة على ما يتميز به أبو بكر رضي الله عنه من فضل عن سائر الصحابة رضوان الله عليهم ، وهي :

أولا : ما تميز به أبو بكر عندما قال رسول الله : عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا .. الخ من فهم القصد الذي رمى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ادرك ان ما يعنيه عليه الصلاة والسلام هو دنو أجله ، ولذلك أخـذه البكاء ونادى قائلا : فديناك بآبائنا وأمهاتنا . ولم ينتبه أحد غيره الى ذلك . فقد جاء في بعض طرق هذا الحديث عن أبي سعيد الخدري : أنـه لما بكى أبو بكر ، لقول رسول الله قلت في نفسي ما يبكي هذاالشيخ أن يكون رسول الله يخبرنا عن عبد خيّر فاختار ؟ قال : فكان رسول الله هو المخير . وكان أبو بكر أعلمنا به .

ثانيا : قوله عليه الصلاة والسلام في الموقف ذاته : ان أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر .. الحديث . وانها لكلمات خوالد ما سجل مثلها لغير أبي بكر رضي الله عنه .

ثالثا : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : أدعي لي أباك وأخاك ، حتى أكتب كتابا ، فاني أخاف ان يتمنى متمن ويقول قائل : أنا أولى . ويأبى الله والمؤمنون الا أبا بكر . وإنك لترى أن هذا الحديث الصحيح بمثابة نص جازم

(١) انظر النووي على مسلم : ١٦٩/١٤ ، وفتح الباري لابن حجر : ١٥٢/١٠ .

على استخلاف رسول الله له من بعده . ولئن اقتضت الحكمة الربانية أن لا يأخذ رسول الله على أصحابه عهدا بذلك ، وأن لا يسجل لهم كتابا به . فكل ذلك لكي لا يصبح توارث الحكم والخلافة سنة متبعة من بعده ، وفي ذلك من مفسدة القضاء على اتباع شروط الصلاح في الحاكم ، ما هو غير خاف على أحـد .

رابعا : استخلاف رسول الله له للصلاة بالناس في مكانه . ولقـد لاحظت مدى تشدده في تعيين أبي بكر دون غيره لذلك ، ورده الشديد لعائشة فيما راجعته فيـه .

ولئن كنا نقول : إن هذه المزايا الثابتة في صحاح الاحاديث لابي بكر رضي الله عنه ، مما رجح مبايعة المسلمين له بالخلافة بعد رسول الله ، فان هذا لا يغض من خصائص بقية الصحابة وما لهم من مزايا وفضائل . لا سيما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد رأيت أن رسول الله قال يوم خيبر : لاعطين الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله . فذهب الناس يتساءلون في تلك الليلة من سيكون هذا الرجل ، فكان عليا كرم الله وجهه . ولقد انتهى أمر الخلافة وأبرم المسلمون الحكم فيها عقب وفاته صلى الله عليه وسلم ، دون ان يستلزم ذلك أي تفرق أو شقاق بينهم ، من وراء حدود المذاكرة والمناقشة التي لا بد منها . وظل كل من أبي بكر وعلي رضي الله عنهما لسانا ناطقا بفضل الآخر .

وإنه لمن نافلة القول وفضوله أن نقرر بأن استثارة الخلاف في أن أي الرجلين كان أولى بالخلافة ، بعـد مرور أربعة عشر قرنا على ذلك التاريخ ، وبعـد اتفاق اصحاب العلاقة فيما بينهم على الامر ، دون أن يترك فيما بينهم شحناء ولا بغضاء ، يعد من أطرف أنواع العبث الذي لا معنى له ولا موضوع يتعلق به .

رابعا ـ النهي عن اتخاذ القبور مساجد :

لقد رأيت في صيغة الحديث الدال على ذلك شدة النهي والمبالغة في التحذير من الاقدام على هذا العمل .

وتتحقق صـورة النهي بأن يشاد فوق القبر مسـجد فيصبح ما حول القبر مصلى للناس .. أو بأن يصلى عند القبر ، وإن لم يتخذ مسجدا .

والعلماء في حكمهم على الصلاة عند القبور بين محرم ومكره . والذين قالوا بالكراهة شددوا فيها ، عندمـا تكون الصلاة متجهة الى القبر . ولكنها صحيحة على كل حال . لاننا حتى لو قلنا بحرمة ذلك ، فان الحرمة لا تستلزم البطلان . فيكون حكمها كحكم الصلاة في الأرض المغصوبة .

قال الامام النووي ، ولمـا احتاج الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون الى زيادة مسجد رسول الله حين كثر المسلمون ، وامتدت الزيادة الى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيها ، ومنها حجرة عائشة رضي الله عنها ، مدفن رسول الله وصاحبيه أبي بكر وعمر ، بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلى اليـه العوام ويؤدي الى المحذور . ثم بنوا جدارين عـلى ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر [1] .

خامسا ـ شعوره صلى الله عليه وسلم وهو يعاني سكرة الموت :

لقد رأينا أنه بينما كان الناس مصطفين لصلاة الفجر يوم الاثنين اذا بالستر المضروب على حجرة عائشة قد كشف ، وبرز رسول الله من ورائه ، فنظـر اليهم وهم في صفوف الصلاة ، فتبسم ضاحكـا حتى تراجع أبو بكر ليصل الصف ، وكاد الناس يفتتنون في صلاتهم فرحا به . ولكنه أشار اليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجر وأرخى الستر .

لقد كان تفكيره منصرفا آنذاك الى أمته ، والى ما سيكون عليه حالهـا من بعده .. ولكأنه اطمأن ، عندما نظر الى الناس فرآهم خاشعين صفوفا بين يدي الله عز وجل ، وداخل قلبه الرضا من أنه سيفارق أصحابه ، وهم مقبلون الى الله توحيدا وعبادة وابتهالا ، معرضون عن تقاليد الجاهلية وأوهامها . بل لقد طفح الرضا على وجهه ابتسامة وسرورا .

لقد أراد رسول الله ، بأبي هو أمي ، وهو يجتاز الدقائق الاخـيرة من عمره في هذه الدنيا ، أن يتزود من أصحابه بنظرة أخيرة ، وأن يطمئن الى الحق الذي تركهم عليه . فأراه الله منهم ما طابت به نفسه وقرت له عينه ، حتى غلب ذلك المشهد

---

(١) النووي على مسلم : ٥/١٣و١٤ .

آلام الموت السارية في جسده فغلبها ، وحتى خيل للكثير من الصحابة أنه صلى الله عليه وسلم قد نشط من أوجاعه وأبل من مرضه .

ولكنهم ما عرفوا الا أخيرا انه انما وقف ينظر اليهم تلك النظرة ، لينقلب بها إلى سكرة الموت ، وهي آخر لوحة تسجل في ذهنه لمشهد اصحابه ، بل وأمته كلها . كي تكون هي العهد الباقي بينهم وبين الله عز وجل ، ولتكون هي همزة الوصل بين لحظة الوداع لامته في الدنيا ، وساعة الاستقبال لها في الآخرة على حوضه الموعود.

ولقد شاء الله أن يكون هذا المشهد هو الصلاة .

وشاء الله تعالى أن تكون هي العهد الاخير .

فيا أخي المسلم : العهد ، العهد ، الذي فارقك عليه رسول الله ، وهو راض يتبسّم .

* * *

خاتمة

في بعض صفاته صلى الله عليه وسلم وفضل زيارة مسجده وقبره

★ كفن رسول الله في ثلاثة أثواب ، ليس فيها قميص ولا عمامة . ثم وضع على سريره على شفير القبر . ثم دخل الناس أرسالا يصلون عليه فوجا أثر فوج ، لا يؤمهم أحد . ودفن صلى الله عليه وسلم في مكانه الذي توفي فيه في حجرة عائشة .

★ توفي عليه الصلاة والسلام عن تسع من النساء ، هن : سودة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية ، وصفية ، وميمونة ؛ ولم يتزوج رسول الله بكرا غير عائشة رضي الله عنها .

★ له صلى الله عليه وسلم ثلاثة بنين : القاسم (وبه يكنى) ولد قبل النبوة: وتوفي وهو ابن سنتين وعبد الله وسمي بالطيب والطاهر ، ولد بعد النبوة . وابراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان ؛ ومات بها سنة عشر .

★ وكان له صلى الله عليه وسلم أربع بنات : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم . وكان وفاة رقية يوم بدر في رمضان سنة اثنين من الهجرة . وتوفيت أم كلثوم في شعبان سنة تسع من الهجرة . وكلاهما كانا عند عثمان رضي الله عنه .

★ كان عليه الصلاة والسلام أجود الناس . وكان أجود ما يكون في رمضان . وكان أحسنهم خلقا وخلقا ، وألينهم كفا وأطيبهم ريحا ، وأحسنهم عشرة ، وأشدهم لله خشية ، لا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله ، فلا يقوم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق . وكان خلقه القرآن . وكان أكثر الناس تواضعا يقضي حاجة أهله ويخفض جناحه للضعفة ؛ وكان من أشد الناس حياء وما عاب طعاما قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه ولا يأكل

متكئا ولا على خوان . وكان يحب الحلواء والعسل ويعجبه الدبـاء (اليقطين) وكان يأتي الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوته نار . وكان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويعود المريض ويجيب من دعامن غني وفقير . كان فراشه من أدم حشوه ليف ، وكان متقللا من أمتعة الدنيا كلها ، وقد أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الارض كلها ، فأبى أن يأخذها ، واختار الآخرة عليها . وكان كثير الذكر دائم الفكر ، جل ضحكة التبسم . وكان يمزح ولا يقول إلا حقا ، وكان يتألف أصحابـه ويكرم كريم كل قوم ويوليـه أمرهم . ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه ، أنـه قال : ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحته . ولقد خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي قط : أف ولا قال لشيء فعلته ، لم فعلته ، ولا لشيء لـم أفعله ، ألا فعلت كذا .

* * *

واعلم أن زيارة مسجده وقبره صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات الى الله عز وجل ، أجمع على ذلك جماهير المسلمين في كل عصر الى يومنا هذا . لم يخالف في ذلك الا ابن تيمية غفر الله له . ودليل ما أجمع عليه المسلمون من دونه وجوه :

الوجه الاول : مشروعية زيارة القبور عموما والندب اليها . وقد ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يذهب كل ليلة الى البقيع ، يسلم على أهله ويدعو ويستغفر لهم ، ثبت ذلك في الصحيح والاحاديث الثابتة في تفصيل ذلك كثيرة . ومعلوم أن قبر رسول الله واحد من القبور .

الوجه الثاني : ما ثبت من اجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على زيارة قبره صلى الله عليه وسلم ، كلما مروا على الروضة المشرفة ، روى ذلك الائمة الاعلام وجماهير العلماء بما فيهم ابن تيمية .

الوجه الثالث : ما ثبت من زيارة كثير من الصحابة قبره ، منهم بلال رضي الله عنه ، رواه ابن عساكر باسناد جيد ، ، وابن عمر فيما رواه مالك في الموطأ ، وأبو أيوب الانصاري فيما رواه أحمد ، دون أن يؤثر عنهم أو عن أحد منهم أي استنكار أو نقد لذلك .

الوجه الرابع : ما رواه حمد بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما خرج يودع معاذا الى اليمن قال له : يا معاذ انك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري . فكلمة لعل تأتي في أعم الاحوال للرجاء ، واذا دخلت «أن» على خبرها تمحضت للعرض والرجاء ، فالجملة تعني بصريح العبارة توصية معاذ بأن يعرج عند رجوعه الى المدينة على مسجده صلى الله عليه وسلم وقبره ليسلم عليه . وقد فعل معاذ ذلك عندما عاد الى المدينة وقد توفي رسول الله كما أخبره .

ثم اعلم أن لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم آدابا لا بد من اتباعها ، فاذا اكرمك الله بالتوجه الى زيارته ، فاعقد العزم اولا على زيارة مسجده ، ثم اعزم مع ذلك على زيارة قبره الشريف . ثم اغتسل عند دخولك المدينة ، والبس أنظف ثيابك ، واستحضر في قلبك شرف المدينة ، وأنك في البقعة التي شرفها بخير عباده . فاذا دخلت المسجد فاقصد الروضة المشرفة ، وصل فيها ركعتي تحية المسجد ما بين القبر والمنبر ، ان اتيح لك ذلك . فاذا دنوت بعد ذلك من القبر الشريف . فاياك أن تهجم عليه أو تلتصق بالشبابيك أو تتمسح بها ، كما يفعل كثير من الناس ، فتلك بدعة توشك أن تكون محرمة . بل قف بعيدا عن القبر نحو أربعة أذرع ناظرا الى أسفل ما يستقبلك من جدار القبر ، وأنت غاض الطرف تستشعر الهيبة والاجلال ثم سلم على رسول الله بصوت خفيض ، قائلا : أشهد أن لا إله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . أشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ونصحت لامتك ودعوت الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين . فصلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك كثيرا كما يحب ربنا ويرضى .

ثم استقبل القبلة ، وانحرف الى اليمين قليلا ، حتى تكون بين القبر والاسطوانة التي عند أول القبر ، وارفع كفيك بدعاء خاشع الى الله عز وجل . ولاتتوهم أن في هذا التحول سوء أدب مع رسول الله ، فان الدعاء خطاب لله عز وجل ، وخير اتجاه الى الله عز وجل لدعائه هو اتجاه القبلة . ولا تلتفت الى كثرة من تراهم يخالفون هذا من الجهال والمبتدعين . وابدأ دعاءك قائلا :

اللهم انك قلت ، وقولك الحق : ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا

الله واستغفر لهم الرسول ، لوجـدوا الله توابا رحيما . وقـد أتيتك مستغفرا من ذنوبي ، مستشفعا برسولك إليك . فأسألك يارب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته . ثم أكثر من الدعاء لما تشاء من أمـر دينك ودنياك ، ولاخوانك وعامة المسلمين .

ولا تنس يا أخي أن تخص كاتب هـذه الاسطر بشيء من دعائك .. عهـد يسألك الله عنه ، أيا كنت ، أن تدعو لاخيك هذا عند ختمك لهذا الكتاب . فما أحوجني الى دعاء خالص من أخ لي في ظهر الغيب .

والحمد لله في المبدأ والختـام


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

موجز
من تاريخ الخلافة الراشدة

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

خلافة أبي بكر الصديق

اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة ، بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وتشاوروا فيمن ينبغي أن يخلف رسول الله ﷺ في قيادة المسلمين ورعاية أمورهم ، وبعد المذاكرة والمداولة واستعراض طائفة من الاقتراحات ، اجتمعت كلمتهم جميعاً على أن يكون أول خليفة لرسول الله ﷺ من بعده ، خليفته في الصلاة بالمسلمين أيام مرضه ، وصدّيقه الأكبر ، ومؤنسه في الغار ، أبو بكر رضي الله عنه . ولم يكن لعليّ رضي الله عنه رأي مخالف لهذا الإجماع ، وتأخُّر مبايعته له كان لأمر يتعلق بالخلاف الذي وقع بين أبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما ، من أجل مسألة ميراثها من رسول الله ﷺ[1] .

أهم ماقام به في مدة خلافته :

أولاً - تجهيزه وتسييره لجيش أسامة . ما إن استقر الأمر لأبي بكر رضي الله عنه ، حتى بدأ فسيّر جيش أسامة الذي كان قد أقام بمكان قرب المدينة يقال له (ذو خشب) لما بلغ أسامة مرض رسول الله ﷺ . ولم يبال رضي الله عنه بالآراء التي كانت تفضل تجميد هذا الجيش نظراً

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير : ٣٠١/٦

لانتشار الرّدة في بعض الصفوف ، ولا بالآراء التي ارتأت أن يستبدل بأسامة غيره ..

وخرج الصدّيق رضي الله عنه يودّع الجيش ، وعلى رأسه أسامة ، ماشياً . ولما أراد أسامة أن ينزل ليركب أبو بكر ، قال له : والله لا تنزلنّ ولا ركبتُ .. وأوصاهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يغلّوا ولا يمثّلوا ولا يقتلوا طفلاً أو امرأة أو شيخاً ، وأن لا يحرقوا نخلاً ولا يقطعوا شجرة ، ولا يذبحوا شاة ولا بعيراً إلاّ للأكل . وقال لهم : إذا مررتم بقوم تفرغوا للعبادة في الصوامع فدعوهم وما تفرغوا له .

ثم قال الصدّيق رضي الله عنه لأسامة : إن رأيت أن تأذن لعمر بالمقام عندي حتى أستعين برأيه على أمور المسلمين . فقال له أسامة : الأمر بيدك .

ثم سار أسامة ، فكان لا يمرّ بقبيلة انتشر فيها الارتداد إلاّ أرجعها ، لقد كانت الرهبة تشيع في أفئدتهم ، موقنين أن المسلمين لو لم يكونوا من القوّة بمكان لما خرجوا في هذا الوقت بمثل هذا الجيش إلى الروم . ولما وصل أسامة بجيشه إلى بلاد الروم حيث قُتل أبوه ، قاتلوهم ، ونصرهم الله عليهم ، ثم عادوا ظافرين[٢] .

ثانياً ـ جهّز الجيوش لقتال أهل الرّدة ومانعي الزكاة ، وعقد أحد عشر لواء ، وأمر صاحب كل لواء بالتوجه إلى جهة ، وتوجه هو على رأس

---

(٢) باختصار عن البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ وما بعد .

لواء إلى (ذي القصة) . ولكن علياً رضي الله عنه أصرّ عليه وناشده أن يرجع ، وقال له ـ وقد أمسك بزمام راحلته ـ: ياخليفة رسول الله أقول لك ماقال رسول الله يوم أحد : لَمْ سيفك وأمتعنا بنفسك . فوالله لئن نكب المسلمون بك لن تقوم لهم قائمة من بعدك . فعاد أبو بكر وكلّف باللواء غيره[٣] .

وقد أيّد الله المسلمين وانقطع دابر الارتداد ، واستقر الإسلام في أنحاء الجزيرة ، وخضعت القبائل لدفع الزكاة .

ثالثاً ـ جهّز الصدّيق رضي الله عنه خالداً إلى العراق ، وبعث معه المثنى بن حارثة الشيباني ، ففتحوا بلاداً كثيرة ، وعادوا منتصرين غانمين .

رابعاً ـ حدثته نفسه بغزو بلاد الروم ، فجمع الصحابة وشاورهم في ذلك ، فاستصوبوا رأيه فالتفت إلى عليّ وقال له : ماترى ياأبا الحسن ؟ فقال أرى أنك مبارك الأمر مفوق منصور إن شاء الله ، فسرّ لذلك أبو بكر وشرح الله صدره للأمر . فجمع الناس وقام خطيباً فيهم يحثّهم على الجهاد ، وكتب كتباً إلى الولاة وأمرهم بالحضور ، فاجتمع جمع كبير وأقبلت القبائل أفواجاً ، فعقد أبو بكر الألوية وأمّر الأمراء وبعثهم إلى الشام متتابعين ، وجعل أبا عبيدة أميراً على الجيوش ، وكلما اتجه أمير يودّعه ويوصيه بتقوى الله وحسن الصحبة والمواظبة على الصلوات بالجماعة

---

(٣) رواه ابن كثير في البداية والنهاية ، من حديث عبد الله بن عمر ومن حديث عائشة رضي الله عنها .

في أوقاتها ، وأن يصلح كل منهم نفسه حتى يصلح الله له الناس ، وأن يكرموا رسل العدوّ إذا قدموا عليهم ، وأن يعملوا على تقليل لبثهم عندهم حتى يخرجوا من عسكرهم وهم جاهلون بأمر المسلمين ..

وتوجه المسلمون إلى بلاد الروم .. واجتمعوا في اليرموك ، وأرسلوا إلى أبي بكر يخبرونه بكثافة جموع الروم ، فكتب رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد بالعراق يأمره بالتوجه إلى الشام ، وأن يأخذ نصف الجيش المرابط في العراق ليكون رداً لجيش أبي عبيدة ، وأن يستخلف على النصف الباقي المثنى بن حارثة ، وأمره أن يتولّى جيوش الشام بمجرد أن يصل إليها .

فسار خالد حتى وصل إلى المسلمين في الشام ، وكتب كتاباً لأبي عبيدة يقول له فيه : أما بعد ، فإني أسأل الله لي ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا من كل سوء . فقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني فيه بالمسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولي لأمرها . ووالله ماطلبت ذلك ولا أردته ، فأنت على حالك التي كنت عليها ، فلا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً .. فلما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد ، قال : بارك الله بخليفة رسول الله فيما رأى وحيّا الله خالداً على ماصنع . وكان الصدّيق قد كتب لأبي عبيدة كتاباً يقول فيه : أما بعد ، فإني قد ولّيت خالداً على قتال العدو بالشام فلا تخالفه واسمع وأطع له . فإني ياأخي لم أبعثه عليك لأجل أنه عندي خير منك ، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب في هذا المكان الحرج ، أراد الله بنا وبك الخير والسلام .

ثم التقى المسلمون والروم ، والتحم القتال بينهم ، في سلسلة من المعارك ، دامت مدة من الزمن . وكان نهايتها النصر للمسلمين ، وقتل من الروم عدد كبير يصعب إحصاؤهم ، كما أسر منهم عدد كبير أيضاً .

وفي هذه الأثناء وصل إلى خالد بن الوليد خبر يفيد أن أبا بكر قد توفي ، وقد بويع بعده بالخلافة لعمر . كما تضمّن الكتاب أمراً بعزل خالد وتولية أبي عبيدة على الجيش . فأسرّ خالد الخبر في نفسه كي لا يقع اضطراب في صفوف المسلمين . ولما بلغ الخبرُ أبا عبيدة أسرّه هو الآخر ولم يعلم به أحداً للسبب ذاته [٤] .

وفاة أبي بكر رضي الله عنه :

كانت وفاته في السنة الثالثة عشرة من الهجرة ليلة الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة عن ثلاث وستين من عمره . وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام . ودفن في بيت عائشة بجانب قبر النّبي ﷺ .

عهده بالخلافة إلى عمر :

شاور أبو بكر رضي الله عنه قبيل وفاته طائفة من المتقدمين ذوي النظر والمشورة من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاتفقت كلمتهم على أن يعهد بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب .

فكان أبو بكر بذلك أول من عهد بالخلافة من بعده إلى رجل معين ، ونصّب خليفة بمقتضى ذلك .

---

(٤) باختصار عن الطبري ٣/٢٤٢ وما بعد ، والبداية والنهاية لابن كثير : ٦/٣٤٢ وما بعد ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي : ٦٧

ولعلّ الخير أن نقول كلمة في تفصيل ذلك :

ذكر الطبري وابن الجوزي وابن كثير أن أبا بكر رضي الله عنه خشي على المسلمين أن يختلفوا من بعده ثم لا يجتمعوا على رأي ، فدعاهم ـ لما ثقل عليه المرض ـ إلى أن يبحثوا لأنفسهم عن خليفة من بعده ، ورغب أن يكون ذلك في حياته وبمعرفته .

إلا أن المسلمين لم يتفقوا فيما بينهم على من يخلف أبا بكر في تلك الفترة القصيرة . فوضعوا الأمر بين يديه ، وقالوا له : رأينا إنما هو رأيك . وعندئذٍ أخذ يستشير أعيان الصحابة ، كلاً منهم على انفراد ، ولما رأى اتفاقهم على جدارة عمر وفضله ، طلع على الناس وأخبرهم أنه لم يألُ جهداً في اختيار من هو أصلح لهم من بعده ، وأنه قد استخلف عليهم عمر ، فقالوا جميعاً : سمعنا وأطعنا[٥] .

على أيّ أساس أصبح عمر خليفة ؟

قد يظن البعض أن هذه الطريقة في تنصيب الخليفة تشبه أن تكون باختيار شخص واحد بعيداً عن الشورى التي ينبغي أن تعتمد على أهل الحل والعقد من عامة المسلمين .

غير أنّا إذا أمعنا النظر رأيناها في مضمونها قائمة على مشورة أهل الحلّ والعقد . إذ إن أبا بكر لم يستخلف عليهم إلا بعد أن استشار أعيان الصحابة فارتأوا جميعاً عمر وزكّوه له . ومع ذلك فإن استخلافه له لم

---

(٥) انظر تاريخ الطبري : ٤٢٨/٣ ، وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي : ٣٦

يصبح في حكم المنعقد والمستقر ، إلاّ بعد أن خطب في الصحابة وسألهم أن يسمعوا ويطيعوا لعمر ، فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ، وبعد أن أجمع المسلمون بعد وفاته على صحة ما فعله أبو بكر وشرعية استخلافه . فكان ذلك دليلاً من الإجماع على انعقاد الإمامة عن طريق العهد والاستخلاف بشروطه الشرعية المعتبرة[٦] .

كتاب العهد إلى عمر :

بعد أن رأى أبو بكر موافقة الناس جميعاً على استخلافه عمر عليهم ، دعا عثمان بن عفان وأملى عليه الكتاب التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد به أبو بكر خليفة رسول الله عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويوقن فيها الفاجر ؛ إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب ، والخيرَ أردتُ ، ولكل امرئ ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » .

ثم ختمه ، وخرج به عثمان فقرأه على الناس ، وبايعوا عمر بن الخطاب . وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة .

---

(٦) البداية والنهاية لابن كثير : ١٨/٧

العبر والعظات :

يدلّنا ماذكرناه من الأحداث التي وقعت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه على أمور ومبادئ كثيرة نجملها فيما يلي :

أولاً ـ إنما تمّت خلافة أبي بكر رضي الله عنه عن طريق الشورى ، وقد اشترك في الأخذ بها سائر أهل الحلّ والعقد من الصحابة بمن فيهم سيّدنا علي رضي الله عنه . وقد دلّ ذلك على أن شيئاً من النصوص في القرآن أو السنة لم يقضِ بحقّ الخلافة بعد رسول الله لأحد . إذ لو كان في النصوص ماقضى بذلك ، لما كان للشورى إلى ذلك من سبيل ، ولما جاز للصحابة أن يتجاوزوا ماقضى به النص إلى ماقتنعوا به واتفقوا عليه عن طريق الشورى .

ثانياً ـ إن الخلاف الذي دار في سقيفة بني ساعدة ، بين كبار الصحابة ، بصدد التشاور في اختيار خليفة لهم ، أمر طبيعي يقتضيه طرح القضية على بساط البحث والمشورة . وهو دليل بيّن قاطع على حماية الشارع للآراء والاقتراحات المختلفة ، من أي مصادرة أو تقييد ، في كل مالم يرد به نصّ ثابت صريح . وإنما سبيل الوصول إلى الحق في كل ماسكت الشارع عنه ، هو طرح أكثر من رأي ، ومناقشتها جميعاً بموضوعية وحرية وصدق .

ولقد كانت المصيبة كبيرة ، والمشكلة عويصة ، لو أن الصحابة رضي الله عنهم ، لم يجدوا أنفسهم إلا أمام خيار واحد ، طرحوه للتصويت ثم انفضوا عن اتفاق عليه . إذن لكانت هذه الشورى عندئذٍ شورى مزيفة ، ولكان الاتفاق مدفوعاً إليه بجبر خارجي .

والعجب ممن ينشدون الشورى في الإسلام ، ويتهمونه بالاستبداد ، حتى إذا رأوا مظاهر الشورى ماثلة أمام أعينهم ، سموها ، جهلاً منهم أو تجاهلاً : صراعاً وشقاقاً . إذن فما هي الشورى التي في أذهانهم ، وما هي صورتها ، وكيف ينبغي أن تكون ؟

ثالثاً ـ نصيحة عليّ لأبي بكر ، رضي الله عنهما ، أن لا يتوجه بنفسه لقتال المرتدين ، خوفاً على المسلمين إن أصابه سوء ، تدلّ دلالة واضحة على شدة محبة علي لأبي بكر ، وعلى قناعته التامة بخلافته لرسول الله وجدارته بتولي أمر المسلمين ، كما تدلّ على المستوى الباسق من التعاون والإخلاص السارين فيما بينهما .

ومهما قيل عن تأخّر مبايعة علي لأبي بكر رضي الله عنهما ، ومهما ورد من خلاف في مدة تأخّر هذه المبايعة ، فإن شيئاً من ذلك لا يتعارض مع هذه الحقيقة الثابتة ولا يعكرها .

ومن المعروف أن تأخّر مبايعة علي ، إنما كانت مسايرة ، أو مجاملة ، لمشاعر فاطمة رضي الله عنها ، التي كانت مقتنعة ، من خلال اجتهادها ، بأنها ترث من أبيها رسول الله ، كما ترث كل أنثى من أبيها . ولم يكن هذا التأخُّر بسبب حفيظة في نفس عليّ على أبي بكر . وأنى لصاحب هذه الحفيظة أن يقف هذا الموقف المليء بمعاني الغيرة والتعاون والحب ؟!..

رابعاً ـ لا يتأمل مسلم في الموقف الذي وقفه أبو بكر ، من القبائل المرتدة ، والعزيمة الماضية التي تمتع بها في مقاومة هذه القبائل ، والتي أبرزته في وضع متميز تقاصر عنه في بادئ الأمر جلّ الصحابة ، بل جميعهم إلاّ ويستيقن حكمة الله عزّ وجلّ التي وضعت الرجل المناسب في الوقت المناسب وأمام المهمة المناسبة . إن أيّاً منّا لا يكاد يتصور أن في الصحابة كلهم من كان أجدر من أبي بكر بالوقوف في وجه تلك العاصفة ، وردّها من حيث جاءت .

وحتى عمر الذي عرف بين الصحابة بشدته ومضاء عزمه ، تقاصر عزمه وتراجعت شدته ، أمام هذه العاصفة عن القوة التي تمتع بها أبو بكر . فمنذا الذي يرى هذه الحكمة الإلهية الباهرة ، ثم يعتب على التاريخ وأهله ، خضوعهما لسلطان هذه الحكمة الإلهية العادلة ؟!..

خامساً ـ قد يظن بعض الناس أن مجرد العهد والاستخلاف ، يعدّ طريقة من طرق ثبوت الإمامة والحكم ، مستدلاً بما عمل أبو بكر رضي الله عنه من العهد بالخلافة إلى عمر .

ولكن الأمر ليس كذلك ، بل إن ثبوت الإمامة لا يتم إلا بعرض الأمر على المسلمين ، ثم إعلانهم الرضا عن إمامة هذا الذي قد عهد إليه بها . فاستقرار الإمامة إنما يتم بهذا الرضا ، أي فلو أن أبا بكر عهد بالخلافة إلى عمر ، ولم يرض الناس به ، فلا قيمة لذلك العهد .

ومن هنا نعلم ، كما ذكرنا من قبل ، أن خلافة عمر إنما قامت على مشورة ضمنية ، اندرجت في إجماع الصحابة على الرضا عمن اختاره لهم أبو بكر .

خلافة عمر بن الخطاب

هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، لقّبه رسول الله ﷺ بالفاروق ، لأنه فرق بين الحق والباطل ، بويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه الصدّيق . فقام بمثل سيرته وجهاده وصبره ، وأعزّ الله به الإسلام .

وكان أول عمل قام به عزله لخالد عن الإمارة وتولية أبي عبيدة مكانه .

وشهد فتح بيت المقدس ، وأقام بها عشرة أيام ، ثم رجع إلى المدينة وأخذ معه خالداً ، ولما عاتبه خالد على معاملته له ، قال له : والله ياخالد إنك عليّ لكريم وإنك إليّ لحبيب[٧] ، وكتب إلى البلاد والأمصار يقول لهم : إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن عزلته شفقة على النفوس من سرعة هجماته وشدة صدماته[٨] ، وكان خالد ابن خالة عمر رضي الله عنهما ، وتوفي في خلافة عمر بحمص .

وقد تمّ فتح دمشق مابين صلح وعنوة ، وفتح حمص وبعلبك صلحاً ، والبصرة والأبلّة كلاهما عنوة ، وكان ذلك كله في سنة أربع عشرة .

وفي هذه السنة جمع عمر الناس على صلاة التراويح عشرين ركعة .

(٧، ٨) البداية والنهاية : ٨١/٧ . والطبري : ٤٣٥/٣

وفي سنة خمس عشرة فتحت الأردن كلها عنوة إلا طبرية فإنها فتحت صلحاً . وفيها كانت وقعة اليرموك والقادسية . قال ابن جرير في تاريخه : وفيها مصّر سعد الكوفة ، وفيها فرض عمر الفروض ودوّن الدواوين وأعطى العطاء بمقتضى السابقة في الإسلام[٩] .

وفي سنة ست عشرة فتحت الأهواز والمدائن ، وأقام بها سعد الجمعة في إيوان كسرى ، وهي أول جمعة جمعت بالعراق .

وقد استشار عمر الصحابة وفيهم عليّ رضي الله عنه في أن يخرج بنفسه لقتال الفرس والروم ، فكان فيما أشار عليه عليّ رضي الله عنه قوله : « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعدّه وأمدّه حتى بلغ مابلغ وطلع حيث طلع .. ومكان القيّم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه . فإن انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً .. فكن قطباً واستدر الرحا بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها ، حتى يكون ماتدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك »[١٠] .

وفيها كانت وقعة جلولاء ، وهزم فيها يزدجرد بن كسرى وتقهقر إلى الريّ ، وفيها فتحت تكريت ، وفيها سار عمر ففتح بيت المقدس وخطب بالجابية خطبته المشهورة ، وفيها فتحت قنسرين عنوة ، وحلب

---

(٩) تاريخ الطبري : ٥٩٨/٣ و ٦١٣

(١٠) البداية والنهاية : ١٠٧/٧ ، ونهج البلاغة : ٢٠٣

وأنطاكية ومنبج صلحاً ، وفي ربيع الأول من هذا العام ، كتب التاريخ الهجري بمشورة عليّ رضي الله عنه .

أما في سنة سبع عشرة ، فقد زاد في المسجد النبوي ، وفيها كان عام الرمادة ، واستسقى عمر للناس ، متوسلاً بالعباس ، فارتفع القحط . وقد روى ابن سعد أن عمر لما خرج يستسقي ، خرج وعليه برد رسول الله ﷺ . وفي هذه السنة أيضاً فتحت الأهواز صلحاً[11].

طاعون عمواس :

وفي سنة ثماني عشرة وقع بالشام طاعون أتى على كثير من جند المسلمين ، وبلغ عمر خبره وهو متجه إلى الشام للمرة الثانية ، فاستشار الصحابة فاختلفوا في بادئ الأمر ، ثم أقبل عبد الرحمن بن عوف فأخبرهم أن النّبي ﷺ قال : « إذا سمعتم بالوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع ببلد وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه » ، فعاد عمر بالناس إلى المدينة .

وفي سنة تسع عشرة فتحت قيسارية عنوة .

وفي سنة عشرين فتحت مصر عنوة ، وقيل بل فتحت كلها صلحاً إلا الإسكندرية فعنوة . وفيها فتحت المغرب عنوة ، وفيها هلك قيصر عظيم الروم ، وفيها أجلى عمر اليهود عن خيبر وعن نجران . وفي سنة إحدى وعشرين فتحت الإسكندرية عنوة ونهاوند ، ولم يكن للأعاجم بعدها جماعة . وفي سنة اثنتين وعشرين فتحت أذربيجان عنوة وقيل صلحاً

---

(١١) تاريخ الخلفاء : ١٢٣ وما بعد .

والدينور عنوة ، وهمدان عنوة ، وطرابلس الغرب والرّي ، وفي سنة ثلاث وعشرين فتحت بقية بلاد الفرس : كرمان وسجستان ، وأصبهان ونواحيها . وفي أواخرها حجّ عمر رضي الله عنه ، قال سعيد بن المسيب : لما نفر عمر من منى أناخ بالأبطح ، ثم استلقى ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط . فما انسلخ شهر ذي الحجة من ذلك العام حتى قتل[١٢] . وقد أخرج البخاري عن أسلم أن عمر دعا قائلاً : اللهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك .

مقتل عمر رضي الله عنه :

وقد كان مقتل عمر على يد غلام مجوسي اسمه عبد المغيرة يكنى أبا لؤلؤة . وقد ذكر في سبب قتله له أنه جاء إلى عمر يشكو من شدة الخراج وكثرته ، فقال له : ماخراجك بكثير . فانصرف ساخطاً يقول : يسع الناس كلّهم عدلُه غيري !!.. وأضمر قتله . واتّخذ خنجراً وشحذه وسمّه ، وقد كان صاحبَ صناعات ومهارات شتى ، فكمن له في إحدى زوايا المسجد ، ولما خرج عمر كعادته إلى صلاة الفجر ، هجم عليه فطعنه ثلاث طعنات سقط منها رضي الله عنه ، ثم جعل يطعن كل من دنا إليه ، فألقى عليه أحدهم ثوباً ، ولما رأى أن قد تقيّد وتعثر فيه قتل نفسه بخنجره[١٣] .

---

(١٢) البداية والنهاية : ١٣٧/٧ ، وتاريخ الخلفاء : ١٢٤

(١٣) انظر تفصيل ذلك في تاريخ الطبري : ١٩٠/٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير : ١٣٧/٧

وهذا ماذكره الرّواة في خبر مقتله ، ولعل وراء ذلك مؤامرة ذات أطراف واسعة ، تلاقت على حوكها أصابع يهودية ومجوسية وزنادقة من فئات شتى . ويبعد أن تكون هذه الجريمة نتيجة تصرف أو ضيق شخصي بسبب كثرة الخراج ، والله أعلم .

ولما أُخْبِرَ عمر رضي الله عنه بأن قاتله هو أبو لؤلؤة قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام . ثم قال لابنه : ياعبد الله انظر ماعليّ من الدّين ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألف درهم . فقال : إن وفى مال آل عمر فأدّه من أموالهم ، وإلاّ فاسأل في بني عديّ ، فإن لم تفِ أموالهم فاسأل في قريش . ثم قال له : اذهب إلى أمّ المؤمنين عائشة ، فقل : يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه ، فذهب إليها ، فقالت : كنت أريده ـ تعني المكان ـ لنفسي ، ولأوثرنّه اليوم على نفسي . فلما رجع وأخبر بذلك عمر حمد الله عزّ وجلّ .

استخلاف عمر لواحد من أهل الشورى :

قال بعض الصحابة لعمر استخلف من تراه صالحاً من بعدك . فجعل الأمر من بعده شورى بين ستة أشخاص ، وهم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم . وتحرّج أن يجعلها لواحد من هؤلاء على التّعيين ، وقال : لاأتحمل أمرهم حيّاً ومِيتاً ، وإن يرد الله بكم خيراً يجمع أمركم على خير هؤلاء كما جمعكم على خيركم بعد نبيّكم ﷺ .

وهكذا ، فإن عمر أول من شكّل هذه الفئة من الصحابة ، وسميت بأهل الشورى . وعهد بأمر الخلافة من بعده إليها ، فكانوا بذلك بمثابة أعلى هيئة سياسية في الحكم .

وقد أوصى عمر رضي الله عنه أن يحضر مجلسهم عبد الله بن عمر مستشاراً وناصحاً فقط ، لا مرشّحاً أو منتخباً ، كما أوصى أن يصلي بالناس صُهيب الرومي ثلاثة أيام ، ريثما ينقضي التشاور في الأمر ويجتمع المسلمون على خليفة لهم .

كيف تمّ اختيار عثمان :

اجتمع أهل الشورى الذين عيّنهم عمر في بيت من البيوت يتشاورون في هذا الأمر ، ووقف طلحة بواباً يمنع دخول الناس عليهم ، وانتهوا إلى أن فوّض ثلاثة منهم الأمر إلى الثلاثة الآخرين ، ففوّض الزبير الأمر إلى عليّ ، وفوّض سعد إلى عبد الرحمن بن عوف ، وترك طلحة حقه إلى عثمان . فقال عبد الرحمن لعليّ وعثمان : أيكما يبرأ من هذا الأمر فنفوّض الأمر إليه ؟ فسكت الشيخان ، فقال عبد الرحمن : إني أترك حقي من ذلك ، والله عليّ والإسلامُ أن أجتهد فأوليَ أولاكما بالحق ، فقالا : نعم ، ثم خاطب كلاً منهما بما فيه من الفضل ، وأخذ عليه العهد والميثاق لئن ولاّه ليعدلنّ ، ولئن ولّي عليه ليسمعن ويطيعن ، فقال كل منهما نعم ، ثم تفرقوا .

ثم نهض عبد الرحمن بن عوف يستشير الناس فيهما ، فاستشار رؤوس الناس وقادتهم جميعاً وأشتاتاً ، مثنى وفرادى ومجتمعين ، سرّاً وجهراً ،

وانتهى إلى النساء المخدّرات في حجبهن ، ثم سأل الولدان في المكاتب ، وسأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة ، طوال ثلاثة أيام بلياليها . فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان بن عفان ، إلا ما ذكر من أن عمار بن ياسر والمقداد أشارا بعليّ رضي الله عنه ، ثم انضمّا إلى رأي عامة الناس .

ثم اجتمع عبد الرحمن في اليوم الرابع بعليّ وعثمان في دار ابن أخته المسور بن مخرمة . فقال : إني سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً . ثم خرج بهم إلى المسجد وبعث إلى وجوه الناس من الأمصار والمهاجرين ، فامتلأ المسجد حتى غصّ بالناس . ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ ، فتكلم ودعا دعاءً طويلاً ، ثم قال : أيها الناس إني سألتكم سرّاً وجهراً بأمانيكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد من هذين الرجلين ، إما علي وإما عثمان . فقم إليّ ياعليّ ، فقام إليه فأخذ عبد الرحمن بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر ؟ فقال : اللهم لا ، ولكن على عهدي من ذلك وطاقتي . فأرسل يده وقال : قم إليّ ياعثمان . فأخذ بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللهم نعم . قال فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان قائلاً : اللهم اسمع واشهد ، اللهم اسمع واشهد ، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك وجعلته في رقبة عثمان . فازدحم الناس يبايعون عثمان تحت المنبر ، وبايعه عليّ رضي الله عنه أول الناس وقيل آخرهم[١٤] .

---

(١٤) ملخصاً عن البداية والنهاية لابن كثير : ١٤٧/٧

العبر والعظات :

أولاً ـ علمنا أن من أول الأعمال التي قام بها عمر رضي الله عنه عزله لخالد بن الوليد . ولقد لفا كثير من الكتاب المعاصرين في أمر هذا العزل ، محاولين أن يجعلوا منه سبيلاً للانتقاص من مكانة خالد رضي الله عنه .

غير أن تفسير هذا العزل واضح في عمل عمر نفسه ، وفي كلامه الذي قاله عن خالد ، وما تضمنه من الثناء عليه . فقد قال له ، كما أسلفنا : والله يا خالد إنك عليّ لكريم وإنك إليّ لحبيب . وكتب إلى أهل المصر يوضح سبب عزله له قائلاً : إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن عزلته شفقة على النفوس من سرعة هجماته وشدة صدماته[١٥].

ولما أُخْبِرَ عمر بمرض خالد ، وكان عمر على مسيرة ثلاثة أيام من المكان الذي فيه خالد وهو المدينة ، طوى هذه المسافة في ليلة واحدة . فأدركه وقد قضى نحبه ، فاسترجع ورقّ عليه ، وجلس عند باب داره حتى تم تجهيزه . ولما بكته البواكي قيل لعمر ألا تسمع ؟ ألا تنهاهن ؟ فقال : وما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان مالم يكن نقع ولا لقلقة ؟

ولما خرج عمر في جنازته رأى امرأة محرمة تبكيه فقال : من هذه ؟ فقيل له : أمه . فقال : أمّه ؟ واهاً له ، قالها ثلاثاً . ثم قال : وهل قامت النساء عن مثل خالد[١٦] ؟

ثانياً ـ هذا الذي ذكرناه يقتضي أن خالداً توفي ودفن في المدينة . وإلى ذلك ذهب بعض المؤرخين . غير أن الجمهور ذهبوا إلى أن الصحيح أنه توفي ودفن في حمص ، وهو مارجّحه ابن كثير في البداية والنهاية . إذ الثابت أن خالداً اعتمر بعد أن عزله عمر ثم رجع إلى الشام فلم يزل بها حتى مات سنة إحدى وعشرين .

وعلى كل حال ، فإن لسان عمر كان لسان ثناء على خالد ، سواء في حياته وبعد مماته . روى ابن كثير عن الواقدي أن عمر رأى حجاجاً قد قدموا من حمص ، فقال : هل من خبر نعرفه ؟ قالوا : نعم ، مات خالد . فاسترجع عمر ، ثم قال : كان والله سداداً لثغور العدوّ ميمون النقيبة .

---

(١٥) البداية والنهاية : ٨١/٧

(١٦) المرجع ذاته .

غير أن ثناءه عليه لا يتعارض مع بعض المواقف الاجتهادية التي قد يختلف فيها رأي كل منهما عن الآخر ، فيعمل كل منهما بالرأي الذي يراه .

وليت أن الذين ينتقصون من مكانة خالد لموقف عمر منه أو ينتقصون من مكانة عمر للموقف ذاته ، يحيطون بالأمر من أطرافه ، ويفرقون بين الموقف الاجتهادي المأجور عليه على كل حال ، والانحراف الفكري أو السلوكي الذي يتنزه عنه أصحاب رسول الله .

ثالثاً ـ من أبرز ما يلاحظه المتأمل في خلافة عمر ، ذلك التعاون المثمر الصافي ، بين عمر وعلي رضي الله عنهما ، فقد كان عليّ هو المستشار الأول لعمر في سائر القضايا والمشكلات . وما اقترح عليّ على عمر رأياً إلاّ واتّجه عمر إلى تنفيذه عن قناعة ، وحسبك في ذلك قوله : لولا عليّ لهلك عمر .

أمّا علي فقد كان يمحضه النصح في كل شؤونه وأحواله ، وقد رأيتَ أن عمر استشاره في أن يذهب بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس ، فنصحه نصيحة المحب له الغيور عليه والضنين به ، أن لا يذهب ، وأن يدير رحى الحرب بمن دونه من العرب وهو في مكانه . وحذّره من أنه إن ذهب ، فلسوف ينشأ وراءه من الثغرات ما هو أخطر من العدو الذي سيواجهه .

أرأيت لو أن رسول الله أعلن أن الخلافة من بعده لعلي ، أفكان لعلي أن يعرض عن أمر رسول الله هنا ، وأن يؤيد المستلبين لحقه بل لواجبه في الخلافة ، بمثل هذا التعاون المخلص البناء ؟ بل أفكان للصحابة كلهم أن يضيعوا أمر رسول الله ، بل أفكان من المتصور أن يجمعوا ـ وفي مقدمتهم عليّ رضي الله عنه ـ على ذلك ؟

رابعاً ـ كما أن خلافة أبي بكر جاءت في ميقاتها ، الذي لم يكن يصلح له إلا أبو بكر ، فكذلك خلافة عمر جاءت في ميقاتها الذي كان عمر من أصلح الناس له . لقد كان من أجلّ ما قام به أبو بكر إعادة تثبيت الإسلام بناءً في الدولة ويقيناً في النفوس بعد الاضطراب الذي نابه بسبب وفاة رسول الله ﷺ . ولقد كان من أجلّ ما قام به عمر مدّ الفتوحات الإسلامية إلى أقصى بلاد الفرس والشام والمغرب ، وبناء المدن وتدوين الدواوين ، وتوطيد دعائم الدولة الإسلامية كأقوى دولة حضارية فوق الأرض .

وهذا يدلّ على مدى حكمة الله تعالى في رعاية عباده وتحقيق أسباب الخير والسعادة لهم في حياتهم الفردية والاجتماعية .

خامساً ـ نقول عن الطريقة التي تمت على أساسها خلافة عثمان ، ما قلناه عن ذلك بالنسبة لخلافة عمر . فقد كان العهد بها هو السبيل لخلافة كل منهما ، إلا أن الفرق بينهما هو أن أبا بكر عهد بالخلافة إلى عمر بعينه . أما عمر فقد عهد بالخلافة إلى واحد من ستة أشخاص هم أهل الشورى ، وفوّض إلى المسلمين اختيار من يشاؤونه منهم .

وقد رأيت أن اختيار عثمان من بين هؤلاء الستة كان بمشورة من هؤلاء الستة أنفسهم ، ثم كان بمشورة فمبايعة من عامة المسلمين أو أهل الحلّ والعقد منهم . وقد كان عليّ رضي الله عنه واحداً من هؤلاء الستة ، وكان في مقدمة من بايع عثمان رضي الله عنهما .

بوسعنا أن نعلم إذن ، بكل بداهة ، أن المسلمين إلى هذا العهد ، بل إلى نهاية عهد عليّ رضي الله عنه كانوا جماعة واحدة ، ولم يكن في ذهن أي من المسلمين أي إشكال بشأن الخلافة أو بشأن من هو أحقّ بها . اللهم إلا ما كان يقتضيه الوضع ، بالبداهة ، من التشاور والمراوضة في كل مناسبة لاختيار الخليفة بالطريقة الشرعية السليمة .

ومهما أصغيت السمع ، فإنك لن تقف على أي جدل أو حوار ، في هذه العهود كلها ، حول أن القرآن أو الرسول نصّ على الخليفة بعد رسول الله أو لم ينص . ولن تقف على أي نقد أو تخطئة للطريقة التي تمّ بها نصب أي من هؤلاء الخلفاء الثلاثة .

إذن ، فمتى ، وبأيّ دافع حصل هذا الشدخ الذي قسم جماعة المسلمين بشأن الخلافة ـ بعد اتّحادها وتعاونها طوال هذه العهود الثلاثة ـ إلى فئتين مختلفتين ؟

سنذكر ذلك ، في مناسبته ، عند التعليق على خلافة سيدنا علي رضي الله عنه ، والأحداث التي وقعت في عهده .

عثمان بن عفان

في السنة الأولى من خلافة عثمان ـ وهي سنة أربع وعشرين ـ فتحت الرّيّ ، وكانت قد فتحت ثم نُقِضَ فتحُها ، وأصاب الناس فيها رعاف كثير ، وكان منهم عثمان رضي الله عنه حتى تخلف بسبب ذلك عن الحج وأوصى ، وفيها ولّى عثمان على الكوفة سعد بن أبي وقاص وعزل المغيرة بن شعبة .

وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولّى عليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ وهو صحابي أخو عثمان لأمه ـ وذلك أول مانُقم عليه لأنه آثر أقاربه بالولاية .

وفي سنة ست وعشرين زاد عثمان في المسجد الحرام ووسّعه ، واشترى أماكن من أصحابها وضمها إلى المسجد . وفي سنة سبع وعشرين غزا معاوية قبرص ، فركب البحر بالجيوش ، وكان معهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية ، فسقطت عن دابتها وماتت ودفنت هناك ـ وكان النّبي ﷺ أخبرها بهذا الجيش ودعا لها أن تكون من أفراده[١٧] ..

---

(١٧) تاريخ الخلفاء : ١٤٥ ، البداية والنهاية : ١٥٣/٧ .

وفيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولّى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فغزا أفريقية فافتتحها سهلاً وجبلاً ، وفتحت الأندلس في العام ذاته .

وفي سنة تسع وعشرين فتحت مدن كثيرة أخرى ، وفيها زاد عثمان في مسجد المدينة المنورة ووسّعه وبناه بالحجارة المنقوشة ، وجعل عمده من حجارة وسقفه بالساج وجعل طوله ستين ومئة ذراع ، وعرضه خمسين ومئة ذراع .

وفي سنة ثلاثين فتحت بلاد كثيرة أخرى من أرض خراسان ، وكثر الخراج من جراء ذلك ، وأتى المال من كل وجه ، ووسّع الله على المسلمين في كل البلاد .

وفي سنة اثنتين وثلاثين توفي العباس بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وكان قد تولى قضاء الشام لمعاوية ، وأبو ذرّ جندب بن جنادة الغفاري ، وزيد بن عبد الله رضي الله عنهم جميعاً . وفي سنة ثلاث وثلاثين غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح الحبشة .

سياسة عثمان في اختيار الولاة والأعوان وما نشأ عن ذلك :

من المعلوم أن عثمان رضي الله عنه كان يقرّب إليه في التوظيف والاستعانة ، أقاربه من بني أميّة ، وقد اقتضى ذلك أن يعزل عدداً من الصحابة من وظائفهم ليحلّ محلّهم من يفضله من ذوي قرابته . وقد

جرّت عليه هذه السياسة نقمة كثير من الناس ، وكان ذلك هو المنطلق والمعتمد الأول لليهودي المعروف عبد الله بن سبأ وأعوانه ، في بثّ أسباب الفتنة وإيقاد نيرانها .

وروى ابن كثير ماخلاصته أن جمهوراً من أهل الكوفة ثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة ، وتألبوا عليه ، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما فعل وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة وتوظيف جماعة من بني أمية في مكانهم . فدخلوا عليه وأغلظوا عليه في القول .. فشقّ ذلك على عثمان وبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده يستشيرهم . فاجتمع إليه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام ، وعمرو بن العاص أمير مصر ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير المغرب ، وسعيد بن العاص أمير الكوفة ، وعبد الله بن عامر أمير البصرة ، فاستشارهم فيما حدث من الأمر وافتراق الكلمة .. وأدلى كلٌّ برأيه . وانتهى عثمان من استعراض الآراء ومناقشتها إلى إبقاء عمّاله كلٌّ على عمله الذي هو فيه ، وأن يتألف قلوب الثائرين والمتألبين عليه بالمال ، وأمر بهم فبعثوا إلى الغزو والثغور[١٨] .

نشأ على أعقاب ذلك بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلّبون الناس على عثمان وينكرون عليه الكثير من أعماله ، وذلك بعدما عاث عبد الله بن سبأ فساداً بمصر ، فاستنفر نحواً من ست مئة راكب متجهين إلى المدينة في صفة معتمرين ، وإنما قصدهم أن يثيروا فتنة في داخل المدينة . ولما اقتربوا من المدينة أمر عثمان عليّاً أن يخرج إليهم فيكلّمهم

---

(١٨) البداية والنهاية : ١٦٧/٧ ، وتاريخ الطبري : ٣٣٣/٤

ويردّهم إلى بلادهم ، فانطلق إليهم علي رضي الله عنه وهم بالجحفة ، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره إذ كان قد عبث عبد الله بن سبأ بعقولهم عبثاً منكراً وملأها بما شاء من الخرافة والزيغ ، فردّهم عليّ رضي الله عنه وأنّبهم وشتمهم ، فرجعوا على أنفسهم باللامة ، وقالوا : هذا الذي تحاربون الخليفة بسببه وتحتجون به عليه ؟!.. ثم إنهم رجعوا خائبين من حيث أتوا ولم ينالوا شيئاً مما كانوا قد أمّلوا ورأموا .

ولما رجع عليّ على عثمان ، أخبره برجوعهم ، ثم أشار عليه أن يخطب في الناس خطبة يعتذر إليهم فيها مما كان قد وقع منه من الأثرة لبعض أقاربه ، وأن يعلن لهم أنه قد تاب من ذلك .

فقبل عثمان مشورته ، وخطب الناس يوم الجمعة ، وقال فيما قال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إني أول تائب مما كان مني ، واستعبر باكياً ، وبكى المسلمون أجمعون .. وعاد فأكّد لهم نزوعه عما نقم الناس عليه من أجله ، وأنه سينحي عنهم مروان وذويه .

ولكن مروان بن الحكم دخل عليه بعد ذلك عاتباً بل ناقماً ، وقال له فيما قال : لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممنّع منيع ، فكنتَ أول من رضي بها وأعان عليها ، ولكنك قلت حين جاوز الحزام الطبيين وبلغ السيل الزبى . والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها ، خير من توبة خوفاً عليها .. وإنك لو شئت لعزمت التوبة ولم تقرّ لنا بالخطيئة .

ثم أخبره مروان أن بالباب جمعاً من الناس ، ففوضه عثمان أن يخرج إليهم فيكلّمهم كما يشاء ، فخرج مروان وقال كلاماً سيئاً أفسد به

ماأصلحه عثمان بحديثه إلى الناس ، فقد قال لهم فيما قال :

« جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا ، أما والله لئن رمتونا ليرن عليكم أمر يسوؤكم ولا تحمدون غبّه » .

ولما علم عليّ بالخبر ، جاء مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له : « أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاّ بتحويلك عن دينك وعقلك ؟ والله مامروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه . وايم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا بعائد بعد هذا لمعاتبتك » .

فلما خرج عليّ دخلت نائلة على عثمان ، وكانت تسمع كلام عليّ له ، فقالت له : أتكلم أم أسكت ؟ فقال تكلمي . قالت : سمعت قول عليّ أنه ليس يعاودك ، وقد أطعت مروان حيث شاء . قال : فأشيري عليّ . قالت : تتقي الله وحده لاشريك له ، وتتبع سنّة صاحبيك من قبلك . فإنك متى أطعت مروان قتلك . ومروان ليس له عند الله قدر ولا رهبة ولا محبة . فأرسل إلى عليّ فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يُعصى .

فأرسل عثمان إلى عليّ ، فأبى أن يأتيه . وقال : لقد أعلمته أني لست بعائد .

كان هذا الموقف بداية العقدة التي أشعلت نيران الفتنة ، ويسرت للمختبئين والمتربصين ، سبيلاً وأي سبيل لإذكاء وقودها ، والوصول بها إلى أسوأ المآرب المطلوبة .

أول الفتنة ، ومقتل عثمان :

تولى عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة ، لا ينقم الناس عليه شيئاً ، بل كان أحب إلى كثير من القرشيين ، من عمر بن الخطاب ، لأن عمر كان شديداً عليهم ، أما عثمان فلان لهم وواصلهم .. ولكنهم تغيروا له لما أخذ يستعمل أقاربه وأهل بيته - كما سبق أن أوضحنا - . وكان يتأول عثمان في ذلك صلة الرحم التي أمر الله بها ، وقد انتهى هذا الأمر بمقتل عثمان رضي الله عنه .

وقد أخرج ابن عساكر عن الزهري قال : قلت لسعيد بن المسيب ، هل أنت مخبري كيف قتل عثمان ؟ وما كان شأن الناس وشأنه ؟ فقال ابن المسيب : قُتل عثمان مظلوماً ، ومن قَتله كان ظالماً ، ومن خذله كان معذوراً . ثم إن ابن المسيب قصّ على الزهري أسباب مقتله وكيفية ذلك ، ونحن نذكره هنا مختصراً :

جاء أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح ، فكتب عثمان إليه كتاباً ينصحه ويتهدده فيه . فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان وأغلظ في معاملة من ذهبوا فشكوه ..

ثم إن كبار الصحابة ، كعليّ وطلحة وعائشة ، اقترحوا على عثمان عزل ابن أبي سرح وأن يولّي على مصر غيره . فقال لهم : اختاروا رجلاً أوليه مكانه . فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر ، فكتب عثمان عهداً بذلك وولاّه ، وتوجّه معه عدد من الأنصار والمهاجرين إلى مصر لتنفيذ الأمر وفيهم محمد بن أبي بكر . فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة ، إذا

هم بغلام أسود على بعير يخبطه ويستعجله . فاستوقفه أصحاب رسول الله وقالوا له : ماقصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب ؟ فقال لهم : أنا غلام أمير المؤمنين وجّهني إلى عامل مصر ، ولما قيل له : غلام من أنت ؟ تلعثم وأخذ يقول مرة : أنا غلام أمير المؤمنين ، ويقول أخرى : أنا غلام مروان .. ثم استخرجوا من أمتعته كتاباً ، فجمع محمد بن أبي بكر من كان عنده من الأنصار والمهاجرين وغيرهم ، ثم فضّ الكتاب بمحضرهم فإذا فيه : إذا أتاك محمد وفلان وفلان .. فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه ، وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي واحبس من يجيء إليّ يتظلم منك .

فرجع هؤلاء الصحابة بالكتاب إلى المدينة ، وجمعوا طائفة من أبرز رجال الصحابة وأطلعوهم على الكتاب وقصة الغلام ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان .. فلما رأى علي رضي الله عنه ذلك دعا بعضاً من كبار البدريين منهم طلحة والزبير ، وسعد وعمار ، ودخل بهم على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير . فقال له علي : هذا الغلام غلامك ؟ قال : نعم . قال : والبعير بعيرك ؟ قال : نعم . قال : فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا علم لي به . قال له علي : فالخاتم خاتمك ؟ قال : نعم . قال : كيف يخرج غلامك ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك لا تعلم به ؟ فحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر قط .

ثم نظروا في الخط ، فعلموا أنه خط مروان ، فسألوه أن يدفع إليهم

مروان ، فـأبى . وكان مروان عنـده في الـدار . فخرج الجمع من عنـده غضـاباً ، وعلموا أن عثمان لا يحلف كاذباً ، إلا أنهم غضبوا من عدم تسليم عثمان مروان لهم .

وانتشر الخبر في المدينة ، وأقبل الناس فحاصروا عثمان ومنعوه الماء ، ولما اشتدّ به وبأهله الظمأ أشرف عليهم قائلاً : ألا أحد يبلغ علياً فيسقينا ماء ؟ فبلغ الخبر علياً فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه إلا بجهد .

وبلغ علياً أن في الناس من يريد قتل عثمان ، فقال : إنما أردنا منه مروان ، فأما قتل عثمان ، فلا . وقال للحسن والحسين : اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه ، وفعل مثل ذلك عدد من أصحاب رسول الله ﷺ . وتزاحم الغوغاء على باب عثمان يريدون الوصول إليه لقتله ، فيصدهم عن ذلك السبطان ومن معهما من بعض الصحابة .

وعندئذ تسوروا عليه الدار ، وسقطوا عليه من أعلى المنزل ، وأقبلوا عليه تتناوشه سيوفهم حتى قتلوه .. وبلغ الخبر علياً رضي الله عنه فأقبل مغضباً ، وقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ورفع يده فلطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير .

وهكذا ، فقد كان مقتل عثمان باباً لسلسلة من الفتن امتدت حلقاتها إلى غير نهاية .

مبايعة عليّ والبحث عن قتلة عثمان :

خرج عليّ رضي الله عنه من دار عثمان مغضباً لما قد وقع ، وجاءه الناس يهرعون إليه وقالوا له : لابدّ لنا من أمير ، فمدّ إلينا يدك نبايعك . فقال لهم عليّ : ليس ذلك إليكم ، وإنما ذلك إلى أهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة . فلم يبق أحد من أهل بدر إلاّ أتى علياً ، فقالوا له : مانرى أحداً أحقّ بها منك ، مدّ يدك نبايعك ، فبايعوه .

وما أن استتب الأمر لعليّ وتمت مبايعته ، حتى هرب مروان وولده . وجاء عليّ إلى امرأة عثمان يسألها عن قاتلي عثمان ، فقالت : لاأدري ، دخل عليه رجلان لاأعرفهما ومعهما محمد بن أبي بكر ، فدعا عليّ محمداً فسأله عما ذكرته امرأة عثمان ، فقال محمد : لم تكذب قد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله ، فذكّرني أبي فقمت عنه ، وأنا تائب إلى الله تعالى ، والله ماقتلته ولا أمسكته . فقالت امرأته : صدق ، ولكنه أدخلهما .

وأخرج ابن عساكر عن كنانة مولى صفية وغيره ، قالوا : قتل عثمان رجل من أهل مصر ، أزرق أشقر .

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن أبي ثور الفهمي ، قال : دخلت على عثمان وهو محاصر ، فقال : لقد اختبأت عند ربي عشراً ، إني لرابع أربعة في الإسلام ، وجهزت جيش العسرة ، وأنكحني رسول الله ﷺ ابنته ، ثم توفيت فأنكحني ابنته الأخرى ، وما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على فرجي منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ، وما مرت بي جمعة منذ

أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة ، إلا أن يكون عندي شيء فأعتقها بعد ذلك ، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط ، ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام قط ، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﷺ .

والصحيح أن قتل عثمان كان في أوسط أيام التشريق من عام خمسة وثلاثين .

العبر والعظات :

أولاً ـ من أهم الفضائل والمزايا التي يتسم بها عهد عثمان ، كثرة الفتوحات واتساعها في هذا العهد ، فقد فتحت خراسان كلها ، وفتحت أفريقيا ، وامتدّ الفتح إلى الأندلس . هذا إلى جانب أعمال جليلة أخرى ، قام بها عثمان ، كجمعه الناس على الرسم القرآني الموثق ، بعد أن سرت العجمة إلى الألسن ، وخيف على القرآن من جراء ذلك . وكتوسيعه الكبير لمسجد المدينة المنورة .

وما ضرّ أن اعتمد عثمان في كثير من فتوحاته على عبد الله بن سعد بن أبي سرح وأمثاله فإن الإسلام يجبّ ماقبله ، ولعلّ ابن سرح ، كفّر بأعماله الجليلة هذه ما كان قد بدر منه من قبل . والمعلوم أنه قد استقام من بعدُ على سبيل الرشد ، وكان من أفضل الناس ديناً .

ثانياً ـ مهما توجه النقد إلى عثمان رضي الله عنه ، بسبب اختياره الولاة والأعوان أو أكثرهم ، من أقاربه من بني أمية ، فإنّ علينا أن نعلم أن ذلك كان اجتهاداً منه ، وقد دافع عن رأيه في ذلك أمام كثير من الصحابة . ومهما كان موقفنا من رأيه ودفاعه عنه ، فما ينبغي أن يدفعنا النقد إلى سوء أدب في التحليل أو القول ، وما ينبغي أن ينسينا خطؤه في ذلك ـ إن اعتبرناه خطأ ـ مكانته الرفيعة عند رسول الله ﷺ ، وسابقته في الإسلام ، وقول رسول الله ﷺ له يوم تبوك : « ماضرّ عثمان ماصنع بعد اليوم » .

وينبغي أن نعلم أن مناقشة الصحابة له واعتراضهم عليه فيما فعل من ذلك ، شيء ، واجترارنا اليوم للأمر ذاته ، بدافع من النقد والانتقاص شيء آخر .

اعتراض الصحابة عليه ، معالجةً لأمر قائم يمكن تغييره وإصلاحه ؛ فالبحث فيه وإن كان على أساس النقد والتخطيء ، عمل إيجابي مفيد . أما حديثنا نحن اليوم ، وقد طوي الأمر وأصبح حدثاً من أحداث التاريخ ، فإنه إنما يغدو مجرد تطاول رخيص على الصحابة الذين أثنى عليهم رسول الله ﷺ وحذّر من الإساءة إليهم ، لاسيما الخلفاء الراشدون .

ويكفي ، لمن ابتغى الأمانة العلمية في رواية الأحداث ، أن يقف من بيانها والحديث عنها عند الحدود التي التزم بها الكتّاب والمؤرخون الثقات من أمثال الطبري وابن كثير وابن الأثير ..

ثالثاً ـ مع ظهور مقدمات الفتنة في أواخر عهد عثمان ، يظهر اسم عبد الله بن سبأ على مسرح الأحداث ، ويبرز دوره جلياً في تأجيج نيران هذه الفتنة .

وعبد الله بن سبأ في أصله يهودي من اليمن . جاء إلى مصر في عهد عثمان ، وأخذ يستثير الناس على عثمان ويتظاهر بحب عليّ وآل بيت رسول الله ﷺ . وكان يقول للناس فيما يقول : أليس محمد أفضل من عيسى عند الله عز وجل ؟ .. إذن فإن محمداً أحق بالعودة إلى الناس من عيسى ، وإنما يعود محمد إليهم في شخص ابن عمه عليّ الذي هو أقرب الناس إليه(١٩)

وقد استطاع أن يخدع بهذا التدجيل أناساً في مصر ، بعد أن ردد أقواله هذه في اليمن دون أن يؤيده فيها أحد . وهؤلاء الذين خدعوا بكلامه ، هم الذين توجه بهم إلى المدينة ليثوروا على عثمان ، ولكن الذي ردّهم على أعقابهم إنما هو عليّ رضي الله عنه كما قد رأيت .

ومن هنا تعلم أن ميلاد انشطار الأمة الإسلامية إلى شطريه : السني والشيعي ، إنما بدأ في هذه الفترة ، وأن ذلك إنما تمّ على يد عبد الله بن سبأ . وهذا بقطع النظر عن الأذى أو الظلم الذي حلّ بآل البيت أو بشيعتهم بعد ذلك على يد الأمويين وغيرهم . المهم أن أياً من هذين الواقعين اللذين يدخلان في ألف باء الحقائق التاريخية ما ينبغي أن ينسينا الواقع الآخر .

---

(١٩) البداية والنهاية : ١٦٧/٧

رابعاً ـ مرة أخرى ينبغي أن نتبيّن حقيقة العلاقة التي كانت قائمة بين عثمان وعليّ في مدة هذه الخلافة الثالثة ، وحقيقة الموقف الذي كان يقفه عليّ من عثمان رضي الله عنهما .

لقد رأيت أن علياً رضي الله عنه بادر إلى مبايعة عثمان بالخلافة ، بل لقد ذهب كثير من المؤرخين ، كما قال ابن كثير إلى أنه كان أول المبايعين له .. ثم رأيت كيف قال عليّ لعثمان ـ وقد سمع بالجند الذي توجه به عبد الله بن سبأ إلى المدينة ليؤلب الناس عليه ـ : أنا أكفيك شرهم ، فانطلق إليهم رضي الله عنه ووافاهم عند الجحفة ، فردّهم وأنبهم وشتمهم ، فرجعوا وهم يلومون أنفسهم ، وقال بعضهم : هذا الذي تحاربون الخليفة بسببه وتحتجّون به عليه ؟[٢٠] ولقد رأيت كيف كان يمحضه النصح في شفقة بالغة وغيرة صادقة وكيف وقف إلى جانبه إلى آخر لحظة ، ورأيت كيف جنّد ابنيه الحسن والحسين لحراسته من أولئك الذين أحدقوا به .

إذن ، فلقد كان عليّ خير دعامة لعثمان في خلافته ، وكان خير نصير له في محنته ، وما قسا عليه أخيراً في النصح إلاّ حباً له وغيرة عليه .

فاعلم هذا جيداً ، لتعلم أن عظيماً من الناس كعليّ ينبغي أن يكون إنسان عين كل مؤمن بالله ورسوله ، وأن يكون مهوى فؤاد كل إنسان سويّ في إنسانيته وشعوره . وإنما دليل الحب صدق الاتباع والاستقامة على الاقتداء . وقد كانت هذه هي سيرة علي رضي الله عنه ، مع من كان قبله من الخلفاء ، فلتكن سيرته خير قدوة لنا ، وأبلغ بيان يعبر عن صادق حبنا له .

---

(٢٠) البداية والنهاية : ١٧١/٧

خلافة عليّ رضي الله عنه

بويع لعلي رضي الله عنه بالخلافة في أواسط شهر ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ، غداة مقتل عثمان رضي الله عنه كما ذكرنا .

وقد تخلف جمع من الصحابة عن مبايعته ؛ منهم سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت .. وقد كانت أيام خلافته كلها سلسلة من الفتن والحروب والاضطرابات ، ابتدأت بوقعة الجمل ، تلتها وقعة صفين ، والخصومات التي قامت بين جمهور المسلمين ومعاوية ، تلتها فتنة الخوارج التي لم تنته إلاّ بجريمتهم النكراء ، بمقتل عليّ رضي الله عنه . ونحن نذكر ذلك كله ملخصاً :

الثأر لعثمان ووقعة الجمل :

مما لا شك فيه أن قتل عثمان كان بأيدي طائفة من البغاة ، ومن ورائهم يد يهودية ماكرة . ولقد كان طبيعياً أن يتحمل القتلة جريرة عدوانهم ، وأن يخضعوا لسلطان القصاص الشرعي ، ومن ثم فقد كان توجه جميع المسلمين وفي مقدمتهم عليّ رضي الله عنه ، إلى العمل على القصاص من قتلة عثمان . غير أن علياً رضي الله عنه استمهل المستعجلين ، ريثما تستقر له الأمور أو ينجز ماقد يراه ضرورياً من المقدمات التي تضمن سلامة التنفيذ وإبعاد أسباب الفتنة . وقد أجمع المؤرخون أن علياً كان

يكره أولئك البغاة الذين قتلوا عثمان ، وكان يتربص بهم الدوائر ويودّ لو تمكن منهم في أسرع وقت ليأخذ حق الله منهم ، غير أن الأمر لم يجر على النحو الذي كان يتمناه[٢١].

وخلاصة ماوقع ، أن كلاً من طلحة والزبير ومعهما ثلّة من الصحابة ، كان من رأيهم أن الإسراع في ملاحقة القتلة والاقتصاص منهم هو الأضمن لسلامة الأمر ودرء الفتنة ، وعرضوا على عليّ خدماتهم في ذلك ، وأن يستقدموا له الجنود من البصرة والكوفة ليكونوا سنداً له . ولكنه استمهلهم ريثما يرتب خطته المفضلة لتنفيذ الأمر[٢٢].

والذي تم بعد ذلك ، هو أن كلا من الطرفين سلك اجتهاده في اتباع السبيل الأمثل إلى الأخذ بدم عثمان . فكان أن تلاقى أولئك الذين رأوا الإسراع في الاقتصاص ، في البصرة ، وفيهم عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير وجمع كبير من الصحابة . ولم يكن عمل هؤلاء ولا قصدهم سوى تذكير لأهل البصرة بضرورة التعاون لمحاصرة قتلة عثمان والثأر منهم .

وعندئذ توجه جيش من قبل عليّ رضي الله عنه إلى هناك لإصلاح الأمر وجمع الكلمة . فتواجه الكلّ على ذلك الصعيد ، وليس في عزم أيّ منهم أن يبدأ قتالاً أو يفجر فتنة .

توجه القعقاع بن عمرو ، رسولاً من قبل علي رضي الله عنه إلى عائشة قائلاً : أي أماه ماأقدمك هذا البلد ؟ فقالت : الإصلاح بين الناس . ثم

---

(٢١) البداية والنهاية ٢٣٤/٧ وما بعد .

(٢٢) البداية والنهاية ٢٣٥/٧ وفتح الباري لابن حجر : ٤٦/١٣

توجه إلى كل من طلحة والزبير فسألهما السؤال ذاته فقالا : ونحن كذلك ما جئنا إلا للإصلاح بين الناس .. وتكلم الجميع وتبادلوا الرأي واتفقوا على أن يترك الأمر بين يدي علي رضي الله عنه ، على أن لا يدّخر وسعاً في إقامة حدّ الله على قتلة عثمان فور تمكنه من ذلك . ورجع القعقاع إلى علي وأخبره بما تمّ الاتفاق عليه ، وأشرف القوم على الصلح ، وخطب علي في الناس حامداً الله على نعمة الصلح والوفاق ، وأعلن أنه مرتحل من الغد ..[٢٢].

ولكن فما الذي تمّ بعد ذلك ؟

ما إن أعلن عليّ رضي الله عنه الصلح والوفاق وأبلغ الناس أنه مرتحل من الغد ، حتى اجتمع رجال من رؤوس الفتنة فيهم الأشتر النخعي وشريح بن أوفى وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء وسالم بن ثعلبة وغلام بن الهيثم .. ولم يكن فيهم بحمد الله واحد من الصحابة ، كما قال ابن كثير ، فتذاكروا في خطورة أمر التصالح عليهم وأن اتفاق الصحابة يعني إحداق الخطر بهم .. وقال منهم قائل : فلنلحق إذن علياً بعثمان ! ..

ولكن عبد الله بن سبأ سخّف هذا الرأي وحذّر منه ، ثم قال لهم : إن نجاتكم في مخالطة الناس ، فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب والقتال بين الناس ، ولا تدعوهم يجتمعون ! وسيمتنع من حولكم بالقتال ، دفاعاً عن نفسه .. وتفرق رؤوس الفتنة بعد أن اتفقوا على هذا الرأي .

---

(٢٢) البداية والنهاية : ٢٢٩/٧

وتوجه عليّ في اليوم الثاني مرتحلاً ، وتوجه على أثره كل من طلحة والزبير ، وقد تأكد الصلح والاتفاق ، وبات الناس بخير ليلة ، وبات قتلة عثمان بشرّ ليلة .

أما عبد الله بن سبأ وصحبه فقد اتفقوا على أن يثيروا الحرب من الغلس ويستدرجوا الناس إليها مهما كلف الأمر .

ونهض هؤلاء المتآمرون قبل طلوع الفجر ، وهم قريب من ألفي رجل ، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم ، فباغتوهم وهجموا عليهم بالسيوف ، فثارت كل طائفة إلى قومهم لينعوهم ، وهبّ الناس من رقادهم إلى السلاح ، وقالوا : طرقتنا أهل الكوفة ليلاً وبيتونا وغدروا بنا ، ظانين أنها خطة مدبرة من عليّ رضي الله عنه . وبلغ الأمر علياً وقال : ما للناس ؟ فتصايح من حوله : بيّتنا أهل البصرة وغدروا بنا . فثار كل فريق إلى سلاحه ولبسوا اللأمة وركبوا الخيل ، دون أن يعلم أحد بواقع الأمر وحقيقته . وكان طبيعياً أن تقوم الحرب على ساق وأن يتبارز الفرسان ، وقد اجتمع مع علي عشرون ألفاً ، والتفّ على عائشة ومن معها قرابة ثلاثين ألفاً . هذا والسائبة أصحاب ابن السوداء قبّحه الله لا يفترون عن القتل ، ومنادي عليّ ينادي : ألا كفوا ، ألا كفوا ، فلا يسمع أحد[٢٤] .

وفي تلك الأثناء ، ومع شدّة الهرج والقتل ، كان إذا تلاقت الوجوه المتعارفة تحت مظلة الإيمان والمشدودة إلى صحبة رسول الله ﷺ ،

(٢٤) تاريخ الطبري : ٥٠٦/٤ والبداية والنهاية : ٢٤٠/٧

تحاجزوا وكفّ كل منهم عن الآخر ، من أي الأطراف كانوا .

روى البيهقي موصولاً قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن القاضي يروي بسنده عن حربٍ بن الأسود الدؤلي قال : لما دنا عليّ وأصحابه من طلحة والزبير ودنت الصفوف بعضها من بعض ، خرج عليّ وهو على بغلة رسول الله ﷺ ، فنادى : ادعوا لي الزبير بن العوام ، فدعي له الزبير ، فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابّها . فقال عليّ : يا زبير نشدتك الله أتذكر يوم مرّ بك رسول الله ونحن في مكان كذا وكذا ، فقال : يا زبير ألا تحبّ عليـاً ؟ فقلتَ : ألا أحبُّ ابن خالي وابن عمي وعلى ديني ؟ فقال : يا زبير أما والله لتقاتلنّه وأنت له ظالم . فقال الزبير : بلى ، والله لقد نسيته منذ أن سمعته من رسول الله ، ثم ذكرته الآن ، والله لا أقاتلك أبداً . ورجع الزبير على دابته يشقّ الصفوف .

ولما سقط بعير عائشة رضي الله عنها على الأرض ، وحمل هودجها بعيداً عن ساحة الهرج ، جاء إليها عليّ رضي الله عنه مسلّماً ومستفسراً عن حالها ، وقال لها : كيف أنت يا أمه ؟ قالت : بخير . فقال : يغفر الله لك . ثم جاء وجوه الناس والصحابة يسلّمون عليها ويطمئنون على حالها[٢٥] .

أمر معاوية ووقعة صفّين :

رجع عليّ رضي الله عنه إلى الكوفة التي جعلها مقرّ خلافته ، وأرسل فور وصوله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية بالشام يدعوه إلى

(٢٥) البداية والنهاية : ٢٤١/٧

الدخول فيما دخل فيه الناس ، ويعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ؛ ولكن معاوية كان يرى أن بيعة عليّ لم تنعقد لافتراق أهل الحل والعقد من الصحابة في الآفاق ، ولا تتم البيعة إلا بهم جميعاً ، فامتنع من الاستجابة لدعوته رضي الله عنه ، حتى يقتل قتلة عثمان ، ثم يختار المسلمون لأنفسهم إماماً .

أما عليّ رضي الله عنه ، فقد كان على يقين بأن البيعة قد تمت له باتفاق أهل المدينة ، دار الهجرة النبوية ، وأنها بذلك تلزم من تأخر عنها ممن كان خارج المدينة .. أما الثأر من قتلة عثمان فقد قلنا أن علياً رضي الله عنه كان من أشد المتحمسين لذلك ، ولكنه كان يخطط لذلك بما يضمن سلامة النتائج .

ولما بلغه الرفض من معاوية ، عدّه باغياً خارجاً على جماعة المسلمين وإمامهم . فخرج رضي الله عنه بمن معه لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين ، فعسكر بالنخيلة ، وقدم عليه ابن عباس من البصرة بعد أن استخلف عليها ، وعبأ رضي الله عنه جيوشه متوجهاً لمحاربة أهل الشام وإجبارهم على الخضوع لجماعة المسلمين[٢٦] .

ولما علم معاوية بذلك ، سار إليه في جيوشه من الشام ، والتقى الطرفان في سهل صفين على نهر الفرات .. وتردد بينهما الرسل قرابة شهرين أو يزيد ، عليّ رضي الله عنه يدعو معاوية ومن معه إلى مبايعته ، ويطمئنه أن القصاص من قتلة عثمان آت في ميقاته القريب ،

---

(٢٦) البداية والنهاية ٢٥٤/٧

ومعاوية يدعو علياً قبل كل شيء إلى ملاحقة قتلة عثمان الذي هو ابن عمه وهو أولى الناس بالمطالبة بدمه . وربما قام بينهم خلال ذلك بعض القتال والمناوشات .

وظلّ الطرفان على هذه الحال إلى أن دخل شهر محرم من السنة السابعة والثلاثين ، فاتفق معاوية وعليّ على هدنة مدتها شهر ، أملاً في التصالح . ولكن مدّة الهدنة انقضت دون أي فائدة . وعندئذ أمر عليّ منادياً ينادي : يا أهل الشام يقول لكم أمير المؤمنين قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه ، فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تجيبوا إلى الحق وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين[٣٧] .

وعندئذ نهض معاوية وعمرو بن العاص فعبيا الجيش مينة وميسرة ، وعبّى علي رضي الله عنه جيشه من ليلته فجعل على خيل أهل الكوفة الأشتر النخعي وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف . ثم أوصى عليّ من معه أن لا يبدؤوا أحداً بقتال حتى يبدأ أهل الشام ، وأن لا يُذفّف على جريح ولا يُتْبَع مدبر ولا يكشف ستر امرأة ولا تهان .

واقتتل القوم في اليوم الأول قتالاً شديداً ، واقتتلوا في اليوم الثاني أيضاً قتالاً شديداً . واستمر القتال سبعة أيام لا يتغلب أحد من الطرفين على أحد . ولكنّ وطأة القتال اشتدت أخيراً على معاوية ومن معه وأوشك جيش علي رضي الله عنه على النصر .

---

(٣٧) المرجع المذكور ٢٦٠/٧

وعندئذ تشاور كل من معاوية وعمرو بن العاص في الأمر ، فأشار عليه عمرو ، أن يدعو أهل العراق إلى تحكيم كتاب الله ، فأمر معاوية الناس برفع المصاحف على الرماح ، وأن ينادي مناد باسمه : هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم . فلما رأى ذلك أصحاب علي ـ وكان قد أشرفوا على النصر ـ اختلفوا : ففريق يقول نجيب إلى تحكيم كتاب الله ، وفريق يأبى إلا القتال لعلمهم بأن الأمر خدعة .. وكان هذا هو رأي علي رضي الله عنه . غير أنه اضطر أن يتبع رأي مخالفيه لكثرتهم . فأرسل الأشعث بن قيس إلى معاوية يسأله عما يريد ، فكان جواب معاوية : لنرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله ، ولنختر منا رجلاً نرضاه ولتختاروا منكم رجلاً ترضونه ، ولنأخذ جميعاً العهد عليهما أن يحكما بما يأمر به كتاب الله ، فمهما قررا اتبعناهما جميعاً ، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري . فاجتمعت كلمة الفريقين ـ بعد أن كتبا بينهما كتاباً بهذا الخصوص ـ على أن يؤجل البت في الأمر إلى شهر رمضان ، على أن يجتمع الحكمان عندئذ بدومة الجندل . ثم انفض الناس .

ورجع أمير المؤمنين علي من صفين إلى الكوفة ، وقد تسرب الشقاق الخطير إلى جيشه ، ولما وصل علي رضي الله عنه إلى الكوفة ؛ اعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضلالاً واجتمعوا في حروراء ، وكانوا قرابة اثني عشر ألفاً . فأرسل إليهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عبد الله بن عباس ليحاورهم وينصحهم ، ولكنه لم يعد من سعيه معهم بأي طائل .. فخرج إليهم علي رضي الله عنه بنفسه . ولما اجتمع إليهم قال لهم : ما سبب

خروجكم هذا ؟ قالوا : حكومتك يوم صفين ، قال : ولكني اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أماتت القرآن .. قالوا : فخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : إنا لم نحكّم الرجال وإنما حكّمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خطٌ مسطور بين دفتين لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال .. قالوا : فلم جعلتم الأجل بينكم ؟ قال : ليعلم الجاهل ويثبت العالم ، ولعلّ الله يصلح بهذه الهدنة هذه الأمة .

وعندئذ رجعوا إلى رأيه ، فقال : ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا عن آخرهم .

ولما انقضى الأجل المضروب وحلّ شهر رمضان من السنة السابعة والثلاثين أرسل عليّ رضي الله عنه أبا موسى الأشعري في جمع من الصحابة وأهل الكوفة وأرسل معاوية عمرو بن العاص في جمع من أهل الشام ، واجتمع الفريقان في دومة الجندل ، وبعد أن حمدا الله وأثنيا عليه وتناصحا ، اتفقا على أن يدعى بصحيفة وكاتب وأن يمليا عليه ما قد يتفقان عليه .. ولكنهما لم يتفقا أخيراً على من يوليانه أمر هذه الأمة . فإن أبا موسى الأشعري رضي بخلع عليّ ومعاوية ، ولم يختر للخلافة إلا عبد الله بن عمر ، غير أنه رضي الله عنه لم يرض الدخول في هذا الأمر .

وعندئذ اصطلح الحكمان على أن يخلعا علياً ومعاوية ، ويتركا الأمر شورى بين المسلمين ، ليتفقوا على من يختارونه لأنفسهم . ثم توجها إلى جموع الناس من الطرفين ، فقدّم عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري ليعلن على الناس ما اتفقا عليه ، فتقدّم وحمد الله وصلى على رسول الله ،

ثم قال : « أيها الناس إنا نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أمراً أصلح لها ولا ألمّ لشعثها من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه ، وهو أنا نخلع علياً ومعاوية » ثم تنحّى وجاء عمرو فقام مقامه وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن هذا قد قال ما سمعتم ، وإنه قد خلع صاحبه وإني قد خلعته كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه وليّ عثمان بن عفان والطالب بدمه وهو أحق الناس بمقامه » .

وتفرق الناس ، على إثر هذا ، كل إلى بلده . وأما عمرو وأصحابه فدخلوا على معاوية فسلموا عليه بالخلافة ، وأما أبو موسى فاستحيى من علي فذهب إلى مكة . ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى عليّ فأخبراه بالأمر[٢٨] .

أمر الخوارج ومقتل علي رضي الله عنه :

لما بعث علي أبا موسى ومن معه من الجيش إلى دومة الجندل ، اشتدّ أمر الخوارج وبالغوا في النكير على عليّ بل صرّحوا بكفره لقبوله التحكيم ، مع أنهم كانوا من أحرص الناس عليه .

ولم يَجْدِ شيئاً محاورة علي رضي الله عنه لهم ونصيحته إياهم ، فقال لهم أخيراً : « إن لكم علينا ألّا نمنعكم مساجدنا مالم تخرجوا علينا ، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء مادامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا » .

---

(٢٨) باختصار عن البداية والنهاية : ٢٨٢/٧ و ٢٨٤

ثم توجه عليّ رضي الله عنه بجيش كبير قاصداً الشام لحرب معاوية ، بعد أن أعلن عن رفضه لحكم الحكمين .. ولكن بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً وسفكوا الدماء وقطعوا السبل واستحلوا المحارم ، وقتلوا فيمن قتلوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ وامرأته وهي حبلى ! .. وعندئذ خشي علي رضي الله عنه ومن معه إن هم ذهبوا إلى بلاد الشام واشتغلوا بقتال معاوية ومن معه أن يتسلط هؤلاء الخوارج على أهليهم وذراريهم بهذا الصنيع ، فاتفقوا مع علي رضي الله عنه أن يبدؤوا بهؤلاء .

فاتجه إليهم عليّ رضي الله عنه بمن معه من أصحابه ، ولما قارب المدائن أرسل إلى الخوارج في النهروان : أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم ، حتى نقتلهم ، ثم إنا تاركوكم ، وسائرون إلى الشام فلعلّ الله أن يردّكم إلى خير مما أنتم عليه . فبعثوا إلى عليّ يقولون : كلنا قتل إخوانكم وإنا مستحلّون دماءهم ودماءكم ، وعندئذ تقدّم إليهم عليّ فنصحهم ووعظهم وأنذرهم ، فلم يكن لهم من جواب إلا أن تنادوا فيما بينهم أن يتهيؤوا للقتال وللقاء ربّ العالمين .

وقبل أن يبدأ القتال أمر عليّ أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية الأمان للخوارج ، وأن يقول لهم : من جاء إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن ، فانصرف منهم طوائف كثيرون ، ولم يبق منهم إلا ألف تقريباً يرأسهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وكان

الخوارج هم أول من بدأ القتال ، فقتلوا عن آخرهم ، وقيل أكثرهم . ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر .

ثم إن الأمور تنغصت على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، واضطرب جيشه ، وخالفه كثير من أهل العراق واستفحل أمر الشام وصالوا وجالوا يميناً وشمالاً ، كما يقول ابن كثير ، زاعمين أن الأمر استتبّ لمعاوية بمقتضى حكم الحكمين ، هذا مع العلم بأن أهل الشام كلما ازدادوا قوة ازداد أهل العراق ضعفاً وخذلاناً ؛ ومع ما كانوا يعرفونه من أن أميرهم علياً رضي الله عنه خير أهل الأرض في ذلك الزمان ، أعبدهم وأزهدهم وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل ، فقد خذلوه وتخلّوا عنه ، حتى كره الحياة وتمنى الموت . وحق كان يكثر أن يقول : « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، لتُخضبنّ هذه من هذه (أي لحيته من رأسه) فما يحبس أشقاها ؟ » .

وكان عبد الرحمن بن ملجم ، وهو واحد من رؤوس الخوارج ، قد خطب امرأة يقال لها قطام فائقة الجمال ، وكان قد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان ، فاشترطت عليه أن يقتل علياً رضي الله عنه ، فقال : والله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل عليّ ، فتزوجها ودخل بها ، وأخذت تحرّضه على قتل عليّ رضي الله عنه .

وفي ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام ٤٠ للهجرة ، كمن عبد الرحمن بن ملجم ـ ومعه اثنان من أعوانه ـ مقابل السدة التي يخرج منها عليّ رضي الله عنه عادة ، وخرج كعادته يوقظ

الناس لصلاة الفجر ، ففاجأه ابن ملجم وضربه بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته رضي الله عنه .

وقال لأصحابه ، وقد علم أن ابن ملجم هو الذي فعل به ذلك : إن متّ فاقتلوه وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به . ولما احتضر رضي الله عنه جعل يقول : لا إله إلا الله ، لا يقول غيرها . وقد توفي عن ثلاثة وستين عاماً . وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

والذي رجحه ابن كثير أنه دفن بدار الإمارة في الكوفة ، وأكثر المؤرخين على أن أقاربه وأصحابه عمّوا قبره خيفة عليه من الخوارج ، والأقوال في مكان دفنه وأنه نقل إلى البقيع أو إلى أماكن أخرى كثيرة جداً . والله أعلم .

أما ابن ملجم فقد تولّى قتله الحسن رضي الله عنه ، ثم أحرقت جثته بالنار[٢٩] .

العبر والعظات :

أولاً ـ هل كان بين عليّ رضي الله عنه وأولئك الذين كانوا يستعجلون في طلب الثأر من قتلة عثمان ، أيّ خلاف جذري في هذه المسألة ؟

لعلك علمت مما ذكرناه آنفاً ، أن ملاحقة قتلة عثمان بالقصاص ، لم يكن محل خلاف قط ، كل ما في الأمر أن عائشة وطلحة والزبير ومن معهم ، كانوا حريصين على أن يكون تنفيذ القصاص في حق أولئك القتلة ، أول الأعمال التي يفتتح بها عليّ رضي الله عنه خلافته وعهده .. أما عليّ فكان يرى ضرورة البدء بتوطيد الأمور وإعادة النظام ، ثم السعي إلى اقتناص قتلة عثمان والإحاطة بهم ، بطرق أكثر هدوءاً ولباقة .

(٢٩) تاريخ الطبري ١٣٣/٥ وما بعدها ، والبداية والنهاية ٢٨٥/٧ وما بعدها .

وهذا الذي كان يراه عليّ رضي الله عنه ويحرص عليه ، هو الأساس الذي جنح إليه الطرف الآخر ، وتمّ بموجبه الصلح ، وقرر الجميع ، بمن فيهم عائشة وطلحة والزبير - بكل ثقة وطمأنينة - وضع الأمر بين يدي علي يعالجه بما يرى من الحكمة ، مادام الكل متفقين على ضرورة ملاحقة القتلة وإنزال القصاص بهم . وعلى هذا الأساس اتفقت الأطراف على أن يتخلوا عن هذه المهمة التي حملوا أنفسهم مسؤولية إنجازها ، وقرروا الرجوع ، كلٌّ إلى داره وبلده .

ثانياً - إذن ، فما الذي عاقهم عن تطبيق هذا الذي اتفقوا عليه ، وصدّهم عن المضيّ فيما قرروه من وضع الأمر بين يدي عليّ والتعاون معه في كل شيء ؟

لقد رأيت أن الذي عاقهم إنما هو الكيد الذي خطط له أبطال الفتنة ، وفي مقدمتهم (ابن السوداء) عبد الله بن سبأ ، فقد قرروا - وقد أفزعهم اتفاق المسلمين - أن يندسّوا بين الصفوف ، ثم يفاجؤوا الطرفين ، في غبش الظلام ، بالسيوف ينهالون بها عليهم على غير هدى ، لتزول الثقة وتندلع الفتنة فيما بينهما . وليحسب كل طرف أن الطرف الآخر فاجأه بالمكيدة من وراء ستار الصلح والتظاهر به .

وهذا ماقد تمّ بالضبط . ومثل هذا الكيد عمل سهل رخيص ، لا يتوقف على أكثر من طبيعة لئيمة ، وإنسانية ممسوخة متراجعة .

ولكن ماذا كان يمكن أن يفعل أولئك الصحابة الذين صفت نفوسهم من كل مكيدة وزغل ، سوى أن يردوا عنهم تلك الهجمات المباغتة . وما الذي يمكنهم أن يفهموه من تفسيرها سوى أنها غارة مبيتة خُطط لها من الطرف الآخر ؟ .. ومع ذلك فقد رأيت أن الواحد منهم كان إذا تعرّف على من يواجهه ، كفّ كل منهما يده عن صاحبه وقابله بالاعتذار والندم .

إذن ، فإن هذه الفتنة لم تنبعث من رعونة هيمنت على نفوس الصحابة رضوان الله عليهم ، سواء أكانوا من هذا الطرف أو ذاك ، وإنما انبعثت من دخلاء مدسوسين ، كانوا يمكرون ، بلؤم ، بحقّ الصحابة كلهم ، دون أي تفريق بين طرف وآخر .

والعجيب ، بعد هذا ، أنك تقرأ كثيراً مما كتب عن هذه الفتنة ، فلا تجد شيئاً منها

ينبه إلى أصابع الفتنة هذه ويكشف عن دورها الخطير في كل هذا الذي قد حدث ؛ وإنما يتحدث الكل عن السطح الظاهري مفصولاً عن جذوره وعوامله ! .. يوسعون ضحايا هذه الفتنة هجوماً وتجريحاً ونقداً واتهاماً ، ولا يلتفتون بكلمة واحدة إلى صناع هذه الفتنة وحراسها والنافخين في نيرانها بدءاً من التخطيط لقتل عثمان وانتهاء بقتل علي رضي الله عنه ! ..

أليست الكتابة عن هذه الفتنة بهذا الأسلوب ، جزءاً لا يتجزء من الكيدة ذاتها ؟ ..

ثالثاً ـ يقيناً منا بإخلاص سيدنا عليّ كرم الله وجهه فيما يفعل ويذر ، وبأنه لا يتبع في شيء من ذلك هوى نفسه أو مصلحة شخصه ، ويقيناً منا بعلمه الغزير ، وبأنه كان المرجع والمستشار الأول لكلٍّ من الخلفاء الثلاثة الذين خلوا من قبله ، ونظراً إلى أنه قَبِل مبايعة الناس له بعد مقتل عثمان ، واعتبر مخالفة معاوية له وإصراره على ذلك بغياً ، وعامله بعد طول نقاش وحوار على أساس ذلك ـ فإننا نقرر ماقرره جمهور علماء المسلمين وأئمتهم من أن معاوية كان باغياً في خروجه على عليّ ، وأن علياً هو الخليفة الشرعي بعد عثمان .

غير أننا يجب أن لا ننسى أن الباغي مجتهد ومتأول ، وإذا جاز لصاحب الاجتهاد المقابل أن يحذره ثم ينذره ثم يقاتله ، فإنه لا يجوز لنا وقد انطوى العهد بما فيه أن نتخذ من انتقاص معاوية ديدناً وأن نقف منه ، دون أي فائدة مرجوة ، موقف الندّ من عدوه اللدود .

وحسبنا ، في مجال العقيدة ، أن نعلم طبقاً لما تقتضيه قواعد التشريع ، أن الخليفة بعد عثمان هو عليّ رضي الله عنه ؛ وأن معاوية ، كان يمثل في تمرده عليه طرف البغي ، ثم نَكِلُ الأمر فيما وراء ذلك إلى الله عزّ وجل .

رابعاً ـ لا يشك المتتبع لمواقف الخوارج ، وانقلابهم من أقصى درجات التأييد لعليّ والدفاع عنه ، إلى أقصى درجات التمرد عليه والتربص به والعدوان عليه ، أنهم إنما ذهبوا ضحية التطرف .

وقد علمت أن الإسلام إنما يقوم في عقائده وسلوكه على الوسطية . وإنما تفهم حدود الوسطية فيه بضوابط العلم وموازينه . فمن استقى العلم من مصادره ، واستكان إلى قواعده

ومقتضياته ، والنفس له الحلم والأناة ، عوفي من الانجراف إلى أي من طرفي الإفراط والتفريط .

وقد كان جلّ الخوارج من أجلاف البادية وقساة الأعراب ؛ فلم يكن لشيء من موازين العلم وما تستدعيه من تحلم وأناة ، من سبيل إلى عقولهم أو نفوسهم . فكان لا بدّ أن يستسلموا لرعوناتهم النفسية وجلافتهم الطبيعية . وقد تجلّى ذلك في تكفيرهم علياً رضي الله عنه بسبب قبوله للتحكيم ، وقد انبثق عن موقفهم هذا تكفيرهم الناس بارتكاب الكبائر ، بل ذهب كثير منهم إلى التكفير بارتكاب المعصية مهما كانت .

ولا تزال آثار هذا التطرف ممتدة إلى عصرنا هذا ، فهواية التكفير لأبسط الأسباب إنما تمثل عقلية التطرف هذه ؛ وهي - كما قلنا - عقلية ترفض العلم وتتمرد على قواعده وضوابطه .

فهرس

عنوان البحث	الصفحة
فاتحة الكتاب	٣
القسم الاول ـ مقدمات	٥
١ ـ اهمية السيرة النبوية تاريخا ودراسة ، وكيف تطورت كتابتها ، وكيف يجب فهمها اليوم	٧
٢ ـ محمد خاتم النبيين وعلاقة دعوته بالدعوات السماوية السابقة، وعلاقة الجاهلية بما كان فيها من بقايا الحنيفية .	٢٣
٣ ـ سر اختيار الجزيرة العربية مكانا لبعثة خاتم الانبياء محمد عليه الصلاة والسلام	٣٣
القسم الثاني ـ من مولده صلى الله عليه وسلم الى بعثته	٣٩
نسبه صلى الله عليه وسلم وولادته ورضاعته	٤١
العبر والمبادىء	٤٣
افضلية العرب على غيرهم	٤٣
لماذا نشا رسول الله يتيما ؟	٤٥
لماذا اخضرت الارض القاحلة فجاة ؟	٤٦
حادثة شق الصدر	٤٧
رحلته الى الشام ثم كدحه في سبيل الرزق	٤٨
المبادىء والعبر :	٥٠
اولا ـ قصة بحيرا	٥٠
ثانيا ـ اقباله على رعي الاغنام	٥١

عنوان البحث	الصفحة
ثالثا ـ حفظ الله له من الآثام	٥٣
تجارته بمال خديجة وزواجه منها	٥٤
المبادىء والعبر :	٥٥
اولا ـ فضل خديجة رضي الله عنها	٥٥
ثانيا ـ كلمة عن زواجه صلى الله عليه وسلم	٥٦
ثالثا ـ اهلية المراة في الجاهلية	٥٧
بناء الكعبة	٥٨
المبادىء والعبر :	٥٩
الامر الاول : بيان اهمية الكعبة وشرفها واسباب ذلك	٥٩
الامر الثاني : اطوار الكعبة من الهدم والبناء	٦٠
الامر الثالث : مدى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام في تدبير الامور	٦٣
الامر الرابع : مدى سمو منزلة محمد عليه الصلاة والسلام فينفوس قومه	٦٤
اختلاؤه في غار حراء	٦٤
العبر والمبادىء : اثر الاختلاء والعزلة في تربية النفس	٦٥
بدء الوحي	٦٧
الدلائل والعبر	٦٩
ما هي حقيقة الوحي ؟	٦٩
مجموع ما قيل في تفسير ظاهرة الوحي	٧٠
القسم الثالث ـ من البعثة الى الهجرة	٧٧
مقدمة	٧٩
الدعوة سرا	٨٠
الدلائل والعبر :	٨١
١ ـ وجه السرية في بدء دعوته عليه الصلاة والسلام	٨١
٢ ـ تحديد كيفية الدعوة داخل في باب السياسة الشرعية	٨١
٣ ـ لماذا كان المستضعفون هم اوائل الذين دخلوا في الاسلام	٨٣

عنوان البحث	الصفحة
٤ ـ اذن فالدعوة الاسلامية لم تكن من وحي البيئة العربية	٨٤
الجهر بالدعوة	**٨٥**
الدلائل والعبر :	٨٦
١ ـ مفاجاة قريش بالدعوة التي خرج عليهم بها رسول الله	٨٦
٢ ـ دعوة الاهل والاقربين ودرجات المسؤوليات	٨٧
٣ ـ حقيقة التقاليد وموقف الاسلام منها	٨٨
الايـــذاء	**٩١**
الدلائل والعبر :	٩٣
لماذا لم يعصم الله رسوله واصحابه من شدائد الايذاء ؟	٩٣
سلسلة من المفاوضات	**٩٦**
الدلائل والعبر :	٩٩
الدلالة الاولى : التعريف بحقيقة الدعوة التي قام بها محمد عليه الصلاة والسلام	٩٩
الدلالة الثانية : ضوابط الحكمة في ميزان الشريعة الاسلامية	١٠٠
الدلالة الثالثة : لماذا لم يستجب الرسول عليه الصلاة والسلام لما طلبوه من الخوارق	١٠٢
الحصـــار الاقتصـــادي	**١٠٣**
الدلائل والعبر :	١٠٥
أولا : تحليل هذه القطيعة وسر انحياز بني هاشم وبني المطلب الى المسلمين فيها	١٠٥
ثانيا : تحليل الفتح الاسلامي على انه ثورة يسار اقتصادي في ميزان هذه القطيعة	١٠٧
اول هجرة في الاسلام	**١١١**
الدلائل والعبر :	١١٣
الاولى : معنى الهجرة الى الحبشة	١١٣
الثانية : حقيقة العلاقة بين ما بعث به كل من عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام	١١٤

عنوان البحث	الصفحة
الثالثة : حكم دخول المسلم في حماية غير المسلمين	١١٥
اول وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم	**١١٥**
الدلائل والعبر :	١١٦
الاولى : ان الداعي او المجاهد ليس هو الذي يحقق لنفسه النصر	١١٦
الثانية : معنى الايمان الذي آمنه افراد هذا الوفد	١١٧
عام الحزن	**١١٨**
الدلائل والعبر :	١١٩
اولا ـ الحكمة من تعجل قضاء الله تعالى بوفاة خديجة وابي طالب	١١٩
ثانيا ـ العصمة لا تعني حفظه من الشدائد والمصائب	١٢٠
ثالثا ـ يتوهم بعض الناس ان سبب تسمية النبي لهذا العام عام الحزن، مجرد فقده لعمه وزوجه ، وهو خطا	١٢٠
هجرة الرسول الى الطائف	**١٢٢**
الدلائل والعبر :	١٢٤
اولا ـ كيف يعلم الرسول فن الصبر	١٢٤
هل كان في دعائه صلى الله عليه وسلم ضجر يتنافى مع الصبر ؟	١٢٤
ثانيا ـ في كل جلال جمال	١٢٦
ثالثا ـ الجن : وجودهم وضرورة الايمان بهم	١٢٦
رابعا ـ ما هو تاثير تلك الشدة والخيبة التي فوجىء بهما رسول الله على نفسه	١٢٩
معجزة الاسراء والمعراج	**١٣٠**
الدلائل والعبر :	١٣١
اولا ـ كلمة عن رسول الله والمعجزات	١٣١
ثانيا ـ موقع الاسراء والمعراج من الاحداث التي مر بها رسول الله انذاك	١٣٤
ثالثا ـ المعنى الملاحظ في الاسراء الى بيت المقدس	١٣٥
رابعا ـ هل كان الاسراء بالروح فقط ؟	١٣٥
خامسا ـ معراج ابن عباس	١٣٦

عنوان البحث	الصفحة
عرض الرسول نفسه على القبائل	**١٣٧**
بيعة العقبة الاولى	**١٣٩**
الدلائل والعبر :	١٤٠
اولا ـ التحول العجيب	١٤٠
ثانيا ـ لماذا ظهرت ثمار النصر خارج قريش ؟	١٤١
ثالثا ـ عوامل خفية وراء اسلام الانصار	١٤٢
رابعا ـ مسؤوليات الاسلام من خلال بيعة العقبة الاولى	١٤٣
خامسا ـ شمولية الدعوة وعموم مسؤوليتها	١٤٥
بيعة العقبة الثانية	**١٤٦**
الدلائل والعبر :	١٤٨
اولا ـ اهم مظاهر الفرق بين هاتين البيعتين	١٤٨
ثانيا ـ كلمة عن الجهاد ومشروعيته	١٥٠
إذن رسول الله لاصحابه بالهجرة الى المدينة	**١٥٣**
الدلائل والعبر :	١٥٤
اولا ـ فتنة مفارقة الوطن بعد فتنة الايذاء والتعذيب	١٥٤
ثانيا ـ وجوب الهجرة من دار الحرب الى دار الاسلام	١٥٥
ثالثا ـ دار الاسلام ودار الحرب	١٥٥
رابعا ـ وجوب تناصر المسلمين	١٥٦
خامسا ـ العقيدة والدين هما سياج الوطن والارض	١٥٦
هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم	**١٥٨**
قدوم قباء	**١٦٣**
صورة عن مقام النبي عليه الصلاة والسلام في بيت ابي ايوب	١٦٣
الدلائل والعبر :	١٦٤
اولا ـ مكانة ابي بكر عند رسول الله	١٦٤
ثانيا ـ سر الفرق بين هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهجرة عمر	١٦٥

عنوان البحث	الصفحة
ثالثا ـ مكانة علي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٦٦
رابعا ـ قيمة النشاط الحركي في الدعوة	١٦٦
خامسا ـ جملة خوارق تبرز في هجرته عليه الصلاة والسلام	١٦٧
سادسا ـ كيف استقبلت المدينة رسول الله ؟	١٦٨
سابعا ـ رسول الله في ضيافة ابي ايوب الانصاري	١٦٨
القسم الرابع ـ المجتمع الجديد	١٧١
الاساس الاول ـ بناء المسجد	١٧٣
الدلائل والعبر :	١٧٤
اولا ـ مدى اهمية المسجد في المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية	١٧٥
ثانيا ـ حكم التعامل مع من لم يبلغ سن الرشد	١٧٦
ثالثا ـ جواز نبش القبور الدارسة واتخاذ موضعها مسجدا	١٧٦
رابعا ـ حكم تشييد المساجد وزخرفتها	١٧٧
الاساس الثاني ـ الاخوة بين المسلمين	١٧٨
الدلائل والعبر :	١٧٩
اولا ـ مظاهر اهمية هذا الاساس الثاني	١٧٩
ثانيا ـ المعنى التفسير الذي صاحب شعار التآخي	١٨٠
الاساس الثالث ـ كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم	١٨١
الدلائل والعبر :	١٨٣
اولا ـ المعنى الدستوري في هذه الوثيقة	١٨٣
ثانيا ـ بعض مادلت عليه هذه الوثيقة	١٨٤
القسم الخامس ـ مرحلة الحرب الدفاعية	١٨٧
مقدمة	١٨٩
بدء القتال : اول غزوة غزاها رسول الله	١٨٩
غزوة بدر الكبرى	١٩٠
الدلائل والعبر :	١٩٣

عنوان البحث	الصفحة
١ ـ حكم اموال الحربيين وممتلكاتهم	١٩٣
٢ ـ ارادوا العسير واراد الله لهم النفير	١٩٣
٣ ـ خضوع حالات الغزو وما يتعلق بها لحكم الامامة	١٩٤
٤ ـ التزام الشورى وحكمها في حق الامام	١٩٤
٥ ـ الاستعانة في الجهاد بالعيون والرقباء	١٩٥
٦ ـ ليس كل تصرفات النبي تشريعا	١٩٦
٧ ـ اهمية التضرع الى الله في الحرب	١٩٦
٨ ـ الامداد بالملائكة في غزوة بدر	١٩٧
٩ ـ الحياة البرزخية للاموات	١٩٨
١٠ـ الاسرى ومشاورة الرسول بشانهم	١٩٨
بنو قينقاع واول خيانة من اليهود للمسلمين	٢٠١
الدلائل والعبر :	٢٠٣
١ ـ طبيعة الغدر عند اليهود	٢٠٣
٢ ـ لماذا احتجبت المراة عن اليهود	٢٠٣
٣ ـ معاملة المنافقين في الاسلام	٢٠٤
٤ ـ ولاية غير المسلمين	٢٠٦
غزوة احد	٢٠٨
الدلائل والعبر :	٢١٣
مرة اخرى مبدا الشورى	٢١٤
صورة اخرى لطبيعة النفاق	٢١٤
حكم الاستعانة بغير المسلمين في القتال	٢١٥
سر اندفاع الاطفال الى القتال	٢١٥
ابو دجانة وحكم التبختر في الحرب	٢١٦
لماذا انتصر المسلمون في احد ثم غلبوا ؟	٢١٧
ما الحكمة من شيوع مقتل رسول الله بين الناس ؟	٢١٨

عنوان البحث	الصفحة
صورة نادرة لمحبة الصحابة لرسول الله	٢١٩
شهيد المعركة لا يغسل ولا يصلى عليه	٢٢٠
عودة النصر لدى العودة الى حمراء الاسد	٢٢٠
يوم الرجيع وبئر معونة	٢٢٢
الدلائل والعبر :	٢٢٤
اشتراك المسلمين جميعا في مسؤولية الدعوة الى الله	٢٢٥
صورتان متناقضتان	٢٢٥
للاسير ان لا يستسلم ولو علم انه سيقتل	٢٢٦
كل ما امكن ان يكون معجزة لنبي يمكن ان يكون كرامة لولي	٢٢٦
الحكمة من تمكين يد الغدر من هؤلاء الفتية المؤمنين	٢٢٧
اجلاء بني النضير	٢٢٨
الدلائل والعبر :	٢٣٠
العصمة الخارقة	٢٣٠
حكم قطع اشجار العدو وتهديم بيوتهم	٢٣٠
حكم توزيع الفيء والغنائم	٢٣١
غزوة ذات الرقاع	٢٣٢
الدلائل والعبر	٢٣٥
تحقيق في تاريخ هذه الغزوة	٢٣٥
حكم صلاة الخوف والحكمة منها	٢٣٦
موقف رسول الله من الذي اخترط سيفه وهو نائم ليقتله	٢٣٧
صورة من لطف المعاشرة والذوق الرفيع لدى رسول الله	٢٣٨
حراسة الثغور لم تكن منفكة من عبادة الله	٢٣٩
غزوة بني المصطلق	٢٤٠
الدلائل والعبر :	٢٤٣
مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين	٢٤٣

عنوان البحث	الصفحة
حكم العزل عند الجماع او « تحديد النسل »	٢٤٣
سماحة رسول الله وصفحه	٢٤٦
غزوة الخندق	**٢٤٧**
الدلائل والعبر :	٢٥٤
لا حرج في استفادة المسلمين من اي عرف صالح وحكمة نافعة	٢٥٤
المساواة الحقيقية في مسلك رسول الله وتعليمه	٢٥٥
اعجوبة الرحمة في فؤاد رسول الله	٢٥٦
الحكمة من استشارة الانصار والقيمة التشريعية فيها	٢٥٨
كيف انتصر المسلمون :	٢٦٠
تجب قضاء الصلاة الفائتة مهما كان سبب فواتها	٢٦١
غزوة بني قريظة	**٢٦٣**
الدلائل والعبر :	٢٦٥
جواز قتال من نقض العهد	٢٦٥
جواز التحكيم في امور المسلمين ومهامهم	٢٦٥
مشروعية الاجتهاد في الفروع	٢٦٦
تأكد اليهود من نبوة محمد عليه الصلاة والسلام	٢٦٧
حكم القيام اكراما للقادم	٢٦٧
مزايا خاصة لسعد بن معاذ	٢٦٩
القسم السادس ـ الفتح : مقدماته ونتائجه	**٢٧١**
صلح الحديبية	**٢٧٣**
بيعة الرضوان	**٢٧٧**
الدلائل والعبر :	٢٧٨
كلمة وجيزة عن حكمة هذا الصلح	٢٧٨
الاستعانة بغير المسلمين فيما دون القتال	٢٨٢
طبيعة الشورى في الاسلام	٢٨٣

عنوان البحث	الصفحة
التوسل والتبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم	٢٨٤
حكم الوقوف على الانسان وهو قاعد	٢٨٤
مشروعية الهدنة بين المسلمين واعدائهم	٢٨٥
حكم الاحصار في العمرة والحج	٢٨٧
غزوة خيبر	٢٨٧
قدوم جعفر بن ابي طالب من الحبشة	٢٩٠
الدلائل والعبر :	٢٩٠
جواز الاغارة على من بلغتهم الدعوة	٢٩١
جواز اشراك غير المقاتلين في الغنيمة	٢٩١
مشروعية عقد المساقاة	٢٩٢
مشروعية تقبيل القادم والتزامه	٢٩٣
حرمة ربا الفضل في المطعومات	٢٩٤
سرايا الى القبائل .. وكتب الى الملوك	٢٩٦
الدلائل والعبر :	٢٩٩
الاسلام دين ارسل لكل البشر	٣٠١
هرقل آثر الملك على الحق	٣٠١
اتخاذ الخاتم واستحبابه	٣٠١
وسائل الدعوة والاعداد لها	٣٠٢
اصلاح المسلمين انفسهم اولا شرط لابد منه	٣٠٢
ما « الاريسيون » ؟	٣٠٣
غزوة مؤتة	٣٠٣
الدلائل والعبر :	٣٠٧
لفز لايحله الا اليقين المطلق بالله	٣٠٧
حكم الامارة المعلقة	٣٠٨
اذا غاب الامام فللامة اختيار امير مؤقت	٣٠٨
الوحي الالهي يخبر محمدا باستشهاد امرائه	٣٠٩

عنوان البحث	الصفحة
مكانة خالد بن الوليد عند رسول الله	٣٠٩
يسن لجيران الميت صنع طعام لاهله	٣١٠
فتح مكة	٣١٠
الدلائل والعبر :	٣١٩
مقدمة : عود على بدء	٣١٩
ما يتعلق بالهدنة ونقضها	٣٢٠
حاطب بن ابي بلتعة وما يتعلق بعمله	٣٢١
امر ابي سفيان وموقف رسول الله منه	٣٢٤
تاملات في كيفية دخوله صلى الله عليه وسلم مكة	٣٢٦
ما اختص به الحرم المكي من الاحكام	٣٢٨
تاملات فيما قام به صلى الله عليه وسلم من اعمال عند الكعبة	٣٣١
تاملات في خطابه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح	٣٣٤
بيعة النساء وما يتعلق بها من احكام	٣٣٦
هل فتحت مكة عنوة ام صلحا ؟	٣٣٧
غزوة حنين	٣٣٨
الدلائل والعبر :	٣٤٤
بث العيون بين الاعداء لمعرفة شانهم واخبارهم	٣٤٥
للامام ان يستعير اسلحة من المشركين	٣٤٥
جراته صلى الله عليه وسلم في الحرب	٣٤٦
خروج المراة للجهاد مع الرجال	٣٤٦
تحريم قتل النساء والاطفال والاجراء والعبيد في الجهاد	٣٤٧
حكم سلب القتيل	٣٤٨
الجهاد لايعني الحقد على الكافرين	٣٤٨
متى يتملك الجند الغنائم	٣٤٩
سياسة الاسلام نحو المؤلفة قلوبهم	٣٥٠
فضل الانصار ومدى محبة رسول الله لهم	٣٥٠
غزوة تبوك	٣٥١
امر المخلفين	٣٥٦
الدلائل والعبر :	٣٥٨
كلمة على هامش هذه الغزوة	٣٥٨
اهمية الجهاد بالمال	٣٦٠

عنوان البحث	الصفحة
كلمة عن حديث ابي بكر وما اختلقه البعض من زيادة فيه	٣٦١
المنافقون : طبيعتهم ومدى خطورتهم على الاسلام	٣٦٣
الجزية واهل الكتاب	٣٦٥
ضرورة الاعتبار عند رؤية المعالم والآثار	٣٦٥
سياسة المجاملة مع المنافقين والتشدد مع المؤمنين	٣٦٦
مسجد الضرار	**٣٦٨**
الدلائل والعبر	٣٧٠
وفد ثقيف ودخولهم الاسلام	**٣٧١**
الدلائل والعبر	٣٧٤
الطائف التي طردت رسول الله بالامس والتي اقبلت تؤمن به اليوم	٣٧٤
جواز انزال المشرك في المسجد	٣٧٦
احق الناس بالولاية	٣٧٧
وجوب هدم الاوثان	٣٧٧
بعوث رسول الله الى الناس لتعليمهم مبادىء الاسلام	**٣٧٩**
الدلائل والعبر :	٣٨٠
تبليغ الاسلام والدعوة اليه	٣٨٠
من آداب الدعوة الى الاسلام	٣٨٢
حجة الاسلام وخطبة الوداع	**٣٨٣**
الدلائل والعبر :	٣٨٦
تاريخ مشروعية الحج	٣٨٦
المعنى الكبير في حج الرسول عليه الصلاة والسلام	٣٨٦
تأملات في خطبة الوداع	٣٨٧
شكوى رسول الله ولحاقه بالرفيق الاعلى	**٣٩٣**
الدلائل والعبر :	٤٠١
لا مفاضلة في الاسلام الا بالكفاءة الذاتية والعمل الصالح	٤٠٢
مشروعية الرقية وشروطها	٤٠٣
مظاهر من فضل ابي بكر رضي الله عنه	٤٠٤
النهي عن اتخاذ القبور مساجد	٤٠٥
شعوره صلى الله عليه وسلم وهو يعاني سكرة الموت	٤٠٦
خاتمة في بعض صفاته صلى الله عليه وسلم وفضل زيارة مسجده وقبره	٤٠٨
الفهرس	٤١٣

عنوان البحث	الصفحة
موجز من تاريخ الخلافة الراشدة	٤١٣
خلافة ابي بكر الصديق	٤١٥
اهم ما قام به في مدة خلافته	٤١٥
وفاة ابي بكر رضي الله عنه	٤١٩
عهده بالخلافة الى عمر	٤١٩
على اي اساس اصبح عمر خليفة	٤٢٠
كتاب العهد الى عمر	٤٢١
العبر والعظات	٤٢٢
خلافة عمر بن الخطاب	٤٢٥
طاعون عمواس	٤٢٧
مقتل عمر رضي الله عنه	٤٢٨
استخلاف عمر لواحد من اهل الشورى	٤٢٩
كيف تم اختيار عثمان	٤٣٠
العبر والعظات	٤٣٢
عثمان بن عفان	٤٣٥
سياسة عثمان في اختيار الولاة والاعوان وما نشا عن ذلك	٤٣٦
اول الفتنة ومقتل عثمان	٤٤٠
مبايعة علي والبحث عن قتلة عثمان	٤٤٣
العبر والعظات	٤٤٤

عنوان البحث	الصفحة
خلافة علي رضي الله عنه	٤٤٧
الثار لعثمان ووقعة الجمل	٤٤٧
امر معاوية ووقعة صفين	٤٥١
امر الخوارج ومقتل علي رضي الله عنه	٤٥٦
العبر والعظات	٤٥٩


Damascus University